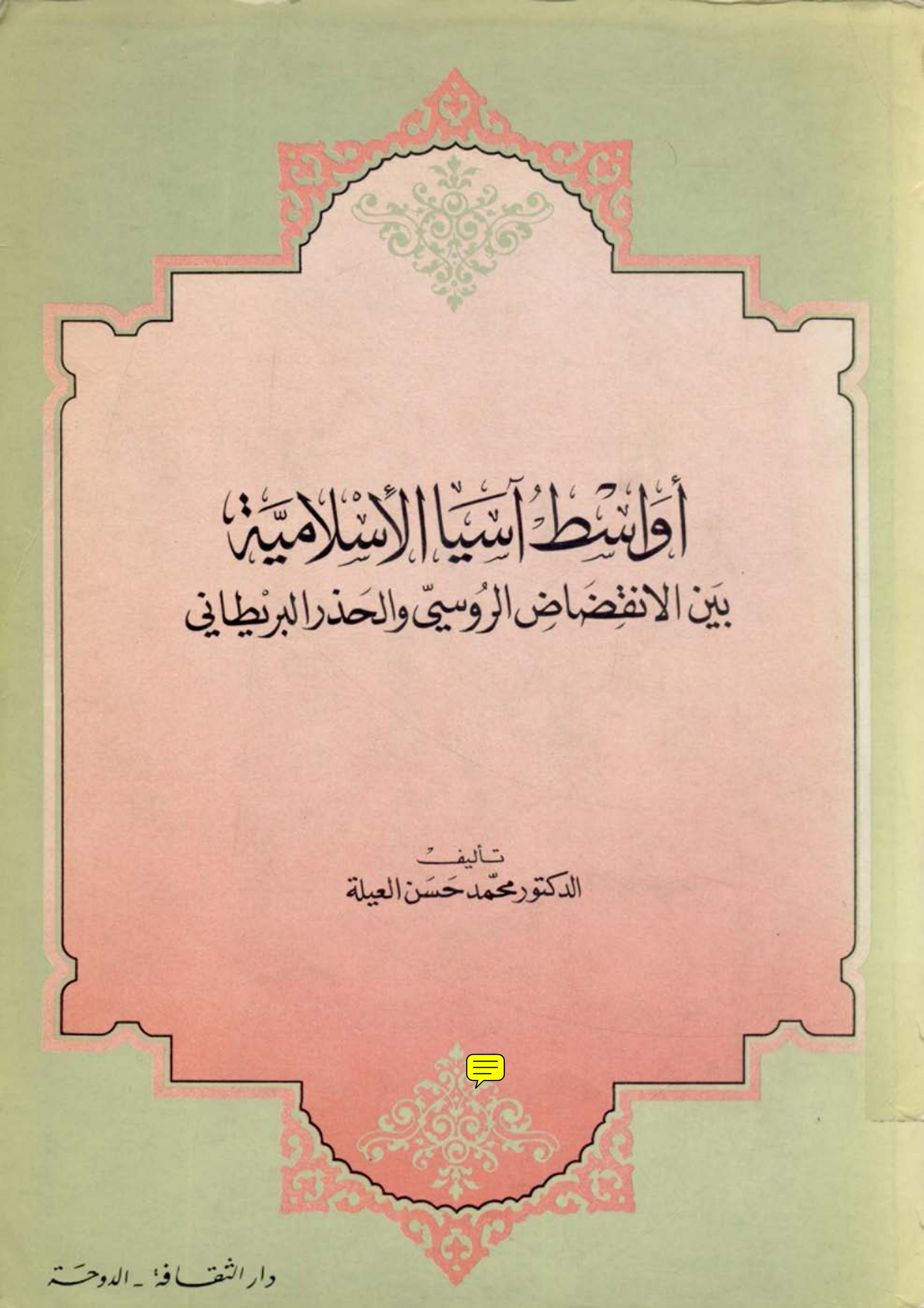


أواسط آسيا الإسلاميّة

بين الانقضاض الروسيّ والحذر البريطاني

تأليف

الدكتور محمّد حسَن العيلة

دار الثقافة - الدوحة

أواسط آسيا الإسلامية

بين الانقضاض الروسي والحذر البريطاني

تأليف
الدكتور محمد حسن العيلة

نشر وتوزيع
دار الثقافة - الدوحة - ص.ب ٣٢٣

الطبعة الأولى

١٤٠٦هـ - ١٩٨٦م

رقم الايداع بدار الكتب القطرية

١٩٨٦/٥٤

دار الثقافة - الدوحة - ص.ب ٣٢٣

أواسط آسيا الإسلامية

بين الانفضاض الروسي والحذر البريطاني

الإهداء

إلى والديّ تقديراً ووفاءً



مُقدِّمَــة البَحْــث

لا تزال الدراسات المتعلقة بتاريخ آسيا الحديث شبه مفقودة في مكتبتنا العربية رغم أهمية الأحداث التي كانت تجري في هذه المنطقة وصلتها بما جرى من أحداث في منطقتنا العربية خاصة خلال القرن التاسع عشر والقرن الحالي، ذلك أن القوى المؤثرة في تفجير الأحداث ــ هنا وهناك ــ قد تكون في بعض الأحيان واحدة، ومن ثم يكون لها النتاج مترابطاً.

ويعد هذا البحث أول دراسة عربية وثائقية في هذا المجال، إذ يتناول بحث فترة هامة من مراحل الصراع الاستعماري الروسي البريطاني في القارة الآسيوية، كما يبرز وسائل روسيا للسيطرة على المنطقة الإسلامية وصبغها بالصبغة الروسية، هذا فضلاً عن أنه يظهر محاولات تحديد الحدود الروسية مع إيران وأفغانستان والتبت. وأخيراً يتناول العلاقات الدولية، خاصة تلك التي ساعدت على قيام الوفاق الروسي البريطاني.

فلقد شهد النصف الثاني من القرن التاسع عشر زحفاً استعمارياً روسياً وبريطانياً نحو وسط آسيا الإسلامية وأرجعت كل دولة منهما دوافع غزوها إلى أسباب حضارية وإنسانية، وتميز الزحف الروسي بالسرعة، إذ كانت تجد روسيا في هذه المنطقة النجاح الذي افتقدته في القارة الأوروبية، فبسطت سيطرتها على خانات (إمارات) خوقند وبخاري وخيوه، والأراضي التركمانية حتى امتد في ثمانينيات القرن التاسع عشر إلى القرب من الأراضي الأفغانية. ولم تكتف روسيا بما أحرزته من انتصار وسيطرة، بل أخذت ترنو بأنظارها نحو الأراضي الأفغانية ــ الإيرانية بعد أن دعمت من قوتها العسكرية في منطقة وسط آسيا الإسلامية عن طريق إنشاء خطوط السكك الحديدية والقواعد العسكرية.

ولقد أثار ذلك ريبة بريطانيا التي دفعت بنفوذها إلى السند والبنجاب

ووجدت في النشاط الروسي خطة لتقويض سيطرتها وهيمنتها على الهند، فحاولت الحد من الزحف الروسي عن طريق الاتصالات مع روسيا لتحديد نفوذ كل منهما في وسط آسيا الإسلامية. ولم تقتصر الدولتان على هذا الأسلوب الهادىء، بل لجأتا في بعض الأحيان إلى المناورة والتهديد بالقوة خاصة عندما اقترب الروس من حدود أفغانستان وهند وكوش. ولم تدفع الدولتان الأمور بينهما إلى درجة التأزم لإدراك كل منهما بامكانياتها وقدراتها، بل ولقناعتها بعدم جدوى محاربة الأخرى في وسط آسيا، ولذلك أخذتا في العمل على حل المشكلات التي ظهرت لهما في الأراضي الإيرانية والأفغانية والبامير.

وفي أواخر القرن التاسع عشر وأوائل القرن الحالي، لجأت الدول الأوروبية إلى تعزيز ثقلها السياسي والاستراتيجي عن طريق التحالفات ونقلت خلافاتها إلى خارج قارتها. ووجدت بريطانيا في هذه المناطق الملتهبة بالصراع خاصة في الشرق الأقصى صعوبة الحفاظ على مصالحها، ولذلك قررت الخروج من سياسة العزلة التي تتبعها، فاتجهت إلى ألمانيا. ولكن الاعتبارات السياسية والبحرية لكل منهما حالت دون ذلك، فتحولت بريطانيا إلى اليابان وعقدت معها وفاق عام ١٩٠٢.

ولقد وجدت فيه روسيا مصدر قلق لها خاصة وأن هناك تنافساً استعمارياً بينهما في الصين وكوريا. وحينما فشلت المفاوضات بينهما في الوصول إلى اتفاق، إشتعلت الحرب الروسية اليابانية والتي أدت إلى هزيمة روسيا هزيمة منكرة تركت أثارها على الأوضاع الداخلية والسياسية الروسية.

ولم تضع معاهدة بورتسموث حداً للتنافس الروسي الياباني في الشرق الأقصى في وقت شعرت فيه فرنسا بوجود خطر يهدد مصالحها في المنطقة ــ ونعني به اليابان ــ خاصة بعد انتصارها على روسيا.

وحينما تقدمت اليابان بطلب المال الفرنسي، تحركت فرنسا سريعاً لتحقيق مصالحها في الشرق الأقصى ولمساعدة حليفتها روسيا عن طريق إحداث تغيير في موقف اليابان المتشدد. ولقد تم لها ذلك في الوفاق الفرنسي الياباني (يونيو ١٩٠٧) والوفاق الروسي الياباني (يوليو ١٩٠٧). ولقد ساعد الوفاق الأخير على تمهيد الطريق أمام الوفاق الروسي البريطاني (أغسطس ١٩٠٧).

كما أن النشاط الألماني في الشرق الأوسط من العوامل التي ساعدت أيضاً على عقد الوفاق. يضاف إلى ذلك مؤتمر الجزيرة ودعم كل من روسيا وبريطانيا لحليفتهما فرنسا. وتطرق الوفاق الروسي البريطاني إلى الخلاف الروسي البريطاني في إيران وأفغانستان والتبت.

ولقد قسم هذا البحث إلى ثمانية فصول، تناول **الفصل الأول** الأطماع الروسية في وسط آسيا الإسلامية ودوافع سيطرتها على الخانات الأزبكية الثلاث (خيوه ـــ بخاري ـــ خوقند)، وموقف بريطانيا من التوسع الروسي في كل واحدة من الإمارات الثلاث السابقة.

وتطرق **الفصل الثاني** إلى الزحف الروسي على الأراضي التركمانية والأساليب التي اتبعتها روسيا في هذا الصدد للسيطرة على المنطقة، وموقف بريطانيا من السياسة الروسية نحو المنطقة التركمانية، ثم الصراع الروسي البريطاني للسيطرة على (مرو) التركمانية وأهميتها في استراتيجية كل منها وأخيراً محاولة صبغ روسيا المنطقة الإسلامية بالصبغة الروسية.

أما **الفصل الثالث** فيتعلق بالمشكلة الأفغانية والتورط البريطاني في أفغانستان. فقد بدأت بريطانيا ترتاب من التقدم الروسي في الأراضي الأفغانية. وكانت في ذلك الوقت تفضل حل المشكلة بالطرق السياسية، ولذلك لم تكترث بنداءات الأمير الأفغاني، كما يوضح كيف حاولت روسيا أن تستغل الهوة بين أفغانستان والهند البريطانية لارساء علاقات ودية مع أفغانستان ومحاولة الحكومة البريطانية بزعامة المستر دزرائيلي لإحداث تغيير جذري في السياسة البريطانية في المجال الدولي، خاصة الآسيوية منها وبالتحديد أفغانستان ثم أثر الحرب الروسية التركية على الوضع في وسط آسيا، ومحاولة الأطراف العثمانية والهندية والروسية استغلال الأزمة السابقة لكسب بعض المواقف السياسية، وقد أدى هذا إلى ازدياد حدة الخلاف بين حكومة الهند البريطانية وأفغانستان الأمر الذي أدى إلى وقوع الحرب الأفغانية الثانية (١٨٧٨-١٨٨١).

ويعالج **الفصل الرابع** مشكلة الحدود الروسية الأفغانية، فقد حاولت

بريطانيا أن تحد من الزحف الروسي نحو الدولة الحاجزة Buffer State (أفغانستان)، عن طريق الاتصال بروسيا لوضع حد فاصل بين نفوذها ونفوذ روسيا. وفي نفس الوقت الحد السياسي والجغرافي لأفغانستان، وما تبع ذلك من اتصالات واتفاقات وما تخللها من مناورات عسكرية حتى تم تخطيط الحدود.

و يشير **الفصل الخامس** إلى الصراع الروسي البريطاني في البامير ومحاولة كل طرف تأكيد وجوده السياسي والعسكري، كما يتطرق إلى مشاريع السكك الحديدية التي حاولت روسيا إنشاءها لربط قواعدها في البامير بشاطىء بحر قزوين.

أما **الفصل السادس** فيتناول موقف بريطانيا من النشاط الروسي في شمال شرقي إيران خاصة مشكلة الحدود الروسية الإيرانية، وأثر الامتيازات التي منحتها إيران لبريطانيا على الوضع في الشمال الشرقي من إيران. ومن أهم تلك الامتيازات امتياز رويتر والملاحة في نهر قارون والدخان.

و يتطرق **الفصل السابع** إلى الظروف الممهدة للوفاق الروسي البريطاني خاصة العلاقات الدولية التي ساعدت على الوفاق، و يشير الفصل إلى هذا الموضوع من جهات ثلاث: الصراع في الشرق الأقصى وقيام الوفاق البريطاني الياباني ثم إلى الحرب الروسية اليابانية وأثارها على روسيا في الداخل والخارج، والعلاقة الروسية اليابانية بعد معاهدة بروتسموث، ثم التحرك الفرنسي لعقد الوفاق مع اليابان مقدمة للوفاق الروسي الياباني الذي ساعد على تمهيد الطريق أمام الوفاق الروسي البريطاني. ثم إلى التوغل الألماني في منطقة الشرق الأوسط وآسيا الصغرى وأثره على التقارب بين روسيا وبريطانيا. وأخيراً العلاقات الروسية البريطانية والتي بدأت منذ عام ١٨٨٨ والصعوبات التي اعترضتها حتى تم الوفاق في أغسطس عام ١٩٠٧.

وتناول **الفصل الثامن والأخير** دراسة الوفاق الروسي البريطاني نفسه والعلاقة الروسية البريطانية في إيران وأفغانستان والتبت، والتي توجت بالوفاق. ثم ردود الفعل التي أحدثها الوفاق في الأوساط الأوروبية وأفغانستان وايران.

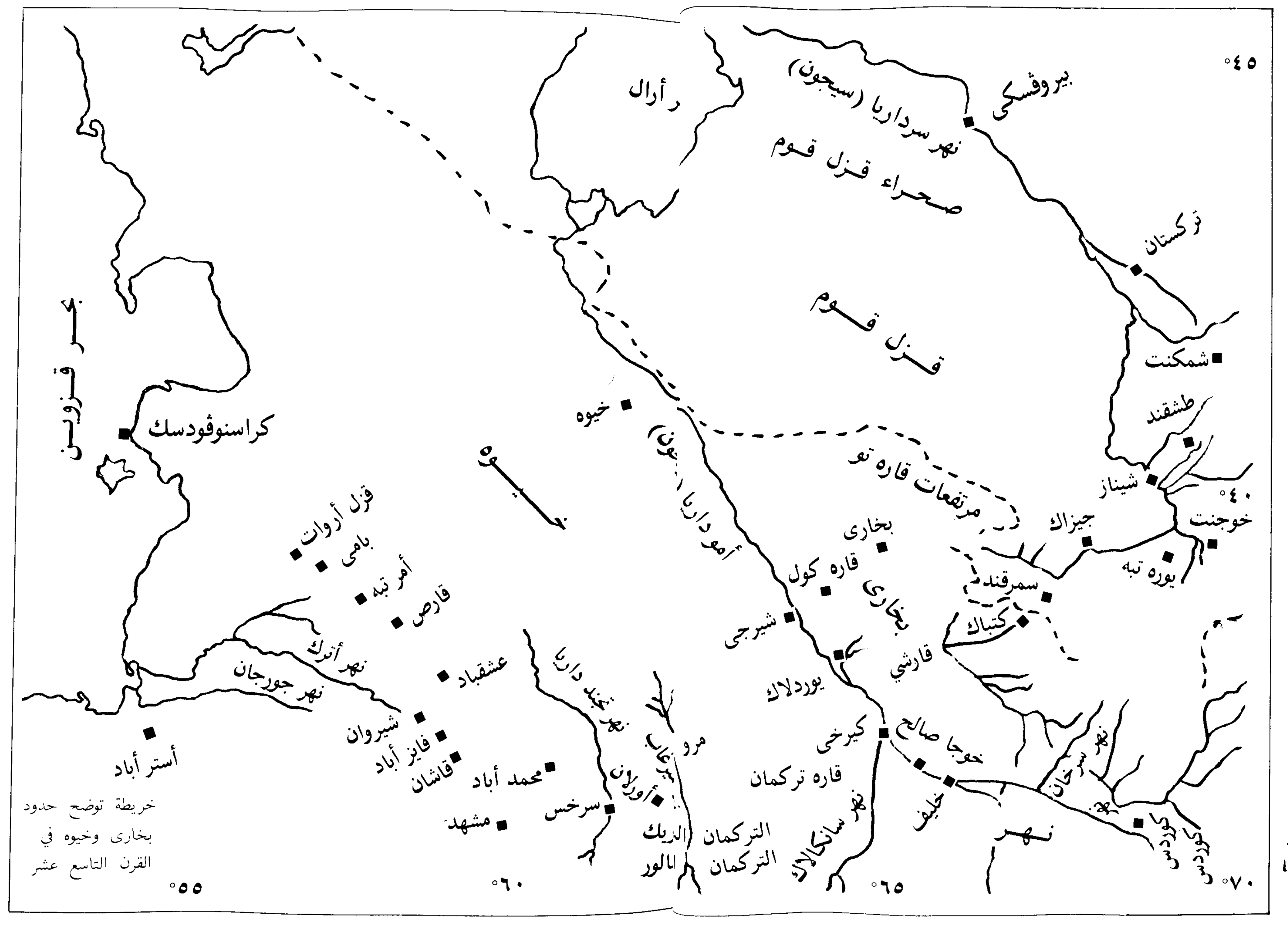
ولم تكن الدراسة والبحث في هذه المنطقة البعيدة عن اهتماماتنا سهلة

وميسورة، فقد يصعب في أحيان كثيرة الفصل بين الإنسان والمكان، فمئات الأسماء الإيرانية والتركية المتشابهة والمتكررة في مناطق مختلفة قد تفقد الباحث في البداية القدرة على الربط أو التمييز بين الأسماء البشرية والجغرافية. كما أن المنطقة تفتقد التقارير الواضحة ذلك أن بعض الأمراء قد حرموا دخول أراضيهم على الأوروبيين وأن بريطانيا وروسيا كانتا تنظران بارتياب لمجرد اقتراب أحد مواطني الدولة الأخرى لمناطق نفوذها، وكانت ترى فيه بادرة لتأليب سكان المناطق الخاضعة تحت سيطرتها، يضاف إلى ذلك ما كان عالقاً في الفكر الأوروبي عن بربرية سكان وسط آسيا الإسلامية، ولذلك اقتصرت المعلومات عن هٰذه المنطقة على بعض الرحالة أمثال ألكسندر بيرنس A. Burnes والضابط فوريث Foryth وقلة غيرهم.

ولقد وضح هذا عندما قام أعضاء البعثة الروسية البريطانية لتخطيط الحدود الروسية الأفغانية ومناطق النفوذ في البامير، فوجدوا بأن ما لديهم من المعلومات غير دقيقة.

وإلى جانب ذلك فإن المؤلفات التي تتعلق بوسط آسيا تعتبر قليلة إذا ما قورنت بمناطق أخرى في العالم. وهذا بدوره وضع ثقل البحث على الوثائق التي تغطي معظم فصوله. ولولا هذه الوثائق لما أمكن لهذا البحث أن يخرج بهذا المحتوى.

والله ولي التوفيق



خريطة وسط آسيا

تمهيد

وَسَط آسَيا الإسلاميّة
التحديد الجغرافي والسّكاني
والقوى المؤثّرة فيها

يمكن القول بأن وسط آسيا عموماً شبه منحرف يحده من الجنوب جبال الهملايا ومن الجنوب الغربي هضبة البامير، ومن الغرب جبال التاي وبابلونوي وستانوفوي ومن الشرق جبال كنجان. وتبلغ مساحتها ٦ ملايين كم٢ تقريباً(١) .

وتنحصر المنطقة الإسلامية في المساحات الكبيرة الواقعة ما بين بحر قزوين وجبال هندوكوش والتاي. وتغلب عليها حشائش الأستبس وبالتالي السهول وتنتشر فيها بعض الأودية وتحدها سلسلة جبلية مثل تيان شان والتاي. ومن أهم الأنهار التي تسير فيها نهر سيحون وجيحون وأترك والميرغاب، ومع ذلك فإن المنطقة تعيش فترتين من الجفاف: الأولى في قلب الصيف والثانية في منتصف الشتاء حيث تنخفض درجة الحرارة إلى أقل من الصفر(٢) وتنتشر في المنطقة الإسلامية زراعة القطن والحبوب وتربية دودة القز والأغنام والماشية والخيول(٣) .

ويسكن هذه المنطقة عدة جماعات وفيما يلي سنلقي الضوء على أهم القبائل التي سكنت أو لا تزال تسكن المنطقة الإسلامية من وسط آسيا، سواء تلك التي لعبت أدواراً رئيسية أو بسيطة في الفترة التي يتناولها البحث، ورأينا أن نلقي نظرة تاريخية سريعة على تلك القبائل في هذا التمهيد.

---

(١) بارتولد: تاريخ الترك في آسيا الوسطى. ترجمة أحمد السعيد سليمان ــ مكتبة الانجلو المصرية ١٩٥٨ ص ٢.

(٢) د. جمال حمدان: أنماط من البيئات. عالم الكتاب. القاهرة ص ٥٨.

(٣) تعتبر المنطقة الإسلامية الآن من المناطق الغنية بالمعادن، فقد اكتشف فيها بعد السيطرة الروسية لها الفحم والحديد والفاناديوم والزنك والرصاص والقصدير والذهب والبوكسيت إلى جانب أهميتها الزراعية والحيوانية أنظر:

د. ابراهيم أحمد رزقانة: الجغرافية السياسية. دار النهضة العربية، القاهرة، الطبعة الثالثة ١٩٦٦. ص ١٩.

القازاق أو القرغيز: [١]

و يسكنون في المنطقة الممتدة من بحر قزو ين حتى جبال تيان شان، وتتصف حياتهم بالبداوة والترحال، وكانت القبيلة هي الاطار السياسي والاجتماعي الذي يعيش في داخله الفرد. وفي بداية القرن الثامن عشر انقسم القازاق إلى ثلاث عشائر:

العشيرة الكبرى: وتسكن الجزء الغربي والشرقي من السهوب القرغيزية:

العشيرة الصغرى: وتنتشر في الجزء الشمالي والغربي من المنطقة.

العشيرة الوسطى: وتقيم في الوسط.

ولقد عاش القازاق في حروب قبلية الأمر الذي أتاح الفرصة لتدخل روسيا بينهم، فقدمت العشيرة الصغرى الولاء للروس عام ١٧٣١، وأقامت روسيا القلاع الحربية في منطقتها وعمدت إلى كسب ود بعض القبائل إلى جانبها عن طريق تعميق الخلافات القبلية بين تلك القبائل حتى تشعر الضعيفة منها بأنها في حاجة ماسة إلى الدعم الروسي. وكانت روسيا ترسل ضباطها إلى القبائل التي تكسب ودها، و بذلك فتحت لنفسها ثغرة للتوغل بين القبائل القرغيزية شيئاً فشيئاً [٢].

والقبائل بصفة عامة إذا ما استشعرت في نفسها ضعفاً تعمل إلى الاعتماد على قوة كبيرة مجاورة لها مثل روسيا على أمل الاستفادة منها، ولكنها كانت في نفس الوقت تعمل على المحافظة على استقلالها الذي يصبح أمراً متعذراً في مثل هذه الحالات ولا يلبث الصدام أن يقع بين القبيلة وروسيا. وقد حدث هذا تماماً فيما بين ١٧٨٣-١٧٩٧ حينما لجأت بعض القبائل إلى الثورة ضد الوجود الروسي

---

(١) القازاق أو القرغيز كلمة روسية تعني الفرسان أو ركاب الخيل. أنظر:
د. جمال حمدان: أنماط من البيئات ص ٦٠.
وكان القرغيز ينتشرون جنوبي نهر «برصو» شرقي نهر «سيحون» وقد تمكنت قبائل القلمق من دفعهم إلى مرتفعات تيان شان. وسيطر القازاق على المنطقة خلال القرنين السابع عشر والثامن عشر واندمجوا معهم عسكرياً واجتماعياً و يطلق بعض المؤلفين عليهم اسم القرغيز مثل Popowski في حين تذكر دائرة المعارف البريطانية اسم القرغيز والقازاق في نفس الوقت أما القرغيز الذين ذهبوا إلى مرتفعات تيان شان فيطلق عليهم اسم قره قرغيز بمعنى الفرسان السمر.

(٢) Popowski, Joseph: The Rival Powers in Central Asia or the Struggle Between England and Russia in the East. Translated from the German by Aruther Baring Brahant and Edited by Charles E. Blank. London 1893. P. 36-37.

وإبعاده عن أراضيها، ولم تركز روسيا جهودها العسكرية في أول الأمر ضد تلك القبائل إلا بعد القضاء على الخطر الفرنسي في بداية القرن التاسع عشر إذ شرعت في بناء القلاع الحربية ودفعت بالفلاحين الأوكرانيين والروس للاستقرار وللزراعة في المنطقة. ولقد أدى هذا العمل إلى سلسلة من الانتفاضات من قبل القازاق، وكان من أكبرها تلك التي قامت بها «العشيرة الوسطى» ولكن تمكنت روسيا من السيطرة عليها عام ١٨٤٩.

وقسمت روسيا الإقليم إلى أربعة أقسام إدارية وأعطت القازاق الحكم الذاتي ومع بداية القرن العشرين اجتاحت أراضي القرغيز أو القازاق حركات ثورية كانت تطالب بالتحرر، واضطرت روسيا إلى إنشاء برلمان خاص بهم عام ١٩٠٥[١].

القلمق Kalmyk:

و ينتشرون في المنطقة الواقعة بين نهر الفولجا وأنهار أمبا Emba وأور Or وأرال، وقد امتدت سيادتهم السياسية حتى التبت، وتمكنت روسيا من التوغل في المنطقة بعد الغزوات المغولية التي تعرضت لها، مستغلة النزاعات القبلية التي كانت مشتعلة فيها، ونجحت في بسط سيطرتها عليها في بداية القرن الثامن عشر وتركت لهم حرية المعيشة طبقاً لقوانينهم الإجتماعية والإدارية ولكن القلمق ثاروا ضد تدخل السلطات الروسية في أمورهم الداخلية إلى جانب ظلم وفساد الموظفين الروس. فتراجعت القبائل التي تعيش شمال وشرق الفولجا إلى الصين، وقد فشلت روسيا في إجبارهم على الاستمرار تحت سيطرتها فلجأت إلى ضرب القازاق بالقلمق على اعتبار أن ذلك يضعف الجانبين مما يسهل لروسيا السيطرة عليهما. ومن تبقى من القلق فقد استقر في الحوض الأدنى لنهر الفولجا[٢].

التركمان Turkoman:

التركمان[٣] مجموعة من القبائل مغولية الأصل كانت تنتشر جنوبي خيوه في

---

(١) Encyclopedia Britainica: Vol. 13 Prinited in U.S.A. 1970, P. 259.

(٢) Ibid. P. 196.

(٣) أنظر الدراسة التفصيلية عنهم في الفصل الثاني.

المنطقة الممتدة من بحر قزوين حتى الحدود الإيرانية الشرقية. ولم يتمكن التركمان من إقامة دولة خاصة بهم، ليس معنى ذلك أن القبائل التركمانية كانت تتمتع بوحدة سياسية وعسكرية بل كانت تقتتل فيها بينها. ومع ذلك فقد أفلحوا كثيراً في الاحتفاظ باستقلالهم تجاه الدول المحيطة بهم، بل كم من مرة ألحقوا الهزائم بالجيوش التي أرسلت لقتالهم بسبب غاراتهم واعتراضهم للقوافل التجارية التي تسير عبر أراضيهم، ومن أهم القبائل التركمانية(١):

قبيلة شودور Chaudors وتسكن شمال الأرض التركمانية ما بين بحر قزوين وشمالي خيوه جنوب صحراء أوست أورت Ost Urt (٢).

قبيلة كوكلن Goklans وتعيش جنوب القبيلة السابقة على شواطىء نهر جورجان Goorgan (٣).

قبيلة الياموت Yomuds وتنتشر في المنطقة الممتدة من الحدود الإيرانية الشرقية حتى بحر قزوين مع بعض الجذر الداخلية من البحر(٤).

قبيلة إرساري Erszari وكانت تقيم على الشاطىء الأيسر لنهر جيحون من شارجي Charjui إلى خوجا صالح Khojah Saleh (٥).

قبيلة تكه Téké (٦) وهي من أكبر وأقوى القبائل التركمانية وتنقسم إلى قسمين الأول ويسكن حول مدينة مرو والثاني ينتشر شمال شرق قوران داغ Kurran Dagh الواقعة في المنطقة التركمانية(٧).

الأزبك:

كان نفوذ الأزبك يمتد ما بين الحوض الأدنى لنهر الفولجا حتى بحر أرال،

---

(١) كان تعداد القبائل التركمانية في مختلف المصادر التاريخية يتراوح ما بين ٢١-٢٥ قبيلة. أنظر دائرة المعارف الإسلامية. الأزهر ـ ١٩٣٦ المجلد الخامس ص ٢١٢-٢١٩.

(٢) أنظر الخريطة ص ١٢-١٣.

(٣) أنظر الفصل السادس ص ٢٣٢.

(٤) أنظر الفصل السادس ص ٢٣١.

(٥) أنظر الفصل الرابع ص ١٨٠.

(٦) أنظر الفصل الثاني ص ٧٥.

(٧) F.O. 539/12 No. Robert Michell to India Office Dated. July 19, 1874. P. 146.

وفي القرن السادس عشر امتد نفوذ الأزبك بقيادة «شيباني خان» إلى بخاري وسمرقند وطشقند، وأصبحت مدينة سمرقند عاصمة الأزبك وفي السنين التالية تركز نفوذ الأزبك في خانات بخاري وخيوه وخوقند.

ونظراً لأهمية العلاقات بين الأزبك والروس ا سابقة مباشرة على الفترة التي نعالجها يجدر بنا أن نلقي نظرة على أوضاعهم الداخلية خاصة عند وقوع الغزو الروسي لهم، ونظراً لأن الأزبك قد توزعوا إلى عدة خانات سنلقي نظرة على أهم هذه الخانات وهي:

خانة خيوه:

وتقع عند المجرى الأسفل لنهر جيحون وتتمتع بمركز تجاري كبير في وسط آسيا ولقد نجح الشاه اسماعيل الصفوي الإيراني في ضمها إلى إيران ١٥١٠. وخلال القرن السادس عشر نجحت بخاري في السيطرة عليها مرتين. الأولى سنة ١٥٣٨ والثانية ١٥٩٣. وفي القرن السابع عشر استعادت خيوه مكانتها وقوتها في المنطقة ودخلت في تحالف مع القبائل التركمانية ضد قبائل القرغيز.

وفي القرن الثامن عشر سادت خيوه حالة من عدم الاستقرار السياسي فانتشرت الفوضى في جميع أجزائها وتفرقت قوتها العسكرية ــ الأمر الذي سهل مهمة «نادر شاه» في السيطرة عليها ١٧٤٠. وبعد وفاة نادر شاه تفككت أمبراطوريته واستعادت خيوه استقلالها، ومع ذلك فلم تنعم بالهدوء والاستقرار فقد تعرضت لغارات عنيفة من قبل التركمان وخاصة عشائر الياموت حتى أشرفت على الدمار سنة ١٧٧٠. ونجح أحد أمراء خيوه و يدعى «محمد أمين» في تخليص خيوه من التركمان وأعاد لها سابق إزدهارها النسبي.

ودخلت في بداية القرن التاسع عشر في حرب مع بخاري وبذل «محمد رحيم» خان خيوه (١٨٠٦-١٨٢٥) مجهودات مضنية في الدفاع عن إمارته. وبعد أن وطد الأمن والاستقرار فيها قام بعمليات مد خلالها نفوذه في اتجاه بحر أرال وسيطر على مدينة مرو. وبلغت خيوه أقصى اتساعها في عصر «عهد الله قلي» ١٨٢٥-١٨٤٢ وبعد وفاته اشتعلت الحرب من جديد مع بخاري والتركمان، وظلت خيوه تعيش في حالة عدم استقرار إلى أن وقع الغزو الروسي لها سنة ١٨٧٣ [١].

(١) وسندرس هذا الموضوع بالتفصيل بعد قليل.

بخارى:

وهي الخانة الأزبكية الثانية، وقد كانت تتمتع بمكانة تجارية وعلمية منذ الفتح الإسلامي لها وفي القرن الخامس عشر أصبحت تحت سيطرة الأزبك وتمكن الأمير «عبد العزيز» ١٦٤٥-١٦٨٠ من التخلص من السلطة الأزبكية في سمرقند وكون إمارة مستقلة لنفسه ولكن الأمراء من بعده عجزوا عن الاحتفاظ بوحدة الإمارة فوقعت تحت نفوذ «نادر شاه» الإيراني، ولم تستعد بخارى استقلالها إلا بعد وفاته.

أسس «محمد رحيم» ١٧٥٦-١٧٥٩ [(١)] دعائم أسرة بني مغيث في بخارى وأخذت بخارى في القرن التاسع عشر تسترد مكانتها في ميدان العلوم الإسلامية وخاصة في عهد الأمير مراد وخليفته حيدر «١٨٠٠-١٨٢٦» وقد تمكن نصرالله خان «١٨٢٧-١٨٦٠» من توطيد دعائم أسرته في مواجهة منافسيه من أشراف الأزبك ونجح في السيطرة على إمارة خوقند ١٨٤٢، ولكنه لم يستطع الاحتفاظ بفتوحاته، وفي عهد خليفته مظفّر الدين خان «١٨٦٠-١٨٨٥» تجدد النزاع مع خوقند وسنوضح هذا فيما بعد.

خوقند:

هي الإمارة الأزبكية الثالثة وقد تتابعت كل من خيوه وبخارى في السيطرة عليها ولم تتمتع بحريتها إلا في فترات قليلة، وقد اشتعلت المنافسة بينها وبين بخارى في الفترة الواقعة ما بين ١٨٥٨-١٨٦٦ [(٢)].

موقف روسيا من الخانات الأزبكية:

كانت هناك علاقات تجارية بين روسيا والخانات الإسلامية الثلاث حيث كانت روسيا دوقية، ولم تنم تلك العلاقات إلا بعد تقلد بطرس الأكبر «١٦٨١-١٧٢٢» السلطة في روسيا والذي أدرك الأهمية الاستراتيجية والتجارية للمنطقة الأزبكية باعتبارها المنفذ الوحيد إلى وسط آسيا من جهة الشمال

---

(١) شخصية أخرى غير محمد رحيم «١٨٠٦-١٨٢٥» حاكم خيوه.

(٢) دائرة المعارف الإسلامية. المجلد الثالث ص ٤١١.

والطريق التجاري إلى أفغانستان والهند، ومن ثم احتلت المنطقة الأزبكية درجة هامة في برنامجه التوسعي، فأرسل الأمير جاجارين في بعثة استكشافية إلى وسط آسيا. وبعث الأمير تقريراً إلى القيصر الروسي أكد فيه وجود كميات كبيرة من الذهب في «يارقند» شرقي بخارى مما أدى إلى تقوية عزم بطرس الأكبر في الزحف نحو وسط آسيا وأخذ يتحين الفرصة المواتية، ووجد ضالته المنشودة حينما استنجد «نيازخان» حاكم خيوه بروسيا حيث كان متورطاً في حروب قبلية. وبالرغم من مشاغل روسيا في حروب ضد السويد والدولة العثمانية، فقد قرر بطرس الأكبر انتهاز الفرصة وأرسل في سنة ١٧١٧ قوة كبيرة إلى خان خيوه وكان قائدها يحمل التعليمات بالعمل على إقناع حكام خيوه وبخارى على استمرار وجود بعض الكتائب الروسية تكون بمثابة حرس مسلح لهما. ومن الواضح أن هدف روسيا من وراء ذلك هو أن تجد لنفسها موطىء قدم لها في هذه المواقع الأمامية تمكنها من مواصلة تنفيذ سياستها التوسعية في المنطقة وكما سبق- أن ذكرنا فإن أهالي خيوه كانوا يريدون فقط مجرد الحصول على المساعدة الروسية ليس إلا، فلما استقرت الأمور في الإمارة ووجد الأمير أن الروس ينوون السيطرة على بلاده وقعت الحرب بين الطرفين وانتصر الأمير على الروس انتصاراً كبيراً وقتل قائد القوة الروسية نفسه[١]. ولقد أعطت هذه الحادثة ثقة للأمير في قوته.

ومن ناحية أخرى آثر بطرس الأكبر أن تقوم علاقات وطيدة بين بلاده وخيوه فأرسل إليها سفاره واستقبلها الأمير استقبالاً طيباً، ولكنها لم تعط نتيجة ذات أهمية. وبعد وفاة بطرس الأكبر استمرت روسيا في إرسال سفارات إلى خيوه خلال القرن التاسع عشر ولكنها لم تحقق الآمال التي كانت تتوقعها روسيا من ورائها [٢]. ولذلك ستتحول روسيا إلى الأسلوب العسكري في النصف الثاني من القرن التاسع عشر.

---

(١) محمد حسن العيلة: الحرب الأفغانية الأولى ١٨٣٨-١٨٤٢ صفحة من تاريخ الاستعمار البريطاني في آسيا. رسالة ماجستير أجيزت بكلية الآداب جامعة عين شمس. يوليو ١٩٧١ ـــ ص ٤٢.

(٢) Boulgar, Demetrius Charles: England and Russia in Central Asia London: W. Allen & Co. 2. Vols. 1879. Vol. 1. P. 149.

القوى المؤثرة في وسط آسيا الإسلامية:

١ ـ الدولة العثمانية:

تحولت تلك الإمارة التركية الصغيرة[١] بفعل عوامل ذاتية وروحية وعسكرية وسياسية إلى إمبراطورية شاسعة الأرجاء انتشرت في قارات أوروبا وآسيا وأفريقيا.

وكانت أوروبا في تلك الفترة تعيش مرحلة بلورة أطرها السياسية والقومية بل والحضارية أيضاً على أنقاض الإمبراطورية الرومانية المقدسة، وفشلت أكبر القوى في ذلك الوقت الإمبراطورية البيزنطية ـ في مواجهة الغزو العثماني، بل اجتاحت الجيوش العثمانية عاصمتها، وتوغلت إلى داخل القارة الأوروبية حتى أصبحت على مقربة من مشارف فينا.

وبدوافع الدين ولأهداف سياسية زحف العثمانيون إلى المنطقة العربية من الخليج العربي حتى الجزائر وأصبح السلطان العثماني يمثل أكبر القوى الإسلامية التي تحرص على حماية المسلمين ومقدساتهم ومن ثم بدأت أنظار المسلمين تتطلع إلى القسطنطينية كقلعة إسلامية قوية تحميهم من بطش القوى الغربية (الكفار).

واستغل الأتراك هذا الوضع للحفاظ على امتيازهم الطبقي، فأغلقوا سبل الاتصال بالغرب كطريق لحماية المسلمين. وكان أمراء المناطق النائية التي لم تشملها السيطرة العثمانية (وسط آسيا الإسلامية) ينظرون إلى الدولة العثمانية نظرة تقدير واحترام فكانوا يستقبلون رسل السلطان العثماني بكل ترحاب، وكان البعض منهم يرسل في طلب المساعدة العثمانية إذا ما تورط في حروب قبلية أو محلية و وفي بعض الأحيان كان بعضهم يطلب وساطة السلطان العثماني لفض النزاع الذي ينشب بينه وبين خصومه.

وخلال القرن السابع عشر والثامن عشر، وبعد هذا الأوج السياسي والحربي الذي بلغته الدولة العثمانية، بدأت هذه الدولة تتعرض بفعل عوامل داخلية وخارجية للضعف حتى أصبحت تمثل الفريسة التي تكالبت عليها الدول الأوروبية. وكانت روسيا أشد تلك القوى عداوة لها، فقد أرادت أن تحقق

---

(١) نجح عثمان بن أرطغرل في تأسيس الإمارة العثمانية شمال غربي الأناضول في أواخر القرن الثامن عشر.

طموحاتها الاستعمارية ــ أسوة بالدول الأوروبية ــ في المنطقة الإسلامية لأنها المجال الوحيد الذي تستطيع فيه تحقيق تلك الطموحات. ففرضت على الدولة العثمانية حروباً عديدة واضطرت الدولة العثمانية إلى خوض تلك الحروب حفاظاً على سيادتها ووحدة ترابها وكانت الأحلام الروسية تتركز في تحويل البحر الأسود إلى بحيرة روسية والسيطرة على المضائق وأن يكون لها صوتاً مسموعاً في البلقان.

وهذا يناقض الاستراتيجية البريطانية التي تقوم على الحفاظ على الدولة العثمانية لا اقتسامها. وقد أدى هذا التناقض بين المصالح الأوروبية في الدولة العثمانية إلى خلق عديد من الأزمات كانت أشدها أزمة البلقان التي تفجرت عام ١٨٧٥. فقد توغلت القوات الروسية إلى القرب من العاصمة العثمانية، وتوقع وزير خارجية روسيا أن تنهار الدولة العثمانية من تلقاء نفسها. وتحركت بريطانيا سريعاً لمواجهة المخطط الروسي ولإنقاذ الدولة العثمانية بعد معاهدة سان ستيفانو. وقد أعطى مؤتمر برلين الحياة للدولة العثمانية التي ظلت تترنح حتى الحرب العالمية الأولى.

حاولت الدولة العثمانية خلال تعرضها للهجمة الأوروبية مقاومة الأطماع الإستعمارية بواسطة طرق عدة منها:

١ ــ إكساب جيشها النظم الحديثة من حيث التدريب والتسليح والتنظيم كي يتمكن من فرض سلطة السلطان المركزية على مختلف الولايات التي حاولت الإنفصال عن الدولة العثمانية (مصر والعراق ــ وليبيا ــ اليمن).

٢ ــ القيام بالإصلاحات الإدارية والدستورية لإعطاء المواطن العثماني بصرف النظر عن ديانته ــ حقوقه الشخصية والإجتماعية، كي تقنع الدول الأوروبية باتجاهها التقدمي ومن ثم الحد من صرخات التعصب التي كانت ترتفع في العواصم الأوروبية. والتي كانت في أحيانٍ كثيرة تستغل كستار لتدخل بعض الدول الأوروبية في الشئون الداخلية للدولة العثمانية.

٣ ــ تقوية الرباط الديني بين المسلمين، فظهرت فكرة الجامعة الإسلامية كطريق لحماية المسلمين من تيار الغزو الأوروبي، بصرف النظر عن الأهداف الشخصية التي كانت تدفع السلطان العثماني لتبني تلك الفكرة.

٤ ــ حينما اشتدت وطأة الغزوات الروسية على الدولة العثمانية، اتبع السلاطين خطة سياسية تقوم أساساً على إثارة أمراء وسط آسيا الإسلامية ضد روسيا وبذلك يصبح لزاماً على روسيا مواجهة المسلمين في جبهتين الأولى من قبل الدولة العثمانية والثانية من منطقة وسط آسيا الإسلامية.

وفي أحيان كثيرة كانت بريطانيا تستغل مكانة السلطان العثماني الروحية بين المسلمين لأغراضها السياسية في وسط آسيا الإسلامية. فحينما أشارت التقارير البريطانية إلى احتمال قيام علاقات بين روسيا وخيوه وبخارى حاولت بريطانيا عن طريق رسل السلطان العثماني أن تحرض كل من خان خيوه وبخارى على روسيا.

وحينما اشتعلت أزمة البلقان حاول الحاكم العام للهند عن طريق بعثة عثمانية أن يحث الأمير الأفغاني على الابتعاد عن التعاون مع روسيا.

ولكن التحرك العثماني في وسط آسيا الإسلامية لم يتعد (الموعظة) فكانت رسائل السلطان العثماني تفتقد الأسلوب الواضح الذي يحدد لكل طرف دوره ومسئوليته سواء كان ذلك الطرف السلطان العثماني، أو أمراء المنطقة. فكانت حماسة إمارات وسط آسيا وقتية تتلاشى بعد انتهاء مقابلة الرسول العثماني مع الأمير.

كما أن الدولة العثمانية كانت مرتبطة في تحركها السياسي (الروحي) ارتباطاً وثيقاً ببريطانيا، وكانت نظرة أمراء وسط آسيا الإسلامية إلى بريطانيا أنها لا تختلف كثيراً عن روسيا، فهي أيضاً احتلت أراضي إسلامية ومارست العنف ضد المسلمين مما أضعف حماسة الأمراء في تجاوبهم مع الدعوة العثمانية، إلى جانب أن الدولة العثمانية لم تستجب لصرخات الأستنجاد التي كان يطلقها أمراء وسط آسيا إبان التهديد الروسي لهم.

يضاف إلى ذلك سرعة التحرك الروسي في المنطقة الإسلامية فور شعورهم بالتحرك العثماني كل هذا أدى إلى فشل محاولة الدولة العثمانية في خلق تكتل إسلامي في منطقة وسط آسيا الإسلامية للتأثير على الاستراتيجية الروسية العسكرية

سواء كان ذلك في وسط آسيا أو في البلقان. إلا أن هذا لم يضعف نظرة أمراء المنطقة الإسلامية إلى الدولة العثمانية باعتبارها زعيمة العالم الإسلامي.

٢ ــ إيران:

يرتبط تاريخ إيران الحديث بالدولة الصفوية التي استغلت الظروف السياسية السيئة التي كانت تعيشها منطقة وسط آسيا فمدت حدودها من العراق غرباً إلى السند شرقاً ولم تعش الدولة الصفوية طويلا هذا المجد السياسي والعسكري، بعد أن تولى زمام أمورها ملوك ضعاف خاصة في الفترة التي أعقبت وفاة الشاه عباس الكبير (١٥٨٧-١٦٢٩) فبدأت الشعوب الخاضعة تحت السيطرة الإيرانية في الثورة ضدها والانفصال عنها، بل ودفعت روح الفوضى والتمرد إلى داخل إيران نفسها.

وفي ظل هذه الأوضاع المتردية سيطر القاجاريون (١٧٥٨-١٩١٢) على عرش ــ إيران. ولم ترجع إيران خلال حكم الأسرة القاجارية إلى سابق مجدها السياسي والعسكري، بل عاشت الإستبداد خلال حكمهم، فكان الشاه القاجاري مطلق السلطات وكلمته هي العليا بالرغم مما أقاموه من مجالس إستشارية ووزارات.

ومما يزيد الظلم القاجاري على الإيرانيين الامتيازات القنصلية المعروفة باسم كابيتيولاسيون التي كان يتمتع بها الراعايا الأجانب، حيث كانت توجب على الحكومة الإيرانية في حالة ارتكاب أحد هؤلاء الرعايا جريمة أو شكوى أحد الإيرانيين ضده أن تجري محاكمته في محاكم ملحقة بوزارة الخارجية الإيرانية بحضور مراقبين قنصليين عن قنصلية أو مفوضية بلاده، ويحاكم طبقاً لقانون بلاده، وليس للعرف الإيراني.

وحينما ازداد التدخل الأجنبي في إيران، أصبحت المحاكم القنصلية فيها شبيهة بالمحاكم القنصلية التي كانت موجودة في مصر بكل ممارساتها وسطوتها على المواطنين [١].

---

(١) طلال المجذوب: الحركة الدستورية في إيران: رسالة ماجستير أجيزت بكلية الآداب ١٩٧٠ جامعة عين شمس ص ٣-٩.

وكان الجيش الإيراني بسبب جموده وعدم تطور تدريبه وتسليحه عاجزاً عن مقاومة الغزو الروسي الذي بدأ يجتاح الأراضي الإيرانية، وفقدت إيران جزءاً من أراضيها خلال الحروب التي قامت بينها وبين روسيا في أواخر القرن الثامن عشر وأوائل القرن التاسع عشر واضطرت إيران إلى عقد معاهدات مع روسيا تنازلت بمقتضاها عن مساحات واسعة من أراضيها في الشمال والشمال الشرقي، ومن أهم تلك المعاهدات كلستان (١٨١١) وتركمنجاي (١٨٢٨).

ولم تقتصر روسيا على استعراض سطوتها العسكرية على إيران، بل دفعت بمندوبيها للتوغل في مختلف الدوائر الإيرانية، وبدأوا يمارسون ضغطاً كي يوجهوا السياسة الإيرانية إلى المجرى الذي تحدده بلادهم (روسيا) حتى أصبح النفوذ الروسي هو المسيطر على جميع الدوائر الإيرانية، وكانت القنصلية الروسية في طهران لا تختلف كثيراً عن القنصلية البريطانية في مصر خلال عهد الإحتلال البريطاني.

ولم تكن هناك حدود واضحة بين إيران وروسيا، وكان الشاه الإيراني يخشى أن يواصل الروس سياستهم في الأجزاء الشمالية والشمالية الشرقية والتي تستهدف السيطرة على تلك المناطق فطلب تحديد الحدود الروسية الإيرانية، إلا أن الأطماع الروسية كانت ترمي إلى السيطرة على الأراضي التركمانية في تلك الجهة استكمالا للمخطط الروسي الذي يهدف إلى بسط النفوذ الروسي على المنطقة التركمانية.

ومن ناحية أخرى، فقد حاولت بريطانيا تحجيم النشاط الروسي في إيران حتى لا يهدد المصالح البريطانية في الخليج العربي أو مواصلات بريطانيا في المنطقة (حسب تصور السلطات البريطانية) وبذلك وقعت إيران في حلبة تنافس الدولتين العظميين في آسيا، واستمر التنافس وما يعنيه من إلحاق الضرر بمصالح الإيرانيين طوال النصف الثاني من القرن التاسع عشر وأوائل القرن العشرين، حتى توصلتا إلى اتفاق ١٩٠٧ فيما بينهما والذي يحدد أطماع كل منهما في إيران وأفغانستان والتبت.

٣ ــ أفغانستان:

بعد أن أرسى أحمد شاه «١٧٤٧-١٧٧٣» دعائم أول إمارة أفغانية في التاريخ

الحديث، تعرضت هذه الإمارة بعد وفاته إلى أخطار داخلية مثل النزاع على العرش بين أبنائه وأخطار خارجية مثل غزوات السيخ وتدخل بريطانيا في الصراع الداخلي تنفيذاً لاستراتيجيتها الهادفة إلى جعل أفغانستان دولة حاجزة ضد التوغل الروسي.

وحينما فشلت بريطانيا في تحقيق هدفها بالطرق السلمية لجأت إلى الأسلوب العسكري وكان ذلك في الحرب الأفغانية الأولى «١٨٣٨-١٨٤٢». وبالرغم من قناعات بريطانيا بعد هذه الحرب في ترك أفغانستان بعيدة عن مجال التدخل العسكري المباشر إلا أنها كانت تتحرك سريعاً إذا شعرت بأن خطراً يهدد وجودها في الهند، كما حدث أثناء وقوفها في وجه الإعتداءات الإيرانية على حيرات ١٨٥٥-١٨٥٧.

وفي سبعينيات القرن التاسع عشر وقعت أفغانستان في دائرة التسابق والتنافس بين الدولتين الأعظم في وسط آسيا. ولما شعرت بريطانيا بأنها فشلت في التحكم في سياسة أفغانستان شنت الحرب الأفغانية الثانية ١٨٧٨-١٨٨١[١].

٤ ــ الهند البريطانية:

كان محور السياسة البريطانية طوال القرن التاسع عشر في جعل أفغانستان الدولة الحاجزة للهند البريطانية. وقد اختلف البريطانيون في تنفيذ هذه السياسة فكان البعض يرى في الوجود العسكري البريطاني الطريق الوحيد لتحقيقها، ولكن الحرب الأفغانية الأولى ١٨٣٨-١٨٤٢ أدت إلى تخلي بريطانيا عن تبني مثل هذا الاقتراح الأمر الذي رجح كفة الاقتراح الآخر والذي كان يطالب بتقوية بريطانيا في الهند ومراقبة ما يجري من خلف حدودها.

وتنفيذاً لهذا الاقتراح لجأت بريطانيا إلى مد نفوذها على أقليم السند ١٨٤٣ والبنجاب ١٨٤٩ بهدف الوصول إلى حدود طبيعية لها. وعلى ذلك فقد أصبحت الهند تجاور مباشرة أفغانستان [٢].

واعتقد السياسة البريطانيون بأنه من الممكن تحقيق سيطرتهم السياسية على

(١) أنظر الفصل الثالث ص ١٣٧.

(٢) Dodwell, H.: The Cambridge History of India Vol. VI. India. 1958. P. 405.

أفغانستان عن طريق إقامة المشاعر الودية وعدم التدخل في الشئون الداخلية الأفغانية ومع ذلك فلم تتحسن العلاقة الأفغانية البريطانية وخاصة أن عدم الثقة بالبريطانيين مازالت حية في بعض النفوس الأفغانية منذ الحرب الأفغانية الأولى. ولكن بريطانيا أخذت تنظر بقلق لنشاط إيران العسكري في الأراضي الأفغانية وما تردد على اقترانه بالتحالف الروسي الإيراني، فقامت بريطانيا باتصالات مع دست محمد وكان من نتيجتها المعاهدة التي وقعت في ٣٠ مارس ١٨٥٥ والتي بمقتضاها تعهدت الحكومة الهندية بعدم التدخل في الأراضي الأفغانية، وفي المقابل وافق دست محمد على أن يكون عدواً لأعداء بريطانيا صديقاً لأصدقائها .

كان دست محمد يقصد من وراء هذه المعاهدة أن يضمن مساعدة بريطانيا له، ولكن بريطانيا في ذلك الوقت كانت مشغولة في الحرب مع روسيا في القرم. وتخشى أن تقيم لنفسها موطىء قدم في أفغانستان أن تفتح الباب أمام روسيا التي ستطالب بمزايا مقابلة للنفوذ البريطاني. وبذلك ستقرب الخطر الروسي من حدودها الشمالية.

كان الموقف البريطاني هذا نتيجة لإحساس بريطانيا بأن الخطر الروسي مازال بعيداً عنها، وحينما أدركت التهديد الذي يكمن وراء النشاط الإيراني في الأراضي الأفغانية والقوى التي تسانده وعلى وجه الخصوص روسيا دفعت قواتها إلى الحدود الأفغانية الهندية وأرسلت المال والسلاح للأمير الأفغاني (١). وكان هذا بمثابة تمهيد الطريق أمام معاهدة جديدة مع أفغانستان سنة ١٨٥٧ وإعلان الحرب على إيران.

معاهدة ١٨٥٧:

عقدت هذه المعاهدة بين بريطانيا وأفغانستان في بشاور في ٢٦ يناير سنة ١٨٥٧ وتعهدت فيها حكومة الهند بدفع عشرة آلاف جنيه استرليني شهرياً للأمير خلال فترة الحرب مع إيران على أن تظل قواته ثابتة لا تزيد على ١٨ ألف تكون

(١) Singhal. O.P.: India and Afghanistan. (1876-1900). Australia. 1963.

منها ١٣ ألف نظامية فقط. ترسل حكومة الهند ضباطاً إلى كابول وقندهار وبلخ أو إلى مكان توجد فيه حرب مع إيران للاضطلاع على الأحداث العسكرية ومراقبة نفقات الأمير الحربية. على أن تقتصر مهمتهم على الناحية العسكرية وليس من حقهم التدخل في الشئون الداخلية لأفغانستان واشترطت المساعدة المالية البريطانية باستمرار الحرب الأفغانية الإيرانية بل أعطت لنفسها حق وقف تلك المساعدات وقت ما يحلو لها.

أرسلت بريطانيا مساعدات مالية عاجلة قدرها ٥٠ ألف جنيه استرليني يخصص منها ٣٠-ألف للإنفاق على استحكامات قندهار و ٢٠-ألف لتحصينات كابول، والواضح من هذه الإتفاقية أن حكومة الهند اشترطت بقاء تعداد القوات الأفغانية على ١٨-ألف، وليس من المستبعد أن حكومة الهند كانت تخشى من زيادة الأمير لقواته حتى لا يشكل خطراً إذا ما وقع تحت إغراء إحدى القوى والتأثير عليه للقيام بتهديد بريطانيا في وقت كانت فيه ملامح التذمر تبدو في أفق الهند قبيل انفجار ثورة ١٨٥٧. وكانت بريطانيا في هذه المعاهدة مطلقة اليدين فلم تلزم نفسها بالتزامات محددة فواجبها كان يقتضي دفع الأموال في حالة ظهور أي تهديد وكانت تحدد وتشرف على نفقات الأمير، فالمناطق القريبة من حدودها أكثر سخاءاً للعطاء من الأخرى، وقد رأينا ذلك في قندهار وكابول. وظل دست محمد مخلصاً لسياسته الودية نحو بريطانيا خلال ثورة ١٨٥٧ بالرغم من محاولات روسيا للضغط عليه.

و يبدو أن حرب القرم وما أظهرته من ضعف الموقف الروسي أقنع الإيرانيين بخطأ اعتمادهم على الروس مما سهل مهمة الاتصالات الإيرانية البريطانية التي توجت بمعاهدة باريس ٤ مارس ١٨٥٧، وتعهدت فيها إيران بالعمل على سحب قواتها من أفغانستان والرجوع إلى بريطانيا في حالة الخلاف مع أفغانستان للتحكيم بينهما، وعدم طرد القناصل الإنجليز من موانىء بحر قزوين. وفي المقابل تبذل حكومة الهند جهودها لإحلال السلم مع أفغانستان (١). ولكن معاهدة باريس لم ترجع حيرات إلى أفغانستان الأمر الذي أدى إلى إثارة سخط الأمير الذي بدأ يعتمد على جهوده في سبيل استرجاع أراضيه المفقودة. و يرجع الموقف البريطاني إلا أن

---

(١) Singhal. O.P.: India and Afghanistan. (1876-1900). Australia P. 7.

بريطانيا بدأت بعد انهيار أمبراطورية المغول وانفجار ثورة ١٨٥٧ تتخذ من الأراضي الهندية منطلقاً أمبراطورياً سواء في الشرق أو الشمال أو الجنوب وأدى هذا إلى خلق مشاكل عديدة لها سواء في البامير أو أفغانستان وإيران أو بورما والصين.

٥ ـ الصين:

ظلت الصين حتى أوائل القرن التاسع عشر بعيدة عن أطماع القوى الاستعمارية الغربية، بل إنها مدت سيادتها السياسية إلى أجزاء من أراضي القلمق بما فيها التبت. وخلال النصف الثاني من القرن الثامن عشر بدأت التجارة الغربية تتدفق على الأسواق الصينية ولكنها لم تحتل الكفة الراجحة في ميدان الصين التجاري.

وفي ثلاثينيات القرن التاسع عشر بدأت موازين التجارة الغربية مع الصين تتجه بسرعة لصالح هذه الدول خاصة بعد أن احتلت تجارة الأفيون مكانة هامة في توجيه الميدان التجاري في جانب الانجليز بصفة خاصة. وعندما حاولت حكومة الصين إلغاء هذه التجارة غير المشروعة والضارة لم تتورع انجلترا بالذات عن استخدام الأسلوب العسكري، وفرضت على الصين معاهدة نانكنج Nanking في ٢٩ أغسطس ١٨٤٢ وقد تنازلت الصين بمقتضاها عن جزيرة هونج كونج لبريطانيا [١]. ولكن تجددت حرب الأفيون ثانية وفي تلك الأثناء اشتعلت ثورة التايبنج Taiping [٢]. وانتهزت روسيا تلك الأحداث فطالبت الصين بالتنازل عن الأراضي التي تقع شمال نهر عمور وشرق إيسوري Ussuri، وأقرت معاهدة تيان تسن Tien Tisn بمعظم المطالب الروسية [٣]. كما استغلت كل من روسيا وبريطانيا اندلاع ثورة المسلمين في التركستان الصينية ١٨٦٢. فأرسلت بريطانيا

---

(١) Hinsely, F.H.: The New Cambridge Modern History Cambridge Press. 1967. V.X. P. 685-7.

(٢) اشتعلت ثورة التايبنج حوالي ١٨٣٤ ضد الفساد السياسي والاجتماعي وتزعم تلك الثورة هونج Hung واجتاحت الأجزاء الغربية من الصين واقتربت من العاصمة بكين وكانت في البداية قد اتخذت الطابع الديني ثم تحولت بعد ذلك إلى الطابع السياسي والاجتماعي. أنظر المرجع السابق ص ٦٠٧.

(٣) المرجع السابق ٧٠٥.

المستر فوريث Foryth إلى قشغر لأهداف تجارية وسياسية. وفي نفس الوقت سيطرت روسيا على قلجا Kuldja ١٨٧١ ولكن روسيا أعادت تلك المقاطعة إلى الصين بعد أن أصبحت الأوضاع بين الدولتين على حافة الحرب عام ١٨٨١ (١). وعقد الطرفان معاهدة في سنت بطرسبرج في ٢٤ فبراير ١٨٨١ وقد وافقت الصين على دفع تعويضات لروسيا في مقابل إخلائها للأراضي الواقعة ما بين الليوى وقشغر بما فيها الممرات الموجودة في المنطقة (٢).

٦ ــ روسيا:

كان نشاط روسيا الإستعماري محدداً في أوربا الشرقية والبلقان والدولة العثمانية وبسبب وقوف الدول الأوروبية بالمرصاد لها إلى جانب عدم استقرار أوضاعها الداخلية. فكان وسط آسيا هو المجال الأكثر ملاءمة الذي تستطيع أن تجد لها متنفساً فيها وتنطلق في مجال الاستعمار الذي كان طابع العصر حينذاك. ولذلك نشطت بالتوسع في بلاد القازاق والباشقير Bashkirs (٣) كما أرسلت البعثات إلى الخانات الأزبكية في وسط آسيا الإسلامية.

إندفاع روسيا بعد حرب القرم إلى الشرق:

وحتى حرب القرم ١٨٥٤-١٨٥٦ كان معظم الاهتمام الروسي منصباً على القارة الأوروبية والدولة العثمانية، ولكن وقوف الدول الأوروبية في وجهها خلال تلك الحرب دفعها إلى أن تلقي بمعظم ثقلها على وسط آسيا الإسلامية وكان ما يشجعها في ذلك التفكك السياسي الذي كانت تعيشه المنطقة.

هذا فضلا عن وجود القواعد الأمامية الروسية للانطلاق العسكري من مناطق سيبيريا وأورنبرج Orenburg (٤) وكراسنوفودسك Krasnovodsk.

---

(١) المرجع السابق ص ٧٠٧.

(٢) المرجع السابق جزء ١١ ص ٤٤٧.

(٣) الباشقير عشائر تنتشر على جانبي الطرف الجنوبي من مرتفعات آرال. وقد أقامت روسيا عدة مدن في هذه الجهة وشكلت من مجموعها مقاطعة آرال وكان مركزها مدينة أوف Ufa أنظر:

Popowski, Joseph: The Rival Powers in Central Asia P:30

(٤) تتكون قاعدة سيبيريا من مجموع القلاع الحربية الروسية في المنطقة وأما قاعدة أورنبرج فتتكون من القلاع التي تمتد من الزيلك Ilezek على نهر آرال حتى Zvernigolovskaia Stanitza على نهر توبال Tobal.

ونظراً لما لهذه القواعد من أهمية خاصة في نجاح التوسع الروسي في البلاد الإسلامية في وسط آسيا يجدر بنا أن نلقي ضوءاً عليها.

فمن قاعدة سيبيريا توسعت روسيا في أراضي الباشقير جنوبي مرتفعات آرال. ومن قاعدة أورنبرج كان التقدم الروسي بطيئاً نظراً لصعوبة المواصلات في ذلك الوقت،- وللمقاومة التي أبداها الأزبك والتركمان، ولذلك بدأت في تأسيس القواعد الحربية لها على شاطىء بحر قزوين لدعم نشاطها السياسي والعسكري وكانت أولى القواعد التي أنشأتها روسيا في هذه الجهة قاعدة كراسنوفودسك ١٨٦٩ على شاطىء الشرقي لبحر قزوين، وكان الهدف منها دعم التوسع الروسي في أراضي خيوة والقبائل التركمانية كما سنرى في الفصل الثاني.

أما الأراضي التي تقع بين قاعدتي سيبيريا وأورنبرج [١] والتي يسكنها القرغيز والقلمق، فقد عمدت روسيا كما رأينا إلى كسب هذه القبائل إلى جانبها عن طريق الدبلوماسية وتعميق الخلافات بين القبائل المتصارعة.

تلك كانت الأوضاع الدولية المؤثرة على وسط آسيا الإسلامية وأيضاً الأوضاع الداخلية فيها ولكن كانت لا تزال أمام روسيا خانات إسلامية مثل: خوقند وبخارى وخيوة وإذا ما سيطرت عليها روسيا فإنها ستكون في وضع استراتيجي قوي إزاء بريطانيا في الهند. ولذلك تمثل الفترة من ١٨٦٤-١٨٧٣ والتي تقع بين استيلاء روسيا على هذه الخانات والتحرك البريطاني لوقف الزحف الروسي في المنطقة الإسلامية الإرهاصات الأولى للصدام الروسي الإنجليزي بشكل واضح في الإمارات الإسلامية ولهذا تعتبر الفترة هذه مدخلاً طبيعياً لدراسة التوسع الروسي في هذه الجهة وما تبع ذلك من مواقف بريطانيا.

---

(١) تبلغ مساحة هذه الأراضي ألفي ميل من الغرب إلى الشرق وألف ميل من الشمال والجنوب. أنظر:
Popowski, Joseph: The Rival Powers in Central Asia. P. 30.

الفصل الأوّل

التوسّع الرُوسيّ في الإمارات الإسلاميّة ومَوقِفُ بريطانيَا مِنه ١٨٦٠ - ١٨٧٣



من هذه المنطقة من وسط آسيا التي تشغلها بعض الإمارات الإسلامية التقليدية (خيوة ـــ بخاري ـــ خوقند ـــ مرو) والتي كانت أداة الحكم فيها من تراث العصور الإسلامية الوسطى ـــ إن صح هذا التعبير ـــ اقتربت دولتان أحدهما وصفت بأنها أمبراطورية لا تغيب عنها الشمس ونعني بذلك بريطانيا. والأخرى أوتوقراطية إقطاعية متخلفة توسعية يملؤها (حقد؟) صليبي على كل ما هو مسلم.

وبينما كانت الأولى تمتد أطرافها من الهند إلى مناطق قريبة من تلك الإمارات، كانت روسيا قد وصلت في توسعها إلى مشارف المنطقة الإسلامية وأصبحت هدفاً توسعياً لقيصر روسيا وحكومته.

ومما ساعد حكومة روسيا على التوسع في هذه المناطق أن أوروبا كانت تجتاز مرحلة دقيقة من تاريخها. فبعد حرب القرم وحروب الوحدة الإيطالية (١٨٥٩) لم تهتز أوروبا بحرب كبرى حتى بدأت بروسيا تظهر كعملاق عسكري يسعى إلى تحقيق الوحدة الألمانية بالحديد والنار على يد بسمارك، خاصة عندما أقحمت ألمانيا حرباً على الأمبراطورية النمساوية (١٨٦٦) ثم حرباً ضد فرنسا (١٨٧٠). وكانت ألمانيا خلال ذلك قد أحرزت نجاحاً كبيراً في تحييد روسيا عندما شنت حربها ضد النمسا وفي تحييد كل من روسيا والنمسا عندما هاجمت فرنسا. وكانت الأمبراطورية النمساوية المهضية الجناح في أعقاب سادوا لا تستطيع أن تفتح على نفسها جبهة ـــ إذا دعت الظروف إلى ذلك ـــ في مواجهة روسيا، فقد كان عليها أن ترقب بكل حذر تطورات الأزمات الأوربية التي كانت تتفجر على يد بسمارك بصفة خاصة.

كل هذا أعطى لروسيا الفرصة لكي تعمل في جهة وسط آسيا دون أن تخشى من صدام كبير تشارك فيه أوروبا يمنعها من تحقيق أهدافها في وسط آسيا، وحتى إذا سمحت حكومات أوروبا ـــ التي كانت تخشى من نمو القوة البروسية ـــ بتوسع روسي في وسط آسيا، فإن هذا التوسع كان على حساب إمارات تنظر إليها حكومات أوروبا نظرتها إلى المناطق البدائية المتخلفة التي لا تعطف عليها، فضلا

عن إن الخلاف الديني كان يستبعد وجود أي تعاطف بين الدول الأوربية والمناطق الإسلامية النائية المهددة بالتوسع الروسي.

وإذا كانت مناطق إسلامية تفزع دول أوروبا لوجود نفوذ روسي فيها فإنها تقع على الحدود الروسية العثمانية والحدود الروسية الإيرانية ناهيك عن البسفور والدردنيل.

بل إنه في تلك المناطق الحساسة دولياً فيما يعرف حالياً بالشرق الأوسط كانت السياسة الأوربية تسمح لتوسع روسي محدود. وبالتالي كان صدى التحركات الروسية في وسط آسيا غير مسموع في أوروبا، ولا يثير إلا بعض الصحفيين المعنيين بتتبع أن تحرك روسي في أي اتجاه.

وهكذا كانت وجهة الأمبراطورية النمساوية نحو أوروبا مما أفاد روسيا أيما إفادة في أن تقدم على تحركات عسكرية وسياسية في مناطق وسط آسيا دون أن تثير عمالقة أوروبا ضدها، هذا إذا كانت لدى حكومات أوروبا معلومات وافية عن حقيقة هذه التحركات الروسية في تلك المناطق المنعزلة. ثم أن أية تحركات روسية وتوسعات في مناطق منعزلة في وسط آسيا ما كانت لتجد لنفسها مكاناً على خريطة الأحداث الكبرى التي كانت تدوي في أوروبا، فلا مجال للمقارنة ــ إذا صح التعبيرــ بين سقوط (خوقند) في مايو ١٨٦٥ في يد الروس والهزيمة المروعة التي أصابت النمسا في (سادوا).

دوافع الغزو الروسي في وسط آسيا:

١) الدوافع السياسية:

ذكرنا قبل قليل بأن الدول الأوروبية كانت تقف بالمرصاد أمام محاولات توسع روسيا في القارة الأوروبية أو على حساب الدولة العثمانية. وبذلك فإن منطقة وسط آسيا هي المتنفس الوحيد لقدراتها السياسية والعسكرية. وكانت بعض الدول الأوروبية تشجع روسيا على السير قدماً في سياستها التوسعية مبررة ذلك على أنه عمل إنساني لنشر الحضارة والتقدم وسط جماعات بربرية متخلفة. وكان قطاع كبير من المثقفين البريطانيين يعتقد بهذا الإعتقاد حتى ١٨٦٩ حيث وصل الزحف الروسي بالقرب من أفغانستان. كما أن ألمانيا ــ سيدة أوروبا العسكرية في ذلك الوقت ــ كانت لا تشجع على اعتراض سياسة روسيا التوسعية

حتى لا تثير روسيا لها أزمة جديدة تؤثر على مخططها في القارة الأوروبية[(١)].

ومن ناحية أخرى. فإن سيطرة روسيا على المنطقة تعتبر خطوة استراتيجية ضد بريطانيا، لأنه في حالة قيام حرب أوروبية فإن منطقة وسط آسيا الإسلامية سوف تجعل الهند في متناول الروس على حسب تصور السلطات البريطانية. واعتقد بعض العسكريين الروس إنه سيكون عندهم حينئذ فرصة الانتقام من بريطانيا أو على الأقل فتح جبهة أخرى على الإنجليز[(٢)].

وعلى المستوى الدبلوماسي، مارست روسيا سياسة نشطة لعدم إثارة الدول الأوروبية ضدها، فإلى جانب الأهداف الإنسانية التي أقنعت الدول الأوروبية بها من وراء توسعها، أعلن وزير خارجيتها المستر جورتشاكوف Gortchakov أن الإجراء العسكري الذي تتخذه روسيا كان ضرورة ملحة لسلامة الحدود الروسية، وإن حكومته لا تقصد ضم أراضي جديدة لها في المستقبل[(٣)]، ولم يكشف جورتشاكوف عن المناطق التي تعتبرها بلاده حدوداً آمنة لها في وسط آسيا الإسلامية وبالتالي تحديد الأهداف التي تسعى لتحقيقها في المنطقة ولكن إعلان المستر جورتشاكوف يوضح حقيقتين هامتين:

الأولى: النوايا الروسية المبيتة في المنطقة الإسلامية والتي ستعمل روسيا على تنفيذها خلال الفترة التالية.

الثانية: الإهمال الأوروبي للأحداث التي كانت تجري في الإمارات الإسلامية الأمر الذي أعطى لروسيا الحرية في بلورتها بالصورة التي تخدم مصالحها.

وحينما اتسع نطاق العمليات العسكرية في وسط آسيا الإسلامية سارعت القيادة السياسية إلى التنصل من عاقبة ذلك أمام الدول الأوروبية وألقت المسئولية كاملة على القيادة العسكرية[(٤)]، ولم يكن ذلك في حقيقته رفضاً للأسلوب العسكري، بل كان جزءاً من خطتها في عدم إحراج روسيا في المجال

---

(١) أنظر الفصل السادس.

(٢) Popowski, Joseph: The Rival Powers in Central Asia. P. 30.
Becker, Seymour: Russia's Protectrates in Central Asia. Bukhara and Khiva. 1865-1924. Harvard University Press. 1968. P.12.

(٣) Boulgar, Demetrius: England and Russia in Central Asia Vol. 1 P. 166.

(٤) Becker, Seymour: Russia's Protectorates in Central Asia P. 30.

الدولي.

٢) الدوافع العسكرية:

كان يتخلل القلاع الروسية المتناثرة في سيبيريا وأورنبرج وبحر قزوين مساحات كبيرة من الأراضي الإسلامية تحول دون اتصال تلك القواعد بعضها ببعض أو بمعنى آخر تعوق وحدة الأراضي الروسية. ولذلك قدم مجموعة من العسكريين الروس اقتراحاً يتضمن تكامل القلاع الروسية المتناثرة تلك بحيث تشكل سلسلة دفاعية متصلة.

وبين هؤلاء العسكريون أهمية هذه الخطوة العسكرية لروسيا من الناحية الإقتصادية أيضاً، فأكدوا بأنها سوف توفر على روسيا نفقات عسكرية كبيرة [(١)]. كما أن الصناعة والتجارة الروسية سوف تتمكن في تلك المنطقة من منافسة التجارة البريطانية، لأن كفة روسيا تصبح هي الأرجح لقرب المنطقة من روسيا خاصة فيما يتعلق بالتجارة التقليدية. وقد رحب القيصر الروسي بالمشروع وطلب من وزير حربيته اتخاذ الإجراءات نحو تكامل المراكز العسكرية الروسية في سيبيريا وسيحون خلال عام ١٨٦٤.

٣)دوافع إقتصادية:

كان القطن أهم السلع التي تحصل عليها روسيا من المنطقة الإسلامية فقد تطورت صناعة النسيج الروسية منذ عام ١٨٥٠ حتى بدأت تقلل من حجم استيراد المنسوجات، واقتصر استيرادها من الإمارات الإسلامية على القطن الخام. وفي نفس الوقت، فقد أصبح لدى روسيا فائضاً من انتاجها من الغزل والنسيج كان في حاجة إلى أسواق جديدة. وكانت الأسواق الإسلامية في وسط آسيا تمثل أمل الروس لتصريف بعض منتجاتهم، وكانت المنسوجات القطنية تشكل نسبة

---

(١) اضطرت روسيا إلى إقامة العديد من القواعد الحربية على طول حدود المنطقة الإسلامية والتي كانت واضحة في قلاع سيبيريا واورنبرج. وكانت هذه القواعد تحمل روسياعبءالأنفاق الاقتصادي والحربي. وإذا ما ضمت هذه المنطقة تحت السيطرة الروسية فإن ضرورة استمرار وجود تلك القواعد تختفي أو بمعنى آخر توفر روسيا على نفسها النفقات الاقتصادية والحربية التي تنفقها عليها.

٩٥٪ من حجم التجارة الروسية في وسط آسيا.

وبسبب الحرب الأهلية الأمريكية تزايدت قيمة القطن المستورد من المنطقة الإسلامية، وبالرغم من انتهاء الحرب، فقد كان يعتقد بأنها سوف تؤثر على حجم القطن المستورد من الإقليم الإسلامي، إلا أن حجم تجارة القطن قد تصاعد من ٢٢٪ إلى ٤٢٪ ما بين عامي ١٨٦٤-١٨٦٧.

جاء هذا في وقت كانت فيه الرأسمالية الروسية تدفع حكومة القيصر نحو الاستعمار في وسط آسيا الإسلامية، فقد حثت الرأسمالية هناك الحكومة الروسية على حماية مصالحها التجارية، وعلى فتح قنصليات روسية في إمارات المنطقة الإسلامية، وحماية القوافل التجارية أثناء مرورها في الأراضي الإسلامية ضد محاولات السلب والنهب التي تقوم بها بعض الجماعات الأزبكية والتركمانية.

وساندت الصحف الروسية الرأسمالية التجارية في صرخاتها الاستعمارية وأخذت تدعو حكومتها إلى غزو الإمارات الإسلامية (١).

العوامل الداخلية:

حقيقة كانت هناك دوافع اقتصادية وعسكرية وسياسية، لكن العوامل الداخلية في الإمارات الإسلامية قد ساعدت على التوسع الروسي فيها ويمكن تقسيم العوامل الداخلية إلى ما يأتي:

أ ـ التفكك الداخلي:

كان الطابع القبلي هو النظام السائد في كل من خوقند وبخارى وخيوة ومرو. وكان منصب الخان أو الأمير هدفاً لكل قبيلة أو عشيرة تستشعر بقوتها للقيام بمغامرة لدفع أحد زعمائها إليه. وحينما تنجح القبيلة أو العشيرة في مغامرتها تلك، فإن الصراع حول منصب الخان ينشب بين أفرادها أو بين أفراد أسرة الأمير نفسه. وهذا الوضع بدوره أدى إلى تفتت البناء الاجتماعي والسياسي للإمارات.

وقد استغلت روسيا هذا التفكك في كل من خوقند وبخارى وأخذت تدعم العناصر المتمردة، الأمر الذي أدى إلى تصدع الجبهة الداخلية في هاتين الإمارتين.

---

(١) Becker, Seymour: Russia's Protectorates in Central Asia P. 16-17.

ب ـ موقف الإمارات الإسلامية من التوسع الروسي:

كانت الإمارات الإسلامية في وسط آسيا تفتقد وحدة الصف أبان التوسع الروسي نحوها بالرغم من شعور الخوف الذي كان ينتابها لاقتراب الغزو الروسي منها. فلم تتخذ إجراءات فعالة على مستوى جميع الإمارات، ولم تحاول استغلال ظروف روسيا ـ التي تكون في بعض الأحيان حرجة ـ خاصة حين اشتعال الثورات والقلاقل ضد روسيا في المناطق التي تقع على حدود الإمارات الإسلامية، بل انها لم تقدم المساعدات للجماعات الثائرة من القرغيز، ولم تشد من أزرهم خلال اشتعال ثورتهم ضد الروس باستثناء خوقند[1]. وتقوقعت كل إمارة داخل حدودها تنتظر الغزو الروسي، بل إن روسيا نجحت في إثارة العدواة بين الإمارات، ومن ثم دفعتها إلى معارك جانبية فيما بينهم لاستنزاف طاقاتهم البشرية والاقتصادية حتى يكون الطريق أمامها سهلا لمواصلة سياستها التوسعية في المنطقة. فتمكنت من تحريض بعض الجماعات من بخاري على القيام بهجمات إنتقامية ضد خوقند[2] بل إن أمير بخاري كان يعتزم إرسال قوات من بلاده لتأييد القوات الروسية ضد خوقند[3] وكان مظفر الدين (١٨٦٠-١٨٨٧) يتوقع أن تكافئوه روسيا على موقفه هذا بوضع صهره (خضير خان) على السلطة في خوقند وحصول بخاري على مساحات كبيرة من الأراضي الخوقندية التي تقع جنوب نهر سيحون.

لم يدرك أمير بخارى خطورة العمل الذي أقدم عليه إلا بعد الاستفزازات

---

(١) قام القرغيز بزعامة عزت قوت بر (Izzat Kute Bar) للانفصال عن روسيا وتأكيد ذاتهم السياسية أسوة بالخوقنديين. وكانت خوقند تبعث لهم بالدعم حتى تشعل الموقف بينهم، وبالتالي تهتم روسيا بمواجهتهم مما يؤدي إلى عرقلة التحرك الروسي ضدها. واستطاعت روسيا تحطيم ثورة القرغيز بغرس بذور الشقاق والانفصال بين عزت واتباعه.

أنظر: Boulgar, Demetrius: England and Russia in Central Asia. Vol. I P. 165.

(٢) Ibid. P. 168.

(٣) حدث نزاعاً على العرش في خوقند بين عليم خان وخضير الذي لجأ إلى بخاري وصاهر أميرها، وبالتالي وقف مظفر الدين خان أمير بخاري ضد عليم خان حتى ولو كانت نتيجة ذلك العداء تسليم خوقند للروس.

أنظر المرجع السابق، ص ١٦٥.

التي قامت بها السلطة العسكرية الروسية ضده[1]، فقد تبين له أن بلاده أصبحت الهدف التالي للزحف الروسي، فأرسل في طلب مساندة خيوة، والقبائل التركمانية في أواخر ١٨٦٥ ساعياً إلى تكوين تحالف إسلامي، ولكن العداوة بين جميع الأطراف في المنطقة لم تكن قد خمدت بعد، ومن ثم باءت محاولته بالفشل، فاضطر إلى مواجهة القوات الروسية منفرداً. ومع هذا فقد خاضت بخارى الحرب ضد الروس ونجحت في إحراج القوات الروسية في جيزاك[2].

ولكن أمير بخارى أدرك في نفس الوقت عجزه عن الاستمرار في القتال وحده ضد الروس فقام بمحاولة ثانية لتشكيل تحالف يجمع الإمارات الإسلامية ضد الروس، إذ أرسل إلى أمير أفغانستان يحثه على التحالف معه ضد الروس. ولكن أوضاع أفغانستان الداخلية في ذلك الوقت كانت غير مستقرة إذ اندلعت الحرب الأهلية بين أبناء دست محمد[3] ولم يرد على طلبه غير فايزخان ــ حاكم بلخ ــ أحد أبناء دست محمد ــ ومع ذلك فلم يسفر هذا التأييد عن مساعدة حقيقية[4].

وكرر مظفر الدين نفس المحاولة للمرة الثالثة، ولكنه هذه المرة وسع نطاق اتصالاته إذ اتصل بالدولة العثمانية، وكان القصد من ذلك هو أن يحث الدولة

---

(١) طلب أمير بخارى من القائد الروسي شيرنائيف Cherniaef تحديد الحدود بين بخارى وروسيا. وأرسل سفاره إلى القيصر الروسي تحمل نفس المضمون. وطالب الجنرال بالانسحاب إلى مدينة شمكنت Chimkent (أنظر الخريطة) اعتبر الجنرال الروسي طلب الأمير إهانة شخصية له، فأصدر قراراً يقضي بالقاء القبض على جميع المواطنين البخاريين الموجودين في أورنبرج (التركستان) والذين يبلغ تعدادهم ١٣٨ من التجار البخاريين. ورداً على هذا الإجراء قامت قوات الحدود البخارية بعد ذلك بالقاء القبض على أربعة جنود من الروس.

انظر: Becker, Seymour: Russia's Protectorates in Central Asia. P. 29-30.

(٢) تحرك شيرنائيف في ٣١ يناير ١٨٦٥ بدون الرجوع إلى القيادة العسكرية في أورنبرج ضد جيزال أقوى القلاع البخارية، وطلب من أمير بخاري إطلاق سراح الجنود الروس الأربعة. تظاهر مظفر الدين بقبول مطلب الجنرال الروسي وميله للاستسلام أمام الجبروت الروسي. وحينما اكتشف شيرنائيف خداع الأمير له حاول أن يسيطر على القلعة، إلا أنه فشل في تحقيق ذلك، وتراجع أمام مقاومة البخاريين. وخلفه في منصب الحاكم العام لاورنبرج رومانوفسكي D.I. Romanovskii أنظر:

Boulgar, Demetrius: England and Russia in Central Asia. Vol. 1 P. 172-173.

(٣) Becker, Seymour: Russia's Protectorates in Central Asia. P. 35-38.

(٤) أنظر الفصل الثالث ص ١٠٥.

العثمانية على إشعال روح الجهاد ضد الروس نظراً لمكانتها الروحية في العالم الإسلامي، وللحقد الذي تكنه للروس من جراء عملياتهم العدوانية على أراضيها. كما بعث برسائله إلى حكومة الهند بهدف كسب دعمها وتأييدها للتحالف الذي كان يتصوره.

ولم ينتج عن محاولته هذه إلا مساعدة عسكرية قدمتها أفغانستان في شكل قوات نظامية بلغ تعدادها ألفين من الجنود(١). وقد تمكنت روسيا من جذب هذه القوات إلى صفها قبل اندلاع القتال بين الطرفين عن طريق الرشوة التي قدمتها للقائد الأفغاني.

موقف روسيا من الأوضاع الداخلية في خوقند وبخارى:

استغلت روسيا الأوضاع الداخلية المفككة في المنطقة الإسلامية وعملت على تعميق الخلافات القبلية في كل من خوقند وبخارى. وزيادة في غرس الكراهية بين سكان خوقند وبخارى لجأت إلى تحريض بعض الجماعات البخارية للإغارة على أراضي خوقند، كما لم تتوان في إثارة العناصر المناوئة لأميري بخارى وخوقند، فضلا عن استخدامها الأموال لشراء ضمائر بعض القواد (٢).

كل هذا أدى إلى تفتيت الجبهة الإسلامية في كل من خوقند وبخارى، بل أن روسيا استطاعت أن تربط بين مصالح الأمير البخارى في تولية صهره خضير خان أمور السلطة في خوقند، وبين مصالحها الذاتية في السيطرة على خوقند.

وبذلك نجحت خطة روسيا في عزل خوقند عن مناصرة الإمارات الإسلامية المجاورة، بل وفي تفتيت جبهتها الداخلية، فأصبحت مهمة سيطرة قواتها العسكرية على خوقند سهلة، وتم لها ذلك في ٢٨ مايو ١٨٦٥. ومنذ هذا التاريخ، فقد ربطت خوقند بعجلة الأمبراطورية الروسية.

واستخدمت روسيا الخطة نفسها مع بخارى، فحينما اشتعلت الحرب بينها

---

(١) Boulgar, Demetrius: England and R. in Central Asia Vol. 1. P. 180-182.

(٢) ثار ضد أمير بخارى ابنه — كما أن ابن أخيه انفصل بمقاطعته عنه، إلى جانب انسحاب القائد الأفغاني اسكندر خان.
ومعه القوات التي أرسلتها أفغانستان لمساندة بخارى، وأنضم إلى الجانب الروسي. أنظر:
Becker, Seymour: Russia's Protectorates in Central Asia. P. 16.

وبين بخارى أرسلت المبعوثين إلى خيوة وأفغانستان لكي تشرح لأميريها وجهات نظرها الإنسانية في مقاومة الرق، وكانت بخارى إحدى أسواقه كما كانت تدعي أن سياستها في آسيا تعتمد أساساً على تحويل المنطقة الإسلامية إلى قوة رادعة ضد بريطانيا التي كانت تهدد ـــ حسب تصوير روسيا لهم ـــ البلاد الإسلامية في وسط آسيا.

وبذلك نجحت روسيا في منع ظهور جبهة إسلامية متحدة ضدها في وسط آسيا الأمر الذي سهل لها مهمة الهيمنة عليها جميعاً الواحدة بعد الأخرى.

التحرك الروسي العسكري في خوقند وبخارى:

إن المتتبع للعمليات العسكرية الروسية في المنطقة يلاحظ اختلافاً كبيراً في أسلوب وعتاد وخطط القوات الإسلامية والروسية، فالقوات الروسية كانت تعتمد على أسلوب الحصار والخندقة، في حين كانت القوات الإسلامية في خوقند وبخارى تعتمد على الكر والفر، ثم إن أسلحة القوات الروسية كانت أكثر تطوراً من أسلحة القوات الإسلامية في ذلك الوقت. هذا إلى جانب النظام والضبط الذي كان ظاهراً في القوات الروسية عنها في القوات الإسلامية. وتفوق القدرات العسكرية والأساليب السياسية التي استخدمتها روسيا.

لكن ليس معنى هذا أن الطريق كان سهلاً أمام القوات الروسية فلقد أحرجت قوات خوقند الجيش الروسي في مدينة طشقند[١] ولم تنجح روسيا في بسط سيطرتها على خوقند إلا بعد أن قطعت مياه نهر شيرشيك Cher Chik [٢] الذي يعتبر المصدر الرئيسي لإمداد خوقند بالمياه. واستطاعت روسيا في نهاية الأمر أن تستولي على خوقند في ٢٨ مايو ١٨٦٥.

كذلك وقفت قوات بخارى بشجاعة أمام القوات الروسية في جيزاك[٣] مما اضطر القوات العسكرية في التركستان[٤] إلى طلب المهادنة مع بخارى[٥].

(١) Boulgar, Demetrius: England and Russia in Central Asia. Vol. 1. P. 168.

(٢) أحد روافد نهر سيحون بالقرب من شيناز. أنظر الخريطة ص ١٢، ١٣.

(٣) أنظر ص ٤٢.

(٤) أصبح اسم مقاطعة أورنبرج الروسية عام ١٨٦٧ مقاطعة التركستان.

(٥) Becker, Seymour: Russia's Protectorates in Central Asia. P. 31.

وحينما تجددت الاشتباكات بين الطرفين نجح البخاريون في محاصرة القوات الروسية الموجودة في سمرقند وفتحوا على الروس عدة جبهات الأمر الذي دفعهم إلى بعثرة قواتهم. ولم يستطع الروس القضاء على قوة بخارى إلا بعد استمالة الجنرال كوفمان Kufman ــ الحاكم العام للتركستان ــ لأحد القادة البخاريين، وبذلك نجح في تصديع الجبهة البخارية. ولم يجد مظفر الدين خان ــ أمير بخارى ــ غير الخضوع التام للروس ١٨٦٨، وأعادته القيادة العسكرية الروسية ثانية على السلطة في الخانة على ن ينفذ التعليمات التي تمليها عليه السلطات الروسية.

موقف بريطانيا من التوسع الروسي في خوقند وبخارى:

يمكن وصف الموقف البريطاني تجاه التوسع الروسي في كل من خوقند وبخارى بالسلبية رغم أن الوجود البريطاني لم يكن غائباً عن المنطقة فقد توغل المبعوثون الانجليز إلى مدينة بخارى، وكان ظهورهم كباعث للقلق الروسي منذ ١٨٣٠، ولكن ذلك الخطر الذي تصوره الروس تبدد وقتياً بعد هزيمة بريطانيا في الحرب الأفغانية الأولى ١٨٣٨-١٨٤٢، وانسحابها من أفغانستان.

رجعت المخاوف الروسية من جديد نتيجة لنشاط المبعوثين الأتراك الذين كان قصدهم ربط جميع إمارات وسط آسيا الإسلامية بالدولة العثمانية[١]، وكانت روسيا تخشى أن يؤدي النشاط العثماني في هذه المنطقة إلى تكوين جبهة إسلامية متحدة مجاورة لأراضيها التي تشتعل حقداً على كل ما هو مسلم، وزاد من المخاوف الروسية إنها كانت تتوقع من وراء المحاولة العثمانية أن يمتد النفوذ البريطاني إلى الإمارات الإسلامية المجاورة لها، وبالتالي تفوت على روسيا الفرصة في تحقيق أطماعها التوسعية في المنطقة. ولذلك تحركت سريعاً في وجه هذه المحاولة وإثارة العداء القديم بين القوى المحلية في الإمارات الإسلامية، ولكنها لم تنجح في أن تقيم جداراً في وجه التغلغل البريطاني، فقد استأنفت بريطانيا إرسال المبعوثين إلى كل من بخارى وسمرقند وأفغانستان، الأمر الذي أثار مخاوف روسيا من جديد، ولكنها لم تتحرك سريعاً لوقف هذا النشاط البريطاني. فقد كان

---

(١) Boulgar, Demetrius: England and Russia in Central Asia. Vol. I. P. 180-182.

يشغلها تعقيدات الأزمة العثمانية قبيل انفجار حرب القرم. وكانت روسيا أكثر حقداً على سياسية دست محمد (١٨٣٦-١٨٦٣)[١] الذي مد حدود بلاده في الجبهة الشمالية على حساب ممتلكات بخارى. وكان الامتداد الجغرافي والسياسي الأفغاني في نظر الروس، امتداداً للنفوذ البريطاني خاصة بعد عام ١٨٥٥ بسبب الأزمة الإيرانية الأفغانية التي اشتعلت نتيجة لسيطرة إيران على مدينة حيرات الأفغانية.

وفي العام التالي أظهرت حرب القرم ضعف موقف روسيا في وسط آسيا، وكان ذلك جلياً حينما طلبت بريطانيا من إيران ــ الواقعة تحت ضغط الروس شبه المتواصل في ذلك الوقت ــ التخلي عن حيرات على اعتبار إنها تابعة لأفغانستان كجزء من المخطط البريطاني لإبعاد إيران وبالتالي روسيا عن هذه المنطقة.

وكان رد الفعل الروسي على الخطة البريطانية هذه، الاقتراح الذي تقدم به الملحق العسكري الروسي في لندن المستر إجناتيف M.P.Ignatiev لحكومته والذي يتضمن توسع روسيا سياسياً على نهر جيحون، وكان قصد المستر إجناتيف من وراء اقتراحه أن تقوم روسيا بالسيطرة على جميع الأراضي الإسلامية التي تقع على تخوم أفغانستان في الشمال والشمال الشرقي، وبذلك تكون روسيا على مقربة من الأراضي البريطانية تستطيع أن تكيل لها الضربات بنجاح.

وتمشياً مع هذا الاقتراح أرسلت روسيا إجناتيف إلى بخارى وخيوة ١٨٥٨ للتعرف على أسباب خلافهما مع روسيا، ولتمهيد الطريق أمام إقامة علاقات روسية جديدة مع زعماء تلك المناطق.

كما أرسلت المستشرق خانيكوف N.V.Khanykov إلى أفغانستان لتوضيح سياسة روسيا في آسيا، وادعت إنها تريد أن تحول تلك المنطقة إلى قوة رادعة حتى تكون حصناً قوياً ضد بريطانيا[٢].

(١) يستثنى من ذلك الفترة التي قضاها دست محمد أسيراً في الهند أبان الحرب الأفغانية الأولى، فقد ظل أسيراً لدى السلطات البريطانية من أكتوبر ١٨٤٠ حتى يناير ١٨٤٣.

(٢) Becker, Seymour: Russia's Protectorates in Central Asia. P. 16.

ومن المرجح أن يكون رد الفعل على تلك المبادرة الروسية هو تقوية علاقة بريطانيا مع أفغانستان للتسرب من خلال تلك العلاقة إلى إمارات وسط آسيا الإسلامية، وليس كما يدعي المؤرخ بيكر أن البعثات الروسية في وسط آسيا الإسلامية في نظر بريطانيا لم تكن منافسة لها في المنطقة، والدليل على ذلك أن التقارير التي تلقتها الحكومة الروسية في يناير ١٨٦٠ أثبتت الإهتمام البريطاني الواضح بالنشاط في تلك المنطقة وزيادة على ذلك فإن بريطانيا وأفغانستان قد مارستا ضغطاً على بخارى لشدها إلى دائرة النفوذ البريطاني.

ورداً على السياسة البريطانية، تقدم المستر بيزاك Bezak الحاكم العام (لأورنبرج)[١] باقتراح لربط المعاقل العسكرية الروسية في جبهتي سيبيريا وأورنبرج[٢].

وعن طريق اقتراح بيزاك تضمن روسيا لنفسها السيطرة المباشرة على الأراضي الواقعة بين الجبهتين السابقتين.

وخلال تعرض بخاري للزحف الروسي، أرسل مظفر الدين خان ــ أمير بخارى ــ عدة سفارات إلى الهند لطلب المساعدة البريطانية. ولم ترد حكومة الهند رداً إيجابياً على تلك السفارات لأنها كانت مشدودة إلى سياسة الحاكم العام للهند المستر جون لورانس John Lawrence (١٨٦٤-١٨٦٨) الذي طبق السياسة الهادئة[٣] والتي تتضمن الاهتمام البريطاني داخل شبه القارة الهندية وحماية حدودها الشمالية عن طريق إقامة المراكز الحربية في تلك الجهة، وسنتطرق إلى ذلك بالتفصيل في الفصل الثالث.

روسيا وخيوة:

مع بداية القرن التاسع عشر بدأت عدة اتصالات بين روسيا وخيوة، بعضها يتعلق بالتجارة وطرق تنميتها، وبعضها يتعلق بشأن إطلاق سراح الأسرى الروس

---

(١) قبل إطلاق اسم التركستان عليها ١٨٦٧.

(٢) Becker, Seymour: Russia's Protectorates in Central Asia. P. 16.

(٣) Masterly inctivity.

الذين أسرتهم بعض الجماعات الخيوية. وحينما لم تتلق السلطات الروسية رداً يرضيها من خان خيوة بدأت في استعداداتها العسكرية.

وخشيت بريطانيا من عاقبة التحرك العسكري الروسي ووجدت فيه محاولة من قبل روسيا للوصول إلى حيرات ــ المنفذ الشمالي ــ لوجودها في الهند، فعملت على تهدئة الأمور بين الطرفين، ونجحت بريطانيا بالفعل في وساطتها. وأرسلت روسيا بعد ذلك بعثتين إلى خيوة في أربعينيات القرن التاسع عشر لأغراض تجارية، وكان من نتائجهما أن وقعت روسيا مع خيوة اتفاقية لم يعرف من بنودها غير تعهد خيوة بعدم مساندة الثوار القرغيز.

وقد اعتبرت بريطانيا هذه الاتفاقية انتصاراً للسياسة الروسية لأنها سدت الطريق أمام التغلغل البريطاني في خيوة.

ومن ناحية أخرى فإن خيوة لم تتقيد بنصوص تلك الاتفاقية فساندت الثوار القرغيز، وأعطت حق اللجوء في أراضيها لأعداء روسيا، بل وفي كثير من الأحيان. كانت بعض جماعات من خيوة تغير على الأراضي الروسية وتأسر بعض الروس كرقيق[1].

وفي أغسطس ١٨٦٩ طلبت الحكومة الروسية من الحاكم العام في طشقند أن يوجه تحذيراً إلى خان خيوة في أعقاب المساندة والتشجيع اللذين قدمتهما خيوة إلى الثوار القرغيز. ولم تخف الحكومة الروسية نيتها في معاقبة خيوة لتصرفاتها وأعلن الجنرال كوفمان عن عزمه لعبور نهر سيحون للانتقام من اللصوص الذين هاجموا القوافل الروسية.

ولم يبد أمير خيوة أية معارضة لتحركات الجنرال الروسي، إلا أن حاكم شمال خيوة احتج على اجتياز الروس للنهر السابق الذي يعتبر الحد الفاصل بين روسيا وخيوة.

بقيت المشكلة عند هذا الحد، فروسيا لم تكن قد خرجت بعد من مشكلة

---

(١) Boulgar, Demetrius: England and Russia in Central Asia. Vol. I. P. 150.

بخارى، ولكن الأزمة أخذت تتصاعد حينما اتجهت روسيا إلى إقامة قاعدة لها في خليج كراسنوفودسك ــ شرقي بحر قزوين.

إن إقامة مثل هذه القاعدة من وجهة النظر الروسية يعتبر من باب تنمية تجارتها في وسط آسيا ومع القبائل التركمانية، وتعتبر هذه القاعدة في الوقت نفسه مركزاً في طريق مواصلاتها البحري والتجاري الجديد والذي يبدأ من نهر الفولجا ماراً ببحر قزوين حتى خليج كراسنوفودسك(١).

وفي الحقيقة هناك سبب لم تعلنه روسيا وهو أكثر أهمية مما صرحت به ألا وهو اتخاذ كراسنوفودسك منطلقاً للنشاط السياسي والعسكري والذي كان يهدف إلى السيطرة على الأراضي التركمانية.

أرسل الجنرال كوفمان في ١٨ يناير ١٨٧٠ رسالة إلى خان خيوة سيد محمد رحيم (١٨٦٤-١٩١٠) يشرح فيها له أهداف إقامة القاعدة العسكرية ووضعه أمام أمرين: أما أن يكون مع روسيا أو ضدها. وأنهى الجنرال الروسي رسالته بلهجة تحذيرية قائلا: (أن هناك حدوداً لصبر الإنسان، وإذا لم أتلق رداً مرضياً فإنني سوف أحضر وأخذه (أي الرد) بنفسي...).

الواضح من رسالة الجنرال كوفمان إنها تطابق اللهجة التي استخدمها الجنرالات الروس في وسط آسيا من قبل، فقد تحرشوا... واعتدوا... وتوسعوا... وفرضوا على أصحاب الحق والأرض الرضوخ والاستسلام لشروطهم.

وهذا يؤكد لنا أن حكومة روسيا استمرت في ممارسة سياستها الخاصة بإطلاق يد قادة الأطراف ليتوسعوا وكأن ذلك يتم دون توجيه أو تخطيط من الحكومة المركزية تجنباً للوقوع في مآزق دولية أمام المناهضين لسياستها في وسط آسيا الإسلامية، ولتحتفظ لنفسها بخط رجعة إذا زاد الضغط عليها واضطرها للتراجع عن بعض مواقفها، أما إذا وجدت تراخياً من خصومها فإنها تحتفظ بما استولى عليه هؤلاء القادة من أرض.

---

(١) سيصبح وقت الرحلة عبر هذا الطريق مدة ١٢ يوماً فقط، في حين كانت الرحلة تستغرق قبل ذلك فترة أطول بكثير.

كان وضع الروس لأقدامهم على كراسنوفودسك التي تعتبر ضمن أراضي خيوة قد سبب هلعاً كبيراً لدى الخيو ين الذين شرعوا في اتخاذ الاستعدادت العسكرية، وشجعتهم بخاري على المضي في تبني الأسلوب العسكري فقد وعدهم أميرها بتجديد الحرب ضد الروس في الوقت المناسب، ومد يد العون لهم إذا ما دعت الضرورة لذلك.

ولا شك أن هذا السلوك من جانب بخارى قد ترك أثره في تشدد الأمير الخيوي، بل ومن خلال الموقف البخارى حدد أمير خيوة طبيعة المعركة التي ستجري بينه و بين القوات الروسية، فقد كان يعتقد أنه في الوقت الذي تشغل بخارى شطراً من القوات الروسية يتولى هو مواجهة القوات المتقدمة نحوه.

وعلى أساس هذا التصور أرسلت خيوة رسالة شديدة اللهجة إلى كوفمان تطالبه فيها بالعمل على تحديد الحدود بين الدولتين، واقترحت من جانبها بأن يكون نهر سيحون الأدنى هو الحد الفاصل بينهما. واحتجت في أبريل ١٨٧٠ على احتلال الروس لكراسنوفودسك محذرة باللجوء إلى القوة لطردهم منها.

ترك التصرف الخيوي هذا انطباعاً لدى القيادة العسكرية الروسية في وسط آسيا بأن خيوة تسعى إلى التحرش بروسيا، ومن ثم فلا سبيل أمامها غير معاقبة الأمير على مشاغبته. وقدم في هذا الخصوص الجنرال كوفمان اقتراحاً إلى وزير الحربية الروسية يتضمن خطة لغزو خيوة من جيهتين: الأولى من التركستان الروسية، والثانية من القوقاز. وكانت وزارة الخارجية الروسية ترغب في اتخاذ إجراءات شديدة ضد خيوة ولكنها كانت ترى بأن الظروف السياسية غير مهيأة لتبني السياسة ــ فقد كانت هناك مشاكل أكثر إلحاحاً منها ــ مثل:

ــ تحسين العلاقة مع التركمان.

ــ تثبيت الحكم الروسي في التركستان.

ــ تنمية التجارة الروسية في وسط آسيا.

وفي يناير ١٨٧١ وافقت وزارة الحربية والخارجية الروسية على مشروع غزو

خيوة وأقره القيصر(١) إلا أن التنفيذ أرجىء بسبب انشغال روسيا في مشكلة سينكيانج Sinkiang (٢).

ولكن حماسة الجنرال كوفمان للقيام بالغزو جعلته يضع جانباً أية مشاكل لروسيا تعوقه عن تحقيق أهدافه، فحاول أن يمارس ضغطاً على خيوة عسى أن تستجيب لشروطه(٣) وتخضع للسياسة الروسية التي تغلغلت في معظم أنحاء المنطقة، ولكن خيوة رفضت الإذعان لمحاولة كوفمان وطالبته باحترام الأراضي الخيوية وعدم الاعتداء على حدودها.

أجمعت التقارير الواردة من روسيا في خريف ١٨٧١ على تجديد روسيا لمشروع غزو خيوة، ولكن انشغال روسيا في جبهات عديدة دعا حكومتها إلى التخلي عن

---

(١) Becker, Seymour: Russia's Protrectorates in Central Asia. P. 69.

(٢) ويطلق أيضاً على سينكيانج اسم التركستان الصينية. وهي تقع غربي الصين ويحدها من الشمال الشرقي جمهورية منغوليا الشعبية ومن الجنوب الغربي كشمير وشريط ضيق من أفغانستان، وقد انتهزت روسيا فرصة اشتعال ثورة المسلمين في التركستان الصينية واستولت على إقليم الليوي من سينكيانج ١٨٧٠ بحجة حماية تجارتها، وكانت تهدف أساساً من وراء ــ ذلك السيطرة على الممرات الموجودة في الإقليم. وبعد استقرار الأوضاع الداخلية في الصين عملت حكومة بكين على استرجاع الإقليم فأرسلت مندوباً عنها إلى روسيا للتباحث معها بشأن عودة الليوي إلى الصين. ووقع المندوب الصيني معاهدة ليفادا Livada في ٢ أكتوبر ١٨٧٩. ولم ترض هذه المعاهدة الصينيين لأنها لم ترجع لهم إقليم الليوي كاملاً. وتأزم الموقف بين الدولتين عام ١٨٨١ وأرسلت الصين وفداً عنها إلى روسيا للتباحث مع السلطات الروسية وانتهت هذه المحاولة بمعاهدة سنت بطرسبورج التي وقعت في ٢٤ فبراير ١٨٨١. ولقد وافقت الصين بمقتضاها على دفع تعويضات مالية كبيرة لروسيا في مقابل إخلاء روسيا لمساحات كبيرة من أراضي سينكيانج بما فيها الممرات الاستراتيجية التي تقع بين نهري الليوي ومقاطعة قشغر.

أنظر: Hinsley, F.H.: The New Cambridge Modern History, Vol XI, P. 447.

(٣) وكانت تلك الشروط تتلخص في تسليم الأسرى الذين اسرتهم بعض الجماعات الخيوية، والتوقف عن حماية الجماعات التي تغير على الأراضي الروسية، وإرسال سفارة إلى مدينة طشقند. وقد حمل هذه الشروط أحد المواطنين وحينما وصل الرسول الروسي إلى خيوه استاء محمد رحيم. ولم يبعث برده طيلة شهرين. وعقد بعد ذلك المجلس القبلي للتشاور في الأمر وأدخل رسول كوفمان إلى قاعة المجلس لسماع رأي المواطنين في خيوه والذي كان يتلخص في بقاء الوضع على ما هو عليه حتى تحترم روسيا قداسة أراضي وحدود خيوه.

أنظر: Becker, Seymour: Russia's Protectorates in Central Asia. P. 69.

ذلك المشروع للمرة الثانية [1] واستمر خان خيوة في إظهار مشاعره غير الودية نحو الحكومة الروسية الأمر الذي أدى إلى إتهامها له بالتواطؤ مع الجماعات التي تقوم بنهب القوافل التجارية واسترقاق الروس الذين وقعوا بين أيديها.

وبالرغم من أن الحكومة الروسية قد أجلت مرتاً مشروع غزو خيوة إلا أن الجنرال كوفمان أرسل ثلاث بعثات استكشافية إلى المناطق المجاورة لخيوة نفسها [2]. وقد أثار هذا التصرف الخان الذي أرسل مع نهاية ١٨٧١ سفارات إلى سنت بطرسبورج وتفليس [3] للاحتجاج على سلوك كوفمان ولتوضيح موقف خيوة الذي يتلخص في عدم تسليم الرهائن أو الأسرى الروس إلا بعد تسوية الحدود بين الطرفين.

وبأمر من سنت بطرسبورج ألقي القبض على مندوبي خيوة في التركستان ووضعت السلطات الروسية شروطها إذا ما أرادت خيوة الدخول في مباحثات معها. وكانت الشروط الروسية تتركز في الآتي:

ـ الاعتراف بالوجود الروسي على الشاطىء القوقازي من بحر قزوين.
ـ أطلاق سراح الأسرى الروس.

ـ إرسال مندوب عنها إلى مدينة طشقند للتفاوض مع السلطات الروسية هناك.

أدرك سيد محمد رحيم (أمير خيوة) الخطر الذي يتهدد بلاده فروسيا هذه المرة عازمة بالفعل على تنفيذ أغراضها، ولا بد من نصير له. فأرسل مندوباً عنه إلى حكومة الهند البريطانية.

وفي عام ١٨٧٢ وبعد عناء حربي بدأت روسيا في منتصف العام فترة استرخاء سياسي لبعض الوقت، فقد بسطت سيطرتها على قلجا Kuldja ووادي

---

(١) كانت المحاولة الأولى في يناير ١٨٧٠. أنظر الصفحة السابقة.

(٢) F.O. 539/11. Inclosure No. 12 in No. 164. Memorandum Regarding to Russian Expedition to Khiva, P. 159.

(٣) بعد أن أصبحت جورجيا تابعة للإدارة الروسية مع بداية القرن التاسع عشر أخذت تلعب دوراً هاماً في توجيه السياسة الروسية في المنطقة.

الليوى، ومدت نفوذها على قشغر، ووصلت إلى اتفاق مبدئي في صيف العام نفسه من الصين بشأن مقاطعة سينكيانج وبذلك أصبحت روسيا إلى حد ما خالية من المشاكل الخارجية فبدأت ترنو بأنظارها نحو خيوة.(١)

وأشارت التقارير إلى احتمال قيام حملة عسكرية روسية إلى خيوة. وفي ٤ ديسمبر عقد اجتماع ترأسه القيصر الروسي، وقدم فيه الجنرال كوفمان تقريراً مطولا احتج فيه على العلاقات غير الودية مع خيوة مؤكداً أن استخدام القوة والإستيلاء عليها هو الأسلوب الوحيد لإظهار عظمة روسيا وقوتها التي لا تقهر. وفي الوقت نفسه فوض المجتمعون الجنرال الروسي كوفمان بالقيام بحملة عسكرية، ومع ذلك فقد أوصوا بعدم ضم خيوة، وإنما تكون تحت النفوذ الروسي وتحتفظ بكل مركباتها الإجتماعية والاقتصادية مع الأخذ في الاعتبار تنمية المصالح السياسية والتجارية معها .

وما كان هذا إلا سياسة مرحلية تبدأ بالسيطرة غير المباشرة لتنتهي بالضم. بدأت القوات الروسية في التجمع بالقرب من قزيل أروات Kizil Arvat، واتخذت روسيا هذا الطريق حتى تتجنب الطريق الموحل والمباشر إلى خيوة والذي لا تستطيع الجياد اختراقه.(٢)

أدرك سيد محمد رحيم عجزه عن صد الهجوم، وظل ينتظر المساعدة التي وعده بها خان بخارى. ولكن بخاري كانت مراوغة في وعدها، إذ ظلت تنتظر معرفة الجانب المنتصر لتعلن تأييدها له. وحينما شعر أمير خيوة بأنه وحيد في ميدان المعركة حاول أن يثني الروس عن عزمهم للزحف على أراضيه، فأطلق سراح ٢١ روسياً كانوا محتجزين في أراضيه. لم يستجب الروس لهذه المبادرة السلمية، بل

---

(١) F.O. 539/11. No. I Inclosure No. 12 in No. 164. Memorandum Regarding the Russian Expedition to Khiva. P. 159.

(٢) طبقاً للتقارير التي كتبها ماك جاهام Mac Gaham مراسل صحيفة نيو يورك هارولد New York Herold فإن إجمالي القوات الروسية التي تقدمت من الأراضي الروسية عبر نهر سيحون تبلغ ١٢,٧٠٠ جندي. ولقد تسرب الخوف إلى نفوس جنودها بعد عبورها النهر السابق، بل إن الجنود كانوا أقرب إلى الجبن وأصبح الحصول على مياه مشكلة بالنسبة لهم.

أنظر: F.O. 539/11. No. 184. Extract from letters from Mission Agent at Asterabad. Dated May 2. 1873. P. 179.

واصلوا التقدم في الأراضي الخيوية حتى اقتربوا في ٢٦ مايو ١٨٧٣ من خيوة نفسها. وكان سيد محمد رحيم مجتمعاً مع مستشاريه. ومن خلال المناقشات التي جرت في ذلك الاجتماع، وضح عجز خيوة عن مواجهة القوات المتقدمة نحوها وإنه لا سبيل أمام أميرها غير الوصول إلى تفاهم مع الروس.

حاول سيد محمد رحيم الوصول إلى اتفاق مع الغزاة الروس، وأظهر ميله لقبول الشروط الروسية. ولكن كوفمان رفض عرض الأمير وطالبه بأن يستسلم بدون قيد أو شرط.

وحينما شعر الأمير بأن القوات الروسية لا محالة متقدمة نحو عاصمته قرر الهرب إلى الأراضي التركمانية. ورفض الجنرال الروسي التفاوض مع أي شخص آخر لأنه حسب ادعائه كان يحارب الأمير شخصياً ولا يحارب الشعب الخيوي.

وليس من المستبعد أن كوفمان كان يخشى أن يعمل الأمير سيد محمد رحيم على تجميع قوات جديدة له في الأراضي التركمانية لإعادة الهجوم على الروس، ولذلك أصر الجنرال الروسي على خضوع الأمير شخصياً له.

دخل كوفمان خيوة ـ العاصمة ـ دون إطلاق أية رصاصة، وكون مجلساً لإدارة دفة الأمور في البلاد. وكان هذا المجلس يتكون من ٣ ضباط روس وتاجر من طشقند وثلاثة من أشراف خيوة.

يتضح من هذا التكوين أن الأغلبية في المجلس كانت في أيدي الروس فأصبح لروسيا الكلمة العليا في شئون خيوة الإدارية والداخلية.

أرسل الجنرال الروسي إلى الأمير الخيوي يطالبه بالعودة إلى خيوة وتوعده بالانتقام منه إذا رفض الخضوع له. ولم يجد سيد محمد رحيم أمامه غير الاستجابة للطلب الروسي، خاصة وإنه فشل في تجميع قوات جديدة من حوله، كما أن الجنرال كوفمان كان قد وعده بأن يعيده ثانية على السلطة في خيوة.

وعاد الأمير إلى خيوة وسلم نفسه ووزراءه إلى القائد الروسي، وأعلن عن استعداده لقبول جميع المطالب الروسية (١). وفي ١٢ يونيو ١٨٧٣ أصدر خان خيوة منشوراً أعلن فيه تحرير جميع العبيد الروس وإنهاء الرق (٢).

---

(١) Becker, Seymour: Russia's Protectorates in Central, Asia. P. 72.

(٢) F.O. 539/11. No. 178. Lord. A. Loftus to Earl Granville. St. Petersburg Dated July 23, 1873. P. 176.

المعاهدة الروسية الخيوية:

عقدت هذه المعاهدة في ١٢ أغسطس ١٨٧٣ بين خان خيوة سيد محمد رحيم والجنرال الروسي كوفمان. وأعلن أمير خيوة من خلالها عن خضوعه التام للقيصر الروسي، وعن استمرار علاقات حسن الجوار مع الإمارات المجاورة ومواصلة التبادل التجاري معهم على أن يحصل مسبقاً على موافقة روسيا. وكانت روسيا تهدف من وراء هذا إلى تنمية التجارة في المنطقة، وبالتالي تنشيط التبادل معها. وتعهد سيد محمد رحيم بعدم قيامه بحركات عدوانية ضد الإمارات المجاورة له.

ونصت المعاهدة أيضاً على أن يكون نهر جيحون الحد الفاصل بين الدولتين وعلى ذلك فإن جميع الأراضي التي تقع على الشاطىء الأيمن للنهر السابق والتي كانت فيما سبق أراضي تابعة لخيوة أصبحت خاضعة تحت السيطرة الروسية بل وأعطت المعاهدة الحكومة الروسية حرية التصرف فيها كأن تتنازل عنها لبخارى، وأنه لا مناص للأمير في مثل هذه الحالة إلا الإقرار بذلك.

لايعني هذا أن روسيا تعترف بكيان سياسي مستقل لخيوة حينما وافقت على أن يكون نهر جيحون حداً بينها وبين خيوة، بل كان خطة منها لسلب الأراضي الخيوية التي تقع على الجانب الأيمن للنهر السابق وجزءاً من مخططها الذي يرمي إلى السيطرة على المنطقة تدريجياً.

وأعطت المعاهدة حرية مرور القوارب الروسية والخيوية في نهر جيحون بشرط أن تحصل على تصريح من حكومة وسط آسيا الروسية.

ومنحت روسيا حق بناء أرصفة عائمة أو مراس بحرية أو مستودعات لتخزين البضائع في أي مكان تجده ملائماً أو ضرورياً لها على شاطىء نهر جيحون وأنيطت مسئولية حماية تلك المراسي أو الأرصفة أو المستودعات لسلطات خيوة.

كما نصت المعاهدة على فتح جميع المدن والقرى الخيوية بدون استثناء أمام التجارة الروسية، ومنح التجار الروس حرية التنقل في جميع أنحاء الإمارة، وتكون سلطات خيوة مسئولة عن سلامتهم، ويعفى التجار الروس من الزكاة وتفرض عليهم نفس الضرائب المفروضة على تجار خيوة على أن تكون إجراءات تحصيلها

وفق قواعد يتفق عليها الطرفان.

وأعطت الاتفاقية حق التملك لرعايا الروس في خانة خيوة، ووافقت خيوة على محاكمة الرعايا الروس بمقتضى قانونهم الخاص، وألا تعطي حق اللجوء في أراضيها للمهاجرين، من روسيا إلا بعد حصولهم على تصريح من السلطات الروسية، وألا تقبل الفارين منها. كما تقرر أن تدفع خيوة غرامة حربية لروسيا[1]. لأن خيوة من وجهة النظر الروسية هي المسببة لتحركات القوات العسكرية والنفقات التي تكبدتها.

وهكذا كانت الاتفاقية كلها في صالح روسيا، إذ ربطت خيوة بعجلة الأمبراطورية الروسية، كما أن المادة الخاصة بمحاكمة الرعايا الروس، بمقتضى قانونهم الخاص يذكرنا بالمحاكم القنصلية في مصر والدولة العثمانية والصين واليابان وإيران، وما ترتب على ذلك من ظلم للمواطنين واستخدمت روسيا عجز خيوة عن دفع الغرامة التي فرضتها لبسط سيطرتها ونفوذها على الأراضي الخيوية، وبذلك أوجدت لنفسها الذريعة لاستمرار وجودها في خيوة.

صدى سقوط خيوة في العاصمة الروسية:

إستقبلت سنت بطرسبورج حادث سقوط خيوة بفرح كبير، واعتبر كوفمان من الأبطال، واستقبله القيصر الروسي في العاصمة استقبالا حاراً ومنحه النياشين له وللمشتركين معه في الحملة.

وطالبت صحيفة سنت بطرسبورج جازيت بإقامة محطة عسكرية عند إجي[2] Idgy لكي تربط المعاقل الروسية على طول نهري أترك Attrek وجيحون وبذلك

(١) حددت المعاهدة مقدار الغرامة بـ ٢,٢٠٠,٠٠٠ روبل. وفي حالة عجز خيوه عن دفع هذه الأموال دفعة واحدة يكون من حقها أن تدفعها على أقساط بفائدة قدرها ٥٪ وفي حالة موافقة الطرفان الدفع على أقساط، تدفع خيوه خلال السنتين الأوليتين ١٠٠ ألف روبل كل عام و ١٢٥ ألف روبل في العام الثالث والرابع و ١٧٥ ألف روبل سنوياً في العام الخامس والسادس. وابتداء من عام ١٨٨١ تدفع خيوه كل عام ٢٠٠ ألف روبل حتى نهاية الغرامة. و يدفع القسط الأول في ديسمبر ١٨٧٣، أما باقي الأقساط فتدفع سنوياً في شهر نوفمبر من كل عام حتى تنتهي عام ١٨٩٢.

(٢) أنظر الخريطة ص ١٢-١٣.

تضمن روسيا لنفسها استتباب الأمن في المناطق التي تقع بالقرب من بحر قزوين، وأعربت عن آمالها بأن يصبح ذلك البحر بحيرة روسية في المستقبل القريب[١].

موقف شعب خيوة من الروس:

بعد توقيع المعاهدة وتوطيد الوجود الروسي في خيوة انسحبت القوات الروسية منها، وأعيد الأمير إلى الحكم، وكان يديره هذه المرة من خلال السيطرة الروسية المتمركزة في أراضيه، فسلطته حددت بديوان أو مجلس يتكون من سبعة أشخاص، وكان الأمير هو صدى المجلس، فلم يعد يملك من إدارة البلاد غير سلطة الفصل في المنازعات التي كانت تقع بين أفراد رعيته، وتعين حكام المقاطعات. وكانت جلسات المجلس أو الديوان تنعقد بالقرب من المعسكر الروسي[٢]. وهذا يوضح أن جميع الأمور التي كانت تعرض للمناقشة يجب أن تسير مع وجهة النظر الروسية، فلم يجرؤ الأمير أو غيره على معارضة ما تهدف إليه روسيا من قرارات وما شابه ذلك.

أما شعب خيوة، فبالرغم من انسحاب القوات الروسية من أراضيه إلا أنه ظل يستشعر بالخطر الروسي، ولم يوافق على المعاهدة التي عقدها الأمير مع الروس، ولم يظهر معارضته تلك إلا في الوقت الذي بدأ فيه الأمير جمع الأموال لتسديد القسط الأول من الغرامة فحينما أرسل مندوبه إلى مدينة قوقان Kokan لجمع الأموال، طالب سكان تلك المدينة الأمير بالتنصل من المعاهدة التي عقدها مع روسيا. أوضح الأمير عدم قدرته على استئناف الحرب من جديد ضد الروس، وإن إعدامه لمئة من المتعاونين مع الروس كان إعلاناً صريحاً عن رفضه لطبيعة العلاقات الجديدة بينه وبين روسيا. ومع هذا فلم يكن ما سرح به الأمير مقنعاً إقناعاً كافياً للقبائل، فقامت جماعات منها واحتجزت الخزينة الأميرية في قوقان ورفضت دفع الضرائب[٣].

---

(١) F.O. 539/11. No. 245. Lord. A. Loftus to Earl Granville. St. Petersburg. Dated Oct. 20. 1873. P. 248.

(٢) F.O. 539/11. No. 243. Captain Wellesley to Lord A. Loftus St. Petersburg. Dated Oct. 7. 1973, P. 240-242.

(٣) F.O. 539/11. No. 23. Lord A. Loftus to Earl Granville. Dated January 26, 1873. P. 317.

وقد أدى هذا العمل إلى إثارة سخط السلطات الروسية التي دفعت بقواتها من جديد إلى خيوة، ومع ذلك فلم يرتب الشعب الخيوي من هذه القوات، وهاجمت جماعات منه القوافل التجارية الروسية وألقت القبض على رجالها. وهذا يوضح مدى التذمر الشعبي من جراء الوجود الروسي في الأراضي الخيوية، وعجز الأمير عن فرض سلطته على عشائر بلاده الثائرة، بل إن الأمير وجد في سلوك الأهالي الموقف الذي عجز عن الوقوف فيه أمام السلطات الروسية.

اعتبرت روسيا هذه التصرفات في حد ذاتها نقضاً للمعاهدة وطالبت بعض الصحف الروسية بإلحاق أشد العقوبة بالثائرين كسبيل للمحافظة على الأمن والاستقرار في وسط آسيا. وأعلنت بأن الخان لم يعد قادراً على الوفاء بعهده، ويجب إرسال حملة للسيطرة على الأمور في خيوة [١].

وبالفعل تقدمت قوات عسكرية روسية من جديد لقمع ثورة شعب خيوة ونجحت هذه القوات في القضاء على حركة القبائل الثائرة.

أثر حملة خيوة في وسط آسيا:

ظلت بخارى تراقب عن بعد مسرح الأحداث، وحينما وجد أميرها أن الموقف في صالح روسيا أرسل مهنئاً القيصر على النجاح الذي حققته قواته في خيوة، وشكره على الأراضي التي ضمت لبخارى [٢] واعتبر ذلك تأكيداً لرباط الصداقة والمحبة بين روسيا وبخارى [٣]. ومن جهة أخرى فقد أرسل الجنرال كوفمان عدة رسائل إلى بخارى وأفغانستان موضحاً تطور الأزمة مع خيوة، وألقى بالمسئولية عليها وإن بلاده لا ترغب — على حد قوله — في التوسع على حساب خيوة أو في نشر نفوذ بلاده عليها، فقد أرجع أميرها إلى منصبه، وإن روسيا لا تقصد من وراء تحركها العسكري غير القضاء على تجارة الرقيق. وهذا يؤكد أن

---

(١) F.O. 539/11. No. 305 Lord A. Loftus to Earl Granville. Dated January 26, 1874. P. 317.

(٢) تنازلت روسيا لبخاري عن بعض الأراضي الخيوية التي تقع غربي بخاري، وقد نصت المعاهدة الخيوية الروسية على إعطاء روسيا حرية التصرف في الأراضي الخيوية التي تقع على الشاطىء الأيمن لنهر جيحون حتى ولو أدى الأمر إلى أن تتنازل عنها لبخاري. أنظر ص ٥٦.

(٣) Boulgar, Demetrius: England and Russia in Central Asia. Vol. I. P. 149-150.

الأطماع السياسية الروسية كانت تختفي وراء دوافع إنسانية.

موقف بريطانيا:

تميزت السياسة البريطانية تجاه النشاط الروسي في خيوه بإيجابية أكثر من بخارى، لاعتقاد البريطانيين في ذلك الوقت أن خيوه هي المفتاح الشمالي لحدودها الهندية. ولذلك نجد بريطانيا تتحرك سريعاً حينما بدأت روسيا استعدادتها العسكرية ضد خيوه خلال النصف الأول من القرن التاسع عشر لأنها كانت تخشى أن تكون الهند الخطوة التالية لتلك الاستعدادت [(١)] فقامت بالوساطة بين الطرفين في أواخر سنة ١٨٣٩ وأرسلت الكولونيل شكسبير إلى خيوه بهدف دراسة أسباب تذمر روسيا والعمل على إزالتها.

وقد قابل الخان المندوب البريطاني بكل مودة وأعلن عن استعداده لتقديم جميع المساعدات من أجل نجاح مهمته، ولقد خوله الخان حق تفتيش أي بيت يشك في وجود أسرى أو رهائن روس بداخله. ولقد أدى الموقف البريطاني هذا إلى دفع الأمور بين خيوه وروسيا بعيداً عن مرحلة الخطر.

وحينما عقدت روسيا مع خيوه معاهدة تجارية في أربعينيات القرن التاسع عشر، اعتبرتها بريطانيا انتصاراً للسياسة الروسية في المنطقة [(٢)].

وكان لهزيمة بريطانيا في الحرب الأفغانية الأولى (١٨٣٨-١٨٤٢) الأثر في تقوقع السياسة البريطانية في داخل شبه القارة الهندية، ولم تحاول بريطانيا القيام بأي نشاط فعال، ووقفت تراقب بحذر التوسع الروسي في وسط آسيا الإسلامية [(٣)] وتردد في بريطانيا سؤال: هل موقف روسيا في وسط آسيا الإسلامية سوف يضعف الوجود البريطاني في الهند أم سوف يقويه؟.

إن قطاعاً كبيراً من المثقفين البريطانيين كانوا إلى جانب التقدم الروسي في وسط آسيا الإسلامية بسبب اعتقادهم بأن ذلك التقدم سوف ينشر معه الحضارة

---

(١) أنظر ص ٤٨.

(٢) Boulgar, Demetrius: England and Russia in Central Asia. Vol. I. P. 150-151.

(٣) Correspodence Respecting the Relations Between British Government and that of Afghanistan since the asscession of the Ameer Shere Ali Khan. Government of India Foreign Department Secretary. P. 103-108.

والنظام والديانة المسيحية بدلا من الإسلام والجهل والفقر، بل أن بعض الصحف البريطانية أظهرت تشجيعها الكامل للزحف الروسي طالما انحصر اهتمام روسيا في تثبيت أقدامها فيما استولت عليه حديثاً من الأراضي. ولكنها في الوقت نفسه أبدت عن مخاوفها من منافسة روسيا اقتصادياً لبريطانيا في المنطقة.

في الهند، بدأ خوف سكان الأجزاء الشمالية يزداد منذ سنة ١٨٥٢ بسبب النوايا الايرانية للتوسع على حساب أفغانستان خاصة في مدينة حيرات وما أشيع عن التأييد الروسي لايران وتحريضها لها على القيام بعمليات عسكرية ضد أفغانستان.

وبعد هزيمة روسيا في حرب القرم بدأ ذلك الشعور يتلاشى، ولكنه ظهر ثانية خاصة بعد النجاح السياسي والعسكري الذي حققته روسيا في منطقة وسط آسيا الإسلامية منذ ١٨٦٥. بل أخذ هذا الشعور يتبلور في معنى أن تقدم روسيا في وسط آسيا يعني عدم تقدم بريطانيا.

وقدم المستر رولنسون H. Rawlinson والمستر لامسدن مذكرة باحتلال مقاطعات كويتا وجلال أباد وحيرات الأفغانية وطالبا بضرورة وجود مندوب بريطاني في كابول.

كما قدم اقتراح آخر يقضي بإرسال ضباط بريطانيين في صفوف الجيش الايراني أو احتلال خاروم Khoorrum لكن مثل ذلك الاحتلال أو حتى الوجود البريطاني الذي تطرق إليه كلا الاقتراحين يتطلب رضا الأمير الأفغاني، وهذا غير مضمون لبريطانيا، وحتى اذا ما أقر الأمير بوجود بريطانيا في المناطق السابقة الذكر، فإن ذلك الوضع سوف يؤدي إلى امتداد الحدود البريطانية، وبالتالي المشكلات والصعاب البريطانية إلى خاروم[١] وهذا ما تتحاشاه الحكومة البريطانية منذ سنة ١٨٤٢.

وحينما لم تصل حكومة الهند إلى تحديد واضح بشأن السياسة التي يجب أن تتبناها تجاه التوسع الروسي في وسط آسيا قرر الحاكم العام للهند المستر جون لورانس نقل هذه المشكلة برمتها إلى حكومة لندن التي بدأت تستشعر بالقلق تجاه السياسة الروسية في المنطقة، وكانت تخشى من أن يتواصل التقدم الروسي إلى بقية

(١) Ibid. Memorandum of Mr. H. Rawlinson on Central Asia Question. London. Dated. July 30, 1868. P. 31-41.

الإمارات الإسلامية التي لم تخضع بعد للسيطرة الروسية مثل خيوه أو مرو(١). أو أن تقوم السلطة العسكرية الروسية في المنطقة الإسلامية ببعض الاتصالات مع أحد الأمراء في الولايات الهندية، وذلك من شأنه أن يخلق لبريطانيا بعض المشاكل أو الصعوبات في المستقبل.

قررت حكومة لندن أن تضع المخاوف التي تتوقعها أمام الحكومة القيصرية(٢)، وكان من الواضح أن بريطانيا تريد إعلاناً من روسيا يزيل هواجسها، فلم تطلب ضمانات أو تعهدات من الحكومة الروسية للحد من سياستها التوسعية في المنطقة الإسلامية لأنها حتى ذلك الوقت كانت تعتقد بأن روسيا تقوم بدور حضاري وديني وسط تلك القبائل الإسلامية(٣).

وساد الإعتقاد بين الحكومتين الروسية والبريطانية بضرورة تحديد مصالح كل منهما في الأراضي الإسلامية. واقترحت بريطانيا في هذا الخصوص أنه من المجدي لكلا الطرفين أن تكون هناك ولايات مستقلة حاجزة بن النفوذ البريطاني والروسي. وكانت روسيا تميل إلى نفس الاتجاه. ووجدت بريطانيا في نهر جيحون حداً طبيعياً للفصل بين نفوذ الدولتين(٤).

وعلى ذلك فإن بريطانيا تكون قد سلمت بأن الأراضي التي تقع على الشاطىء الأيسر لنهر جيحون، إنما تخضع للنفوذ الروسي، في حين تخضع الأراضي التي تقع على الشاطىء الأيمن (أفغانستان) للنفوذ البريطاني.

إن مثل هذا التقسيم يكون أكثر فائدة لروسيا لأن الأراضي التي تقع في الجانب الروسي والتي تعتبرها بريطانيا حاجزاً من جهة روسيا ستكون لها عما قريب امتداداً سياسياً وعسكرياً بعكس بريطانيا فإن أفغانستان بالنسبة لها مغامرة صعبة المنال.

وليس معنى هذا أن بريطانيا ألقت جانباً الاهتمام بالأحداث التي كانت تجري في خيوه بصفة خاصة وبقية الإمارات الإسلامية بصفة عامة. فقد أثارت الاستعدادات العسكرية الروسية لغزو خيوه قلق بريطانيا التي كانت تخشى من

(١) Ibid. Memorandum of Mr. H. Temple. Dated. December 8, 1868. P. 66-67.

(٢) F.O. 539/9. Inclosure in No. 4. Extract from the Mossow Gazette February 14, 1869. P. 5.

(٣) F.O. 539/9. No. 21. Mr. Rumbhold to the Earlof Clarendon. St. Petersburg. Dated. April 6, 1869. P. 14.

(٤) F.O. 539/9. No. 52. The Earl of Clarendon to Sir A. Buchanan. Wiesbaden. Dated. Sept. 3, 1869. P. 44.

قيام الروس بعد سيطرتهم على خيوه بمواصله سياستهم التوسعية نحو الأراضي الأفغانية.

نفت الحكومة الروسية أن يكون القصد من وراء إجراءاتها العسكرية نحو خيوه إلحاق الضرر بالمصالح البريطانية، وأرجعت سياستها في المنطقة إلى هدف إنساني ينحصر في إطلاق سراح الأسرى الروس الذين احتجزهم خان خيوه وحماية القوافل التجارية (١).

كانت العلاقات بين روسيا وبريطانيا في ذلك الوقت حسنة، وكان ذلك ظاهراً من خلال التقارير والمقابلات الرسمية التي كانت تحدث في لندن وسنت بطرسبورج. وبناء على ذلك فإن بريطانيا لم تلتفت إلى مبعوث خان خيوه الذي أرسله إلى الهند لطلب المساعدة البريطانية ونصحته بأن يقبل أميره بالمطالب الروسية وأن يظهر النوايا المخلصة نحو السلطات الروسية.

بالرغم من أن هذا اعتراف من جانب الحكومة البريطانية بالنفوذ الروسي في خيوه إلا أنها ظلت تراقب بحذر التطورات التي كانت تحدث دون تبني سياسة نشطة في المنطقة. وكان ذريعة الساسة البريطانيين أن بلادهم قد وصلت إلى مرحلة التشبع الإستعماري (٢).

وكانت روسيا تؤكد نواياها السلمية بين آونة وأخرى في الوقت الذي كانت تدعم فيه وجودها وسيطرتها على المنطقة.

وقد أثارت سياسة جلادستون في فترة توليه الحكم للمرة الأولى انتقادات حكومة المستر دزرائيلي الذي عمد إلى تبني سياسة نشطة وكسر نطاق عزلة بريطانيا. وهذا ما سنتطرق إليه خلال عرضنا للفصل التالي.

وعلى ضوء ما سبق نستطيع القول أن روسيا وجدت في وسط آسيا الإسلامية النجاح السياسي والإقتصادي والعسكري الذي افتقدته في القارة الاوروبية. فقد كانت الدول الاوروبية تشجعها على مواصلة سياستها الإستعمارية الإستيطانية حتى تتجنب إثارة أزمات لها في القارة الاوروبية. كما أن الرأسمالية الروسية

---

(١) F.O. 539/9. No. 100. Sir A. Buchanan to the Earlof Clarendon St. Petersburg. Dated. December 29, 1869. P. 95.

(٢) Hinsley, F.H.: The New Cambridge Modern History Vol.XI. Great Britian and the British Empire, P. 383.

بدأت في دفع الحكومة القيصرية إلى تبني سياسة إستعمارية تعبيراً عن هويتها السياسية والإقتصادية أسوة بالرأسمالية الاوروبية الغربية.

ووجدت العسكرية الروسية في المنطقة الفرصة لكي تكشف عن جبروتها العسكري في وقت بدأت فيه الإمارات الإسلامية وبتشجيع من روسيا تتعرض لصراعات قبلية، الأمر الذي أدى إلى تعميق التفتت السياسي في تلك الإمارات.

وبالرغم من الفرق الشاسع في إمكانات وقدرات الطرفين، إلا أن القوى الإسلامية نجحت في الوقوف أمام القوات الروسية في بعض المواقع. ولو كانت القوات الإسلامية تنطلق من منطلق الوحدة في الداخل والإخاء الروحي والتعاون العسكري في المناطق المتاخمة لها لكانت النتيجة غير تلك التي حدثت.

وحتى لا تثير السياسة الروسية أية معارضة أوروبية تذرعت بالعوامل الإنسانية في دعم تغلغلها في المنطقة، وتمكنت في النهاية من بسط سيطرتها عليها.

ولم يكن ذلك نهاية مطاف أطماعها السياسية والعسكرية، فقد فرض عليها الوضع السياسي والعسكري الجديد ضرورة البدء في عمليات عسكرية جديدة أخرى في المنطقة التركمانية. وهذا ما سنتعرض إليه في الفصل التالي.

الفصل الثاني

مَوقِفُ بَريطانيا من التوسّع الروسيّ في المنطقة التركمانية ١٨٧٩ - ١٨٨٣

أشرنا فيما سبق إلى أن التركمان[1] قبائل مغولية الأصل كانت تنتشر في المنطقة الواقعة ما بين خيوه وبحر قزوين. وكان النظام القبلي هو السائد بينها. فكانت القبيلة هي الإطار السياسي والاجتماعي والعسكري بل (والحضاري) لكل فرد من أفرادها. وكانت الحروب تشتعل بين القبائل لمختلف الأسباب الأمر الذي دفع القبائل الصغيرة إلى البحث عن حليف يحميها من سطوة القبائل القوية حتى ولو كان هذا الحليف روسيا.

وعلى ضوء هذا افتقد التركمان الوحدة السياسية، وظلت الفوضى هي السمة البارزة للمنطقة. وحاول التركمان أن ينقلوا هذه الفوضى إلى أطراف الإمارات والدول الإسلامية المجاورة لهم، مما دفع تلك الدول والإمارت إلى إعداد الجيش وإرسالها لمعاقبة التركمان. ومع اقتراب الخطر الخارجي كانت القبائل التركمانية تتحد فيما بينها للتصدي للجيوش الغازية. وتمكنت بواسطة هذا الأسلوب من الانتصار على جميع الجيوش التي أرسلتها الدول والإمارات الإسلامية. وبذلك نجح التركمان في الاحتفاظ باستقلالهم.

على أن وحدة التركمان لم تعش طويلا، فبعد زوال الخطر الخارجي يرجع التركمان إلى حالة الفوضى والنزاع وشن الغارات وسلب القوافل التجارية التي تسير عبر أراضيهم.

وقد وجدت روسيا في الأوضاع الداخلية للتركمان ما شجعها على البدء في تنفيذ سياستها التوسعية في المنطقة ومما ساعد حكومة روسيا على التوسع في الأراضي التركمانية ظروف القارة الاوروبية.

أثرت هزيمة فرنسا على يد ألمانيا في موازين القوى في القارة الاوروبية فانهارت فرنسا كأولى الدول الاوروبية من الناحية الحربية وحلت محلها الدولة الالمانية التي أصبح لها قوة سياسية في القارة [2] وكان المستشار الالماني يدرك أن

---

(١) أنظر التمهيد: أهم القبائل التركمانية والمناطق التي تنتشر فيها.

(٢) د. محمد مصطفى صفوت: مؤتمر برلين وأثره في البلاد العربية، معهد الدراسات العربية ــ محاضرات ١٩٥٧، ص ١.

بلاده مهما كانت مواردها الاقتصادية وقوتها الحربية فهي ما برحت حديثة العهد، حديثة التكوين في القارة الاوروبية، وإن الانتصار الالماني قد أثار حقد بقية الدول الاوروبية. فقد خرجت بريطانيا من سياسة «العزلة المجيدة» التي اتبعتها لتجد فرنسا حليفة القرم قد تحطمت ووجدت دولة أعظم شأناً وأكثر قوة حلت محلها، فأخذت تشرف على وسط أوروبا وتسيطر عليه سيطرة قد تكون تامة. وكانت بريطانيا تخشى أن تتحول السيطرة السياسية الالمانية في المنطقة إلى هيمنة اقتصادية أيضاً، فأخذت تفكر في مصير أسواقها. وقد أدرك المستر دزرائيلي طبيعة الموقف الحرج الذي كانت فيه بلاده فعمد إلى اتباع سياسة نشطة في المجال الخارجي حتى يعود إلى بريطانيا مركزها المرموق في اوروبا والعالم.

وكانت روسيا في موضع لا يختلف كثيراً عن بريطانيا، فبعد هزيمة فرنسا وجدت على حدودها الغربية دولة قوية، واعترفت روسيا أنه ربما كان من مصلحتها ألا تترك فرنسا بهذا الشكل حتى لا تلقي المصير الذي لاقته. ولذلك وقفت مرتابة من ألمانيا والانتظار لأية فرصة تستطيع من خلالها الحد من قوة جارتها الغربية [١] ولكنها كانت في نفس الوقت لا تريد هي والنمسا أن تتطور الأمور إلى ما هو أعقد مما وصلت إليه [٢]. وكان بسمارك يقدر ذلك الموقف و يرى أنه من الحكمة السياسية جذب روسيا إلى جانبه نظراً لأهمية صداقة روسيا لمركز المانيا المتفوق في القارة الاوروبية خاصة وأن فرنسا بدأت نشاطها شبة المتواصل لتجنب أخطاء الماضي وتنمية قوتها، ثم وصول حزب اليمين بزعامة مكماهون إلى الرئاسة وما كان يهدفه هذا الحزب في التعاون مع روسيا والبابوية. وهذا يناقض تماماً مخطط المانيا الذي يرمي إلى عزلة فرنسا.

وحينما تأزمت العلاقة الالمانية الفرنسية من جديد، ولاح في الأفق خلال عام ١٨٧٥ قيام حرب بين الدولتين، استغاثت فرنسا بروسيا وبريطانيا، ووجدت فرنسا آذاناً مصغية في كل من العاصمتين، وأصبحت الدولتان تجدان في حيوية

(١) المرجع السابق، ص ١٢.

(٢) د. عبد العزيز نوار: التاريخ المعاصر ــ أوروبا من الثورة الفرنسية إلى الحرب العالمية الثانية، دار النهضة العربية، بيروت ١٩٧٣، ص ٢٩٢.

فرنسا على مسرح القارة الاوروبية ضرورة للتوازن في أوروبا، لأن زوال فرنسا يعني قدرة المانيا على فرض سيطرتها على مسرح أحداث القارة، وبالتالي يتلاشى النفوذ الروسي والبريطاني في اوروبا ـ اذا ما وجد ـ في هذا الوضع. ولذلك سارعت الملكة فكتوريا في الإعلان للامبراطور الالماني تحضه فيه على التمسك بالسلام.

واتجه بسمارك إلى تغيير سياسته تجاه فرنسا ووجد في الدولة العثمانية كبش الفداء الذي يقدمه لاوروبا. فليس لالمانيا أية أطماع بعد في الدولة العثمانية، ولا تحس بشيء من العطف نحو رعايا السلطان العثماني المسيحيين والمسلمين على السواء، ولكن الدولة العثمانية تفيد بسمارك في تنفيذ مخططه أو سياسته (التعويض) [1]. فقد وجد في تقسيم أملاكها بين روسيا والنمسا وايطاليا وفرنسا وبريطانيا الخير لاوروبا لأنها تشبع شهوات الدول الاوروبية من جهة، ومن جهة أخرى يضمن لبلاده الهدوء من أجل تدعيم قوتها السياسية والعسكرية والاقتصادية.

وكانت السياسة البريطانية قد تحولت بمرور الزمن من سياسة الحفاظ على كيان الدولة العثمانية إلى سياسة احتلال أجزاء من هذه الدولة أو اقتسامها، وذلك بعد سنوات من الاضطرابات المالية والتنظيمية التي اجتاحت الدولة العثمانية ومصر وتونس والاضطرابات الطائفية التي اشتعلت في سوريا ولبنان (١٨٦٠) فعملت على تقوية الوجود البريطاني في المناطق الاستراتيجية الهامة في الدولة العثمانية والتي تشرف على خطوط المواصلات العالمية، فاشترت أسهم قناة السويس تمهيداً للسيطرة البريطانية على القناة ثم مصر، وزادت من تحكمها التجاري والعسكري في الخليج العربي والعراق والتصدي في الوقت نفسه لأية محاولة روسية تهدف إلى التفوق في مضائق البسفور والدردنيل [2]، فتحركت سريعاً ضد الانتصارات التي حققتها روسيا في سان ستيفانو.

وكان المخطط العسكري البريطاني يهدف إلى الانقضاض على المواقع الروسية

---

(١) د. محمد مصطفى صفوت: مؤتمر برلين وأثره في البلاد العربية، ص ١٢-١٣.

(٢) د. عبد العزيز نوار: التاريخ المعاصر ـ أوروبا من الثورة الفرنسية إلى الحرب العالمية الثانية، ص ٢٩٦-٢٩٧.

في وسط اوربا وآسيا في وقت واحد[١] .

وكان الرأي العام الروسي متعطشاً لأخذ ثأره من بريطانيا التي حولت انتصار سان ستيفانو إلى هزيمة، وذلك عن طريق تحويل المسألة المصرية إلى مشكلة دولية والتصدي لاحتمال احتلال انجلترا لقناة السويس[٢]. وحينما فشلت روسيا في النيل من بريطانيا لجأت إلى القيام بعمليات عسكرية في المنطقة التركمانية على اعتقاد أنها تستطيع بعد تقوية مركزها في وسط آسيا الإسلامية الانتقام من بريطانيا أو تكون على الأقل في موقع تستطيع منه تهديد الوجود البريطاني في الهند.

أسباب التوسع الروسي في المنطقة التركمانية:

(١) تداخل الحدود:

بعد أن بسطت روسيا سيطرتها على بخارى وطشقند وسمرقند وخيوه أنشأت القواعد العسكرية على شاطىء بحر قزوين مثل كراسنوفودسك. ومما ساعدها على ذلك نهر الفولجا الذي يعتبر طريق المواصلات السهل والآمن والذي يجنب روسيا مشقة إرسال قواتها عن طريق اورنبرج وخيوه. وقد وجدت روسيا بعد انتشارها العسكري أن الأراضي التركمانية أصبحت تتوسط المراكز الروسية ما بين خيوه وبحر قزوين، وتقطع عليها سبل الإتصال المباشر. ولذلك كانت تتجنب روسيا إرسال القوافل التجارية عبر الأراضي التركمانية وتبعث بها على طول امتداد الحدود الايرانية ومرو، وتتحمل مشقة السير في هذا الطريق الطويل لأن التركمان ـ في أحيان كثيرة ـ لم يلتزموا بالتعهدات التي قطعوها على أنفسهم بالمرو الآمن والحر عبر أراضيهم للقوافل التجارية الروسية، فقد شنوا في كثير من الأوقات الغارات على تلك القوافل وأسروا بعض رجالها.

---

(١) سنتطرق إلى ذلك تفصيلاً في الفصل الثالث.

(٢) د. أحمد عبد الرحيم مصطفى: مصر والمسألة المصرية، ١٨٧٦-١٨٨٢ دار المعارف، القاهرة ١٩٦٥، ص ٢٦٢.

(٢) أسباب عسكرية:

كانت روسيا تتطلع إلى دمج أراضي التركمان في الدائرة العسكرية القوقازية. وبعد الاستقرار الروسي المنتظر في هذه المنطقة، فإن الآمال العسكرية الروسية كانت تتجه صوب الأراضي الأفغانية والايرانية.

كما أن السلطات العسكرية الروسية لم تغفل القوة الحربية التي سيقدمها التركمان في صفوف القوات الروسية، فقد أجمعت مختلف التقارير على قدرة التركمان في تقديم قوة حربية مقدارها ٨٠ ألف فارس [١].

العوامل المؤثرة في طبيعة الصراع الروسي التركماني:

اذا تفحصنا طبيعة المواجهة العسكرية بين روسيا والتركمان نلاحظ ما يأتي:

١) إن جبهة التركمان غير متماسكة بسبب الحروب القبلية المشتعلة في المنطقة الأمر الذي سهّل على روسيا مهمة التغلب على جماعات قبلية متفككة تفتقد عنصر التنظيم والقيادة.

وهذا عكس حال القوات الروسية التي تعتمد أساساً على حسن التنظيم والتحرك من خلال قيادة متمرسة على العمل الحربي.

٢) إن أسلحة التركمان أسلحة بدائية وتقليدية، في حين تميزت القوات الروسية بمعداتها الحربية المتطورة — في ذلك الوقت.

كما أن اسلوب المقاومة التركمانية كان يقوم على الكر والفر أما القوات الروسية فكانت تعتمد على اسلوب الخطط المدرسة والخندقة والاستقرار وهذا ما ساعد على تفوق روسيا على التركمان خلال مواجهتها معهم.

أساليب الإنتشار الروسي في المنطقة التركمانية:

(١) التمركز الحربي:

بدأت القوات الروسية تحركها في الأراضي التركمانية حينما توغلت قوات

(١) F.O. 539. 12. No. 81. Memorandum by Lord A. Loftus on Central Asia Question. P. 107.

روسية واحتلت مقاطعة منجشلق Mangyschlak ، ثم واصلت زحفها بعد ذلك واستولت على كراسنوفودسك على بحر قزوين بغرض ظاهري هو إخماد حركات القرصنة في بحر قزوين ومنع الغارات التركمانية. ولكنها في الحقيقة كانت ترمي من وراء ذلك جعل موطىء قدم لها على ساحل البحر كي تواصل سياستها التوسعية في الأراضي التركمانية فيما بعد.

وفي الوقت نفسه تقدمت قوات أخرى على نهر أترك واحتلت ميناء تشكزلر Tchickislar [1]. وكانت ايران تدعي سيطرتها على أجزاء من هذه المنطقة. وحتى لا تثير روسيا قلق الحكومة الايرانية فإنها أرسلت إلى ايران توضح لها بأن نهر أترك هو الحد الفاصل بين الدولتين [2]، وتستطيع روسيا من وراء هذا الاقتراح أن تضع تحت سيطرتها المباشرة مساحة من شاطىء بحر قزوين تمتد من منجشلق حتى مصب نهر أترك [3].

إن التنازل عن هذا المنفذ البحري ـــ حتى ولو قبلت به ايران ـــ ليس بالأمر الميسور على التركمان قبوله، فقد كانت طائفة منهم تعمل بالصيد والنقل البحري بين مختلف محطاتهم على ذلك الساحل وكانت روسيا تدرك أن الحل العسكري سوف يزيد التركمان عناداً وإصراراً على مقاومتها، ولذلك رجحت أسلوب التودد والتضليل عسى أن تكسب ود التركمان ويخضعوا لسيطرتها.

(٢) السياسة التوددية:

قام برسم هذه السياسة الجنرال لاماكين Lamakin. فقد اعتقد أن بلاده لا تستطيع أن تحقق أهدافها السياسية في السيطرة على المنطقة التركمانية عن طريق العنف والمواجهة العسكرية. فلجأ إلى سياسة أخرى يقنع بواسطتها التركمان بفائدة خضوعهم تحت السيطرة الروسية وقد تنوعت الأساليب التي استخدمها الجنرال الروسي خلال تطبيقه لسياسته الجديدة، ففي المنطقة المحيطة

---

(١) يقع ميناء تشكزلر شمال مصب النهر في بحر قزوين ـــ أنظر الخريطة.

(٢) أنظر الفصل السادس ـــ الحدود الإيرانية الروسية.

(٣) F.O. 539/12. No. 011. «Kavkas» and Other Papers P. 143.

بكراسنوفودسك سخر كل قدرته على الملاطفة والتضليل أثناء اجتماعه بزعمائها وطالبهم بترك حياة التنقل والترحال التي اعتادوا عليها، وحثهم على الاستقرار في تجمعات سكانية وشرح لهم أهداف بلاده السلمية والإنسانية التي ترمي إلى نشر الحضارة والعمران على نحو مشابه للسكان الروس. وأتاح لقبائل هذه المنطقة فرصة التأكد من صحة ما يدعوا إليه، فسمح لهم بزيارة الأحياء الروسية في كراسنوفودسك. وجال في فكر أولئك الزعماء من التركمان أن روسيا سوف تصنع لهم ما صنعته لرعاياها. ومن ثم نجح لاماكين في أن يزرع في نفوس البعض منهم الثقة التامة ببلاده. ومن فشل في كسبه عن طريق الإقناع والوعود، حاول أن يجذبه إلى صف بلاده عن طريق الهبات والأموال. وبهذا استطاع لاماكين أن يؤثر على مجموعة من الزعماء التركمان كان تأييدهم لروسيا بمثابة الخطوة الأولى في مخطط الجنرال الروسي.

وكانت الخطوة التالية أن يقوم أولئك الزعماء بدور الدعاة بين القبائل التركمانية الأخرى يحثون أفرادها على الانخراط تحت التبعية الروسية. وبالفعل انتشر الدعاة يدعون أقربائهم إلى قبول السيادة الروسية عليهم ونجحوا في إقناع ٧٠ زعيماً تركمانياً بنوايا الروس (الطيبة والإنسانية) نحو التركمان واجتمعوا مع الجنرال الروسي في ربيع ١٨٧٤.

وتمكن الجنرال لاماكين خلال هذا الاجتماع من شراء ود القبائل التي أعلنت عن استعدادها التام للخضوع تحت تأثير السياسة الروسية.

ومن جهة أخرى فقد حاول الجنرال الروسي إقناع القبائل التي احترفت التجارة والزراعة بأن حكومته لا تنوي تعطيل التجارة والزراعة بل تعمل على تنميتها، ومثل هذا الأمر لا يتحقق إلا في ظل إدارة مركزية قوية قادرة على حفظ الأمن والهدوء وحينئذٍ يجني الروس التركمان الفائدة معاً.

وقد وجدت هذه المحاولة ردوداً ايجابية لدى هذه القبائل فقد كانت في أحيان كثيرة تفقد تجارتها وحقولها نتيجة الفوضى التي تعيشها المنطقة.

(٣) استغلال النزاع القبلي:

يعتبر الصراع القبلي السمة السياسية للمنطقة التركمانية. ولقد حاول الجانب

الضعيف في هذا الصراع البحث عن حليف له لمساندته ضد القبائل القوية ولو كان هذا الحليف الحكومة الروسية التي تعتبرها المنطقة الإسلامية عدوها الأكبر. وقد وجدت الحكومة الروسية في هذا الوضع فرصة ذهبية لها، فتدخلت في الصراع القائم بين القبائل التركمانية وأخذت بيد العناصر الضعيفة والتي شعرت من خلال الدعم الروسي لها بالقوة. وبالتالي فرصة الانتقام من القبائل المعادية لها. وكان ذلك شعور عشائر جعفربائي Dkjafarabai وعطابائي Ata bai [(١)] فأعلن زعماؤها إلى الجنرال لاماكين عن رغبتهم الأكيدة في استقرار الروس الأبدي في إقليم القزوين، وكشفوا عن عجزهم وعدم قدرتهم لمواجهة هجمات التكه Teke وأنهم يأملون في قبول خضوعهم لروسيا والحصول على الحماية والشعور بالأمان والإحساس بالقوة لكسر شوكة أعدائهم.

كانت تلك فرصة ثمينة لروسيا حيث أن التركمان هم الذين دعوها للتدخل من أجل حمايتهم، بالتالي العمل على حماية رعاياها الجدد من التركمان ضد القبائل الأخرى المعادية للسياسة الروسية و(لرعاياها) من التركمان. وبذلك أصبح في حوزتها الحجة القوية للتدخل.

(٤) التهديد:

استغلت روسيا الظروف الجديدة التي هيأت لها فرصة التواجد السياسي في المنطقة التركمانية من أجل دعم مخططها الرامي إلى السيطرة التامة على القبائل التركمانية. وحينما لم تعط السياسة السلمية النتائج المطلوبة تحولت روسيا إلى اسلوب التهديد فأرسلت إلى زعماء التكة في ١٤ أبريل ١٨٧٤ تستعرض قوتها العسكرية التي استخدمتها خلال عملياتها العسكرية ضد كل من بخارى وخيوه، وتحذرهم من معاداة الروس. بل أنها طالبتهم في بعض الرسائل بالخضوع التام لروسيا كما فعل زعماء اليامون.

واعتقد الجنرال لاماكين أن القبائل التركمانية قد انصاعت لتهديداته وأن

(١) يبلغ تعدادهم ٧٥ ألف نسمة تقريباً، وينتشرون في الشتاء ما بين نهري أترك وجورجان. وفي الصيف على طول أوزبائي Uzbai (مجرى نهر جيحون القديم).
أنظر: F.O. 539, 12. No. 011. (Kavkas) and Other Papers. P. 144.

إقليم القزوين قد أصبح تحت السيطرة الروسية فطالب زعماء القبائل التركمانية بحضور الإجتماع الذي تقرر عقده في تل جوموش Tepe Gomuch خلال شهر يونيو ١٨٧٤. وحضرت عشائر التكة ذلك الإجتماع، وأبدت عن استعدادها التام لتنفيذ مطالب الروس لحماية القوافل التي تسير عبر الأراضي التركمانية، وأرسل زعماء التكة أبناءهم كبرهان لحسن نيتهم مع مبعوثي لاماكين.

ومما دفع التركمان عامة إلى قبول شروط الجنرال الروسي أنهم كانوا يتوقعون نظير موقفهم هذا أن تقوم روسيا بتقديم يد العون لهم والمساعدة ضد الأكراد والايرانيين، وحينما تأكد للتركمان أن الروس لم يلتزموا بأي تعهد لتقديم المساندة لهم، نقض بعضهم موافقته على قبول الشروط الروسية، فقامت جماعات من التكة بمهاجمة القوافل التجارية الروسية مما أدى إلى إثارة سخط الجنرال لاماكين فقام بطرد مندوبيهم وكلفهم إبلاغ زعمائهم بضرورة عقد إجتماع معه لمناقشة بعض الأمور التي تتعلق بحفظ الهدوء في السهوب وحرية التجارة. ورفض التكة الإذعان لأوامر لاماكين، بل أنهم تحرشوا ببعثة استطلاع روسية خلال شهر اغسطس ١٨٧٤.

إعتقد الجنرال الروسي أنه فشل في تحقيق أهدافه عن طريق التهديد فعاد ثانية إلى شراء ود القبائل بالأموال خلال ٧٥ ــ ١٨٧٦، وانساقت في هذا التيار عشائر معدودة من التكة، إلا أن الغالبية العظمى منها أعلنت عن استعدادها التام لقبول شروط الجنرال الروسي، ولم تكن هذه الموافقة إلا خطة من قبل هذه العشائر لكسب الوقت من أجل إعداد نفسها وتنظيم رجالها ثم عادت بعدها إلى مهاجمة الروس [1].

(٥) الأسلوب الحربي:

بعد فشل لاماكين في جذب التكة بالأسلوب السلمي والتهديد والوعيد، تحول إلى الأسلوب العسكري، ومما شجعه على تبني ذلك الأسلوب الإمدادات والتسهيلات التي تقدمها له بقية القبائل التركمانية خاصة قبيلة اليامون والموقف

(١) أنظر أيضاً: Ibid, P. 145.
F.O. 539/14. Inclosure No. 1. in No. 244. The Meshed Agent to Mr. Thomson Dated. June 16, 1877. P. 247.

السلبي الذي اتخذته ايران تجاه سياسة روسيا التوسعية في المنطقة [1]، وكان التكة في ذلك متمركزين في مركزين اثنين هما: قزيل أروات Kizzil Arvat والتل الأزرق (جوق تبه) Geuktepe.

الزحف الروسي على قزيل أروات [2]:

تحركت القوات الروسية في ربيع ١٨٧٧ نحو قزيل أروات وتمكنت القوات التكية في البداية من إلحاق بعض الخسائر بالقوات الروسية وجمع الروس قواتهم من جديد ونجحوا في السيطرة على قزيل أروات، وأعطى الروس التكة مهلة عشرة أيام إما أن يغادروا المكان أو أن يخضعوا تحت السيطرة الروسية. ولكن جزءاً كبيراً منهم هرب إلى جهات أخرى من الأراضي التركمانية [3].

وقد أدى الانتصار الروسي في قزيل أروات إلى شعور التركمان وخاصة الياموت بأن روسيا هي القوة الوحيدة في المنطقة، ولذلك سارعت بعض القبائل ــ التي كانت مترددة من قبل ــ في الدخول تحت السيطرة الروسية، كما أن روسيا تمكنت من خلال وجودها في قزيل أروات من ربط أراضيها في خيوه بشاطىء بحر قزوين [4].

الزحف الروسي على جوق تبه (التل الأزرق) [5]:

بعد النجاح الذي حققته روسيا في قزيل أروات تراجعت عدة جماعات من التكة وبدأت تتجمع من جديد في التل الأزرق الذي يبعد ٢٠٥ ميلا عن بحر قزوين.

وفي تلك الأثناء اشتعلت الحرب التركية الروسية، ولم تكن روسيا في وقت يسمح لها بتوجيه أنظارها إلى التكة فأرجأت مشروع غزوها لتجمع التكة في التل

---

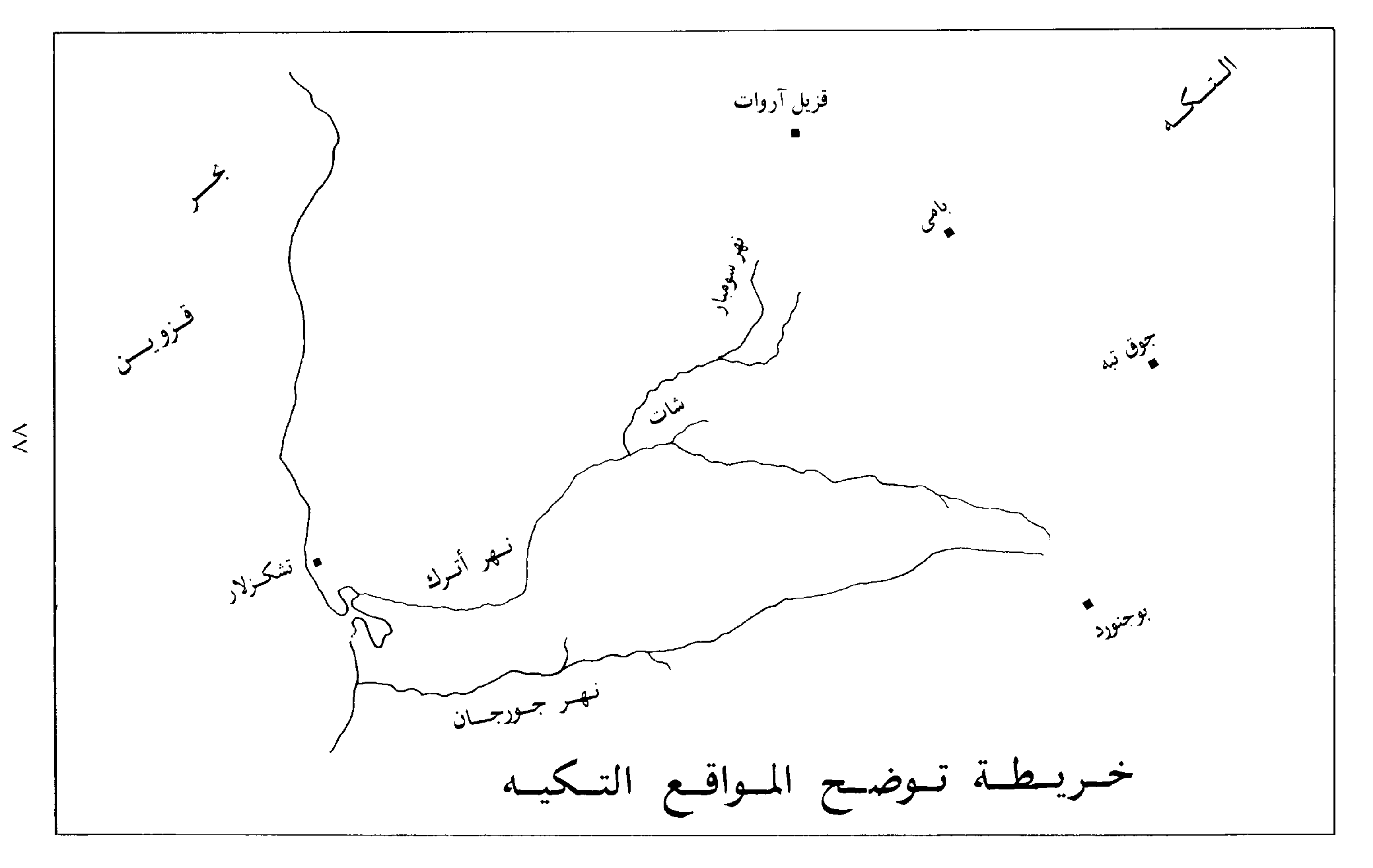
(١) سنتطرق إلى موقف إيران بعد قليل.

(٢) أنظر الخريطة ص ١٢-١٣.

(٣) F.O. 539/14. Inclosure No. 1. in No. 244. The Meshed Agent to Mr. Thomson. Dated. June 16, 1877. P. 247.

(٤) Curzon, George: Russia in Central Asia in 1889 and the Anglo Russian Question London Frist. Edition, 1889. Reprint, 1967. P. 78.

(٥) أنظر الخريطة ص ٧٨.



خريطة توضح المواقع التكيه

الأزرق حتى عام ١٨٨٠.

ومع بداية ١٨٨٠ بدأت روسيا إستعداداتها من جديد للزحف على تكة التل الأزرق وكانت تلك الإستعدادات تتمثل في:

ــ إنشاء خط حديدي امتد لقزيل أروات لتوفير سبل المواصلات.

ــ تعيين الجنرال سكوبيليف Skobegeff قائداً على إقليم القزوين وكان سكوبيليف يتمتع بشهرة في الأوساط العسكرية الروسية.

ــ السيطرة على حصن بامي Bami في ١٨ يوليو ١٨٨٠ مما مكن روسيا من فتح طريق جديد للمواصلات الروسية ما بين خليج مخائيل على بحر قزوين وقزيل أروات، ولقطع الطريق أمام التكة في الحصول على المياه من آبار عيدين Aidin [١].

بدأت الإشتباكات بين الجانبين حينما حاول التكة إبعاد الروس عن السيطرة على آبار عيدين. ولكن تلك المحاولة باءت بالفشل. وتوصل الطرفان إلى اتفاقية، كان قبول التكة بها مجرد محاولة لكسب الوقت حتى يكون لديهم فرصة كافية لتنظيم صفوفهم، عادوا بعدها إلى الإلتفاف حول المعسكر الروسي في بامي وسدوا جميع الممرات المؤدية إليه [٢]، واضطرت القيادة الروسية إلى طلب التعزيزات. وكان هناك شك في نجاح روسيا في السيطرة على القلعة نظراً لروح التذمر التي تسربت في نفوس الجند نتيجة للعمليات العسكرية التي يقومون بها بعيداً عن

---

(١) أنظر الخريطة ص ١٢، ١٣.

(٢) قام الجنرال سكوبيليف في ١٤ يوليو ١٨٨٠ على رأس قوات روسية بعملية استطلاع في اتجاه التل الأزرق واقترب من قلعة التل نفسه، ونجح في ١٨ يوليو في السيطرة عليها. رجعت قوات سكوبيلوف بعد نجاحه إلى بامي ومن المرجح أن تراجعه كان بسبب شعوره عن احتمال قيام التكة بهجمات انتقامية ضده، ومما يؤكد ذلك ن التكة شنوا عدة غارات للثأر من الروس خلال الأيام الأولى من شهر أغسطس على طول المواقع الروسية بين بامي ودوزلام Dozolum كذلك اشتبكوا مع القوات الروسية في ٢٣ سبتمبر بالقرب من كاره سنجير Kara Singir وكان هدف التكة من وراء ذلك هو إبعاد الروس عن إمدادات المياه الموجودة في أبار عيدين.

أنظر:

F. O. 539 19. Inclosure No.2 in 56. Extract from «Invalidie Russe» Dated 1. 13. 1881. P. 34-35.

مراكزهم الموجودة على بحر قزوين.

حاول الجنرال سكوبيليف أن يبث الفرقة بين التكة عن طريق جذب تكة مرو لروسيا، فاجتمع مع ٥٠ من زعماء تكة مرو في سبتمبر ١٨٨١ وأفرغ ما في جعبته من تلطف وإغراء مادي. ومع ذلك فقد فشل في بث الفرقة بين صفوف التركمان، إذ استمر تكة مرو في دعم وإمداد أقربائهم (١).

قام سكوبيليف في ٢٠ ديسمبر ١٨٨١ باقتحام قلعة جانجي Jangi على مقربة من التل الأزرق من جهة الجنوب، ولقد بذل التكيون مجهودات كبير لاستعادة الموقع الذي فقدوه، ولكن المدفعية والمشاة الروسية كانت تصدهم في كل محاولة.

ومع بداية ١٨٨٢ رسم سكوبيليف خطة لاقتحام الحصن، ونجحت تلك الخطة في تحقيق الهدف الذي كان يرمي إليه الجنرال الروسي فقد تمكن بواسطتها من السيطرة على الحصن، وفر بعض التكة إلى مرو، في حين أخذ معه ما يقرب من ٤ آلاف أسرة (٢).

وكان الجنرال الروسي يهدف من وراء هذا العمل إلى تمزيق وحدة التكة عن طريق إجبارهم على الإقامة في مناطق متفرقة حتى يسهل على روسيا السيطرة على المكان دون معارضة تخشاها.

وقد ترك الإنجاز الذي حققه الجنود الروس أثره من معنوياتهم. فبعد أن كانت روح التذمر هي السائدة بينهم نتيجة للعمليات المرهقة التي يقومون بها

---

(١) F.O. 539/18. No. 73. Mr. Thomson to Earl of Granville. Tehran Dated. July 24, 1882. P. 78.

(٢) بلغ تعداد القوات الروسية مع بداية ١٨٨٢ (١٢) ألف من جميع الأسلحة فضلاً عن قوات أخرى مزودة بـ ١٨ مدفعاً وكانت مخندقة على بعد ميل من التل الأزرق، وكانت كل يوم تقوم بطاريات المدفعية الروسية تحميها قوات من الفرسان بضرب مواقع التكة بالمدفعية داخل التل الأزرق. ورسم سكوبيليف خطته لاقتحام الحصن. وكانت هذه الخطة تتلخص في وضع الألغام في الجزء الشرقي من حصن التل والذي يمثل ثقل المدافعين التكة. وحينما انفجرت الألغام نشرت الذعر في صفوف المقاومة التكية فضلاً عن حرق العديد منهم. وفر الباقي إلى مرو. وحاول أحد الزعماء أن يبث روح المقاومة إلا أن صرخاته تلاشت مع الضجيج وألسنة النيران الملتهبة.

أنظر:

F.O. 539/20. No. 144. Sir. Thoranton to Earl Granville, St. Petersburg Dated. Oct. 31, 1881. P. 102.

بعيداً عن بحر قزوين، أعلنوا عن استعدادهم للعمل في أن مكان [١] فاندفعوا في عمليات جديدة ضد التركمان كان من نتيجتها أن ضموا الأراضي الواقعة بين قزيل أروات وعشقباد إلى الإمبراطورية الروسية.[٢]

موقف ايران:

اتصف موقف ايران بالسلبية تجاه الأحداث التي كانت تجري في الأراضي التركمانية، ولم تبعث بالدعم والمساندة إلى القبائل التي تعتبر ضمن رعاياها. فقد أرسلت بعض القبائل التركمانية التي تعيش على نهر جورجان والتي تدعي ايران سيادتها عليها إلى حكومة طهران لاستشارتها بشأن الأعمال التي تقوم بها روسيا في المنطقة والقوة التي تتمتع بها لدرجة أن تلك القبائل بدأت تخشى روسيا.

رد حاكم أسترآباد ــ الايراني ــ موضحاً أن الأراضي التي تبعد ٦ أميال عن استرآباد ــ وهي المسافة تقريباً إلى نهر أترك ــ إنما هي أراضي ايرانية، وليس من حق الحكومة الروسية ــ كما أعلن الحاكم الايراني ــ التدخل في شئون القبائل التي تعيش على نهر جورجان.

وعلى المستوى الحكومي، أرسلت الحكومة الايرانية برقية إلى حاكم استرآباد تطالبه بالذهاب مع قوات ايرانية إلى مكان يدعى «القلعة» لإبداء التعاطف الايراني مع التركمان، وأظهرت الحكومة الايرانية في برقيتها أن التدخل الروسي في شئون التركمان ــ في هذه الجهة ــ غير قانوني. وحثتهم على عدم التعرض للقوافل التجارية التي تسير في أراضيهم.

ولتأكيد سيادة ايران على المنطقة، أخذ الحاكم الايراني أسماء بعض الزعماء لكي تمنحهم حكومته النوط والمرتبات السنوية[٣].

إن الإجراءات التي اتخذتها ايران كان كلها تجري في الخفاء فلم تجرؤ على مواجهة روسيا أو حتى الاعتراض على سلوكها تجاه القبائل التركمانية والايرانية،

---

(١) F.O. 539/19. No. 132. Consul Lyall to Earl Granville Tiflis. Dated Febr. 5, 1881, P. 108.

(٢) F.O. 539/20. No. 32. Mr. Wyndham to Earl Granville. St. Petersburg. Dated. July 20, 1881. P. 29.

(٣) F.O. 539/14. No. 9. The Astarabed Agent to Mr. Taylour Thomson, P. 6-7.

بل إن الشاه الايراني أعرب صراحة أن ايران غير قادرة على رفض طلب روسيا حتى ولو كان التنازل عن مقاطعة استرآباد (١).

وقد أعطى موقف ايران الضعيف هذا المجال العريض لروسيا كي تمارس أطماعها السياسية في المنطقة التركمانية التي أخذت قبائلها في الخضوع تدريجياً للسيطرة الروسية، بل إن بعضاً من تلك القبائل مثل الياموت أعطت تعهداً كتابياً للقيصر الروسي بالعيش بسلام وبدأ أفرادها في تعلم اللغة الروسية. ومنحت الحكومة الروسية حرية التنقل في أراضيها للقبائل التي تسير على ضوء تعليماتها.

ونتيجة لتلك السياسة فإن روسيا أصبحت تسيطر على قطاع كبير من القبائل التركمانية، فساد الإعتقاد بأن نهر أترك قد أصبح ضمن الأراضي الروسية، بعد أن كان الحد الفاصل بينها وبين روسيا (٢).

الموقف البريطاني:

مع ازدياد الزحف الروسي في الأراضي التركمانية، ارتفعت بعض التحذيرات إلى الحكومة البريطانية لمواجهة ذلك الزحف. وكانت الحكومة الروسية تعلن التأكيد تلو الآخر إن ازدياد توسعها يعني زيادة ضعفها عسكرياً واستنزاف طاقاتها الاقتصادية، وإن ما تفعله روسيا، إنما هو ضرورة ملحة لحماية حدودها.

ولقد أثارت اتصالات الجنرال لاماكين مع القبائل التركمانية قلق الحاكم العام للهند الذي وجد في سياسة روسيا في المنطقة ما يتعارض مع التفاهم الروسي البريطاني حول ضمان سلامة واستقلال الأراضي الايرانية ولذلك طلب من السفير البريطاني في طهران تحريض الحكومة الايرانية على الاحتجاج على سياسة روسيا في المنطقة التركمانية (٣).

وفي لندن، فقد كان المستر ديربي Derby وزير الخارجية البريطانية لا يؤيد

---

(١) F.O. 539/14. No. 48. Extract from the Turkestan Russian Gazette. Published at Teshkend Dated. Sept. 2, 1879, P. 18.

(٢) F.O. 539/14. No. 20. Mr. T. Thomson to Earl of Derby Tehran. Dated. Oct. 3, 1874. P. 37-38

(٣) F.O. 539/14. No. 40. Earl of Derby to Mr. T. Thomson. F.O. Dated January 8, 1875. P. 29.

فكرة الاحتجاج لأن النشاط الروسي في تلك الجهة ـ حسب اعتقاده ـ لم يكن على مستوى كبير أو خطير حتى يسيء للعلاقة الروسية الإنجليزية (١) ومع ذلك فقد حول السفير البريطاني في سنت بطرسبورج بتوضيح الأخطار التي ستواجه التقدم الروسي ضد التكة بما فيهم تكة مرو.

لم تكن وجهة النظر البريطانية هذه التي أبدتها لروسيا حباً في الروس أو حرصاً منها على مصلحتهم، فقد كان يشغل بريطانيا في ذلك الوقت العديد من المشكلات الدولية مثل: المنافسة الاستعمارية في مصر والصراع على ممتلكات الدولة العثمانية.

أكد القيصر الروسي ووزير خارجيته جورتشاكوف أن روسيا لا تقصد من وراء عملياتها العسكرية في الأراضي التركمانية إلى السيطرة على المنطقة أو الاعتداء على القبائل التركمانية، وأن ما تتخذه من اجراءات عسكرية إنما بهدف الدفاع عن النفس، وأنها لا تفكر كلية في التقدم لاحتلال مرو، وأن سوء الفهم الذي أدركته بريطانيا من رسائل لاماكين إلى التركمان قد جاء بدون قصد أو هدف مبيت (٢) وكانت تلك الرسائل على حد زعم ستريموفشيف M. de. Stremoovcheff مدير القسم الاسيوي بوزارة الخارجية الروسية ـ تطالب القبائل بالوئام والمحبة وتأمين طرق التجارة وتحذير بعض القبائل المتمردة بضرورة الالتزام بالهدوء والسكينة (٣).

ولا شك أن ما أعلنه ستريموفشيف كان نوعاً من الملاطفة والاسترضاء فقد كان جوهر اتصالات لاماكين هو حث القبائل التركمانية على الخضوع التام للسيادة الروسية.

ومن ناحية أخرى، فقد ورد في بعض الصحف البريطانية المخاوف التي يتوقعها الانجليز من جراء التقدم الروسي وأخطاره على المصالح البريطانية في وسط

---

(١) F.O. 539/14. No. 37. Lord Tenterden to Sir. L. Mullet. F.O. Dated December 28, 1874. P. 28.

(٢) F. O. 539/14. No. 40. Earl Derby to Mr. T. Thomson. F. O. Dated. january. 8, 1875. P. 29.

(٣) F. O. 539/14. No. 5. Lord A. loftus to Earl Derby. st. Petersburg. Dated june 24, 1874. P. 3-6.

آسيا، والوجود البريطاني في الهند.

ورداً على تلك المخاوف، فقد تناولت صحيفة الموسكوجازيت في ١٧ يوليو ١٨٧٥ الهواجس البريطانية، وأوضحت المبالغة الانجليزية في توسع روسيا في وسط آسيا، وأكدت استحالة وصول القوات الروسية إلى الهند وانه من الصعب على حد رأي الصحيفة أن يحاول أي مسئول روسي تنفيذ تلك الفكرة. ولكن خوف البريطانيين في رأيها يرجع إلى قيام علاقات دائمة بين روسيا وأفغانستان يكون من نتيجتها وقوع أفغانستان تحت تأثير النفوذ الروسي، وهذا سيكون دعماً للجماعات المتمردة داخل شبه القارة الهندية (١).

ومن ناحية أخرى فإن استقرار الروس في أفغانستان سوف يقلق بريطانيا في حالة قيام حرب اوروبية لأنه سوف يجعل ميزان القوة لصالح روسيا وخصوصاً اذا استغلت روسيا فرضة وجودها في أفغانستان في ضرب الوجود البريطاني في الهند (٢).

وقد أثار الاحتلال الروسي لقزيل أروات ضجة في العاصمة البريطانية اعتبرته الحكومة نتيجة لسلبية ايران. وساد الاعتقاد بين السياسيين البريطانيين أن روسيا هي القوة الوحيدة في المنطقة، فقد دفعت بمواقعها إلى القرب من حيرات ومرو، وبسطت سيادتها على صحراء خيوه التي تقع بين خيوه وايران، وإن الاحتلال الروسي لها سيجعل الباب مفتوحاً لغزو ايران، واذا ما تقاعست الحكومة الايرانية عن القيام بالدفاع عن أراضيها فإن المسئولية تقع على شعب وزعماء خراسان (٣).

أرسلت وزارة الخارجية البريطانية إلى السفير البريطاني في العاصمة الروسية توضح وجهة نظرها في أن التحرك العسكري الروسي على طول السهوب التركمانية وفي اتجاه وادي «أترك» وإعلان لاماكين للسير لمعاقبة التكة لا يمكن أن يكون بدون أوامر صادرة من القيادة العسكرية الروسية وإن الحكومة البريطانية في أكثر من مرة بينت للحكومة الروسية النتائج الوخيمة التي تعقب ذلك، كما لفت المستر جرانفيل نظر الخارجية الروسية إلى المخاوف التي يبديها الأمير الأفغاني، اذا

---

(١) F.O. 539/14. No. 67. Extract from the Russian Moscow Gazette. P. 63.

(٢) ندرس ذلك بالتفصيل في الفصل الثالث.

(٣) F.O. 539/14. No. 67. Extract from the Russian Moscow Gazette. P. 63-64.

ما تواصل الزحف الروسي إلى مدينة مرو لأن التقدم الروسي في هذا الإتجاه سوف يدفع بعض القبائل التركمانية إلى اللجوء إلى أراضيه، وإن استقلال أفغانستان في نظر الحكومة البريطانية هام لسلامة الهند بصفة خاصة والهدوء في وسط آسيا بصفة عامة، وإن الأمير الأفغاني سيجد نفسه في محنتين نظير هجرة التركمان.

الأولى: انتشار الفوضى في أراضيه.

الثانية: مسئولية ضبط القبائل ومنعها من غزو الأراضي التي طردتهم منها روسيا واستفسرت الحكومة البريطانية «إلى متى ينتهي دور روسيا الحضاري في وسط آسيا، وإن النشاط الروسي في المنطقة التركمانية سوف يؤدي إلى تعقيدات ضد مصالح كل من روسيا وبريطانيا...»[(١)].

وأكدت الحكومة الروسية أن نشاطها كان متمركزاً في المناطق العليا الشمالية من الأراضي التركمانية وإنها لم تمد حدودها في جهات لم يعلن سكانها عن رغبتهم في الخضوع للسيطرة الروسية. ولكن الحكومة البريطانية أصرت على أن تصدر روسيا أوامر واضحة لقيادة اقليم القزوين تمنعها من القيام بأية عمليات عسكرية داخل الأراضي التركمانية، وعدم التقدم إلى المناطق المجاورة لمرو لأن بريطانيا وجدت في التقدم الروسي توسعاً عسكرياً وسياسياً، وليس كما تدعي روسيا أنها إجراءات تقوم بها بهدف حماية التجارة. لأن حجم العمليات العسكرية الروسية لا يظهر أن المقصود منها حماية التجارة كما أن تجارة روسيا في المنطقة التركمانية لم تكن بذلك الحجم الذي يستدعي منها القيام بكل هذا النشاط العسكري[(٢)].

أثر معاهدة سان ستيفانو على وسط آسيا الإسلامية:

بعد انفجار الحرب التركية الروسية ١٨٧٦ وزحف القوات الروسية إلى القرب من القسطنطينية عقدت معاهدة سان ستيفانو بين الطرفين في ٣ مارس ١٨٧٨، وقد استولت روسيا بمقتضاها على قارص واردهان وأرضروم[(٣)] كما أدت هذه

(١) F.O. 539/14. No. 250. The Earl of Derby to Lord of A. Loftus. F.O. Dated June 15, 1877. P. 234-236.

(٢) F.O. 539/16. No. 84. The Marquis of Salisury to the Earl of Dufferin. F.O. Dated Feb. 26, 1879. P. 73.

(٣) د. عبد العزيز نوار: التاريخ المعاصر، أوروبا من الثورة الفرنسية إلى الحرب العالمية الثانية، ص ٢٩٩.

المعاهدة إلى ظهور دولة بلغاريا الكبرى. وكانت الدولة العثمانية تدرك لحظة موافقتها على استقلال بلغاريا أن هذا سوف يثير معارضة الدول الكبرى وخاصة بريطانيا[١] التي شعرت بأن روسيا سوف تمد نفوذها عن طريق بلغاريا إلى قلب الدولة العثمانية، وبالتالي تصبح هذه الدول تحت رحمة روسيا، كما أن سيطرة روسيا على قارص واردهان وأرضروم وعلى معظم أرمينيا سوف يجعل في مقدور الجيش الروسي تهديد شمال العراق والخليج العربي، وبالتالي الهند[٢].

ولذلك تحركت بريطانيا سريعاً لمواجهة هذا الخطر الذي تصورته من وراء معاهدة سان ستيفانو فأعدت جيشاً بلغ تعداده ٣٠ ألفاً لعبور أفغانستان كي يهاجم الممتلكات الروسية في وسط آسيا. كما أنها استخدمت مبعوثون أتراك ليقوموا بمهمة تأليب سكان المنطقة الإسلامية ضد روسيا، وبذلك تنجح بريطانيا في فتح جبهة جديدة على روسيا ـــ الأمر الذي قد يدفعها إلى تخفيف حدة اندفاعها في البلقان. ومما أكد الحرص البريطاني على البعثة التركية والأهمية التي تنتظرها من ورائها أنها أرسلت بعض الضباط الإنجليز ضمن البعثة التركية[٣].

هذا إلى جانب أنها أرسلت بعثة بقيادة الكابتن نبير Napier إلى الحدود الايرانية التي تجاور الأراضي التركمانية، وقد ارتاب الروس من النوايا البريطانية التي تختفي وراء إرسال هذه البعثة. وكان ما يثير المخاوف الروسية أن تعمل البعثة على تأليب السكان التركمان ضد الروس.

أعلنت الحكومة البريطانية من جانبها أنها لم ترسل البعثة إلى الحدود الايرانية لهدف معاداة الروس، وإنما لجمع المعلومات الطبوغرافية. كما ادعت على لسان المستر سالزبرى أنه ليس لبريطانيا أية مصلحة في إثارة القبائل التركمانية. وإنما مصلحتها في هدوء تلك المناطق حتى تحرز تقدماً في مجال الصناعة والتجارة[٤].

إن الادعاء البريطاني هذا كان بعيداً عن الصحة، ومن المرجح أن يكون الهدف البريطاني من وراء النشاط الذي قامت به في الأراضي التركمانية على

(١) F.O. 539/16. Inclosure No. 2. in No. 503. Extract from the «Novoe Vremya» of Oct. 23./Novomb. 4, 1879, P. 462.

(٢) Hinsley, F. The New Cambridge Modern History Vol. XI. International Relations. P. 547.

(٣) د. عبد العزيز نوار، التاريخ المعاصر، ص ٣٠٠.

(٤) F.P. 539/16. No. 84. The Marquis of Salisbury to the Earl of Dufferin F.O. Dated Fehr 26, 1879. P. 73.

الحدود الايرانية هو أن تقنع تلك القبائل بقبول خضوعها تحت السيطرة الايرانية، وهذا المعنى لا يبتعد كثيراً عن تأليب القبائل ضد روسيا. وكيف تفتش بريطانيا على تقدم الصناعة والتجارة في مناطق أكدت في معظم مراسلاتها بأن النظام البربري هو الذي يسود فيها(١).

الزحف الروسي على مرو(٢):

فشلت بريطانيا في محاولة وقف التوسع الروسي في المنطقة التركمانية وواصلت روسيا سياستها التوسعية، وكانت مرو هي الهدف التالي لتلك السياسة.

ومن الطبيعي أن تتطلع روسيا لمرو نظراً لمكانتها التجارية وأهميتها الاقتصادية، بالإضافة إلى هدف روسيا العسكري في السيطرة على الطريق الذي يبدأ من بحر قزوين ثم يمر بأسفل الجزء الشمالي من مرتفعات خراسان، ثم استرآباد وأبياورد Abiverd حتى مرو(٣) إلى جانب رغبة روسيا في الانتقام من تكة مرو الذي قدموا المساعدة والدعم لأقربائهم في التل الأزرق وقزيل أروات.

ولم تكن فكرة السيطرة على مرو وليدة الإنتصار الروسي على التكة في التل

---

(١) F.P. 539/16. No. 438. Mr. T. Thomson to the Marauis of Salisbury. Tehran. Dated. Sept. 1879. P. 398.

(٢) تتمتع مرو بسمعة عريضة نظراً لمكانتها التجارية في وسط آسيا. وكان يسكنها التركمان وينقسم تركمان مرو إلى ثلاث قبائل:

الأولى: التكة، وهي قبيلة قوية تسكن في الشمال الغربي من قزيل أروات. ومن أهم عشائرها الأخال Akhal التي تقطن المنطقة الواقعة بين قزيل أروات وأنيف Anef. ولقد لعبت هذه العشيرة دوراً هاماً في مقاومة الروس أثناء تقدمهم في الأراضي التركمانية وينقسم أخال مرو إلى قسمين الأول توختامش Tokhtamish وهو أكثر عدداً من القسم الثاني الذي يسمى أوتامش Utamish وكان كل منهما عدواً للآخر. وفشلت محاولات توحيد القسمين الأمر الذي مكن لاماكين من التسرب إلى القسم الثاني وبني معه اتصالاته.

القبيلة الثانية: سالور Salor وهي القبيلة الحاكمة في مرو.

القبيلة الثالثة: الساريك Sarik وتسكن في المناطق الواقعة بالقرب من الحدود الأفغانية. ويبلغ تعداد كل قبيلة ٥٠ ألف نسمة وتبلغ مساحة مرو حوالي ٣٢٦٧ ميلاً مربعاً منها ٢٧٠٠ صالحة للزراعة، وإن التكوين الجغرافي لمرو قد جعلها تعتمد على الزراعة بالدرجة الأولى، ومن ثم فقد أقامت السدود والقنوات وينمو فيها القمح والقطن بالإضافة إلى تربية دود القز وأنشأت فيها مصانع الحديد. أنظر:

Boulgar, Demetrius: England and Russia in Central Asia Vol.1. P. 223-227.

(٣) F.P. 539/11. Rawlinson Memorandum Regardin the Russian Expedition to Merve. P. 295.

الأزرق، فقد تردد في سبعينيات القرن التاسع عشر اقتراحاً لغزو مرو، ولكن روسيا لم تكن قد وطدت بعد نفوذها في خيوه. وخلال سهر ديسمبر ١٨٧٣ هاجم التركمان قافلة تجارية روسية كانت في طريقها من بخارى إلى خيوه، وحملوا البضائع التي كانت تحملها إلى مرو.

ثار القائد العسكري الروسي في المنطقة التركمانية ضد هذا التصرف وأخذ يتوعد تركمان مرو بأشد العقوبة إذا لم يعملوا على إطلاق سراح القافلة (١)، ولكن الجماعة التي قامت بذلك العمل رفضت تنفيذ الطلب الروسي إلا اذا قدم لهم الروس مبلغاً من المال(٢).

ومن الجدير بالذكر أن أهالي مرو لم يعتدوا على القافلة الروسية، وإن الذي قام بمهاجمة القافلة الروسية جماعة تركمانية من خارج مرو، وقد حمل الروس أهالي مرو مسئولية الإعتداء على القافلة، وكان القصد من ذلك اتخاذها ذريعة للقيام بغزو المدينة ولكن ظروف روسيا السياسية لم تساعدها على القيام بالغزو خاصة وإن نفوذها في الأراضي التركمانية لم يستقر بعد، وتخشى أن يقوم التركمان بقطع خط الرجعة عليها في حالة غزوها مرو، ولذلك أرجأت مشروع الغزو للمرة الثانية.

أثر مؤتمر برلين على الوضع في وسط آسيا:

بعد سحب الانتصارات السياسية والعسكرية التي حققتها روسيا في سان ستيفانو، تحولت إلى تحقيق مكاسب لها في وسط آسيا فدفعت بقواتها في اتجاه مرو خلال شهر مارس ١٨٧٩ تحت قيادة الجنرال لاماكين والجنرال لازاريف Lazareff (٣).

وحينما وصلت أخبار المحاولة الروسية إلى مرو، عمد زعيمها إلى تقوية جبهته الداخلية عن طريق قيام مصالحة وطنية بين مختلف العشائر من جهة، وإزالة سوء الفهم الذي كان قائماً بينه وبين بعض العشائر من جهة أخرى، كما أقام

---

(١) F.O. 539/12. Inclosure No. 1 in No. 2. Meshed Agent to Mr. T. Thomson. Dated December 9, 1873, P. 53.

(٢) طلب التركمان فدية للقافلة قدرها ٢٠ ألف تومان، والتومان عملة فارسية.

(٣) F.O. 539/16. No. 157. Consul Churchill to Mr. T. Thomson Resht. Dated. March 11, 1879, P. 143.

التحصينات [١]، وأرسل بعض الجماعات والفرسان للتحرش بالروس على أمل تقسيم القوات الروسية إلى عدة أقسام، يكون من السهل عليه مواجهة كل واحد منها على حده.

ومن ناحية أخرى، فقد حاول زعيم مرو أن يقيم تحالفاً إسلامياً يشمل ايران وأفغانستان. وقد أبدت أفغانستان استعدادها الكامل لتقديم العون المادي، مثل الأموال والعتاد الحربي لأنها لا تستطيع أن ترسل قوات عسكرية نظامية إلى مرو خاصة وإن أفغانستان تتوقع أن تقوم بريطانيا بالاعتداء على أراضيها.

وبعد دراسة قدرة مرو العسكرية، شعر الأمير نور وردي خان بعجزه عن الوقوف في وجه الروس بدون مساعدة خارجية ــ الأمر الذي دفعه إلى قبول خضوع بلاده تحت السيطرة الروسية بدون قتال.

السيادة الروسية على مرو:

كانت مرو في فترات سابقة جزءاً من ممتلكات خيوه، فأرسل الحاكم العام لطشقند إلى خان خيوه يطلب منه إرسال مبعوث إلى مرو يطالب سكانها بتنفيذ الشروط الروسية وإطلاق سراح الأسير الروسي الذي احتجزته بعض الجماعات التركمانية، وعدم قيام القبائل التركمانية بغارات على الأراضي الروسية.

وكان هدف الحاكم العام الروسي من وراء ذلك إحياء تبعية مرو إلى خيوه، فإذا ما قبل المرويون بالمحاولة فإنهم بذلك يصبحون تحت السيطرة الروسية. وهذا ما يريده الروس. واذا رفض المرويون ذلك العرض فمن المرجح أن يبدأ الروس حرباً ضد مرو. ولكنهم سوف لا يتصدرون الصورة هذه المرة، بل سيضعون خان خيوه مكانهم وسيخوضون الحرب معه بهدف إخضاع المدينة المتمردة على سلطته. وستكون النتيجة واحدة وهي خضوع مرو تحت السيطرة الروسية.

وحينما وصل المبعوث إلى مرو، كانت قبائلها تتدارس الموقف فيما بينها

---

(١) بنى سكان مرو سوراً ضخماً على نهر الميرغاب تطوع في العمل به ما يقارب من ٦ آلاف رجل دون مكافأة، وبلغت قاعدة السور ٥٠ قدماً وارتفاعه ٣٠٠ قدماً. أنظر:

F.O. 539/19. No. 212. Mr. Goschen to Earl Granville Constantinople Dated. April 5, 1881, P. 182.

وقررت الموافقة على الشروط الروسية، وكونت وفداً كان يضم ٢٤ من زعمائها لمباشرة المفاوضات مع الحكومة الروسية عن طريق خيوه، وأرسلت اثنين منهم كان معهما تواقيع زعماء مرو إلى سنت بطرسبورج للإعلان عن رغبتهم في الخضوع تحت السيطرة الروسية مثل بقية القبائل التركمانية الأخرى (١) كذلك أرسلوا خطاباً يشمل نفس المعنى إلى حاكم المنطقةالتركمانية الروسي، والحاكم العسكري فيها، وقد أعرب القائد الروسي عن اغتباطه بالسلوك الذي سلكه زعماء مرو، والذي يعبر في رأيه عن إدراك أولئك الزعماء لمصلحة مرو الحقيقية. ولقد منحهم حق التنقل في أي مكان من الأراضي الروسية (٢)، وبذلك أصبحت مرو جزءاً من الإمبراطورية الروسية.

موقف بريطانيا تجاه سياسة روسيا في مرو:

كان سكان مرو يتوقعون أن تقوم بريطانيا بإرسال مساعداتها لهم بمجرد وصول رسالتهم لحكومة الهند، ولكن الحكومة البريطانية لم تبعث بردها إليهم، ولم يكن أمامهم من اتصال مع بريطانيا سوى مراسل صحيفة الديلي نيوز المستر أودنوفان O'Donovan لكي يسمعوا صوتهم للأوساط البريطانية.

ويبدو أن المستر أودنوفان لم تكن لديه من السلطات ما يقطع بها أمام سكان مرو فبعث برسائله إلى السلطات البريطانية في الهند على أمل الحصول على مساعدة بريطانية تقدم لأهالي مرو. وحينما يئس تركمان مرو من وصول مساعدة بريطانية بادروا بالقبض على المراسل البريطاني وبعثوا إلى ملكة بريطانيا في ٢٨ يوليو ١٨٨١ رسالة أعربوا فيها عن موافقتهم على تأسيس حكومة بريطانية في مرو برئاسة المستر أودنوفان وعن استعدادهم لبناء علاقة قوية ووطيدة مع بريطانيا (٣).

وجد زعماء مرو أن إجراء القبض على المراسل البريطاني غير مجد، ولذلك أطلقوا سراحه وحملوه بالعرائض إلى السلطات البريطانية للإسراع في إرسال

---

(١) F.O. 539/20. No. 4. Mr. Myndham to Earl Granville St. Petersburg. Dated. June 29, 1881, P. 2.

(٢) F.O. 539/21. Inclosure No. 2. in No. 186. Colonel Aminoff to the Khans of Merve. Asterabad Dated. Sept. 1881, P. 165.

(٣) F.O. 539/20. Inclosure No. 1. in No. 97. Petition of Merve Chiefs. Merve. Dated. July 28, 1881, P. 80.

المساعدات لمواجهة الزحف الروسي المرتقب لأراضيهم وأرسلوا معه الحرس حتى مدينة مشهد [١].

أما موقف الحكومة الرسمي، فقد أدركت بريطانيا الأخطار التي تُهدد ممتلكاتها نظير مواصلة روسيا لسياستها التوسعية تجاه مرو، ولذلك بدأت بالتحرك السياسي حتى لا تفقد فرصة الدفاع عن مستعمراتها في آسيا خاصة في الهند، فحاولت شرح أهداف الحملة الروسية على مرو لايران حتى تكتسبها إلى صفها. وكان يهم ايران في ذلك الوقت عشائر الآخال المجاورة لها، ولذلك حاولت ايران بث الخوف في نفوس الآخال من الروس، وتوضيح ايجابيات تمسكهم بالهوية الايرانية. وإن سلوك روسيا تجاه مرو من وجهة النظر الايرانية، إنما هو محاولة منها لتحويل تكة مرو إلى إقطاعية أو مستعمرة قوقازية. وإن ايران تدرك عجزها التام عن مواجهة الروس.

حاولت بريطانيا جذب ايران من جديد لجانبها بتحريضها على السيطرة على مرو[٢] وأحقيتها في ذلك على اعتبار أنها كانت جزءاً من ممتلكات أسرة قاجار[٣]. ولكن ايران لم تكن لديها الحماسة للقيام بمثل تلك المغامرة، فعلاقتها مع مرو لم تكن حسنة، علاوة على التقاعس الذي اتصفت به، ونظراً لعدم وجود الثقة بسبب ما كان من تاريخ دامٍ بين الطرفين[٤] فإنها تشك في قدرتها بالسيطرة على مرو.

وحينما فشلت في ذلك مع ايران، تحولت بريطانيا إلى دولة أخرى وهي أفغانستان، وكانت بريطانيا لا تشجع كثيراً سيطرة أفغانستان على مرو لأنها تعتقد أنه من الصعب عليها السيطرة على أفغانستان عن طريق الاحتلال العسكري نظراً لطبيعة الأراضي الأفغانية الصعبة، ولكره الشعب الأفغاني وجود الإنجليز على أرضه، ولكنها مضطرة إلى هذه الخطوة لأنها كانت تفضل أن تكون مرو في

---

(١) F.O. 539/20. No. 98. The Meshed Agent to Mr. T. Thomson. Dated. August 13, 1881. P. 81.

(٢) F.O. 539/12. No. 49. Mr. T. Thomson to the Earl of Derby, Tehran. Dated March 1, 1874, P. 89.

(٣) أنظر التمهيد القوي المؤثرة في وسط آسيا (إيران).

(٤) F.O. 539/11. Memorandum by Sir H. Rawlinson on the Proposed Expedition to Merve. London Dated. Decemb. 18, 1873, P. 297.

الجانب الأفغاني على أن تكون تحت السيطرة الروسية، وفشلت بريطانيا أيضاً مع أفغانستان.

اقترح المستر طومسون ـــ السفير البريطاني في طهران ـــ أن تكون مرو إمارة مستقلة وتحترم كل من روسيا وبريطانيا استقلالها. وتتعهد بريطانيا من جانبها بعدم احتلال حيرات في مقابل احترام روسيا لاستقلال مرو.

والواضح أن بريطانيا كانت تهدف إلى خلق ثغرات سياسية وعسكرية في الاستراتيجية الروسية في وسط آسيا، فإذا تحقق الاقتراح البريطاني فإن بريطانيا ستنجح في زرع حاجز بين ممتلكات روسيا الممتدة ما بين بحر قزوين والتركستان، كما أن وجود إمارة تركمانية مستقلة من المحتمل أن يثير بقية القبائل التركمانية الخاضعة تحت السيطرة الروسية، يضاف إلى ذلك أن بريطانيا كانت ترمي إلى إبعاد الوجود الروسي عن مركز استراتيجي هام في وسط آسيا الإسلامية.

وحينما وجدت بريطانيا أنها تسير في طريق مسدود، وإنها لم تنجح في إقناع الروس بالابتعاد عن مرو لجأت من جديد إلى طريق المذكرات السياسية (١) وأوضحت روسيا من جانبها أنها لا تهدف من وراء العمليات العسكرية تجاه مرو الاحتلال الدائم للمنطقة، وتذرعت من جديد بالعوامل الإنسانية والقضاء على حركات النهب التركمانية التي كانت تحدث في المناطق المجاورة لبحر قزوين.

ومن ناحية أخرى، فقد بين المستر جوميني ـــ Jomini ـــ السفير الروسي في لندن أن بلاده ترمي إلى الوقوف على بعد ١٤٠ ميلا من مرو، حيث تقع في تلك المنطقة عدة واحات وأن روسيا ترغب في السيطرة عليها حتى تضمن لنفسها ما يضبط تلك القبائل، وما يجبرها على السكينة والهدوء (٢)، وإن الأهمية التي تتصورها بريطانيا في مرو مبالغ فيها وأن روسيا اذا ما وجدت نفسها مضطرة إلى الزحف إلى مرو، فهذا يرجع إلى أن العمليات العسكرية الروسية لم تنته بعد، وإنه ليس لروسيا حدود واضحة.

شعرت بريطانيا من خلال الرد الروسي أن روسيا لم تلق جانباً فكرة السيطرة

---

(١) F.O. 539/11. No. Mr. Grant to Mr. Hommond India Office. Dated. Sept. 27, 1873. P. 213.

(٢) F.O. 539/16. No. 304. The Earl of Dufferin to Earl of Salisbury. St. Peter Sburg. Dated. July 16, 1879. P. 267.

على مرو لأنها أعلنت صراحة أنها اذا ما اضطرت إلى غزو مرو فإنها لا تفكر في احتلال دائم لها. وسيكون انسحاب القوات الروسية في أقرب فرصة ممكنة، في حين أن القوات الروسية لم تنسحب من أراضي احتلتها من قبل في المنطقة الإسلامية، فأعلنت بريطانيا أن ما جاء في الرد الروسي يتناقض مع تصريحات رجال الحكومة الروسية، حيث أوضح المستر جيرز Giers وزير خارجية روسيا أن بلاده بعد تحطيم قوة التكة لا تفكر في توريط نفسها في المزيد من العمليات العسكرية [1].

ومن ناحية أخرى أجريت مقابلة بين السفير البريطاني في سنت بطرسبورج ووزير الخارجية الروسية في شهر مارس ١٨٨١ وقد أوضح الوزير الروسي خلالها أن السياسة البريطانية في المنطقة التركمانية والتي كانت تهدف إلى تأليب القبائل التركمانية ضد روسيا [2] قد أدت إلى تعقيد الموقف في وقت كادت فيه السلطات الروسية أن تصل إلى اتفاق مع تركمان مرو، وعلى ذلك فقد أصبح غير متأكد فيما يجب اتخاذه في ذلك الوقت. وكان فهم السفير البريطاني من حديث الوزير الروسي أنه كان تمهيداً لإعلان تقدم الجنرال سكوبيليف إلى مرو. ولم يكن المستر جيرز أثناء المقابلة يعبر عن رأيه الشخصي، بل كان تفويضاً من قبل القيصر.

طلب السفير البريطاني أن تصدر الحكومة الروسية تصريحاً خالياً من أي التباس يتضمن تأكيد روسيا بعدم مهاجمتها مرو.

ويبدو أن بريطانيا قد وقعت في تناقض غريب، ففي الوقت الذي كانت تجادل فيه روسيا بسبب المراكز الحربية في التل الأزرق وعشقباد وتأثيرها على العلاقات الروسية البريطانية في وسط آسيا فإنها لم تعط التبرير الكافي لتقدمها في الأراضي الأفغانية واحتلالها لقندهار بعد العمليات العسكرية البريطانية في أفغانستان (١٨٧٨-١٨٨١) وهذا ما سنتطرق إليه في الفصل التالي.

بدأت بريطانيا سياسة نشطة في وسط آسيا، فقد كانت ترسل بعض العسكريين إلى الأراضي التركمانية بحجة الإستكشاف على مسئوليتهم الخاصة.

---

(١) F.O. 539 19. No. 93. Earl Granville to Earl of Dufferin . F.O. Dated. Febr. 8, 1881.

(٢) أنظر ص ٨١.

ولقد طلب القيصر الروسي رسمياً من السفير البريطاني في العاصمة الروسية، أن يقنع حكومته للحد من كثرة تردد أولئك الضباط على الواحات التركمانية حتى لا يثيروا قبائل تلك المناطق ضد الروس (١).

ويبدو أن الوضع البريطاني القلق في مصر، ومعارضة روسيا للسياسة البريطانية فيها، بل ومحاولة روسيا رفع المشكلة المصرية إلى مؤتمر دولي تشارك فيه كل الدول والتصدي لاحتمال احتلال بريطانيا لقناة السويس (٢)، كل هذا أقنع الحكومة البريطانية بالاستجابة للمطالب الروسية في مرو، على أمل أن تخفف روسيا من معارضتها للسياسة البريطانية في مصر. وقد نال الموقف البريطاني هذا شكر وتقدير الحكومة الروسية التي حثت بريطانيا على مواصلة تبني نفس السياسة، بل إن الحكومة الروسية كانت كريمة مع الحكومة البريطانية فأعلن وزير خارجيتها أنه ليس لدى بلاده أن حق لمضايقة البريطانيين في قندهار أو حتى في أفغانستان عموماً (٣). ولم يتطرق هذا الإعلان إلى أي معنى مماثل في مصر، إذ واصلت روسيا معارضتها للسياسة البريطانية في مصر.

اقتراح للمستر هنري رولنسون (٤):

وكان للمستر هنري رولنسون وجهة نظر أخرى إذ اقترح بأن تترك السهوب التركمانية والتي تقع بين خيوه وأفغانستان بعيدة عن النشاط الروسي والإنجليزي أو كمنطقة محايدة بين الدولتين، واذا ما رفضت روسيا ذلك الاقتراح بدافع طموح سياسي أو عسكري وأصرت على الرفض، فإنه يجب من وجهة نظره استخدام ايران كوسيلة للضغط على روسيا وتوريطها عن طريق إقناع حكومتها بالعدول عن تقديم أية مساعدة سواء أكانت عسكرية أو معنوية لروسيا أثناء عملياتها الحربية ضد

---

(١) F.O. 539 19. Inclosure No. 2. in No. 56. Extract from the «Invalide Russe» of January 1 3, 1881, P. 34-35.

(٢) د. أحمد عبد الرحيم مصطفى: مصر والمسألة المصرية ١٨٧٦-١٨٨٢، ص ٢٦٢-٢٦٣.

(٣) F.O. 539/19. Inclosure No. 2. in No. 56. Extract from the Invalide Russe of January 1881, P. 34-35.

(٤) عمل مندوباً لبريطانيا في قندهار ثم عين قنصلا في بغداد. وفي عام ١٨٥٥ عين في منصب المدير الملكي لشركة الهند الشرقية، وفي عام ١٨٥٨ انتخب عضواً في مجلس الهند وأعيد انتخابه في عام ١٨٦٨ وظل في هذا المنصب حتى وفاته في مارس ١٨٩٥.

القبائل التركمانية، واذا دعت الضرورة أن تحتل ايران مرو بدلا من روسيا.

وتصور المستر رولنسون بأن روسيا سوف لا ترفض عرضه هذا...!! بل أنها ستتراجع عن غزو مرو لكي تنشىء لنفسها المراكز الحربية على طول السهوب وستستغل بعض الآبار في الصحراء بين الميرغاب وجيحون، واعتقد رولنسون بأن الروس سوف يظنون أن الأمر كله قد أصبح بيد الإنجليز ولكنه لم يستبعد أن تستخدم روسيا للسيطرة على مرو نفس الطريقة والأسلوب اللذين استخدمتهما في السيطرة على بخارى وخيوه[1]، واذا تم ذلك فإن روسيا على رأيه قد قامت بمظاهرة سياسية وعسكرية ضد الوجود البريطاني في الهند، وإن الموقف يحتم على بريطانيا أن تضمن حينئذ بالدرجة الأولى حيرات، وأن تقوي مركز يعقوب خان ــ أحد أمراء أفغانستان ــ وأن تستخدمه ضد التغلغل الروسي واقترح أن ترسل بريطانيا قوة برضاء الأمير للدفاع عن حيرات.

واذا أمعنا النظر في مذكرة السير هنري رولنسون، نجد أن الغرور العسكري البريطاني قد دفعه إلى تقديرات خاطئة، فكيف يمكن أن تتراجع روسيا عن تحقيق مخططاتها العسكرية وهي المنطقة الوحيدة التي وجدت فيها متنفساً لطاقاتها الاستعمارية والنجاح السياسي والعسكري اللذين فقدتهما في القارة الاوروبية.

كما أن المستر رولنسون قد بالغ في الأحقاد التي يكنها الايرانيون لشعب مرو، فقد رأينا أن زعماء مرو قدموا الإلتماسات للمساعدة الايرانية، ولم يظهر المستر رولنسون حقيقة مشاعر الشعب الايراني الذي كان يمقت الروس، وإحساس هذا الشعب بالأهداف الروسية.

ثم أن المستر رولنسون كان يركب الخيال اذا تصور أن يقبل الروس قيام منطقة حاجزة بين ممتلكاتهم على بحر قزوين وفي التركستان وخيوه، لأن ذلك يعوق اتصالاتها، وذلك ما لم يقبل به الروس مطلقاً، بل إن الوضع الذي يرمي إليه المستر رولنسون كان أحد الأسباب التي دفعت الروس إلى بدء عملياتهم العسكرية في المنطقة التركمانية. كما أن المستر رولنسون كان غير واقعي ــ بغض النظر عن قيمته العسكرية ــ إذ تصور موافقة الأمير الأفغاني على

---

(١) أنظر: التوسع الروسي في بخارى وخيوه في الفصل الأول.

وجود حامية بريطانية في أراضي يكره مواطنوها أن يروا أي عسكري بريطاني أو أجنبي (كافر) بينهم.

ومع ذلك، فلم تكن مذكرة المستر رولنسون خالية من بعض الجوانب الإيجابية، فقد كانت بحق صرخة قوية في آذان الحكومة البريطانية لكي تتبنى سياسة نشطة في وسط آسيا الإسلامية بعد ذلك التقوقع الذي وضعت نفسها فيه، منذ الحرب الأفغانية الأولى (١٨٣٨-١٨٤٢) [١].

ومن ناحية أخرى أثار الاحتلال الروسي لمرو مناقشات داخل مجلس العموم البريطاني وأوضح المستر جلادستون في فترة رئاسته الحكومة البريطانية للمرة الثانية (١٨٨٠-١٨٨٤) بأن المعلومات التي لدى حكومته هي ما بعث بها السفير البريطاني في العاصمة الروسية في برقيتين خلال شهر فبراير ١٨٨١ توضحان أن ممثلين عن أربع قبائل من مرو قد ذهبوا إلى مدينة عشقباد وطالبوا بالتحالف مع القيصر الروسي، وقبل القيصر خضوعهم تحت سياسته [٢].

ومن الواضح أن المستر جلادستون لم يكشف لأعضاء مجلس العموم العرائض التي قدمها زعماء مرو لطلب المساعدة البريطانية، حيث أعلنوا في تلك العرائض عن إستعدادهم التام للخضوع تحت السيطرة البريطانية في ظل حكومة يرأسها المستر أودنوفان [٣]، ولم يتطرق المستر جلادستون إلى أهمية مرو العسكرية والإستراتيجية، وليس من المستبعد أن يكون ذلك التغاضي المتعمد ثمناً لشراء الموافقة الروسية على السيطرة البر طانية على مصر

أساليب روسيا لصبغ المنطقة بالصبغة الروسية:

إستخدمت روسيا عدة طرق أثناء عملية صبغ الأراضي الإسلامية بالصبغة الروسية ـــ منها:

أ ـــ السيطرة المباشرة:

لم تتبع روسيا نظاماً واحداً في إدارتها للمنطقة الإسلامية ففي بخارى كان

(١) F.O. 539/11. Memorandum by Sir H. Rawlinson on the Proposed Russian Expedition to Merve. P.298.

(٢) Hansard, Parliment. Depates. House of Commonse Vol. 284. P. 1701.

(٣) أنظر ص ٩٠.

أميرها يتمتع بدرجة كبيرة من السلطان في أراضيه، وكان يتعامل مع روسيا من منطلق أمير دولة متحالف معها. وكانت روسيا في جميع مراسلاتها معه تلقبه بصاحب العظمة وتنفذ له معظم طلباته، كما حدث حينما قدمت له أراضي خيوه التي تقع غربي بخارى[1]، ولم تتدخل روسيا في شئون بخارى إلا اذا تعرضت بخارى لفتنة في الداخل بسبب الصراع على السلطة، فكانت روسيا تبعث بقواتها لمساندة الأمير مظفر الدين خان.

ولم يكن التصرف الروسي هذا من موضع الضعف، بل كان خطة مرحلية، إذ كانت روسيا طوال الفترة مابين ١٨٦٧-١٨٨٣ مشغولة في تنفيذ مخططاتها للسيطرة على المنطقة الإسلامية، وحينما فرغت من ذلك بعد عام ١٨٨٣ لجأت إلى تقوية سلطتها في بخارى، ولكنها كانت تخشى في الوقت نفسه من إثارة السكان ضدها، فاستغلت مشروع خط القزوين، وطالبت بخارى بمرور الخط في أراضيها، وادعت أنها تهدف من وراء ذلك تنمية التجارة في المنطقة، ولكن روسيا في الحقيقة كانت تهدف إلى تدعيم وجودها، وبالتالي الحد من سلطة الأمير البخاري [2].

وفي خيوة أرجعت روسيا أمير خيوه ثانية إلى منصبه ومنحته لقب «صاحب العظمة» وحددت سلطته في شئون القضاء والنزاعات القبلية، في حين كانت السلطة الفعلية بيد مجلس كونته هي، وضمنت فيه الأغلبية لصالحها، وكانت جلسات المجلس تنعقد بالقرب من المعسكر الروسي، وهذا يعني أن روسيا كانت تحسم جميع الأمور وفقاً لمصلحتها الذاتية، دون معارضة من قبل الخيويين الذين وجدوا في الوجود العسكري الروسي أداة البطش لكل معارضة. ويرجع سبب الوجود الروسي في خيوه بصورة أوضح منها في بخارى إلى موقع خيوه بالقرب من القبائل التركمانية. فكانت خيوه تمثل القاعدة الشرقية في العمليات العسكرية ضد التركمان.

أما خوقند فقد حرمت من جميع السلطات أو بمعنى آخر من أية مزايا سياسية،

---

(١) أنظر المعاهدة الروسية الخيوية ــ الفصل الأول.

(٢) أنظر: خط حديد القزوين ــ الفصل الخامس.

وذلك يرجع إلى أنها أصبحت جزءاً من مقاطعة التركستان التي اتخذت من طشقند عاصمة لها، وقد ترتب على ذلك تمركز الإدارات الروسية والقيادات العسكرية في أراضي خوقند، ومن ثم بدأت خوقند في الإنضواء تحت السيطرة الروسية مباشرة.

وفي المنطقة التركمانية أقامت روسيا إدارات متفرقة، وكانت كراسنوفودسك هي مقر القيادة العسكرية العامة في المنطقة التركمانية، وفي مدينة مرو عينت روسيا قائداً عسكرياً هو الجنرال تشرنائيف، وقد بدأ التركمان في إطاعة أوامره بكل دقة.

ب ـ التغلغل الثقافي والاجتماعي:

لم تقتصر روسيا في فرض سيطرتها المباشرة في المنطقة الإسلامية عن طريق الوجود العسكري أو السياسي، بل لجأت إلى طرق أخرى، مثل فتح المناطق الإسلامية أمام الروس للاستقرار فيها، وفي بعض الأحيان كانت تدفع ببعض الجماعات الروسية للاستيطان في الأراضي الإسلامية كما حدث حينما أرسلت بعض المواطنين الأوكرانيين للاستيطان في أراضي القلمق، وبناء على ذلك، فقد أصبح المواطنون الروس ينتشرون في معظم الأراضي الإسلامية، وعلى سبيل المثال فإن مدينة مرو عام ١٨٨٦، وبعد ثلاث سنوات من سيطرة الروس عليها أصبح نصف سكانها من الروس، وكان هدف روسيا من وراء ذلك هو غرس اللغة والعادات والتقاليد الروسية وسط الجماهير الأزبكية والتركمانية المسلمة.

يضاف إلى ذلك أن القيادة الروسية في المنطقة الإسلامية كانت تكتب الأوامر باللغة الروسية مع اللغة التركية أو الفارسية، وملئت المدارس بكتب قواعد اللغة الروسية، ووعدت الحكومة الروسية زعماء البلاد بإرسال أبناءهم للتعليم في المدارس الروسية على نفقة الحكومة القيصرية اذا أتقنوا اللغة الروسية، كما أن الحكومة الروسية كانت تشترط في المتقدم لاحدى الوظائف أو إلى أي عمل من الأعمال أن يتقن اللغة الروسية.

وهكذا تمكنت روسيا بهذه السياسة من بسط سيطرتها على المنطقة الإسلامية،

وبالتالي ربطها ثقافياً وإدراياً وعسكرياً بالحكومة القيصرية [١].

على ضوء ما سبق نستطيع القول بأن الأراضي التركمانية تمثل منطقة استراتيجية هامة للعسكرية الروسية، التي كانت تهدف إلى ربط مراكزها في المنطقة الأزبكية، وعلى بحر قزوين، ولتحقيق هذا الهدف مارست روسيا عدة أساليب مع التركمان، وتمكنت بفضل قوتها المتقدمة ـــ في ذلك الوقت ـــ أن تحسهم معهم الصراع لصالحها بالرغم من المقاومة الشجاعة التي أبداها التركمان. ولقد أخفت روسيا أطماعها الحقيقية من وراء عملياتها في المنطقة التركمانية خلف أهداف حماية التجارة والقضاء على حركات السلب والنهب. وكانت بريطانيا تنظر بقلق تجاه سياسة روسيا في الأراضي التركمانية، خاصة وأنها كانت تخشى أن يمتد التوسع الروسي إلى المناطق القريبة من الأراضي الأفغانية، وبالتالي ستجد روسيا نفسها ـــ حسب التصور البريطاني في موقفين:

الأول: تهديد الأراضي الأفغانية عن طريق البدء في عمليات عسكرية جديدة تجاه حيرات، وهذا من شأنه تهديد الهند في المستقبل.

الثاني: أن تدفع العمليات العسكرية الروسية بعض القبائل التركمانية إلى اللجوء إلى الأراضي الأفغانية، وبالتالي انتشار الفوضى في أفغانستان، ومن المحتمل قيام تلك القبائل بالإغارة من جديد من الأراضي الأفغانية على القوافل الروسية، ومن ثم تجد روسيا لنفسها مبرراً لغزو الأراضي الأفغانية. و يترتب على ذلك زوال الدولة الحاجزة وتصبح روسيا في موقع التهديد المباشر للوجود البريطاني في الهند.

ولذلك كانت بريطانيا تأمل أن تجد في الإتصالات الدبلوماسية الحل الذي يرضى الأطراف الثلاثة: بريطانيا ـــ روسيا ـــ أفغانستان. لكن معاهدة سان ستيفانو وما تركته من تهديدات ـــ من وجهة النظر البريطانية على وجودها في الخليج العربي والهند، ألقت بالمحاولة السلمية جانباً واستعرضت بريطانيا قوتها العسكرية وهددت وبإجبار الروس على الرجوع ثانية من مواقعهم في وسط آسيا إلى بحر قزوين، كما حاولت مع الدولة العثمانية إلى إثارة المسلمين في وسط آسيا

---

(١) F.O. 539/29. No. 36. Consul General Perry to the Marquis of Salisbury, Odessa. Dated January 12, 1886, P. 21.

استكمالا لخطتها العسكرية في البلقان، ولكن مؤتمر برلين خفف من حدة الإندفاع في الطريق العسكري، فقد سلب هذا المؤتمر انتصارات روسيا في سان ستيفانو، ورجعت بريطانيا من جديد إلى الأسلوب السلمي لمقاومة التوسع الروسي، وكان ما يدفعهما إلى ذلك حرصها على المكاسب التي حققتها في مؤتمر برلين، فحرضت ايران على الوقوف في وجه روسيا وتبني سياسة ايجابية نحو تركمان ايران، بل وعرضت مرو عليها كجزء من المخطط البريطاني الذي يرمى إلى إقامة حاجز قوي لمنع التوسع الروسي تجاه شمالي الهند.

ولكن بريطانيا فشلت في تحقيق أهدافها، بل أنها سلمت بالاحتلال الروس لمرو في مقابل عدم مقاومة أو معارضة روسيا للسيطرة البريطانية على مصر، إلا أنه لا يمكن المقارنة بين القاهرة أو الإسكندرية ناهيك عن قناة السويس ــ وبين مرو.

وعموماً فإن سقوط مرو قد أدى إلى نتيجتين عاجلتين:

الأولى: محاولة كل من بريطانيا وروسيا تحديد الحدود الروسية الأفغانية.

الثانية: شعور ايران بارتباط مصالحها مع بريطانيا، وهذا ما سنتطرق إليه في الفصول التالية من البحث.



الفصل الثالث

المشكلة الأفغانيّـة والتورّط البريطاني
١٨٧٣ - ١٨٨١



وصلت بريطانيا إلى مرحلة اعتقد المسؤلون البريطانيون فيها ١٨٧٠ أن بلادهم ليست في حاجة إلى السيطرة على مزيد من الأراضي وأن بلادهم أصبحت في حالة تشبع استعماري، فحث المستر دزرائيلي حكومة بلاده ١٨٦٠ على التخلي عن المراكز البريطانية في أفريقيا الغربية(١) ومالت بريطانيا إلى العزلة عن أوروبا ومشاكلها السياسية، وكان ما يهم الإنجليز في تلك الفترة الأراضي المنخفضة (هولندا، وبلجيكا) ولم تكترث لكل الأحداث التي كانت تجري في القارة، مثل حروب الوحدة الايطالية ١٨٥٩، والحرب النمساوية الألمانية ١٨٦٦، والحرب الالمانية الفرنسية ١٨٧٠، وانحصر اهتمام بريطانيا بمشاكلها الداخلية، فلم يعد لها ذلك الصوت القوي الذي كانت تتمتع به أيام بالمرستون وكاننج(٢).

واستغلت روسيا عزلة بريطانيا من أجل تحقيق أطماع توسعية لها في وسط آسيا الإسلامية، كما لجأت في نفس الوقت على ضوء ظروف القارة الاوروبية الجديدة بعد عام ١٨٧٠ إلى التخلص من آثار الحرب حرب القرم وإلى تعزيز موقفها في البلقان وتبني الحركة السلافية. وقد ظهر ذلك من خلال ثورة ١٨٧٥ في البلقان، ثم دخول روسيا إلى جانب الثوار ضد الدولة العثمانية.

وحينما تولى المستر دزرائيلي رئاسة الحكومة البريطانية ١٨٧٤ عمل جاهداً كي يعود لبريطانيا مركزها الممتاز في القارة الاوروبية والعالم فحاول كبح جماح روسيا في البلقان عن طريق سحب الامتيازات التي حققتها في سان ستيفانو، وصد تغلغلها في وسط آسيا الإسلامية فوضع المستر ليتون Lytton في منصب نائب الملكة في الهند وحثه على تبني سياسة نشطة مع أفغانستان، وكانت روسيا تدرك

---

(١) Hinseley, F.H.: The New Cambridge Modern History. Vol. XI Great Bretain and the British Empire. P. 383.

(٢) د. محمد مصطفى صفوت: مؤتمر برلين وأثره في البلاد العربية، ص ١-٣.

أن الوصول إلى الأراضي الأفغانية سوف يمكنها من توجيه ضربة للوجود البريطاني في الهند بصفة خاصة وللسياسة البريطانية بصفة عامة.

وبذلك أصبحت الدولتان توليان أهمية كبرى لأفغانستان، فحاولت كل منهما أن تشدها إلى جانبها، وهذا مما أدى إلى ظهور المشكلة الأفغانية.

ويجدر بنا قبل عرض المشكلة الأفغانية أن نستعرض علاقة بريطانيا وروسيا بأفغانستان.

العلاقة الأفغانية البريطانية:

أثرت الحرب الأفغانية الأولى ١٨٣٨-١٨٤٢ في سير العلاقة الأفغانية البريطانية فقد جمدت الإتصالات بين الطرفين، واتبع ولاة الهند سياسة عدم التدخل في الشئون الأفغانية.

بدأت العلاقة الأفغانية البريطانية تسير نحو التحسن تدريجياً، خاصة بعد أن كشفت ايران عن نواياها للتوسع شرقاً على حساب أفغانستان وما أشيع عن التحالف الروسي الايراني والمزايا السياسية والعسكرية التي يتوقعها الايرانيون من وراء هذا التحالف. وكان هذا كفيلا بإثارة قلق بريطانيا التي أدركت أن تلك التصرفات من جانب كل من ايران وروسيا تعتبر نقضاً لاستراتيجيتها في جعل أفغانستان الدولة الحاجزة لوجودها في الهند. فتحركت سريعاً وعقدت معاهدة ١٨٥٥، ١٨٥٧ مع أفغانستان، بل أنها أعلنت الحرب على ايران ١٨٥٧.

وظل دست محمد ـــ أمير أفغانستان ـــ مخلصاً لبريطانيا خلال اندلاع ثورة ١٨٥٧ في الهند، رغم محاولات الضغط عليه من قبل روسيا. ولكن تحالفه مع بريطانيا لم يرجع له حيرات التي سلبها منه الايرانيون. فقام باستعداداته العسكرية، وسيطر على المدينة، وتوفي فيها بعد ذلك بقليل(١).

تركت وفاة دست محمد أفغانستان في ظل صراع بين أبنائه الستة عشر، وكان قد أوصى بتعيين ابنه الثالث (شير علي خان) خليفة له على السلطة في كابول.

---

(١) Dodwell, H: The Cambridge History of India. Vol. VI India. 1958. P. 405.

ولم يوافق إخوته على قرار أبيهم ــ الأمر الذي أدى إلى اشتعال الحرب الأهلية فيما بينهم(١).

استمرت هذه الحرب زهاء خمس سنوات، تمكن شير علي خان في النهاية من الإنفراد بالسلطة على باقي إخوته.

كانت بريطانيا ترقب الصراع الداخلي بين أبناء دست محمد خان دون أن تسعى إلى التدخل فيه، وذلك لعدة أسباب:

١) كانت حكومة الهند البريطانية ترى أن هذه الفوضى لا تمكنها من الوصول إلى سياسة ثابتة مع المسئولين في أفغانستان إزاء المشكلات التي تهم الطرفين، إذ أن مثل هذه السياسة لا تتحقق إلا إذا كانت في أفغانستان حكومة أو سلطة حاكمة قادرة على إتخاذ القرار السياسي وتنفيذه، ونظراً لعدم وجود أخطار مباشرة على الهند البريطانية من جراء تلك المنازعات على العرش تركت حكومة الهند البريطانية المتصارعين يصفون بعضهم بعضاً، حتى أنها تجنبت مساندة أقوى المتنافسين على الحكم وهو (شير علي خان)، عندما طلب المساعدة البريطانية للوصول إلى هدفه. وأكدت له حكومة الهند أنها لن تقوم بعمل إيجابي نحوه إلا إذا أثبت أنه القوة القادرة على أن يمسك بزمام الأمور في البلاد.

٢) نظراً لأن القوة الرئيسية المناهضة لبريطانيا في وسط آسيا، والتي لها تطلعات على المدى البعيد في أفغانستان ــ ونعني بذلك روسيا ــ كانت أفغانستان لا تزال بعيدة عن متناول يدها، ولم تتدخل لتأييد هذا الأمير ضد ذاك خلال الصراع الأسري على السلطة.

لهذا كله لم تعن بريطانيا كثيراً بتطورات الصراع الداخلي.

---

(١) قام الأمير فضل خان والأمير عظيم خان ١٨٦٤ بمحاولة للسيطرة على السلطة وتمكن شير علي خان من القضاء على تلك الحركة. ثار عظيم خان من جديد ١٨٦٥ ومعه ابن أخيه عبد الرحمن ونجحا في إبعاد شير علي خان عن كابول ١٨٦٦، ثم من قندهار ١٨٦٧، وتمكن شير علي خان ١٨٦٨ من القضاء على تلك المحاولة واستعاد المدن التي افتقدها.

انتهت الحرب الأهلية الأفغانية بتولي الأمير شير علي خان العرش في كابول، وبعد أن وطد نفسه في الحكم بدأ يتطلع إلى تثبيت دعائم دولته في مواجهة الدولتين الكبيرتين صاحبتي التطلعات إلى أفغانستان وهما بريطانيا وروسيا، فالأولى وطدت سلطتها في السند والبنجاب فأصبحت على مقربة من الأراضي الأفغانية. والثانية كانت قد استولت على بعض الإمارات الإسلامية في وسط آسيا وأصبحت أفغانستان في متناول يد روسيا خاصة بعد سيطرتها على بخارى وخيوه.

وكان شير علي خان أكثر تخوفاً من الخطر الروسي على بلاده من الخطر الإنجليزي، و يرى أن حكومة الهند البريطانية تستطيع أن تشد من أزره ليس فقط في مواجهة أي خطر روسي، بل كذلك في تثبيت نفسه على عرش البلاد إذا ما اشتعل الصراع الداخلي من جديد.

وفي الوقت نفسه كان الحاكم العام للهند المستر جون لورانس John Lawrence (١٨٦٤-١٨٦٨) يرى أن الوقت قد أزف لأن تكون لبريطانيا سياسة تواجهه بها التطلعات الروسية نحو أفغانستان، ولهذا فبعد أن اتصل به شير علي خان بشأن مخاوفه من الروس بعث المستر لورانس إلى حكومة لندن يطلب منها السماح لحكومة الهند بالعمل على تحديد مناطق النفوذ الإنجليزية والروسية في المنطقة على أن يكون تحقيق ذلك بالوسائل الدبلوماسية والسياسية حتى لا تثير سخط الأفغان (١).

حقيقة كانت حكومة لندن تشاطره الرأي في أن يكون تحقيق أهداف بريطانيا في أفغانستان بالوسائل السياسية والدبلوماسية، ولكنها تعتقد في نفس الوقت بأن الوقت لم يحن بعد لاتخاذ مثل تلك الخطوة الهادفة إلى تحديد مناطق النفوذ. وكانت ترى أن الوجود الروسي في المناطق الشمالية الغربية والشمالية يسهم في استقرار هذه المناطق التي عانت من قبل من الفوضى، خاصة وأن الصراعات القبلية بصفة عامة كفيلة بزج الدول الكبرى في أزمات هي في غنى عنها.

حين تولى لورد مايو L. Mayo (١٨٦٨-١٨٧٢) منصب حاكم عام الهند

---

(١) Wards, Sir A.: The Cambridge History of British Foreign Policy 1783-1919. Vol. 3 Cambridge University Press. 1923, P. 72.

كانت العلاقات بين حكومة الهند البريطانية وأفغانستان تدفع الطرفين إلى إعادة النظر فيها ووضع علاقاتها تلك في صورة أكثر وضوحاً من ذي قبل.

وليس معنى هذا أن لورد مايو اتبع سياسة تختلف كثيراً عن السياسة سلفه المستر لورانس، فقد تابع نفس السياسة تقريباً ولكن بصورة أكثر نشاطاً، فقد كان يهدف إلى تقوية علاقة الود والصداقة مع أفغانستان، وحيث أن شير علي خان كان يسعى إلى ذلك الهدف لتحقيق مآرب خاصة به وبدولته، وبذلك تهيأت الفرصة لعقد لقاء بين لورد مايو والأمير في مدينة أمبالا في الفترة الواقعة ما بين ٢٧-٢٩ مارس ١٨٦٩، وهناك عرض الأمير مطالبه والتي تتلخص في:

(١) التعاون الأفغاني البريطاني ضد الهجمات الروسية، وفي هذه الحالة يجب على حكومة الهند أن تقدم المساعدات في شكل أسلحة ومواد حربية ودعم مالي دون قيد أو شرط.

٢) ألا تعترف بريطانيا بأي أمير غيره على أفغانستان ومن ذريته من بعده، وفي المقابل قدم لورد مايو من جانبه مطالبه وهي:

١) موافقة الأمير على إقامة بعض الضباط البريطانيين في المدن الأفغانية الهامة لمراقبة الأحداث التي كانت تجري في وسط آسيا.

٢) أن يكون طلب المساعدة المالية وفقاً لقرار من مستشاري الأمير(١).

وأدت هذه المطالب إلى امتعاض الأمير من حكومة الهند فهو لم يذهب إلى لقاء الحاكم العام لتحقيق أهداف بريطانيا وإنما ذهب ليستخدم ــ حسب تصوره ــ حكومة الهند لأهدافه هو فقط.

وهكذا بدلا من أن يؤدي لقاء أمبالا إلى ذلك التقارب الذي كان ينشده كل من لورد مايو والأمير، فقد أثار سخط الأمير، وبالتالي فقد ثقته في حكومة الهند.

وفي الوقت الذي كانت فيه تلك المحاولات الدبلوماسية جارية بين اللورد مايو والأمير كانت حكومة لندن تعمل للوصول إلى نفس الهدف بالتفاوض مع روسيا،

---

(١) F.O. 539/11. Inclosure 1. in No. 239. The Governor General of India to the Duke of Argyll Simla. Dated. Sept. 15, 1873. P. 238.

فقد رحبت حكومة القيصر بتجنب المسألة الأفغانية وأن روسيا لا تفكر في مد نفوذها إلى الأراضي الأفغانية (١).

وقد أثار الاحتلال الروسي لخيوه مخاوف الأمير الأفغاني الذي كان يتوقع أن يواصل الروس سياستهم التوسعية نحو أراضيه، ومع أن الجنرال كوفمان أرسل له رسالة تضمنت النوايا الإنسانية التي دفعت الروس للاقدام على استخدام القوة العسكرية، وإن المسئولية من وجهة نظر الجنرال الروسي تقع كلها على خان خيوه (٢). إلا أن الأمير لم يجد في رسالة الجنرال الروسي ما يبعد عنه مخاوفه، وأخذ الأمير يفتش على حليف له لمساعدته في محنته هذه التي كان يتصورها ولم يجد أمامه غير بريطانيا فاجتمع مع المندوب البريطاني المسلم الموجود في كابول وشرح له ما يقلقه والشائعات التي كانت تتردد بين حين وآخر، والتي تحمل النوايا الروسية في السير قدماً في عمليات توسعية تجاه الأراضي الأفغانية وأن الطريق الوحيد للوقوف في وجه التوسع الروسي يكمن في التعاون الأفغاني البريطاني.

نقل المندوب البريطاني رأي الأمير إلى الحاكم العام للهند المستر نورثبروك Northbrook (١٨٧٢-١٨٧٦) الذي وافق على اجتماع ممثلي البلدين للتشاور فيما بينهم، وخلال الاجتماع الذي عقد بين الطرفين في مدينة سيملا ١٨٧٣ (٣)، أوضحت أفغانستان عن عدم ثقتها بالوعود التي قطعتها روسيا على نفسها فيما يتعلق بالأراضي الأفغانية وطالبت حكومة الهند بضرورة مساعدتها مادياً ومعنوياً في حالة تعرضها لأي عدوان روسي على أراضيها.

ومال المستر نورثبروك إلى الاعتقاد بضرورة تقديم المساعدات إلى أفغانستان، إلا أن معظم أعضاء مجلس حكومة الهند رفضوا في يوليو ١٨٧٣ تبني أي التزام نحو أفغانستان، وإن كل ما تستطيع الهند تقديمه لأفغانستان كمية محددة من السلاح نظير بقاء قوات بريطانية في مقاطعة بشاور الأفغانية. و يرجع موقف حكومة الهند

---

(١) — F.O. 539/11. Inclosure 14. in No. 239. The Governor General of India to Ameer Shere Ali Khan. Simla Dated. Sept. 6, 1873. P. 238.

(٢) أنظر الفصل الأول ص ٥٩.

(٣) Walker, Philip: Afghanistan. It, S. History and our Dealing with it. London. P. 57.

هذا إلى أنها ما زالت مشدودة إلى سياسة المستر جون لورانس والتي تعني بالاهتمام البريطاني في داخل شبه القارة الهندية ومراقبة الأحداث التي تجري خلف الأراضي الهندية دون التورط فيها لأنها ما زالت تعتقد بدور روسيا الحضاري في وسط آسيا من جهة ومن جهة أخرى فإن الحكومة القيصرية أكدت أنها لا ترغب في مزيد من التوسع في الأراضي وأن أفغانستان بعيدة عن مخططاتها.

إزاء هذه المعارضة قرر المستر نورثبروك رفع المطالب الأفغانية إلى حكومة لندن للبت فيها، وأرفق معها اقتراحاً يقضي بضرورة تقديم المساعدات المالية والعسكرية لأفغانستان كي تتمكن من الوقوف في وجه أية محاولة من قبل روسيا للتوسع على حسابها، ولكنه اشترط تقديم المساعدة البريطانية بشرط أن تخضع أفغانستان للسياسة البريطانية في الشئون الخارجية (١).

لم تشارك حكومة لندن الأمير في مخاوفه لأن التقدم الروسي على أفغانستان في نظرها غير محتمل. ومما دفع بريطانيا إلى اتخاذ هذا الموقف أن الحكومة الروسية أكدت على لسان وزير خارجيتها جورتشاكوف، أنها لا ترغب في السيطرة على مزيد من الأراضي، ثم إن الحكومة البريطانية كانت تخشى اذا ما أقدمت على تقديم الدعم إلى أفغانستان أن يثير ذلك تعقيدات جديدة في المنطقة لأنه من المحتمل آن يلفت العمل البريطاني نظر الروس ومن ثم يشير الريبة والشك في نفوسهم، وقد يدفعهم الأمر إلى نشاط عسكري جديد. فلذلك آثرت الحكومة البريطانية الرفض حتى لا تسيء للعلاقات الحسنة التي كانت قائمة في ذلك الوقت مع الحكومة الروسية.

ترك الموقف البريطاني هذا في نفس الأمير إحساساً بخطأ الاعتماد على البريطانيين، فلم يقبل بالأسلحة المحدودة التي أرسلتها له حكومة الهند، ورفض السماح لأحد الضباط البريطانيين بالمرور في أراضيه.

استمرت العلاقة الأفغانية البريطانية في هذا الوضع المتردي، ولم يحاول أي

---

(١) F.O. 539/11. Inclosure 8. in No. 289. Memorandum of Interview Between his Excell. The Viceroy of India and the Cabul Envoy held at Government House. Simla Dated. Wednesday, The 30 th July. 1873.

من الطرفين إصلاحها، بل أن حكومة الهند البريطانية تدخلت في أمرين، أدت إلى توتر العلاقات بينهما إلى درجة كبيرة.

الأولى: حينما دعا الأمير الأفغاني ابنه يعقوب خان الذي ثار ضد تعين عبدالله جان كخليفة لشير علي خان على السلطة في كابول، ولما وصل يعقوب خان إلى كابول ألقى الأمير عليه القبض، أرسلت حكومة الهند إلى شير علي خان أن يتدبر الظروف التي عاد فيها ابنه. فاستاء الأمير الأفغاني من ذلك الموقف واعتبره تدخلا في شئون بلاده الداخلية.

الثانية مشكلة سستان [1]:

ظهرت هذه المشكلة بين ايران وأفغانستان بسبب محاولة كل دولة منهما للسيطرة على إقليم سستان، وأعربت بريطانيا عن رغبتها في التدخل لحل النزاع لأنه ليس من مصلحتها، استمرار العداء الايراني الأفغاني حتى لا تحاول أي دولة منهما جر أطراف جديدة يكون من نتيجة ذلك تهديد الهدوء البريطاني في الهند، كان الشعب الأفغاني يتوقع من الوساطة البريطانية رجوع الإقليم إلى أراضيه، ولكن بريطانيا اقترحت تقسيم الإقليم إلى قسمين: فتأخذ ايران القسم الذي يقع على الشاطىء الأيسر لنهر الهلمند، في حين تأخذ أفغنستان القسم الذي يقع على الشاطىء الأيمن.

لم يرض الحل البريطاني أياً من الطرفين، فقد شعرت أفغانستان بأن بريطانيا أساءت الوساطة حيث سمحت لايران بالاستمرار في عدوانها على الأراضي الأفغانية، وإن البريطانيين استغلوا الموقف لصالح ايران. وفشل شير علي خان في

(١) سستان إقليم يقع على نهر الهلمند وكان في العصور القديمة يخضع للسيطرة الإيرانية وحينما كون أحمد شاه ساد وزائي مملكته سيطر على إقليم سستان الذي أصبح جزء من أفغانستان ومع السنين فإن سستان يعتبر امتداداً جغرافياً لأفغانستان، ومن الناحية الثقافية يعتبر جزء من إيران. وحينما قامت الحرب الأهلية في أفغانستان بين شير علي خان وأخوته استغلت إيران تلك الأحداث واستولت على الإقليم. أعربت بريطانيا عن رغبتها في الوساطة بين الطرفين. أنظر: Sykes, P.: History of Afghanistan. Vol. P. 97.

السيطرة على إقليم سستان عنوة، وظلت مشكلة سستان موضع أسف للعلاقة الأفغانية البريطانية لفترة طويلة [١].

الاتصالات الروسية الأفغانية:

في الوقت الذي أوصدت فيه أبواب المساعدة البريطانية، كانت عروض روسيا لصداقة أفغانستان ومساعدتها متواصلة، وقد حملتها رسائل الجنرال الروسي كوفمان إلى شير علي خان، وكانت أولى المراسلات بين الجانبين ترجع إلى إبريل ١٨٧٠ والتي أشارت إلى وصول عبد الرحمن خان إلى طشقند والسماح له بالإقامة في الأراضي الروسية [٢]. وأوضح الجنرال كوفمان بأن بلاده لا يعنيها الخلافات الداخلية الأفغانية ولا تطمع إلى مد عملياتها العسكرية نحو الحدود الأفغانية.

أثارت تلك الرسالة حيرة شير علي خان في إدراك دوافع إرسالها، فقدمها إلى والي الهند الذي نصحه بشكر الجنرال الروسي لتأكيده على الابتعاد عن الشئون الداخلية الأفغانية. أرسل كوفمان خطاباً آخر أعطى انطباعاً بأن الروس يسعون إلى علاقات دائمة وصريحة مع كابول [٣] وإنه ليس لديهم الرغبة في النيل من الأراضي الأفغانية.

استمرت مراسلات كوفمان مع الأمير وظلت تحمل مشاعر الصداقة والود نحو الشعب الأفغاني واستغلها ليتون، كما سنرى بعد قليل، في إتهام الأمير الأفغاني بتحيزه للجانب الروسي ــ في حين كانت الحكومة الروسية تعطي التأكيدات المتتابعة بأن أفغانستان بعيدة عن مخططاتها [٤].

محاولة بريطانيا اتباع سياسة نشطة نحو أفغانستان:

تولى حكومة لندن في فبراير ١٨٧٤ بنجامين دزرائيلي وتولى منصب وزارة الهند

---

(١) Sykes, P.: History of Afghanistan. Vol. 1 P. 99.

(٢) عبد الرحمن خان هو الذي اشترك مع عمه عظيم خان ضد عمه شير علي خان وبعد نجاح شير علي خان في القضاء على حركتهما لجأ إلى الأراضي الروسية، أنظر ص ١٠٥.

(٣) Hansard, S Parlimentary Debates. Vol. 259, P. 1885.

(٤) F.O. 539/14. No. 189. The Earl of Derby to lord A. Loftus F.O. Dated. December 27, 1876, P. 193.

المستر سالزبري. واتهمت حكومة دزرائيلي حكومة جلادستون نتيجة لسياسة العزلة التي اتبعها بإضعاف نفوذ بريطانيا في اوروبا وآسيا والعالم أجمع. وتطلب الأمر من دزرائيلي مراجعة سياسة بلاده الخارجية بصفة عامة ـ لأن بريطانيا اذا ما واصلت السير على خطى جلادستون بعد التغييرات السياسية والعسكرية التي حدثت في القارة الاوروبية وآسيا فإن بريطانيا ستكون في موقف سياسي واستراتيجي سيىء (١). ولذلك تطلب منه الأمر مراجعة السياسة البريطانية في أوروبا وآسيا وفي العالم أجمع حتى يعود لبريطانيا مركزها الممتاز وصوتها المسموع فعمد إلى الأخذ بيد فرنسا بالرغم من المنافسة الاستعمارية التي كانت قائمة بينها وبين بريطانيا واشترك مع روسيا في الحد من تدهور العلاقات بين فرنسا والمانيا ١٨٧٥ حتى لا تصاب فرنسا بهزيمة جديدة. ولجأ إلى تقوية الوجود البريطاني في الخليج العربي ومصر، وأخذت حكومته تنظر بعين القلق للخطر الروسي المتقدم نحو الهند فأرسل المستر سالزبري إلى نورثبروك ـ حاكم الهند ـ يطلب منه إقناع الأمير الأفغاني بإقامة مراكز حربية بريطانية متقدمة في حيرات لمراقبة الأحداث التي تجري في المناطق المجاورة للأراضي الأفغانية.

عارض الحاكم العام للهند اقتراح سالزبري كذلك كان موقف حكومة الهند، رغم اعترافها بأهمية الوجود العسكري البريطاني في أفغانستان وفي المناطق المجاورة لها، وكانت ذريعتها في ذلك أن الأمير لا يوافق على الوجود البريطاني في أراضيه. وعلى ذلك فمن المستحسن عدم مفاتحته بهذا الموضوع (٢). وكانت حكومة الهند حتى هذا الوقت مشدودة إلى سياسة حكومة جلادستون اللبرالية، وخاصة وأن نورثبروك نفسه من حزب الأحرار فلذلك تبني موقف المعارضة الذي يقفه حزب الأحرار من المحافظين إلا أن بعض العسكريين البريطانيين في الهند تقدموا باقتراح يقضي بضرورة احتلال القوات البريطانية مقاطعة كويتا حتى تشكل موقعاً متقدماً للهند على المرتفعات التي تشرف على الطريق المؤدي إلى قندهار وأن بريطانيا تستطيع من خلال سيطرتها على هذا الموقع أن تضرب أي تقدم معادي عبر ممر خيبر أو خوارم.

(١) Marriott, J: Anglo Russian Relations 1689-1943. London 1944. P. 132-133.

(٢) Tytler, F: A study of Political Development in Central Asia. London. 1950, P. 137.

لم تلتفت حكومة لندن إلى هذا الاقتراح لأنها كانت مشغولة في إعداد سياسة ثابتة نحو أفغانستان خاصة بعد انتهاء فترة ولاية المستر نورثبروك فقد وجد المستر دزرائيلي ضرورة وضع حاكم على الهند ينفذ تعليمات حكومته لا يعارضها. ومن أجل هذا الهدف وقع اختياره على المستر ليتون الذي وضعه دزرائيلي في منصب الحاكم العام للهند ليكون الأداة الجيدة لإحداث تغيير جذري في سياسة بريطانيا في آسيا وخاصة في العلاقة الأفغانية البريطانية، فالمستر ليتون كان سفيراً في لشبونة وإن كياسته الأدبية أكثر من براعته السياسية، وأن تعيينه كان مفاجئاً للتيون لأنه ليس لديه خبرة بشئون الهند أو حتى معلومات كافية عنها ولم يطلب منه دزرائيلي رسم سياسة للهند، بل كان عليه تنفيذ سياسة جاهزة. وأوضح دزرائيلي صراحة للتيون بأن السياسة الروسية في المنطقة تثير قلق بريطانيا، وأنه يجب على الحكومة البريطانية أن تضع أفغانستان في دائرة سياستها حتى ولو تطلب الأمر القيام بمغامرة من أجل تحقيق هذا الغرض.

مخطط ليتون:

وعلى ضوء هذا الواقع وضع ليتون مخططه والذي يتلخص في بناء حصن لبريطانيا على الحدود الشمالية الغربية للهند لردع الطامع والغازي للأراضي الهندية وإن أفغانستان هي ذلك الحصن الذي كان يطمع إليه ليتون، ولذلك يجب مساعدتها وتقوية العلاقة البريطانية معها، ولكنه لم يتطلع إلى السيطرة العسكرية على أفغانستان أو إلى النيل من استقلالها فقد كان يأمل فقط في أن تكون خاضعة تحت النفوذ البريطاني تنفذ جميع الشروط البريطانية، والواضح أن ليتون يهدف إلى منع أفغانستان من الوقوع تحت تأثير السياسة الروسية أو السير في فلكها، وكان يخشى اذا فشل في تحقيق هذا الهدف أن تقوم روسيا بأساليبها المختلفة بشده إلى جانبها، فأعلن صراحة بأنه سوف يمنع الأمير من أن يكون أداة طيعة في يد روسيا. وكانت حكومة لندن تحمل شعوراً مماثلا لشعور القلق الذي كان يعانيه المستر ليتون، وأصبحت تنظر إلى أفغانستان على أنها تشكل خطراً دائماً على مصالحها في الهند. فطلبت من ليتون إرسال بعثة إلى كابول وخان كالات لإعادة الثقة بين بريطانيا وبين الأميرين ولتأكيد صداقتهما نحو الحكومة البريطانية وإذا

رفض أمير كابول تكريم البعثة فسيعاد النظر كلية في سياسة بريطانيا نحو أفغانستان وتقتصر مهمة البعثة على كالات، واذا قبل الأمير بالبعثة فسيكون الهدف الأول لها هو تقوية الثقة بين الطرفين، وأعطت الحكومة أمر القطع للوالي في بعض المطالب التي تصورت بأن الأمير سوف يتقدم بها مثل المساعدات المالية والعسكرية ولم تظهر التعليمات البريطانية رغبة حكومة لندن في الشروع في حرب ضد أفغانستان رغم توقعها المسبق برفض الأمير لمطالبها (١).

ومن الملفت للانتباه أن التعليمات السابقة قد أرسلت إلى حكومة الهند ولم ترسل إلى الحاكم العام كما جرت العادة من قبل، ولكنها وقعت بين يدي ليتون قبل أن تتسلمها الحكومة الهندية، ولم يضع المستر ليتون هذه التعليمات أمام أعضاء حكومة الهند ــ الأمر الذي دفع بعضهم إلى الثورة على سلوك الحاكم العام المستر ليتون (٢).

وبينما كانت بريطانيا تجري على قدم وساق لتغير سياستها في آسيا بصفة عامة وفي أفغانستان بصفة خاصة أعلن المستر دزرائيلي في مجلس العموم في ٥ مايو ١٨٧٦ «أن الروس يعلمون جيداً بأنه ليس هناك سبب لكي ننظر إلى تقدمهم في وسط آسيا بنظرة الغيرة طالما عرف جيداً بواسطة حكومة هذا البلد بأن التفاهم القائم بين حكومتي سنت جيمس وسنت بطرسبورج لم يكن موجوداً من قبل كما هو عليه في عهد حكومته».

ذلك يوضح أن بريطانيا بدأت السياسة نفسها التي كانت تنتهجها روسيا إبان الغزو الروسي للمنطقة الإسلامية، تلك السياسة التي كانت تقوم على الاختلاف بين القيادة السياسية والعسكرية وبين الحكومة المركزية وقادة الأطراف في نطاق استراتيجية واحدة مضمونها العام مصلحة روسيا دولياً.

كما أن المستر دزرائيلي يتصور من وراء إعلانه في مجلس العموم سد الطريق أمام المعارضة حتى لا تثير له أزمة خاصة وأنها كانت تتبنى سياسة مخالفة لسياسته أثناء وجودها في السلطة.

---

(١) Singhal. O.P.: India and Afghanistan. (1876-1900). Australia, 1963, P. 14.

(٢) ثار السير وليام مور William Miur ضد سلوك الحاكم العام وأكد بأن الفترة الواقعة بين وصول المستر ليتون في إبريل ١٨٧٦ حتى مايو ١٨٧٧ وما تضمنته من تقارير فيما يتعلق بالشئون الأفغانية ظاهرة جديدة في سياسة الهند ولم يسبق لها مثيل. وتعتبر في نفس الوقت إجحافاً بحقوق أعضاء الحكومة.

بعثة بولاك البريطانية إلى أفغانستان:

وتطبيقاً لتعليمات لندن أعد ليتون بعثة برئاسة بولاك Pollack لإرسالها إلى كابول وكانت هذه البعثة ترمي أساساً إلى ربط أفغانستان سياسياً وعسكرياً ببريطانيا.

أدرك شير علي خان طبيعة التنافس بين الإمبراطوريتين الأقوى في وسط آسيا الإسلامية فقد استنتج أن الإنجليز كانوا فزعين من التقدم الروسي تجاه مرو، ولذلك يسعى البريطانيون لكسب رضاه لإقامة مراكز عسكرية لهم في حيرات. وإذا أقر الأمير المطالب البريطانية فإنه يخشى أن يتقدم له الروس بنفس المطالب وبذلك تقع بلاده مسرحاً للصراع بين الدولتين. وجد الأمير أن أفضل طريق لضمان استقلال بلاده هو إبعاد حلبة التصارع بين الإمبراطوريتين عن أراضيه فأرسل إلى الحاكم العام للهند في ٢٢ مايو ١٨٧٦ موضحاً له بأن الأمور تسير بين بريطانيا وأفغانستان على ما يرام منذ ١٨٧٣ ويرغب في أن تستمر على ذلك الوضع، ولكنه في الوقت نفسه شعر بحاجته للدعم والمساعدة البريطانية حتى يستطيع أن يقوم بالدفاع عن بلاده في حالة تعرضها لأي خطر خارجي أو داخلي فتقدم ببعض المطالب إلى حكومة الهند[1]، وبعد دراستها وعد المستر ليتون بالموافقة عليها جميعها شريطة قبول الأمير بوجود ضباط إنجليز في المناطق الشمالية الأفغانية. وعدم الاتصال مع روسيا أو أية قوة أجنبية أخرى.

كان المستر ليتون غير حكيم في شرطه الأول، لأنه كان يدرك تماماً موقف الأمير الأفغاني والمخاوف التي يتوقعها من جراء وجود عسكريين أجانب في أراضيه، لأن هذا سيدفع روسيا ـــ على حسب تصور الأمير ـــ إلى التقدم بالمطالب الروسية نفسها، ثم أن الشعب الأفغاني كان يكره وجود أي أوروبي ـــ كافر ـــ

---

(١) وكانت المطالب الأفغانية تتلخص في: اعتراف بريطانيا بخليفته عبدالله خان وتقديم المساعدة له وإلا تساند أي مدع للعرش. إن تقدم بريطانيا للأمير شير علي خان المال والقوات ضد الاعتداءات الأجنبية على أن ترسل مساعدة مالية عاجلة للأمير لأن خزانته خاوية. دخول بريطانيا في حلف دفاعي وهجومي مع أفغانستان وأن تلتزم بريطانيا في الحالتين إلتزاماً كاملاً. تمنح بريطانيا الأمير الأفغاني ألقاباً أكثر تشريفاً لأنه يعتبر نفسه لا يقل درجة أو مرتبة عن شاه إيران. لا يمانع الأمير في أن يمثل بريطانيا في الأراضي الأفغانية مندوب مسلم على ألا يتدخل في الشئون الداخلية الأفغانية وألا يقيم أي بريطاني في كابول أو في الأراضي الأفغانية.

على أراضيه. وقد يؤدي هذا إلى ثورة الشعب الأفغاني أو الفتك بالاوروبيين وفي كلا الحالتين ستؤدي أما إلى تعقيدات داخلية أو إلى أزمة في العلاقة الأفغانية البريطانية.

وكان ما يدفع ليتون إلى الإصرار على وجود العسكريين البريطانيين في الأراضي الأفغانية هو رغبته في مراقبة التحركات الروسية في المناطق المجاورة لأفغانستان والحد من التوسع الروسي ــ اذا ما تواصل الروس في تطبيق سياستهم التوسعية ــ نحو الأراضي الأفغانية، وإن بريطانيا على حسب تصور ليتون والسلطة العسكرية البريطانية في الهند ــ تستطيع من خلال وجودها في حيرات أن تحول أو على الأقل عرقلة الزحف الروسي على حيرات ــ المنفذ الشمالي للهند. جاء هذا في وقت كانت فيه بعض القيادات العسكرية البريطانية في الهند تلوح للأمير باستخدام القوة لتنفيذ المطالب البريطانية، فقد نشر المستر هنري رولنسون مذكرة تضمنت ضرورة السير في تنفيذ المطالب البريطانية عن طريق القوة وطالب بوضع المناطق الهامة من أفغانستان مثل حيرات وقندهار وكابول تحت السيطرة البريطانية المباشرة وكان المستر رولنسون يعني أن تقسيم الأراضي الأفغانية إلى قسمين فتأخذ بريطانيا عن طريق القوة المناطق الإستراتيجية التي ستشكل في مجموعها مراكز بريطانية متقدمة في الشمال في حين تترك للأمير المناطق الأخرى التي لا تحمل أهمية كبيرة بالنسبة للهند البريطانية. يضاف إلى هذا لهجة ليتون الحادة التي كان يعامل بها الأمير الأفغاني خلال مراسلاته معه. وفوق هذا وذاك تقدم سام دي مان Sam de man إلى كالات وعقده لاتفاقية يعقوب أباد مع حاكمها في ٨ ديسمبر ١٨٧٦.

كل هذا أدى إلى حقد الأمير الأفغاني على الانجليز ومن ثم تحولت العلاقة الأفغانية البريطانية إلى مجرى آخر محفوفة بالريبة والشك وعدم الثقة مما أدى إلى اشتعال الأزمة الأفغانية.

أثر معاهدة يعقوب أباد في العلاقات الأفغانية البريطانية:

سيطرت بريطانيا عن طريق هذه المعاهدة على مقاطعة كويتا الأفغانية، وكانت بريطانيا تأمل من وراء هذه السيطرة أن تقوم بمراقبة الأحداث التي تجري

في داخل أفغانستان وفي المناطق المجاورة لها القريبة من روسيا. كما أن بريطانيا تمتعت بواسطة معاهدة يعقوب أباد بحرية المرور في ممر بولان والطرق التجارية الأخرى، وفي الوقت نفسه سرعة التحرك العسكري لردع أي تحرك معاد لها في الهند. واعتبر المستر ليتون بأن التعاون مع كالات كان ضرورياً اذا ما دخل الأمير في تحالف عدائي مع الروس ضد بريطانيا[١] خاصة وأن القلق قد بدأ ينتاب بعض أعضاء حكومة الهند للاتصالات الروسية الأفغانية، ولم يعد سراً في الهند تلك العلاقات الحسنة والودية التي كانت قائمة بين روسيا وأفغانستان. فقد اشتكى الحاكم العام للهند لأول مرة من (النفوذ الروسي) في أفغانستان واعتبره خطراً على الوجود البريطاني في الهند لأنه يهدف إلى تدعيم العلاقات التجارية بين أفغانستان وروسيا ولم يستبعد المستر ليتون محاولة الروس إلى عقد إتفاقية عسكرية دفاعية مع أفغانستان[٢] وبذلك تكون روسيا قد نقضت إعلانها السابق الذي يضع أفغانستان بعيداً عن الطموح والنوايا الروسية.

وصلت أصداء مخاوف السلطات الهندية إلى الحكومة في لندن وعلى الفور تحرك وزير الخارجية البريطانية وطلب من السفير الروسي في لندن أن تعطي الحكومة القيصرية تأكيدات عن حقيقة نواياها من جراء الاتصالات التي تقوم بها مع أفغانستان، وأن الحكومة البريطانية تأمل أن تجد في التأكيدات الروسية ما من شأنه الحد من القلق المنتشر في الهند[٣].

وفي أفغانستان كان رد فعل معاهدة يعقوب أباد أن الأمير الأفغاني أدرك أنها بمثابة إنذار له بالخطر البريطاني الذي يتهدده فأرسل وزيره سيد محمد نور إلى بشاور للتفاوض مع المندوب البريطاني المستر لويس بيلي Louis Billy وكان المندوب البريطاني يحمل في يده مسودة إتفاقية جاهزة واشترط الموافقة الأفغانية على الطلب البريطاني الذي يقضي بوجود ضباط بريطانيين في أفغانستان كأساس لمواصلة المباحثات، ولكن المندوب الأفغاني رفض كما رفض أميره من قبل هذا

---

(١) Singhal, O.P.: India and Afghanistan (1876-1900). P. 20.

(٢) F.O. 535/14. No. 150. The Earloof Derby to Lord. A. Loftus F.O. Dated Oct. 2, 1876.

(٣) F.O. 539/14. No. 153. The Earl of Derby to Lord A. Loftus F.O. Dated Oct. 10, 1876.

الطلب[١]. ولم يتراجع الطرف البريطاني عن موقفه، بل أن ليتون كان متمسكاً بإصرار على ضرورة الوجود البريطاني العسكري في أفغانستان. ولم يغير أي من الجانبين من موقفه شيئاً، مما أدى إلى قطع سير المباحثات بينهما.

كان الموقف البريطاني المتصلب هذا دافعاً لشعور الأمير بنوايا البريطانيين الغير ودية فقد كان يخشى أن يكون الوجود البريطاني العسكري في أفغانستان بداية لحركة استعمارية في أراضيه لا يستطيع التخلص منها بعد ذلك.

أثر سياسة ليتون في لندن والهند:

لم تنل سياسة ليتون تجاه الأمير الأفغاني تأييد رجالات حكومة الهند البريطانية فالمستر بيلي كشف عن حقيقة اتجاه شير علي خان للوصول إلى اتفاق مع الإنجليز شريطة ألا يقيم في أراضيه بعض العسكريين البريطانيين. وكان من الممكن أن يستغل ليتون هذا الموقف حتى يحقق طموحه تدريجياً ولكنه آثر بتهوره طريق التصلب والعناد. كما عارض بعض أعضاء مجلس حكومة الهند سياسة ليتون ولم يسمح لهم بالتعبير عن آرائهم ولكنهم نشروها في صحيفة الديلي نيوز والابيزيرفر في ١٩ ديسمبر ١٨٧٨ [٢] وكانوا يخشون أن يقوم الأمير الأفغاني نتيجة لسياسة ليتون معه بالتعاون مع روسيا خاصة وأنه لم يثبت بالبرهان القاطع صدق الشائعات التي كانت تتردد عن التعاون الودي بين روسيا وأفغانستان. وفي لندن، انتقد مجلس اللوردات سياسة ليتون واضطر الحاكم العام إلى إرسال مذكرة إلى المجلس لتفسير موقفه وأرجع سياسته تلك إلى رغبته في تبني إجراءات دفاعية في الهند ضد الخطر الروسي. قبلت حكومة المحافظين ذلك التفسير[٣] فهي التي طلبت من ليتون تنفيذ المخطط البريطاني الرامي إلى إحداث تغيير جوهري في المنطقة. وهي التي لم تطلب منه رسم سياسة خاصة به ولكن

---

(١) Tytler, F.: A study of Political Development in Central Asia. P. 140.

(٢) سجل ثلاثة من أعضاء مجلس حكومة الهند وهم السير أرثر هوبهاوس Arthur Hobhouse والسير هنري نورمان Henry Norman والسير وليام مور معارضتهم لإجراء ليتون وقد نشروا آرائهم بعد عام في صحيفة الديلي نيوز والابزيرفر.

(٣) Singhal, O.P.: India and Afghanistan (1876-1900). P. 22.

عليه تنفيذ سياسة مرسومة. وأن ليتون لم يضف على مخطط حكومة المحافظين إلا بعض التصرفات المتهورة (والحمقاء).

وخلال انعقاد جلسات مجلس العموم في أغسطس ١٨٧٧ أدان جرانت دف Grant Duff احتلال كالات التي تبعد ٢٠٧ ميلا عن حدود الهند، وأن هذا العمل من وجهة نظره يحمل طابعاً عدوانياً على أفغانستان، واتهم المستر دف المستر سالزبري بأنه سبب أحداث التغيير الذي طرأ على سياسة بريطانيا نحو أفغانستان، وهذا العمل في رأي المستر دف يعتبر تحولا خطيراً في السياسة البريطانية في المنطقة[1] أما سالزبري نفسه فقد انتقد بدوره سياسة نائب الملكة[2] نحو أفغانستان ومعالجته للموقف ونصحه بعدم رفض أي طلب يتقدم به الأمير لأنه ليس من مصلحة بريطانيا الابتعاد عن أفغانستان، كما أن الأمير لم يظهر بعد ما يهدد الوجود البريطاني في الهند، وفي حالة ظهور مثل ذلك التهديد فإن بريطانيا ستكون مضطرة لاتخاذ الإجراءات المناسبة التي تكفل لها حماية حدودها الشمالية الغربية دون أي اعتبار لرغبات الأمير أو لمصالح ذريته.

وبالرغم من ذلك، فلقد واصل المستر ليتون بحماقة سياسته الصلبة مع الأمير الأفغاني ورفض استئناف المباحثات معه إلا بعد الموافقة الأولية للأمير على شروطه. ويبدو أن نائب الملكة كان سعيداً للانسحاب من بشاور لأنه حسب اعتقاده ترك الأمير في دوامة من أمره وأن الخروج منها يتطلب منه تكوين جيش قوي وهذا ما لا تتحمله الميزانية الأفغانية ولا يطيقه الشعب الأفغاني نفسه. وزيادة في إحكام الدائرة على الأمير فقد نظم المستر ليتون دائرة استخبارات سرية في الأراضي الأفغانية لتأليب الشعب الأفغاني ضد شير علي خان، كما اتصل ببعض القبائل الأفغانية التي تقطن الحدود الشمالية بهدف ضمها إلى جانبه ضد الأمير، وطالب مهراجا كشمير بالسيادة على شيترال وياسين ــ التي تقع في البامير ــ والتي تعتبر ضمن سيطرة الأمير (الإسمية). ومع ذلك لم يتوان المستر ليتون في الإعلان عن مشاعر الصداقة الأبدية مع الشعب الأفغاني وعطفه عليه

(١) Hansard's. Parliamentary Debates. Vol. 276. P. 1390.

(٢) أعلن في ١ يناير ١٨٧٧ منح لقب أمبراطورة الهند للملكة البريطانية.

للأعباء العسكرية التي ورطه الأمير فيها.

وبالرغم من كل هذه الأعمال العدوانية التي قام بها ليتون ضد الأمير شير علي خان، فقد أعلن الأمير صراحة في مجالسه الخاصة والعامة بأنه يوافق على وجود مندوب اوروبي بعيداً عن العاصمة. ولكنه رفض وجود عسكريين بريطانيين لأن الشعب الأفغاني سيعارض قطعاً مثل هذا الإجراء[(١)] وكان الأمير يحاول من وراء هذا عدم دفع الأمور بين بلاده وحكومة الهند إلى درجة القطيعة لأنه كان يدرك أنه الجانب الضعيف اذا ما قام صراع عسكري بين الجانبين، فقد كان يفتقد المال والسلاح والحليف فالروس لم يقدموا له غير العبارات الودية. بالإضافة إلى تخوفه منهم وتحسبه من أن تصبح بلاده نتيجة علاقته معهم مثلما أصبحت بخارى وخيوه.

أزمة البلقان وتأثيرها على الوضع في وسط آسيا:

اشتعل الموقف في القارة الاوروبية حينما قامت ثورة البوسنة والهرسك ١٨٧٥ والتي أدت إلى تفجر أزمة البسفور وبالتالي اندلاع الحرب العثمانية الروسية. وسيطر الروس خلالها على المضائق وتقدموا في اتجاه العاصمة العثمانية نفسها، وخشيت بريطانيا من التقدم العسكري الروسي السريع أن يؤدي إلى سقوط القسطنطينية. وكان مفتاح السياسة التي اتبعها المحافظون لمواجهة هذه الظروف الجديدة يكمن في رسالة رئيس الوزراء إلى الملكة في ٢٢ يوليو ١٨٧٧. وعرض فيها الإجراءات التي ستتخذها بريطانيا لمواجهة روسيا في الحرب التي كانت دائرة مع تركيا خاصة في حالة سيطرتها على مدينة القسطنطينية. وكانت خطة اللورد بيكونسفيلد Beconsfield[(٢)] أن تقوم بريطانيا بالالتفاف من حول روسيا من جهتين: الأولى وهي البلقان. فلذلك دفعت بأسطولها إلى مسرح الأحداث وأرسلت مع بداية ١٨٧٨ قوات هندية إلى مالطة لتعزيز القوات البريطانية في البحر المتوسط وظل الأسطول الروسي والبريطاني في مرمى القذائف وكانت بينهما مدينة القسطنطينية لمدة ستة أشهر[(٣)].

---

(١) Singhal, O.P.: India and Afghanistan (1876-1900). P.23.

(٢) منح المستر دزرائيلي لقب اللورد بيكونسفيلد في بداية شهر أغسطس ١٨٧٥.

(٣) Tytler, F.: A study of Political Development in Central Asia, P. 141-142.

الثانية: مهاجمة روسيا من وسط آسيا عن طريق إرسال قوات من الخليج العربي والهند تجبر القوات الروسية المنتشرة في وسط آسيا على التراجع إلى بحر قزوين [١].

الخطة الروسية:

تبنت روسيا خطة عسكرية في وسط آسيا الإسلامية لا تتعدى المناورة للضغط على بريطانيا. وكانت تأمل من ورائها أن تفتح ثغرة في الاستراتيجية البريطانية العسكرية في القارة الاوروبية. فقد أشارت بعض التقارير إلى تحرك قوات روسية مع بداية صيف ١٨٧٨ في اتجاه الحدود الأفغانية فبنت الجسور على نهر جيحون. واتهمت السلطات البريطانية الأمير الأفغاني بالتواطىء مع روسيا لأنه ــ على حد زعمها ــ كان على علم بتلك الحركات ولم يقم بأية اعتراضات ضدها [٢].

لا شك أن السلطات البريطانية كان تغالي في تصوراتها وتتدبر المواقف لإلصاق التهم بالأمير فلم تكشف الوثائق عن معرفة الأمير لتلك التحركات، كما أن القوات الروسية لم تتعد النفوذ الذي اعترفت به بريطانيا لها خلال اتصالات ١٨٧٣ والتي سنتطرق إليها في الفصل التالي. وما يؤكد المغالاة البريطانية ما بعث به السفير البريطاني في العاصمة العثمانية في ٣٠ أبريل ١٨٧٨ عن المعلومات التي أدلى بها الجنرال سيكوبيليف[٣] عن احتمال تحرك قوات روسية لمهاجمة الهند عبر الأراضي الأفغانية، وفي الحقيقة لم تتحرك أية قوات بل كان ذلك مظاهره من قبل روسيا للتأثير على الاستراتيجية البريطانية، خاصة بعد أن سلبتها بريطانيا المكاسب التي أحرزتها في معاهدة سان ستيفانو.

---

(١) Singhal, O.P.: India and Afghanistan (1876-1900). P. 14.

(٢) F.O. 539/15. Inclosure No. 2. in No. 15. Extract from Cabul News for sept. 1877. P. 19-23.

(٣) ومفاد تلك المعلومات أن الجنرال الروسي سكوبيليف قد أدلى ببعض التصريحات إلى أحد مراسلي الصحف البريطانية وكانت صلته به قوية عن أن قوات روسية تعدادها ٥٠ ألف جندي ستزحف إلى أفغانستان واحتمال وصولها إلى بشاور في عام ١٨٧٩ ونظراً لوجود سكوبيليف في قيادة الجيش الروسي الذي كان موجود في البلقان فإن تشرنائيف الذي سيتولى قيادة تلك القوات. أنظر:

F.O. 539/15. No. 39. Mr. Layard to the Marquis of salisbury. Canstantin pole. Dated April 30, 1878.

محاولة تدخل الدولة العثمانية:

حث السفير البريطاني السلطان العثماني على التدخل في الخلاف الذي كان قائماً بين بريطانيا وأفغانستان. وكان المستر لايارد Layard يتصور أن الدولة العثمانية بما لها من مكانة روحية في العالم الإسلامي تستطيع أن تستغل هذه المكانة في إثارة سكان وسط آسيا الإسلامية ضد روسيا و بهذا الطريق تستطيع الدولة العثمانية أن تنتقم من روسيا من ناحية، ومن ناحية أخرى فإن الفكرة التي عرضها السفير البريطاني تدعم فكرة الجامعة الإسلامية التي تبناها السلطان العثماني الأمر الذي دفع الدولة العثمانية على قبول اقتراح المستر لايارد.

أرسل السفير البريطاني في ٨ يونيو ١٨٧٨ برقية إلى سيملا موضحاً فيها رغبة السلطان العثمان في التدخل لفض النزاع الأفغاني البريطاني وإعادة التفاهم بين الحكومتين من أجل تكريس الجهود لمواجهة الروس. ولتحقيق تلك الغاية فإنه سوف يرسل بعثة عن طريق الهند إلى أفغانستان[١].

تلقى ليتون ذلك النبأ بحماس بالغ، وكان رده إلى المستر لايارد اذا كان السلطان العثماني يهدف حقيقة إلى إثارة أفغانستان ضد روسيا فلا يضيع الوقت في إرسال تلك البعثة إلى كابول. كان ليتون متسرعاً في رده فلم يأخذ رأي حكومة الهند أو حتى حكومة لندن، ولم يعرض أمر البعثة على حكومة الهند إلا بعد ما أرسل موافقته إلى المستر لايارد. وحينما طرح موضوع البعثة على أعضاء حكومة الهند، وافق بعض الأعضاء على البعثة في حين عارض البعض الآخر، كذلك عارض أيضاً مجلس الهند. وأخيراً تقبل كل طرف البعثة برأي مستقل فمجلس الهند وجد في رفض الهند مرور البعثة سوف يؤدي إلى إشعال الغضب بين المسلمين الذين سيعتبرونه عملا معادياً للدولة العثمانية، وتقبلت حكومة الهند البعثة التركية نتيجة لشعورها بالخوف من الروس.

وقررت حكومة لندن عدم السماح للبعثة بالمرور في الأراضي الهندية ومن المحتمل أن رفض لندن يرجع إلى إدراك الحكومة البريطانية أن مثل ذلك الإجراء سوف يثير سخط الروس، وحينما علم المستر ليتون بموقف لندن احتج بشدة وأعلن

(١) F.O. 539/15. No. 137. Sir Layard to Lytton. Teropia Dated, June 8, 1878.

صراحة بأن مهمة البعثة هامة جداً وسوف يعطيها الفرصة حتى ولوأغضب ذلك العمل حكومة لندن، فنشر الآمال التي يعقدها على البعثة مثل إثارة المسلمين في وسط آسيا ضد الروس وتمركز القوات البريطانية في الأراضي الأفغانية. وبعد أن أصبحت ادعاءات نائب الملكة معروفة لدى الرأي العام، خشيت الحكومة البريطانية أن يؤدي موقفها الرافض من البعثة إلى توتر علاقتها مع الدولة العثمانية، ولذلك اضطرت إلى الموافقة على مرور البعثة عبر الأراضي الهندية إلى أفغانستان.

كان المستر ليتون متفائلا في البداية في نجاح البعثة، ولكن الميجور كافاجناري Major Cavagnari أدخل بعض الشك في نفسه، ومع ذلك فقد ظل نائب الملكة يعتبرها تستحق المحاولة[1]، وكان يعتقد اذا رفض الأمير الإذعان لنصيحة رئيس البعثة العثمانية، فإن الرأي العام الأفغاني سيتحول ضد الأمير وسيؤيد المطالب البريطانية، لأن رفض شير علي خان يعني تمرده على السلطان العثماني ــ الزعيم الروحي للمسلمين.

كان المستر ليتون ساذجاً في اعتقاده، فرسائل السلطان العثماني تفتقد العصا السحرية التي تجبر الشعب الأفغاني ــ الذي يمقت الإنجليز ووجودهم على أراضيه ــ على التحالف والتبعية له ولو كان لديه مثل ذلك النفوذ أوالقوة لاستغلها في فرض سيادته على أقاليم عثمانية تدين بالولاء الأسمى له.

ومع ذلك فقد رسم نائب الملكة خطة في حالة فشل تحقيق البعثة العثمانية للأهداف التي كان يتصورها. وكانت تلك الخطة تقوم على عاملين:

العامل الأول:

كسر شوكة الأمير الأفغاني على نحو غير متوقع وفض المؤيدين والأنصار من حوله عن طريق إتصال بريطانيا المباشر بهم وبناء العلاقات الودية مع جميع الزعماء الأفغان الذين لهم ثقل في الحياة الاجتماعية والسياسية.

---

(١) Singhal, O.P.: India and Afghanistan (1876-1900). P. 25.

العامل الثاني:

تجزئة وحدة أفغانستان السياسية، وفصل أفغانستان الغربية عن كابول وجعلها إمارة شبه مستقلة، وبذلك يفقد الأمير قاعدة عريضة من الدعم السياسي والبشري، وسيصبح من السهل على بريطانيا أن تجذب هذه الوحدات السياسية الصغيرة إلى شباكها، دون معارضة للمخططات البريطانية.

توضح خطة نائب الملكة على أنه مقدم على سياسة متهورة، رغم إدراكه التام بأن روسيا لا تهدف إلى السيطرة على أفغانستان. كما أن الأسس التي أقام عليها خطته توضح قصر نظره، فليس من السهل عليه شراء ضمائر الزعماء الأفغان، وحتى ولو نجح في ذلك، فإن نجاحه سيكون نسبياً. وقد بلغ به التعنت إلى درجة كبيرة، فلم يسمح لأحد بمناقشة خطته أو إدخال بعض التعديلات عليها، وأعلن صراحة أنه يفضل الاستقالة على تغيير سياسته نحو أفغانستان.

البعثة العثمانية في كابول:

شكل السلطان العثماني بعثته، ووافقت بريطانيا على أعضائها [(١)] وقد حملت البعثة رسائل من الوزير الأكبر وشيخ الإسلام تحث الأمير الأفغاني على الابتعاد عن الروس والدخول في علاقات مع بريطانيا. وصرح السلطان العثماني بأنه سوف يطلب من المسلمين ــ في حال رفض الأمير لمطالبه ــ عدم مؤازرتهم لشير علي خان.

وصلت البعثة بومباي في ٩ أغسطس ١٨٧٨ ثم روالبندي في ١٦ من نفس الشهر، وحذر المستر ليتون من اتصال البريطانيين في الهند بالبعثة حتى لا يدع مجالا لشك الأفغان في طبيعتها المستقلة ــ حسب اعتقاده ــ ولكن الشعب الأفغاني والأمير لا يعتقدان بأن البعثة العثمانية بعيدة عن صنع البريطانيين.

وصلت البعثة إلى كابول في ٢٧ سبتمبر وقابل شير علي خان أعضاءها بكل مودة وترحاب [(٢)] وبذل رئيس البعثة جهوداً لإقناع الأمير بضرورة تكوين تحالف إسلامي ضد روسيا. رفض الأمير الأفغاني العرض العثماني على أساس أن شعوب

---

(١) Ibid. P. 126.
(٢) Ibid. P. 127.

وسط آسيا الإسلامية ليست مولعة بالحرب وإنه شخصياً يفتقد الإمكانيات للقيام بذلك الدور. ولو كانت لديه لاستغلها في طرد الايرانيين وحسم مصيره معهم في سستان. وقبل رده كان الأمير يدرك أن بريطانيا تهدف إلى دفعه إلى موقع المعاداة من الروس حتى يفقد الحليف (روسيا) الذي كانت تصوره له رسائل كوفمان.

وأوضح الأمير موقفه من الإنجليز. فقد احتلوا أرضه في كويتا واتخذوها قاعدة عسكرية لهم بدون رضاه وأرسلوا الرسل لإثارة التمرد في أراضيه. وبناء على ذلك قرر عدم إرسال مندوبين عنه لهم أو حتى مكاتبتهم. ومع ذلك فهو لم يعاديهم ومن الخطأ الاعتقاد بأنه يسعى إلى تجميع قواته لإعلان الحرب ضدهم لأنه لا يمتلك الوسائل التي تمكنه من ذلك ومع هذا فإنه لا يعني أنه سيستكين أمام محاولاتهم للضغط عليه، بل لا بد من مواجهة أية محاولة ضد إرادة الشعب الأفغاني وضرب مثلا لرئيس البعثة العثمانية «إذا وقف رجل شاهر سلاحه خلف منزلك ماذا تكون أهدافه؟» وأرجع الأمير الموقف البريطاني إما إلى تقارير خاطئة من مندوبيهم، أو أن الحكومة البريطانية تعتبر موقف ساستها ذات مصالح ذاتية.

وأما من جهة علاقة أفغانستان بالروس، فقد اعتبرهم الأمير على درجة مساوية للإنجليز فهم غير مسلمين وغير مخلصين، ولكنهم لم يحتلوا أرضه ولم يشكو منهم [1]. وزيادة على ذلك فإن الروس يعاملونه معاملة أكثر وداً وأشعروه بأنه مساوياً لهم، ولم يحتقروه في حين يمارس الإنجليز سياسة عدوانية ضده، ورفض الأمير أن يتبنى أية سياسة من شأنها أن تثير عداوة الروس له لأنه سوف يعتمد على مساعدتهم اذا ما حاول الإنجليز غزو أراضيه، وليس معنى هذا أنه على استعداد كي يقدم أراضيه لهم نظير مساعدتهم له ضد الإنجليز فهو لن يسمح بتمركز الروس في أية مدينة أو منطقة أفغانية، كما أن الروس حتى هذا الوقت لم يطلبوا منه طلباً بهذا المعنى لأنهم يدركون كره الشعب الأفغاني للوجود الأجنبي على أراضيه. لم يكن أمام البعثة العثمانية غير حث الأمير مراراً للوصول إلى اتفاق مع البريطانيين. ولم تقدم أية حلول أو حتى مقترحات لتقريب وجهات النظر بين أفغانستان وحكومة الهند [2] مما أدى إلى فشل البعثة في تحقيق الآمال المبنية عليها. وكان ذلك الفشل سبباً في زيادة عزم ليتون للشروع في حرب

(١) Ibid. P. 28.

(٢) F.O. 539/15. Inclosure No. 2. in No. 15. Extract from Cabul News, for Sept. 1877. P. 19-23.

ضد أفغانستان. وأرجعت بريطانيا موقف الأمير الذي لا يلين إلى تدخل روسيا النشط في العاصمة الأفغانية.

بعثة ستوليتوف Stoletoff إلى كابول:[1]

أثارت البعثة العثمانية قلق الحكومة الروسية التي كانت تخشى أن ينجح العثمانيون في تكوين تحالف إسلامي ضدها في وسط آسيا الإسلامية، أو في تحريض القبائل أو الإمارات الإسلامية للثورة على الروس الأمر الذي سيخلق لهم صعوبات، بعد ذلك الإستقرار النسبي الذي بذلت روسيا الكثير لتحقيقه في المنطقة. ولذلك سارعت بدورها إلى إرسال بعثة روسية من جانبها لجذب أفغانستان بعيداً عن المخطط العثماني البريطاني وكرد على الإنتصارات التي سحبت منها في سان ستيفانو. ففي بداية انعقاد جلسات مؤتمر برلين في ١٤ يونيو ١٨٧٨ تحرك الجنرال الروسي ستوليتوف ومعه عدة رسائل من الحاكم العام للتركستان إلى شير علي خان.

وحينما سمع الأمير عن قدوم البعثة الروسية، أرسل إلى كوفمان معتذراً عن عدم استطاعته استقبال أي اوروبي في بلاده نظراً لعداء الشعب الأفغاني للاوروبيين. كان الأمير في رده حريصاً على منع التواجد الاوروبي في أراضيه لأنه يحمل لدى الشعب الأفغاني معنى الكفر والكفار وقد ظهر هذا الشعور الديني قوياً في أعقاب الحقد الاوروبي سواء من جانب بريطانيا أو روسيا في الهند أو في وسط آسيا الإسلامية على كل ما هو مسلم وأصبح الشعب الأفغاني يرى في الوجود الأجنبي أو حتى بعض الأفراد من الاوروبيين إهانة دينية لا يمكن السكوت عليها.

وهذا ما دفع الشعب الأفغاني إلى الثورة العارمة ضد البريطانيين في الحرب الأفغانية الأولى ١٨٣٨-١٨٤٢ والحرب الأفغانية الثانية ١٨٨٧-١٨٨١،

---

(١) تردد في بعض المراجع والوثائق اسم غير ستوليتوف لرئاسة البعثة الروسية مثل اسم الجنرال أبراموف Abramoff أو شخصية روسية أخرى. ولكن من خلال الوثائق والتقارير الصحفية الموجودة في مجموعة الوثائق .F.O. 539/15 - 539/16 - 539/22
أصبح واضحاً بأن ستوليتوف هو الذي ترأس البعثة الروسية إلى كابول.

وبالإضافة إلى الجانب الديني فقد كان الأمير يدرك أن الوجود الأجنبي يعني بداية تلاشي حرية واستقلال بلاده، وهذا ما دفعه إلى رفض مطالب نائب الملكة، كما أن الأمير اذا ما قبل ببعثة ستوليتوف أصبح عليه لزاماً تنفيذ المطالب البريطانية، بذلك تصبح بلاده مسرحاً للصراع الروسي البريطاني. ولذلك رفض البعثة الروسية.

وحتى لا يثير غضب كوفمان اقترح شير علي خان أن يرسل مندوباً عنه إلى طشقند اذا كان لدى الروس أمر عاجل لمناقشته على نحو مماثل لما فعله مع الإنجليز في سيملا وبشاور.

رفض كوفمان اقتراح الأمير الأفغاني وأصر على استقبال الأمير للبعثة الروسية في كابول. وحمل شير علي خان مسئولية سلامة رجال البعثة وعلى هذا النحو أصبح لزاماً على شير علي خان الترحيب بالبعثة رغماً عنه. وقدم رئيس البعثة الروسية للأمير رسائل كوفمان التي كانت تحمل مطالب روسية تتلخص في: وضع مندوبين روس في المدن الأفغانية وتمركز قوات روسية في أربع مناطق مناسبة من الناحية الإستراتيجية وإنشاء خطوط التلغراف. وعقد معاهدة دفاعية وهجومية مع أفغانستان (١).

كانت الشروط الروسية هي نفس الشروط التي تقدم بها الإنجليز ما عدا ربط العلاقة الخارجية الأفغانية بروسيا. وكان هدف الروس من خلال هذه الشروط نفس الهدف الإنجليزي الذي كان يرمي إلى ربط أفغانستان سياسياً وعسكرياً مع حكومة الهند البريطانية ولو مال الأمير لقبول الشروط الروسية لكان أولى به أن يقبل بالشروط الإنجليزية خاصة، وأنه كان يفضل في فترة سابقة الإنجليز على الروس.

لم يتخذ الأمير قراراً فورياً في الرد على مطالب الروس رغم معرفته التامة لذلك الرد، فعقد اجتماعاً مع كبار مستشاريه والوزراء لمناقشة الوضع بعد الشروط الروسية.

وبعد تدارس الموقف من جميع جوانبه الداخلية والخارجية تقرر في ذلك

---

(١) F.O. 539/15. Inclosure No. 3. in No. 131. Extract from Peshawur Confidential Diary, Dated May 22, 1878, P. 156.

الإجتماع رفض المطالب التي حملها ستوليتوف. ولم يعلن شير علي خان ذلك صراحة لرئيس البعثة الروسية، ولكنه أوضح عن عزمه على إرسال بعثة أفغانية للتباحث مع السلطات الروسية في طشقند وسنت بطرسبورج. وليس بعيداً أن يكون ذلك التصرف سبيلا لمراوغة الروس حتى لا يثير عليه في وقت واحد روسيا و بريطانيا.

ففي الوقت الذي غادرت فيه البعثة الروسية كابول أرسل بعثة أفغانية للاجتماع مع كوفمان في طشقند وأعلن بأن هذه البعثة سوف تواصل سيرها بعد ذلك إلى سنت بطرسبورج لاستئناف اتصالاتها مع السلطات الروسية (١).

صدى البعثة الروسية في لندن:

حينما وصلت أنباء البعثة الروسية إلى لندن احتجت وزارة الخارجية البريطانية على التصرف الروسي، وطالبت الحكومة الروسية بالعمل في الطريق الدبلوماسي من أجل الوصول إلى حلٍ مرضٍ في أفغانستان.

ومن الواضح أن حكومة لندن لم تقم ثائرتها للبعثة بالرغم من إدراكها التام للأخطار التي يتوقعها رجال حكومة الهند البريطانية، وفضلت السير في الحل السياسي، وما دفعها إلى ذلك أنها كانت تخشى أن تكون روسيا تتعمد إثارة الأزمة الأفغانية بعد مؤتمر برلين، فكانت تتوقع أن تقوم روسيا بإرسال قواتها التي كانت تعمل في جبهة البلقان وتوجيهها إلى العمل من جديد ضد انجلترا في وسط آسيا. ولذلك كانت تفضل أن ترى المسألة الأفغانية هادئة أو بعيدة عن الإهتمام لمدة عام حتى لا تؤدي إلى تطورات جديدة تؤثر على قرارات مؤتمر برلين (٢).

صدى البعثة الروسية في الهند:

حينما علم نائب الملكة ــ المستر ليتون ــ بأخبار البعثة ثار على الأمير الأفغاني رغم إدراكه التام لحقيقة موقف الأمير ورفضه لمطالبها. وعقد عدة اتصالات مع رجال حكومة الهند لدراسة الإجراءات التي يجب أن تتخذها حكومة

---

(١) F.O. 539/15. Inclosure No. 2. in No. 193 B. Extract from the Russki Mir of sept. 29, 1878.
F.O. 539/15. Inclosure No. 4. in No. 195 B. Extract from the Russki Mir of Oct. 3/15, 1878, P. 265.

(٢) Dodwell, H.: The Cambridge History of India, Vol. VI. P. 418.

الهند. وأوضح الأخطار التي تنتظر الهند من جراء الوجود الروسي في أفغانستان وأن الروس بسياستهم الجريئة قد اكتسبوا موقعاً متقدماً لهم لضرب الوجود البريطاني في الهند. وإنه يجب على بريطانيا أن تتخذ اجراءات سريعة حتى لا تكشف للأمير عن أنها الجانب الضعيف في آسيا وأن روسيا هي الجانب القوي.

وأرجع ليتون موقف الأمير الأفغاني وقبوله البعثة الروسية إلى إحساسه بأن الروس أكثر جرأة من البريطانيين في سياستهم الآسيوية [١] واقترح المستر ليتون ضرورة إرسال بعثة بريطانية مماثلة تحمل معها الشروط البريطانية للوجود السياسي والعسكري في أفغانستان [٢] وفي حالة رفض الأمير للشروط البريطانية طالب نائب الملكة بالاحتلال العسكري لوادي خوارم وإقامة معسكر بريطاني بالقرب من طرف الوادي للإشراف على الطريق الذي يسير أسفل منه.

كما أن رفض الأمير للبعثة في نظر المستر ليتون سيؤدي إلى عزل شير علي خان عن شعبه وبث الفرقة بين أفراد عشيرته [٣]، لأن نائب الملكة كان لا يزال يتصور أن الشعب الأفغاني يفضل الاحتلال على الاستقلال، وأصر على ضرورة إرسال بعثة بريطانية إلى أفغانستان.

موقف الحكومة الروسية من البعثة الروسية:

نفت الخارجية الروسية خبر البعثة، وأعلنت أنها لا تعتزم من جانبها أو من جانب حكومة التركستان إرسال مثل تلك البعثة [٤] رغم أن البعثة كانت موجودة بالفعل في كابول وكان قصد الحكومة الروسية من وراء ذلك هو التنصل من النتائج السياسية لتصرف كوفمان. وليس من المستبعد أن تكون وزارة الحربية الروسية بعيدة عن اتخاذ قرار إرسال البعثة لأنها كانت تهدف إلى إبعاد أفغانستان

---

(١) F.O. 539/15. Inclosure No. 1 in No. 92. The Viceroy of India to Viscount Granbrook, Dated, July 30, 1878. P. 104.

(٢) وتشتمل الشروط البريطانية ما يأتي: ربط علاقة أفغانستان الخارجية ببريطانيا ووضع الضباط البريطانيين في كابول وحيرات لمراقبة الأحداث التي تجري في المنطقة المجاورة. ولم يتعهد المستر ليتون بتقديم مساعدات مالية لأفغانستان أو حتى تأييد بريطانيا لولي عهده.

(٣) Singhal, O.P.: India and Afghanistan. 1876-1900. P. 35.

(٤) Marvin, Charles: The Region of the Eternal fire London 1891, P. 76-78.

عن المخطط العثماني البريطاني الرامي إلى خلق تكتل إسلامي ضد روسيا في وسط آسيا الإسلامية. وهذا بدوره يؤكد الخط السياسي الذي انتهجته روسيا إلا وهو الازدواجية.

ففي الوقت الذي تدفع فيه قادة الأطراف كانت تتنصل بعد ذلك أمام الدول الاوروبية من عاقبة أعمال أولئك القادة.

البعثة البريطانية إلى كابول:

أصر نائب الملكة على إرسال بعثة بريطانية إلى كابول كرد على البعثة الروسية، واضطرت حكومة الهند في أغسطس ١٨٧٨ على الموافقة على اقتراح المستر ليتون وشكلت حكومة الهند البريطانية بعثتها برئاسة نيفيل تشمبرلين

Neville Chamberlain، وكان تصحبها حامية من ألف رجل. وقبل أن تصل البعثة البريطانية بشاور في ١٢ سبتمبر كانت البعثة الروسية قد غادرت كابول. وبعد سير البعثة أرسل المستر ليتون إلى حكومة لندن لأخذ رأيها قبل دخول تشمبرلين الأراضي الأفغانية، وكأن ليتون بسلوكه هذا قد أراد أن يضع الحكومة البريطانية أمام الأمر الواقع. خاصة وأن حكومة لندن تود أن تحل المسألة بالطرق الدبلوماسية كما رأينا حتى لا تفقد المكاسب التي حققتها في مؤتمر برلين.

تريث ليتون قليلا بعدوصول البعثة إلى بشاور كما لو كان ينتظر رأي حكومة لندن، ولكنه في الحقيقة كان يجري اتصالاته مع القبائل الأفغانية القاطنة حول ممر خيبر حتى يكفل للبعثة المرور الآمن ــ دون اعتراض من قبل تلك القبائل.

وحينما انتهى من ذلك ولم يصله خلال تلك الفترة رد حكومة لندن أمر المستر تشمبرلين بالتحرك، وكانت حجته في ذلك أن الانتظار سوف يؤدي إلى عصيان وتمرد القبائل على الاتفاق الذي عقده معها (١).

وحينما وصلت البعثة إلى حصن أق مسجد هدد الأفغان باستخدام السلاح،

(١) F.O.539/15. Inclosure No. 6 in No. 229. New Letter from the Government Agent at Peshawar. Dated sept. 18, 1878, P. 334.

اذا ما حاول أفراد البعثة التقدم بل وأجبروها على التراجع إلى بشاور ثانية [١] وفي كابول أعلن الأمير بأنه لم يصدر أمراً إلى قائد الحامية الأفغانية في أق مسجد لاعتراض البعثة ولكنه بعث له بموافقته لمرور البعثة إلى كابول، ولكن الضابط الأفغاني لم ينصاع لأمر الأمير، وأنه لا يقصد أن يسيء لعلاقته مع بريطانيا رغم أن نائب الملكة يواصل بإصرار سياسته العدوانية ضد أفغانستان وكشف الأمير عن بعض الرسائل التي كانت حكومة الهند البريطانية أرسلتها لبعض جماعات تحثهم على الثورة والتمرد ضد الأمير [٢].

موقف حكومة لندن من إجراءات ليتون:

عقدت الحكومة البريطانية عدة اجتماعات لمناقشة إجراءات المستر ليتون خاصة بعد الانتقادات العنيفة التي وجهها الأحرار ضد سياسة المحافظين وكانت بعثة تشمبرلين في اعتقادهم سبباً كافيا لقيام الحرب مع أفغانستان.

وعلى مستوى الشعبي، فقد كان الرأي العام البريطاني يخشى أن تشجع سياسة ليتون الروس على مزيد من المغامرات.

دافع المحافظون عن سياستهم على علاتها، ولكنهم في حقيقة الأمر كانوا يخشون أن تؤدي سياسة ليتون إلى اشتعال أزمة جديدة تعطل تنفيذ معاهدة برلين، وأن المستر جرانبروك الذي كان يؤيد ليتون بكل إخلاص اندهش كثيراً من تهور ليتون وحث سالبزبري على ضرورة منع نائب الملكة عن مواصلة سياسته الحمقاء [٣] خاصة بعد مؤتمر برلين فإن الخلافات الروسية البريطانية فيما يتعلق بوسط آسيا قد سارت في طريق يتجه نحو التفاهم. وأن اللورد بيكونسفيلد نفسه

---

(١) تقدم الميجور كافا جناري ومعه قوة صغيرة إلى ممر خيبر كي يستطلع المكان ولقد أوقفه قائد حامية أق مسجد ــ فايز خان ــ وأنذره بإطلاق النار عليه إذا حاول التقدم. واضطر كافا جناري إلى التراجع تفادياً للاشتباك مع الأفغان.
أنظر:

Correspondence Respecting the Relation. Between Brit - and Afghanistan Since the Assession of Shere Ali Khan. Inclosure No. 1 in No. 60. From Major N. Cavaganri to His Excell, N. Camberlain. Dated.

(٢) F.O. 539 15. Inclosure No. 6 in No. 229. New Letter from the Government Agent at Peshawar. Dated sept. 18, 1878. P. 334.

(٣) Tytler, F.: A Study of Political Development in Central Asia, P. 138.

كان يعارض أي إجراء سريع ومندفع في وسط آسيا حتى لا يبدد المكاسب السياسية التي أحرزها في مؤتمر برلين.

الواضح من تصريحات المسئولين البريطانيين أن الحكومة البريطانية لم تضع جانباً فكرة المواجهة مع أفغانستان، بل أن الحكومة البريطانية كانت ترى أن المواجهة تبدو حتمية، ولكن الوقت لم يحن بعد وهي مقتنعة تماماً بأن صداقة أفغانستان لروسيا قد أعطتها المساعدة لاحتمالات مواجهة بريطانيا بنجاح في وسط آسيا الإسلامية بعد المجهودات المضنية التي بذلتها بريطانيا لطردها من البلقان.

ولذلك طلبت حكومة لندن من المستر ليتون أن يرسل إلى شير علي خان في لهجة معتدلة يسأله الموافقة على وجود بعثة بريطانية دائمة في كابول. وانتظار الرد خلال فترة مناسبة (١).

تلقى نائب الملكة تلك التعليمات وشكلها بالطابع الذي يخدم خطته فأرسل في ٣١ اكتوبر رسالة أو بمعنى آخر إنذاراً إلى الأمير لإجباره على القبول بالشروط البريطانية التي قدمتها الهند خلال المباحثات السابقة، وأمهله حتى ٢٠ نوفمبر ١٨٧٨، واذا لم يصله الرد خلال تلك الفترة فسيكون الأمير عدواً لبريطانيا وستبدأ العلميات العسكرية ضده على الفور.

الموقف الروسي من الأزمة الأفغانية البريطانية:

كانت العلاقات الروسية الأفغانية طيبة خلال عام ١٨٧٨، فقد عقد اجتماع للحكومة الروسية في شهر مايو، وأعلنت الحكومة فيه بأنها ستعامل الأمير الأفغاني بكل الود اذا قبل التعاون والتعامل مع روسيا (٢).

---

(١) Singhal. O.P.: India and Afghanistan (1876-1900). P. 37.

(٢) أعلنت صحيفة Golos في ٣١/١٩ سبتمبر ١٨٧٨ أن الموقف يحتم على روسيا أن تتعاطف مع أفغانستان وأن تساند الأمير الأفغاني معللة ذلك بأن روسيا تبيع السلاح وتقدم الهدايا لجهات عديدة، ويجب عليها أن تقف الموقف الودي الذي يتوقعه أصدقائها. ووجدت بعض الصحف الأخرى أن الظروف في ذلك الوقت لا تسمح بارسال قوات عسكرية إلى أفغانستان ولكن ذلك لا يمنع من إرسال أسلحة ومعدات حربية للأمير، وطالبت صحيفة الموسكو جازيت بلهجة تحذيرية تدخل روسيا لوضع حد لحالة الفوضى التي تسير في وسط آسيا والتي من الممكن أن تؤدي إلى تعقيدات في المنطقة، وإن الاستدلال المنطقي لتلك الظروف يفرض على روسيا ألا تتقاعس عن استخدام أية وسيلة تراها =

وحينما تأزمت العلاقة الأفغانية البريطانية، وأصبح واضحاً بأن بريطانيا ستلجأ إلى الشروع في غزو أفغانستان، طالبت الصحف الروسية من حكومتها أن تقف موقفاً ايجابياً نحو أفغانستان وأن تقدم لها السلاح والدعم المادي حتى تواجه بريطانيا التي اذا استطاعت السيطرة على الأراضي الأفغانية سيكون من السهل عليها تهديد القواعد الروسية في منطقة وسط آسيا الإسلامية. ويمكن اعتبار الموقف الروسي مجرد كلمات حماسية كانت تصدر في عرض صفحات صحفها تلاشت مع تلاشي الخطر الذي كانت تتوقعه من جراء وجود البعثة العثمانية في كابول. فقد أرسل القيصر الروسي في نوفمبر ١٨٧٨ إلى الأمير الأفغاني يطلب منه تجنب الحرب مع الإنجليز حتى ولو دعت الضرورة إلى عدم اعتراضهم أثناء زحفهم على الأراضي الأفغانية حيث أن الحكومة الروسية لا تستطيع إرسال مساعدات لأفغانستان قبل الربيع التالي، وأن عليه صد البريطانيين بوسائله حتى وصول المساعدات الروسية. كما أن الجنرال كوفمان أرسل إلى الأمير في الشهر نفسه ينصحه بالاتفاق مع الإنجليز اذا عرضوا عليه ذلك.

تحرك ليتون ضد أفغانستان:

لم يبعث الأمير الأفغاني برده إلى نائب الملكة خاصة وإنه كان مشغولا في أمور داخلية أهمها وفاة ولي عهده، وأحب أبنائه إليه مما جعله منعكفاً ولعدة أسابيع عن متابعة مجريات الأمور في بلاده، واتخذ المستر ليتون من عدم وصول الرد إليه ذريعة

= مناسبة لكبح بريطانيا حتى لا تهدد روسيا على طول حدودها في وسط آسيا.

ومن ناحية أخرى أكد السفير البريطاني في العاصمة الروسية بأن الجنرال ستوليتوف قد قدم هدية للأمير الأفغاني تتكون من ١٤ ألف بندقية وكمية كبيرة من الذخيرة. ومن المستبعد أن يكون الروس قد قدموا مثل تلك الكمية إلى الأمير، فالتقارير العسكرية لجنرالات الحرب الأفغانية الثانية لم تثبت على عثورهم لأية كمية من السلاح الروسي. أنظر:

F.O. 539/15. Inclosure No. 2 in No. 209. Substance of an Article from the St. Petersburg Vedomisti of Oct. 17/29, 1878. P. 285.

وأيضاً: F.O. 539/15. Inclosure No. 2 in No. 139. Extract from the «Agence Russe».

F.O. 539/15. No. 200. Opinions of the Russian Press on the Afghan Question. Russki Mir, P. 274.

F.O. 539/15. No. 209. Lord A. Loftus to the Marquis of Salisbure. St. Petersburg. Dated Oct. 31, 1878.

لزيادة تصلبه وعناده وأصبح الاسلوب العسكري والذي كان يهدف إليه منذ فترة خلت الوحيد أمامه للتعامل مع الأمير الأفغاني، فقام بتحركات سياسية وعسكرية تهدف إلى بث الفرقة بين الأمير وأتباعه وإلى إقامة قاعدة عسكرية بالقرب من الحدود الأفغانية تكون منطلقاً للقوات الهندية عبر الأراضي الأفغانية(١).

ونتيجة للإغراء المادي والمعنوي الذي كان يقدمه ليتون لبعض القبائل والزعماء الأفغان وجد بعض النجاح مما دفعه إلى تصور خاطىء اعتقد خلاله أن الشعب الأفغاني سيكون مسروراً وسيستقبل القوات البريطانية بكل ترحاب. بل إنه اعتقد أن الأفغان سيجدون في القوات البريطانية المساعدة التي تمكنهم من إسقاط الأمير شير علي خان وإبداله بشخص آخر يكون أكثر وداً للمصالح البريطانية. وعلى حد زعم ليتون أن ذلك كله سيتم دون أن تتكبد حكومة الهند نفقات اقتصادية باهظة(٢).

رفع المستر ليتون اقتراحاته وخططه وتصوراته إلى مجلس الهند، واجتمع المجلس في ١٩ اكتوبر ١٨٧٨ وقدم المقترحات التالية إلى حكومة الهند: إصدار منشور عاجل يحدد و يوضح المشكلة القائمة بين الهند وأفغانستان وسبب سخط الحكومة الهندية و يتضمن المشاعر الودية تجاه الشعب الأفغاني وعدم رغبة بريطانيا في التدخل في الشئون الداخلية الأفغانية ويحمل المنشور الأمير الأفغاني مسئولية تأزم الموقف بين حكومة الهند البريطانية وأفغانستان. وتضمنت مقترحات مجلس الهند خطة عسكرية للزحف البريطاني على أفغانستان(٣).

---

(١) أرسل المستر ليتون قوة عسكرية تتكون من ٤ آلاف عسكري إلى ثول Thul وأخرى بلغ تعدادها ٦ آلاف تمركزت في شوكور، كما عزز قواته الموجودة في كو يتا بقوات أخرى بلغ تعدادها ٣٥٠٠ جندي.
أنظر: F.O. 539/15. Inclosure No. 5. in No. 210. The Viceroy of India to Viscount Granbrook - Simla. Dated Sept. 26, 1878. P. 169.

(٢) F.O. 539/15. Inclosure No. 1 in No. 137. The Viceroy of India to Viscount Granbrook Simla. Dated Sept. 26, 1878. P. 299.

(٣) تتحرك القوات الهندية بعد تجمعها في ثول إلى وادي خوارم وطرد الحامية الأفغانية عند ممر خيبر. التقدم من كو يتا إلى وادي بيشين Pishin في أفغانستان وإذا دعت الضرورة أن تواصل القوات سيرها إلى قندهار أما من جهة الاستعدادات والتجهيزات العسكرية فقد اقترح المجلس تعزيز حامية بشاور حتى يبلغ تعدادها ٨٧٠٠ على أن يتاح العمل الميداني لـ ٦٠٠٠ ـــ تتمركز قوات احتياطية في (حسن عبد الله) يكون مجموعها ٥ آلاف ولا يمانع المجلس في حشد فرق أخرى من بعض الحكام =

وقد حث المجلس حكومة الهند على سرعة التحرك حتى لا تفقد بريطانيا مساعدة وتأييد القبائل الأفغانية التي ادعت أنها تؤيدها.

منشور ٢١ نوفمبر ١٨٧٨:

أقرت حكومة الهند اقتراحات مجلس الهند، فأصدرت منشور في ٢١ نوفمبر ١٨٧٨، وكان القصد منه تضليل الشعب الأفغاني وفصل دعمه وتأييده لأميره، وبالغ المنشور في الكرم البريطاني ونوايا حكومة الهند الطيبة والبريئة التي قابلها الأمير بإنكار وجحود. فلم يقبل باستقبال بعثة بريطانية في الأراضي الأفغانية في حين (وافق) على شروط الروس وألقت حكومة الهند في منشورها المسئولية على الأمير وأعطت لنفسها التبرير المنطقي للتقدم العسكري في الأراضي الأفغانية الذي اعتبرته بأنه لا يضر باستقلال وسلامة البلاد وأن القصد هو عقاب الأمير في عقر داره.

موقف حكومة لندن من مشروع الحرب الأفغانية الثانية:

وصلت العلاقة الأفغانية البريطانية إلى درجة كبيرة من السوء والتدهور وأصبح الاسلوب العسكري ــ على حد تصور ليتون ــ هو الطريق الوحيد لعلاجها، وإزاء هذا الواقع انقسمت حكومة لندن في تأييدها لعلاج ليتون فقد كان المستر سالزبري وغالبية أعضاء الحكومة يعارضون تصرف ليتون بشدة وكان رأي أحد أعضائها و يدى المستر كيرنس Cairns أن الأمير رفض استقبال البعثة البريطانية حتى يتخلص من البعثة الروسية الموجودة في بلاده وأن موقفه الرافض لشروط

= الهنود الذين أعلنوا عن استعدادهم لتقديم خدماتهم تتجمع القوات التي ستتقدم إلى خوارم في ثول وتعدادها ٤ آلاف في نهاية أكتوبر وتجهز لها قوات احتياطية في قوهات Kohat وتكون حامية كويتا بتعدادها الخمسة آلاف الدعم لها على أن تتحرك سريعاً. واقترح المجلس أن تتقدم القوات عن طريق ممر خوارم بدلاً من خيبر لأن طريق ممر خيبر جلال أباد يتطلب استعدادات عسكرية متزايدة ولذلك وجد أن ممر خوارم أسرع للزحف ويجنب الجيوش الهندية الكثير من الضواغط. أنظر:

F.O. 539 15. Inclosure No. 4 in No. 185. The Viceroy of India to Viscount Granbrook. Simla Dated. Oct. 19, 1878. P. 317.

ليتون يرجع إلى أنه يخشى أن يجعل من بلاده مسرحاً للصراع الروسي الإنجليزي، فتفقد أفغانستان استقلالها وحريتها. وأدان سالزبري ليتون، واتهمه بأنه يخطط من أجل مصلحة الهند وحدها، وغفل سياسة الحكومة الخارجية في آسيا والدولة العثمانية. وعصا أوامر الحكومة حينما لم ينتظر تعليماتها وأرسل البعثة البريطانية.

وكان المؤيد الوحيد لسياسة ليتون في الحكومة البريطانية هو المستر جرانبروك الذي أرجع تعقيدات الموقف إلى الأمير الأفغاني الذي لم يلتفت إلى نصيحة ليتون بقبول الشروط البريطانية. أوضح رئيس الحكومة ــ المستر دزرائيلي ــ أنه من الصعوبة بمكان استدعاء البرلمان للموافقة على الحرب الأفغانية الثانية، اذا لم تكن لديه أسباب قوية لا يرقى إليها أي شك وفي الوقت نفسه كان المستر دزرائيلي مقتنعاً بالإجراءات التي اتخذها نائب الملكة حتى يظهر الجبروت البريطاني في المنطقة، لأن المظاهرة العسكرية في نظره ضرورية لإظهار القوة والتصميم البريطانيين. وهنا اقترح اللورد بيكونسفيلد أن تتقدم قوة عسكرية إلى الحدود الهندية وتحتل وادي خوارم في ظل استعدادات بريطانية كاملة، ومعنى هذا أن تقوم حكومة الهند بحرب جزئية أو بمظاهرة حربية على أفغانستان بقصد إرهاب شير علي خان لإجباره على الموافقة على الشروط البريطانية. ولم يسقط المستر دزرائيلي من حساباته احتمال المساعدة الروسية للأمير ولذلك طالب أن تكون الاستعدادات على أتم وجه.

وافق معظم أعضاء الحكومة على اقتراح اللورد بيكونسفيلد ولكن جرانبروك عارض ذلك على أساس أنه يجب على بريطانيا القيام بحرب سريعة وخاطفة حتى لا تلفت اهتمام وأنظار بعض الدول إليها. وتمكن جرانبروك من إقناع أعضاء الحكومة برأيه، وللدفاع عن سياسة الحكومة في البرلمان اقترح إرسال رسالة أخرى تدعو الأمير الأفغاني إلى القبول بالمطالب البريطانية، وفي حالة رفضه تكون بريطانيا قد سارت في الطريق السلمي إلى نهايته وأن الأمير يتحمل بعد ذلك عاقبة تصرفاته [١].

(١) Singhal, O.P.: India and Afghanistan (1876-1900). P. 41.

ومن الواضح أن حكومة لندن كانت راضية تمام الرضا عن سياسة ليتون، ولكن هدفها هو تأخير قرار الحرب حتى تتناسى أزمة البسفور، وأن دزرائيلي وسالزبري كانا يأملان، وخاصة بعد مؤتمر برلين، أن يحققا هدفهما بواسطة الطرق الدبلوماسية مع روسيا.

وعلى المستوى الشعبي والحزبي، فقد انتقد الأحرار سياسة ليتون في نوفمبر ١٨٧٨ واعتبروها غير عادلة وأنها ستدفع بريطانيا إلى كارثة جديدة مشابهة لتلك التي حدثت خلال الحرب الأفغانية الأولى. وعقدت عدة اجتماعات شعبية وطرحت المشكلة الأفغانية للنقاش، وكان منهم المؤيد والمعارض، لكن الغرور البريطاني قد جرف الكثيرين، فأصبحت المعارضة قليلة [١] الأمر الذي أتاح لليتون فرصة متابعة سياسته المتهورة ضد الشعب الأفغاني.

أسباب الحرب الأفغانية الثانية:

على ضوء عرضنا السابق يمكن استخلاص أسباب الحرب الأفغانية الثانية بما يأتي:

(١) شدة التنافس الروسي البريطاني:

بعد الانتصارات العسكرية التي حققتها روسيا في وسط آسيا الإسلامية، لم يعد هناك حداً فاصلا بين نفوذ الدولتين العظميين في المنطقة، ولقد زاد من حدة التنافس بينهما الحرب الروسية التركية، وما تبع تلك الحرب من سياسة آسيوية لكل من روسيا وبريطانيا وقد وقعت أفغانستان في وسط ذلك الصراع، وخشيت كل واحدة منهما أن تكون أفغانستان المنطلق العدائي للدولة الأخرى، فحاولت بريطانيا عن طريق الدولة العثمانية أن تبث روح الجهاد والثورة ضد الروس، وبذلك تفتح على روسيا جبهة جديدة في وسط آسيا الإسلامية. وكانت ترى في أفغانستان المنطلق الحقيقي لتلك المحاولة مما دفعها إلى إرسال البعثة العثمانية. وفي نفس الوقت أدركت روسيا النوايا العثمانية البريطانية والأخطار التي ستتعرض لها فسارعت بدورها إلى إحباط المخطط العثماني البريطاني، وجذبت أفغانستان

---

(١) Ibid. P. 142.

إلى الدائرة السياسية الروسية، وكانت روسيا تمتلك الاساليب الإنسانية والسياسية التي مكنتها من النجاح في محاولتها. وتصورت بريطانيا في النجاح الروسي السياسي نصراً عجزت هي عن تحقيقه بالطرق السلمية فلجأت إلى الأسلوب العسكري.

(٢) تهور نائب الملكة:

بالرغم من التقارير المختلفة التي وصلت إلى المستر ليتون من مصادر بريطانية وهندية والتي أظهرت له عن عدم وجود أي ارتباط عسكري بين الأمير وروسيا، إلا أنه واصل سياسته الصلبة نحو أفغانستان رغم معارضة بعض الأعضاء من حكومة الهند، وكان في مقدوره تسوية الأمور مع الأمير الأفغاني وحتى إملاء شروطه بطرق سياسية وإنسانية خاصة وأن الأمير كان يميل إلى الجانب البريطاني وطلب المساعدة البريطانية لصد الزحف الروسي المرتقب للأراضي الأفغانية. ولكن المستر ليتون آثر اللجوء إلى الاسلوب العسكري اما لمجد شخصي أو لإظهار هيبة بريطانيا وعنفوانها الحربي، وهذا يؤكد أن نائب الملكة يسبح في خياله الأدبي، فقد نسج له ذلك الخيال خيوط قصة يكون هو بطلها.

(٣) عدم استقرار الأوضاع الداخلية:

إن السمة السياسية البارزة للمجتمع الأفغاني هي القبلية ــ الأمر الذي أدى إلى عدم استقرار الأوضاع الداخلية رغم مجهودات شير علي خان للقضاء على أي صراع ينشأ. ومن ثم فقد وجدت بريطانيا في هذا الوضع الفرصة لتأليب الحاقدين والثائرين على الأمير وقد استغل نائب الملكة الواقع الأفغاني أيما استغلال وتصور أن العمل العسكري البريطاني في أفغانستان سوف يكون مجرد نزهة عسكرية بين هتافات وترحيب الأفغان المؤيدين لبريطانيا.

الزحف العسكري على أفغانستان:

قسمت القوات المتقدمة إلى الأراضي الأفغانية إلى ثلاثة أقسام:

القسم الأول:

تقدم بقيادة صموائيل بروان S. Brown على رأس قوات مجموعها ١٦ ألف

جندي وعسكر بعض الوقت على الحدود الهندية في مقابل ممر خيبر وكان يقصد من وراء ذلك استطلاع المكان، ثم واصل سيره إلى قلعة على مسجد[1] واستولى عليها في ٢٣ نوفمبر ١٨٧٨ بعد القضاء على المقاومة الأفغانية فيها. ومكث براون عند الطرف الشمالي لممر خيبر عدة أيام، ثم بدأ سيره من جديد مع نهاية ديسمبر في اتجاه جلال أباد[2]. واعترضه أثناء زحفه عدة جماعات من الأفغان وألحقت بقواته بعض الخسائر، ولكنه استمر في تقدمه نحو مدينة جلال أباد. خرج حاكم المدينة الأفغاني لقتال الإنجليز. وبعد مقاومة شديدة أبداها الأفغان استولى براون على جلال أباد على أثر موت حاكمها في ساحة القتال، وتفتت وحدة المقاومة الأفغانية من بعده[3].

القسم الثاني:

تقدم القسم الثاني بقيادة الجنرال روبرتس Roberts من ثول إلى وادي خوارم، وكان ما يقلق قائد هذا القسم، هو نقص خدماته وعدم تنظيم مواصلاته وخوفه من أن يقوم رجال الدين بتحريض الجنود الهنود على عدم محاربة الأمير والشعب الأفغاني المسلم[4]، ومع ذلك فقد استولى على قلعة وادي خوارم في ٢٥ نوفمبر، ثم تقدم إلى الوادي واجتازه بدون اعتراض يذكر حتى وصل إلى بيوار Peiwar. جمع الأفغان قواتهم في أوائل ديسمبر ١٨٧٨ في بيوار توتال Peiwar Total. حاول الجنرال روبرتس عن طريق شن هجوم خاطف على الأفغان إلى نشر الذعر بينهم.

---

(١) أو ضريح على مسجد، وهي قلعة من الطين تتمتع بمركز حربي قوي من الشمال والجنوب حيث تحتل منطقة جبلية تشرف على ممر خيبر ونظراً لموقعها فإن براون لا يستطيع أن يهاجمها من الأمام فأرسل مجموعتين صغيرتين إلى الشمال الشرقي لممر خيبر تكون مهمتهما العمل على الالتفاف من حول القلعة من الناحية الشرقية. ولكن هذه المحاولة فشلت في ٢٢ نوفمبر نظراً للبرد الشديد على المرتفعات ونقص الطعام. وفي ٢٥ نوفمبر حمل البريطانيون مدافعهم الـ ٢٥ من جميع الأنواع ووجهوا قذائفها على القلعة. وقاومهم الأفغان لمدة ٨ ساعات بأسلحتهم التقليدية. وأخيراً عجز الأفغان عن الصمود في وجه الأسلحة البريطانية المتطورة (في ذلك الوقت) فاحتل البريطانيون القلعة في اليوم التالي. أنظر:
Wlker, F.: Afghanistan History and our Dealings with it. London. 1885, 2 Vols, Vol. 1.

(٢) Ibid. P. 77.

(٣) F.O. 539/15. Inclosure 1. in No. 141. Firman issued by Ameer shere Ali Khan. P. 106.

(٤) Sykes, P: History of Afghanistan. Vol. 1. P. 111.

ولكن الأفغان قاتلوه بشجاعة ولم يكن في مقدوره زحزحتهم عن مواقعهم، بل أذاقوه المرارة القاسية في كل محاولة يقوم بها لمهاجمتهم.

وفي ٢٢ ديسمبر حاول الجنرال روبرتس تطويق الأفغان من الخلف، وبدأ في ضرب مؤخرتهم مما دفع الأفغان إلى التقهقر وبذلك نجح في القضاء على المقاومة الأفغانية في المنطقة. وفي ٢٦ ديسمبر وجه نداء إلى زعماء القبائل الأفغانية التي تقطن في وادي خوارم يحثهم على اللجوء إلى السكينة والهدوء، وحاول طمأنتهم بأن الجنود البريطانيين يحترمون الممتلكات ويحافظون على أرواح الأفغان، وحذرهم من العمل على نشر الفوضى أو القيام بأية محاول ضد البريطانيين لأنها ستقابل بكل عنف ولوح لهم بأن القوات البريطانية تنتشر في جميع أنحاء الوادي الأمر الذي يمكنها من البطش بأية محاولة معادية لهم. وتصور الجنرال البريطاني أن الأفغان وهنوا واستكانوا لتحذيراته، فتقدم إلى وادي خوست Khost وهنا أحاط به الأفغان من جميع الجوانب، وأصبح محاصراً، ولم يستطع من موقعه محاربة الأفغان لأن الجماعات الأفغانية كانت تحتل أطراف الوادي، واذا ما استمر في مكانه، فإنه هالك لا محالة، فقرر الخروج من الوادي، فسلط نيرانه الكثيفة على تجمعات الأفغان، وكان هذا بمثابة ستار لحمايته أثناء صعوده أحد أطراف الوادي، ومن ثم تراجع إلى موقعه السابق في وادي خوارم. وظل ينتظر القوات التي ستتقدم إلى قندهار وكان ممر شوتارجاردن Shutargarden الحد الأقصى لعملياته.

القسم الثالث:

أما القسم الثالث من القوات البريطانية الهندية، فقد كان على رأسه الجنرال ويلتشير Wiltshire وكانت مدينة قندهار هي هدف هذا القسم. وقبل تحرك ويلتشير عبر الأراضي الأفغانية، إعترضته صعوبة من خان كالات. فقد كان على القسم الثالث أن يسير عبر أراضي كالات في طريقه إلى قندهار وكان أمير كالات يخشى من مرور القوات الهندية البريطانية في أراضيه، خاصة وإنه بدأ يصحو من الغفلة التي ألمت به أثناء عقده لمعاهدة يعقوب أباد مع البريطانيين. فرفض مرور قوات ويلتشير في أراضي كالات، بل إنه لجأ إلى اعتراض القوات البريطانية

بالقوة المسلحة وبعد مقاومة شجاعة قتل خان كالات وسيطر الإنجليز على المقاطعة ووضعوا أميراً جديداً على كالات وافق على مرور القوات البريطانية عبر أراضيه. واستقرار القوات البريطانية الدائم في كويتا، والعيش بسلام مع البريطانيين (١).

وبدأ ويلتشير سيره بعد ذلك وكان في كل لحظة يتوقع مهاجمة الأفغان له، ولذلك كان تقدمه بطيئاً، ووصل إلى ممر خوجاك، ولم يواجه صعوبات تذكر، وتمكن الجنرال دونالد ستيوارت Donald Srewart أحد مساعدي ويليشير ــ من دخول مدينة قندهار في ٨ يناير ١٨٧٩ (٢)، دون مقاومة لانسحاب أحد القادة الأفغان بقواته قبل وصول القوات البريطانية.

وليس من المستبعد أن تكون حكومة الهند البريطانية قد اشترت ذلك الانسحاب، خاصة وأن نائب الملكة قام باتصالات نشطة مع الزعماء والقبائل قبل تحرك قواته إلى أفغانستان.

قامت بعض الجماعات الأفغانية بالهجوم على المعسكر البريطاني في مدينة قندهار، واضطر الجنرال ستيوارت إلى ملاحقة تلك الجماعات واعتقد أنه نجح في القضاء عليها فسار في اتجاه نهر الهلمند وقام ببعض الاستطلاعات في المناطق القريبة من النهر، إلا أن الأفغان هاجموا تلك القوات الاستطلاعية في فبراير ١٨٧٩، فرجع إلى قندهار (٣).

موقف كابول:

بعد الانتصارات التي حققها البريطانيون في الأراضي الأفغانية أصدر شير علي خان منشوراً إلى القوات البريطانية في ١٣ ديسمبر ١٨٧٨ ــ أوضح فيه حقيقة الأزمة التي نشأت بينه وبين حكومة الهند البريطانية وأنه لم يسيء للبريطانيين، ولم يكن لهم النوايا العدوانية كما حاول المستر ليتون أن يوهمهم، وإنه على استعداد لتخطي الأزمة القائمة. واقترح في هذا الخصوص عقد مؤتمر دولي تشترك فيه الدول الكبرى لمناقشة المشكلة الأفغانية وأسباب الخلاف البريطاني الأفغاني،

---

(١) Walker, P.: Afghanistan, It is History and our Dealing With it. P. 83-84.

(٢) Sykes, P.: History of Afghanistan. Vol. I.P. 110.

(٣) F.O. 539/16. Inclosure No. 1 in No. 147. Letter recived from Herat, P. 135.

وتعهد الأمير من جانبه بتنفيذ القرارات التي يتخذها المؤتمر(١). لم تستجب الحكومة البريطانية أو حكومة الهند البريطانية لنداء الأمير في عقد مؤتمر دولي لأن الحكومة البريطانية تتجنب عقد مثل هذا المؤتمر كما أوضحنا سابقاً ــ كما أن روسيا لم تبعث بأي رد بشأن اقتراحه وطالبته بتجنب الاصطدام مع البريطانيين حتى لو قاموا بغزو الأراضي الأفغانية(٢) وحينما فشل شير علي خان في محاولته هذه وبعد أن أدرك عجزه التام عن صد البريطانيين قرر الهرب من كابول إلى بلخ على الحدود الروسية وأطلق سراح ابنه محمد يعقوب خان وعينه وصياً على العرش. ولم يحاول شير علي خان إعداد العدة لمواجهة البريطانيين من جديد وتوفي في ٢١ فبراير ١٨٧٩ في مزار شريف بالقرب من بلخ(٣).

اتفاقية جاندأماك Gandamak والانسحاب البريطاني:

بعدما تولى محمد يعقوب خان السلطة في كابول وفرار شير علي خان اعتقد الجنرالات الانجليز بأن مهمتهم قد انتهت فشير علي خان ابتعد عن السلطة وجاء أمير غيره ويستطيعون بسهولة وبالطرق السياسية تحقيق بقية الأهداف ولا داعي لتواجد القوات البريطانية في أفغانستان ولذلك بدأت في التراجع إلى مدينة قندهار. وهاجم الأفغان القوات المنسحبة وكبدوها بعض الخسائر في العتاد والأرواح، وخلال شهر مارس تجمعت القوات البريطانية في كويتا بعد إخلائها لجميع مراكزها في الأراضي الأفغانية(٤).

في كابول خرج الأمير الجديد إلى المعسكر البريطاني في جنداماك وهناك وقع معاهدة في ٢٦ مايو عرفت بمعاهدة جنداماك. وقد مثل الجانب البريطاني في المباحثات الميجور كافاجناري ونصت المعاهدة على إعلان العفو العام في أفغانستان وربط سياسته الخارجية بعجلة السياسة البريطانية. وتقوم بريطانيا بمهمة الدفاع عن أفغانستان في حالة تعرضها لأي عدوان خارجي على أن تنسحب القوات

---

(١) F.O. 539/16. Inclosure No. 2. in No. 78. Extract from Journal of Political Events beyond the Indian Frontier for December 1878, P. 69.

(٢) F.O. 539/16. Inclosure No. 10. in No. 548. General Kaufman to the Ameer. Received at Mazar - i - Sharif. Dated January 17, 1878, P. 500.

(٣) Rastogi, Ram: India Afghan Relations. 1888-1900. India 1965. P. 8.

(٤) Walker, P.: Afghanistan. It's History and our Dealings with it. Vol 1. P. 87.

البريطانية بعد تلاشي الخطر ويقيم مندوب بريطاني في كابول، وتقوم بريطانيا بإنشاء خط تلغرافي بين وادي خوارم وكابول. احتفظت بريطانيا خلال معاهدة جنداماك بسيطرتها على وادي خوارم وبيشين وسيبي Sibi وادعت أنه إجراء وقتي. ولم تحدد المعاهدة موعد عودة تلك الأ راضي لأفغانستان. وفي المقابل تقدم بريطانيا للأمير مساعدة مالية قدرها ٦٠ ألف جنيه استرليني سنوياً.

والواضح من هذه الإتفاقية أن حكومة الهند ربطت أفغانستان بعجلة الإمبراطورية الهندية وأنها احتفظت لنفسها بالسيطرة على الممرات الاستراتيجية الهامة التي تقع بالقرب من حدودها مثل خوارم وبيشين وسيبي. واذا ما سيطرت الهند على هذه الممرات فسيكون بمقدورها ضرب أي جيش غاز للأ راضي الهندية.

أصدرت حكومة الهند قراراً بتعيين الميجور كافاجناري مندوباً لها في كابول، وركب المندوب البريطاني الغرور وأصر على دخول العاصمة وسط مظاهر الفخامة التي تليق به، فامتطى فيلا في ٢٤ يوليو، وسار في شوارع العاصمة في ظل ممالقة رجال الإدارة الذين ملأوا العاصمة بمظاهر الترحيب فكانت الطلقات النارية تسمع في كل جانب احتفاءاً به واتخذ له مقراً في بالاحصار. ومن الملاحظ أن الميجور كافاجناري قد سار في الطريق نفسه الذي اتخذه المستر الكسندر بيرنس في الحرب الأفغانية الأولى ولقي المصير نفسه الذي لاقاه بيرنس من قبل، كما سنرى بعد قليل.

ثورة أفغانستان:

اعتقد البريطانيون أنهم نجحوا بأسلوبهم العسكري في فرض إرادتهم على الشعب الأفغاني، فبالرغم من انسحاب القوات العسكرية البريطانية إلا أن وجود البريطانيين لم يختف من العاصمة فكانوا أصحاب السلطة العليا في النواحي الإدارية والعسكرية، وكانت معاملتهم للمواطنين تتسم بالتعالي والفظاظة مما أثار حقد المواطنين على البريطانيين. ولم يلبث هذا الحقد أن تحول إلى ثورة عارمة ضد البريطانيين، ففي ٣ سبتمبر ١٨٧٩ طالبت ثلاث كتائب في حيرات مرتباتها لثلاثة أشهر ماضية.

حاولت السلطات البريطانية مراضاتها بدفع مرتب شهر واحد، ولكن الجنود الأفغان أصروا على حقهم في مرتبات الأشهر الثلاثة كاملة، وساروا إلى مقر المندوب البريطاني في كابول وطالبوا بالاجتماع مع كافاجناري للتباحث معه، وتظاهر المندوب البريطاني بالموافقة.

وفي تلك الأثناء اشتد الحقد الشعبي على الوجود الأجنبي فالتف حول أفراد الكتائب الثلاث، وتحولت حركة الجنود الأفغان من مجرد المطالبة بحق جزئي مادي إلى ثورة دينية وسياسية ضد الانجليز. وبدأ الأفغان في ضرب المقر البريطاني بالحجارة والرصاص، ثم أضرموا فيه النار بعد ذلك وكان كافاجناري بداخله. حاول الأمير تهدئة الموقف فاصطحب معه بعض رجال الدين الذين كانوا يحملون القرآن الكريم في أيديهم، ولكن ذلك التصرف لم يثن الثوار عن عزمهم بل رجموا رئيس الحكومة داود باشا بالحجارة [1] لشعورهم بتعاونه مع الإنجليز.

صدى الثورة في الهند:

حينما وصلت أخبار ثورة الشعب الأفغاني والكارثة التي حلت بالبريطانيين في كابول، ارتفعت صيحات الانتقام في الهند، وقررت الحكومة أن تدفع بقواتها من جديد إلى أفغانستان، فتحرك الجنرال روبرتس والجنرال ماسي Massey إلى ممر شوترجاردن، والجنرال ستيوارت إلى قندهار [2] أدرك الأمير الأفغاني عجزه عن مواجهة القوات البريطانية المتقدمة ولذلك لجأ إلى خداع البريطانيين والتظاهر بتأييده لهم فبعث بوكيل عنه ومعه رسالتان في سبتمبر ١٨٧٩ تضمنتا مشاعره المخلصة لهم والأسف لما أصاب كافاجناري والبريطانيين في كابول.

وأعلن الجنرال روبرتس بأنه سيتقدم إلى كابول لدعم سلطة الأمير وللانتقام من أولئك الذين هاجموا المقر البريطاني. وزيادة في تضليل البريطانيين أرسل الأمير بعض الرسائل إلى القبائل الأفغانية لتسهيل مرور القوات البريطانية في أراضيها دون اعتراضها [3]، بل إنه قابل الجنرال روبرتس في ٢٩ سبتمبر في المعسكر الإنجليزي عند قوشي.

---

(١) Walker, P.: Afghanistan, It's History and our Dealings with it. Vol. P. 94-97.

(٢) Ibid. P. 98.

(٣) Sykes. P.: History of Afghanistan Vol I. P. 116.

ولم يكن هدف الأمير الأفغاني من وراء تلك المسافات الطويلة التي قطعها للوصول إلى المعسكر البريطاني ممالقة الإنجليز، بل تفقد القوات البريطانية الموجودة في المعسكر، وأثناء وجوده في المعسكر نقل كل المعلومات عن القوات البريطانية الغازية إلى الثوار الأفغان حتى يأخذوا حيطتهم واستعداداتهم.

وعلى ضوء المعلومات التي بعثها الأمير الأفغاني، بدأ الثوار الأفغان في إعداد العدة، وبعد الانتهاء من تلك المهمة تقدموا في أوائل اكتوبر وأحاطوا بالمعسكر البريطاني واحتلوا الطريق إلى كابول، وشنوا عدة هجمات على القوات البريطانية، إلا أن الجنرال ستيوارت، وبفضل أسلحته المتطورة وجيشه الحديث التنظيم تمكن من أن يشق طريقه وسط المقاومة الأفغانية العنيدة التي ألحقت به الكثير من الخسائر، ودخل كابول في ١٣ اكتوبر ١٨٧٩.

وفي كابول حاول الجنرال البريطاني الانتقام من الثوار الأفغان، أو المؤيدين لانتفاضتهم الشعبية في ٣ سبتمبر فأصدر في ٢٨ اكتوبر منشوراً يمني من يرشد على المشتركين في الثورة بالهدايا والجوائز المادية والمعنوية. وكان الرد الأفغاني على منشور الجنرال روبرتس الهجمات العنيفة التي قام بها الثوار الأفغان على المعسكرات البريطانية في علي خيل Ali Khel وشوتر جاردن. ومع اقتراب الشتاء بدأ الرعب يتسرب في نفوس القوات البريطانية فقد اشتدت وطأة الهجمات الأفغانية، وأثار رجال الدين في غزنة روح الجهاد المقدس في نفوس المواطنين، ولم تستطع القوات البريطانية التي أرسلت في ٢٦ نوفمبر من تهدئة الوضع مما أثار ريبة وخوف روبرتس.

ولقد أدت تلك الأحداث إلى رفع معنوية الأفغان الذين أخذوا ينقضون على البريطانيين من كل صوب، وهنا اكتشف الجنرال روبرتس دور الأمير في قيادة وتوجيه الثوار الأفغان، فألقى القبض عليه وعلى ثلاثة من كبار مساعديه وأرسلهم كأسرى إلى الهند، ولم يثن الاجراء البريطاني الثوار الأفغان عن مواصلة أعمالهم الثورية ضد الإنجليز، واضطر الجنرال روبرتس أمام شدة الغارات الأفغانية إلى الانسحاب من كابول [١] إلى قندهار إلا أن الثوار الأفغان لاحقوه بضرباتهم،

---

(١) Walker, P.: Afghanistanm It's History and our Dealings with it. Vol I. P. 109-111.

وكانت مدينة غزنة قاعدة الإنطلاق الأفغاني على البريطانيين في قندهار وحاول الجنرال روبرتس أن يقضي على تلك القاعدة، فأصدر أمراً إلى أحد مساعديه بالتحرك إلى غزنة في ٧ مارس ١٨٨٠ وقابله الأفغان بمقاومة صلبة، اضطر إلى طلب التعزيزات من قندهار، وحينما وصلت له تلك التعزيزات تقدم من جديد إلى غزنة ونجح أخيراً في السيطرة على المدينة في ١٩ أبريل ١٨٨٠ (١).

تزعم الثوار الأفغان بعد إلقاء القبض على الأمير محمد يعقوب خان الأمير عبد الرحمن خان بن محمد أفضل. وقد جمع صفوفهم بصورة منظمة بدأ بعدها في الهجوم على المعسكرات البريطانية. وذاق البريطانيون خسائر متلاحقة على يد الأفغان كانت أكبرها حجماً تلك التي حدثت خلال الاشتباك الذي حدث في ٢٧ يوليو ١٨٨٠ والتي يعتبرونها البريطانيون كارثة لهم.

صدى الاحتلال العسكري البريطاني لأفغانستان في روسيا:

تناولت الصحف الروسية أحداث أفغانستان بالدراسة والتعليق، فقد أعلنت بعضها عن رأيها بأن الحكومة البريطانية تهدف من رواء سياستها العسكرية في أفغانستان إلى إلحاق الضرر بالوجود الروسي في وسط آسيا الإسلامية، حيث أعلن الإنجليز أن هزيمة الأمير الأفغاني تعني هزيمة الروس (٢)، وأن استقرار السيادة العسكرية البريطانية في كابول قد أدى إلى اختفاء المنطقة المسماة بالأراضي المحايدة، أو الحاجزة بين الدولتين، وبالتالي اقترب الإنجليز من شاطىء نهر جيحون ــ الحد الجنوبي للسيادة الروسية ــ وبذلك فإنهم سيقفون وجهاً لوجه أمام الروس مما سيكون من المستبعد تجنب مشاكل جديدة في المستقبل بين الدولتين في وسط آسيا الإسلامية، وتوقعت الصحف الروسية أن يبدأ الإنجليز في أفغانستان حرب اقتصادية على الروس(٣)، خاصة وأن روسيا قد أقفلت الإمارات الإسلامية من الناحية الإقتصادية في وجه الدول الاوروبية وعلى وجه الخصوص بريطانيا.

---

(١) Ibid. P. 116.

(٢) F.O. 539/16. Inclosure No. 1 in No. 30. Opinion of Russian Press on Flight of Shere Ali Khan to Russian Territory Rissik Mir - December / January 29/10, 1879-1880. P. 32 B.

(٣) F.O. 539/16. Inclosure No. 1 in No. 268. Extract from the st. Petersburg Gazette of May 24 / June 5, 1879. P. 232.

وإزاء هذا الخطر السياسي والإقتصادي طالبت الصحف الروسية حكومتها باتخاذ إجراءات سياسية وعسكرية سريعة لإعادة التوازن بين روسيا و بريطانيا في وسط آسيا الإسلامية. وكانت ترى في السيطرة على المقاطعات الأفغانية (مأمينا وواخان و بادقشان) والتي تقع بين أفغانستان و بخارى، ثم إمارة مرو[١] الطريق الوحيد الذي يكفل مثل ذلك التوازن.

ولم تغفل تلك الصحف أهمية التعاون مع ايران[٢] وذلك لسد الطريق أمام بريطانيا اذا ما حاولت أن تقيم لنفسها قاعدة عريضة تمتد بين هند وكوش حتى بحر قزوين تستطيع بواسطتها محاصرة روسيا، بل وتحقيق أهدافها السياسية والإقتصادية التي سبق ذكرها.

الإنسحاب البريطاني من أفغانستان:

واجهت سياسة المحافظين في المشكلة الأفغانية نقداً عنيفاً في لندن بل اتخذها حزب الأحرار وسيلة للتشهير بالمحافظين خلال حملته الإنتخابية، وفي أبريل ١٨٨٠ عاد الأحرار ثانية إلى الحكم وطالبت غالبية البريطانيين بالانسحاب العسكري البريطاني من أفغانستان.

وفي صيف ١٨٨١ صدرت الأوامر إلى الجنرال روبرتس بإخلاء أفغانستان والعودة إلى الهند. وسقطت جميع مطالب المستر ليتون، ما عدا مطلب واحد ألا وهو تعهد أفغانستان بعدم قيام علاقات خارجية لها مع أية دولة أجنبية سوى بريطانيا[٣]. بل أن هذا الشرط لم يلتزم به الأمير، فقد نشطت إتصالاته مع الجنرال كوفمان، وقامت بعثة روسية بزيارة مدينة حيرات الأفغانية[٤] وبالرغم من تخوف حكومة الهند لهذه المبادرة الروسية إلا أن المستر ريبون Ripon ١٨٨٠-١٨٨٤ خليفة المستر ليتون في منصب نائب الملكة لم يطلق لخياله العنان

---

(١) قبل أن تسيطر روسيا على مرو ١٨٨٣.

(٢) F.O. 539/15. No. 284. Extract from the Golos of December 20, 1878, P. 406-407.

(٣) Becker, Seymour: Russia's Protectorates in Central Asia, P. 103.
Walker, P.: Afghanistan It's History and our Dealing with it. Vol 2. P. 1-2.

(٤) F.O. 539/18. No. 64. The Earlof Dufferin to Earl of Granville st. Perersburg. Dated August 24, 1880. P. 66.

وترك أمر تسوية المشكلة إلى الخارجية البريطانية فقامت بالاتصال مع الحكومة الروسية التي أظهرت عن تفهمها للمخاوف البريطانية، فأصدرت الأوامر المشددة إلى الجنرال كوفمان بعدم التدخل في الشئون الأفغانية حتى لا تثير أزمة بين الحكومتين (١).

لم تكن التأكيدات الروسية تتعدى الدائرة السياسية الروسية، فقد ترددت شائعات عن احتمال زيارة الجنرال كوفمان لكابول بقصد زيادة التبادل التجاري بين الدولتين (٢).

ومع أن مثل هذه الشائعات كانت كفيلة بإثارة شخصية مثل المستر ليتون، إلا أن حكومة الهند والمستر ريبون لم يلقوا أهمية كبرى لها، فإن ما تلقاه ليتون كان كافياً لإقناعهم بتدارس كل خطوة قبل تنفيذها بشأن أفغانستان.

نتائج الحرب الأفغانية الثانية:

ــ تكبدت حكومة الهند البريطانية خسائر بشرية واقتصادية ضخمة أثارت سخط البريطانيين، بل إن حزب المعارضة اتخذ من تلك الخسائر وسيلة للتشهير بحزب المحافظين وطالب البريطانيون بسرعة الإنسحاب من أفغانستان حتى لا تتكبد حكومة الهند المزيد من الخسائر البشرية والإقتصادية.

ــ ازدياد الشعور القومي للأفغان، والذي ظهر جلياً خلال الحرب فقد شعر الأفغان من جراء الوجود البريطاني في أراضيهم بالمهانة القومية والروحية، وترجم الأفغان ذلك الشعور إلى مقاومة عنيدة وغارات على المعسكرات البريطانية ومطاردة لقوات الاحتلال.

ــ شعور روسيا بالخطر البريطاني في آسيا، فقد كانت روسيا قبل الحرب الأفغانية الثانية تمثل سلطة البطش العسكري في المنطقة الإسلامية إلا أن الاستقرار البريطاني العسكري في أفغانستان قد أدى إلى تغيير الوضع الذي كانت فيه روسيا، بل وجدت في سياسة بريطانيا تهديداً سياسياً واقتصادياً، ولذلك شرعت

---

(١) F.O. 539/18. No. 147. The Earl of Granville to Mr. Plunkett. F.O. Dated Oct 25, 1881. P. 149.

(٢) F.O. 539/21. No. 154. Earl of Granville to Sir Thoranton. F.O. Dated. July 10, 1882. P. 129.

في المزيد من العمليات العسكرية وتمثل ذلك في مشروع غزو مرو وسيطرتها عليها ١٨٨٣، ثم محاولتها السيطرة على الأراضي الأفغانية الواقعة إلى الجوار من أراضي بخارى، وذلك حتى تكفل لنفسها موقعاً متقدماً لا تستطيع بريطانيا تهديدها فيه.

ـ تحديد الحدود الأفغانية الروسية، إن اختفاء الإمارات المستقلة في وسط آسيا الإسلامية وسيطرة روسيا على مرو بعد الحرب الأفغانية الثانية أثار مخاوف الأمير الأفغاني في أن تكون بلاده المنطقة التالية للعمليات العسكرية الروسية، خاصة وأن العسكرية الروسية كانت ترنو بأنظارها إلى بادقشان وواخان وبلخ الأفغانية، وقد تبنت الصحف الروسية آراء العسكرية الروسية وطالبت الحكومة القيصرية باتخاذ سياسة فعالة تكفل لروسيا مراكز متقدمة في تلك الجهات. وأن الحكومة البريطانية قد شاركت الأمير في مخاوفه، ولذلك بدأت بريطانيا في محاولتها لتحديد الحدود الأفغانية على أساس أنه يكمن في تحديد الحدود الروسية الأفغانية تعيين المجال السياسي لنفوذ كل من الأمبراطوريتين في وسط آسيا الإسلامية.

يتضح لنا من خلال عرضنا السابق أن كل من بريطانيا وروسيا مارست سياسة توسعية استعمارية في وسط آسيا الإسلامية ووقعت أفغانستان بين صراع الدولتين الاستعماري، فحاولت بريطانيا أن تشدها لجانبها لتكون لها موقعاً متقدماً لحماية امبراطوريتها الهندية، بينما أرادت الأخرى أن تتخذها وسيلة للثأر من بريطانيا لما أصابها من نكبات نتيجة لسياسة بريطانيا في البلقان.

ووسط هذا التكالب الاستعماري، حاول الأمير أن يخط لنفسه طريقاً يحفظ بواسطته استقلال وحرية بلاده بعيداً عن الجاذبية الاستعمارية لكلا الدولتين، ولكنه لم يخف عن ميله للجانب البريطاني خاصة بعد ما اتصف الروس بالبطش والوحشية من خلال غزوهم وإدارتهم للإمارات الإسلامية التي سيطروا عليها.

إلا أن نائب الملكة ـ المستر ليتون ـ كان يحبس في نفسه طاقة استعمارية كبيرة بعد عزله بلاده المجيدة، وكانت أفغانستان هي المجال الوحيد لتفجير تلك الطاقة فيها، خاصة وأنه يأمل من وراء ذلك أن يكون أحد الأبطال الإنجليز البارزين. ولا عجب في أن المستر ليتون كان ينسج في مخيلته الأدبية أسطورة جديدة يحيي بها أساطير البطولة الخارقة في الأدب القديم. ومما ساعده على ذلك

براعته الأدبية، رغم أنه كان يجهل طرق وأساليب وقدرات البطل الحديث، وواصل رسم خطوط أسطورته ولم يعتن كثيراً بواقع الشعب الأفغاني الجغرافي والاجتماعي والذي كان سبباً في هزيمة سلفه أوكلاند من قبل. فتعامل نائب الملكة مع الأمير الأفغاني بكل جفاء واستعلاء ضارباً عرض الحائط محاولة الأمير لتوضيح الواقع السياسي الأفغاني، وسار الأمير معه شوطاً كبيراً من أجل الوصول إلى اتفاق يرضي آمال ومصالح الشعب الأفغاني والحكومة البريطانية. إلا أن الاتفاق السهل لم يرض طموح المستر ليتون الذي كان يشعر بانتمائه إلى أكبر دولة إمبريالية في ذلك الوقت، وبالتالي انعكس هذا الشعور في موقف المستر ليتون الذي أصبح يفضل أن يحقق طموحه عن طريق القهر الجبروت.

حاولت الدولة العثمانية أن تتوسط لحل النزاع الذي كان قائماً بين المستر ليتون وأفغانستان -وفي الحقيقة أن الدولة العثمانية دفعت إلى ذلك الموقف بعد الجهود المكثفة التي بذلها السياسي البريطاني المستر لايارد ولقد وافق السلطان العثماني على القيام بدور الوساطة خاصة وأن حقد بلاده الطويل على روسيا يحضه على الانتقام منها، إلى جانب رغبته في تحقيق هدفه الرامي إلى تشكيل الجامعة الإسلامية، وأن مثل هذه الوساطة تخدم مشروع الجامعة الإسلامية.

وبالرغم من تردد الحكومة البريطانية في قبول مشروع البعثة العثمانية (الوساطة العثمانية) ورفض بعض أعضاء حكومة الهند لمشروع البعثة، إلا أن المستر ليتون مارس ضغطاً على كافة المستويات لتنفيذ مخططه وتصوراته وبالفعل نجح في ذلك وأرسلت البعثة إلى كابول. وكانت البعثة العثمانية تفتقد المقترحات الإيجابية التي تمكنها من الوصول إلى النجاح في وساطتها.

وخشيت روسيا أن تكون بريطانيا تهدف من وراء البعثة العثمانية إلى فتح جبهة جديدة عليها في وسط آسيا الإسلامية عن طريق تأليب المسلمين ضد روسيا، أو تكوين تحالف إسلامي تكون أفغانستان قاعدته فتحركت روسيا سريعاً حتى تشد أفغانستان بعيداً عن المخطط العثماني البريطاني فدفعت ببعثة ستوليتوف إلى كابول، وأجبر الأمير على استقبالها والترحيب بها.

وقد أدى وجود البعثة الروسية في كابول إلى ثورة نائب الملكة الذي اشتعل

حقداً على الأمير، رغم أن المستر ليتون كان يعلم بحقيقة موقف الأمير الرافض لوجود البعثة الروسية في أراضيه ومارس ضغطاً على حكومة الهند لقبول اقتراحه الذي كان يطالب بضرورة موافقة الأمير على وجود بعثة بريطانية في كابول.

ولم ينتظر تعليمات لندن التي كانت تهدف إلى حل المشكلة سياسياً مع روسيا، وزيادة في تهوره أمر رئيس البعثة بعبور الأ راضي الأفغانية، ولكن القوات الأفغانية صدت البعثة وأجبرتها على التراجع إلى الأ راضي الهندية ثانية.

وكان الأمير الأفغاني يدرك تماماً طبيعة الصراع بين الدولتين والنتائج المترتبة على تأييده لدولة دون أخرى، فقد نجح بحسن تصرفه في إبعاد بعثة ستوليتوف عن كابول، ولم يستجب لمطالبها، وحاول أن يتبع الأسلوب الهادىء نفسه مع حكومة الهند، إلا أن نائب الملكة تابع تصرفاته الهوجاء ضد أفغانستان، ومما شجعه على ذلك أن حكومة لندن لم تتخذ موقفاً صارماً ضد سياسته. فبالرغم من معارضتها الرسمية لتصرفاته، إلا أنها كانت تؤيد الإدعاءات التي كان يرددها دفاعاً عن سياسته، بل إنها اختلقت له التبريرات لمشروع غزو الأ راضي الأفغانية.

وتصور المستر ليتون أن القيام بحرب على أفغانستان مجرد نزهة حربية لقواته، وأن الشعب الأفغاني سيخرج مرحباً بقوات الغزو البريطاني. وبالرغم من الفرق الشاسع في طبيعة الصراع الحربي بين الجانبين البريطاني والأفغاني إلا أن الثوار الأفغان قد نجحوا في إلحاق الخسائر بالقوات البريطانية ومما ساعدهم على ذلك العامل الجغرافي، ولتفتيت الجبهة الأفغانية لجأت القيادة البريطانية إلى شراء ضمائر بعض القادة.

وحينما أدرك الأمير الأفغاني أن القوات البريطانية متقدمة إلى كابول دون محالة أصدر منشوراً للسلام تضمن اقتراحه لعقد مؤتمر دولي في سنت بطرسبورج لمناقشة أسباب الخلاف الأفغاني البريطاني. وتعهد من جانبه بتنفيذ جميع القرارات التي سيتخذها المؤتمر. ولم يلتفت نائب الملكة إلى اقتراح الأمير، وواصلت القوات البريطانية تقدمها إلى كابول التي فر منها الأمير، وعقد الأمير الجديد معاهدة جندماك التي عملت على ربط أفغانستان بعجلة الأمبراطورية البريطانية.

وكانت القيادة العسكرية البريطانية تقدر خطورة استمرار القوات البريطانية في الأراضي الأفغانية، فإذا كان المستر ليتون جاهلاً بتاريخ الهند، فإن العسكرية البريطانية كانت لا تزال تذكر الهزيمة التي لحقت بقواتها خلال الحرب الأفغانية الأولى. ولذلك قررت إنسحاب القوات البريطانية من أفغانستان بعد ذلك الإنتصار الذي تصورته.

ولم يلبث الشعب الأفغاني أن شعر بالمهانة بعد جنداماك، ومن وجود بعض البريطانيين على أرضه، ولم يلبث ذلك الشعور أن تحول إلى ثورة دينية وقومية ضد البريطانيين، وانتشرت ثورة الشعب في جميع أرجاء الأراضي الأفغانية، ففي كابول هاجموا المقر البريطاني وأحرقوه وكان بداخله بطل جنداماك نفسه.

وحينما وصلت أنباء الثورة إلى الهند، ثارت ثائرة ليتون من جديد وقرر الإنتقام من الشعب الأفغاني فأرسل قواته إلى أفغانستان وقد شقت طريقها وسط المقاومة الأفغانية العنيفة التي كان يقودها خفية الأمير الأفغاني، فألقى عليه الجنرال البريطاني القبض وأرسله أسيراً إلى الهند كما حاول اتباع الإغراء المادي لشراء ضمائر الشعب الأفغاني كسبيل للإنتقام من الثوار الأفغان إلا أنه فشل في ذلك رغم أسر الأمير والبطش الذي استخدمه. واستمر الشعب الأفغاني في مقاومته للبريطانيين، واضطر الجنرال البريطاني أمام عناد الأفغان إلى الإنسحاب عن كابول، وبدأ في تجميع القوات البريطانية في معسكرات معدودة حتى يتمكن من مقاومة هجمات الثوار الأفغان. واستمر الأفغان في مواصلة هجماتهم على المعسكرات البريطانية ـ الأمر الذي أدى إلى تسرب الخوف في نفوس البريطانيين، وفي نفس الجنرال روبرتس نفسه، وظلوا يتعرضون لعواصف الصقيع ولعواصف الغارات الأفغانية في آن واحد حتى أصدرت الحكومة البريطانية الجديدة قرار الإنسحاب في مطلع صيف ١٨٨١. وبذلك فشلت جهود ليتون في تحقيق أسطورته كما فشل من قبل اللورد أوكلاند.

ومن جهة روسيا فقد أثار الإحتلال البريطاني لأفغانستان مخاوف الحكومة الروسية، ولذلك بدأت في سياسة توسعية جديدة في المنطقة الإسلامية حتى تكفل نفسها مراكز متقدمة لصد التوسع البريطاني فاستولت على مرو ١٨٨٣، كما

ارتفعت الأصوات تطالب بالسيطرة على بعض الأراضي الأفغانية في مأمينا وبلخ، ولقد أثار هذا مخاوف الأمير الذي أصبح يتوقع أن يقوم الروس بمهاجمة أراضيه خاصة وأنه لم تكن هناك حدود واضحة بينه وبين روسيا، ولذلك بدأ في العمل المشترك مع بريطانيا من أجل تحقيق أمن وسلامة الأراضي الأفغانية التي تعتبر من وجهة النظر البريطانية الدولة الحاجزة لوجودها في الهند، وهذا ما سنتطرق إليه في الفصل التالي.

الفصل الرابع

الحدود الروسيّة الأفغانيّة

سبق القول أن النشاط الروسي امتد في النصف الثاني من القرن التاسع عشر إلى الإمارات الإسلامية والأراضي التركمانية. فبدأت المنطقة الفاصلة بين الإمبراطورية الروسية والبريطانية تضيق تدريجياً. ورغم هذا التقارب بين القوتين المتنافستين. فقد كانت المنطقة التي احتلها الروس حديثاً على نوع من الاستقرار. ولما كانت روسيا تدعي أنها تتوسع في هذه المنطقة بدافع من العمل على استقرار هذه الجبهة، وإدخال أسباب الحضارة الحديثة فيها، لم يعد لهذا الدافع أهمية وأصبح الإنجليز يضعون في اعتبارهم أن الروس إنما يسعون إلى التوسع سواء أكانت هناك أسباب إنسانية أو حضارية أو لم تكن هناك مثل هذه الدوافع، فقد أصبحت الدوائر البريطانية المسئولة عن المنطقة تعتقد أن شهية روسيا أصبحت مفتوحة، وأنها ستواصل توسيع رقعة نفوذها كلما عَنَّ لها ذلك وخاصة من جهة الشمال الغربي. وهذا كفيل بأن يخلق لها مشكلات سياسية وعسكرية مع روسيا.

واتجهت السياسة البريطانية ــ لعلاج هذا الموقف ــ إلى إقامة منطقة حاجزة Buffer state بين الإمبراطوريتين واقترحت في هذا المجال أن تكون أفغانستان هي الدولة الحاجزة من جانبها، وكانت حدود أفغانستان حينذاك غير واضحة المعالم، ولم تكن قد طبقت في وسط آسيا بعد الأساليب الحديثة حينذاك لتحديد الحدود بدقة.

ومن ناحية أخرى كانت التشكيلات العشائرية لا تعطي الفرصة لتحديد دقيق لتبعية هذه العشائر. فضلاً عن أن هذا النوع من التركيب الإجتماعي العشائري وظروفه الاقتصادية واتساع مجال حركة هذه العشائر في مناطق الحدود. وما كان يحدث فيما بين هذه العشائر من صدامات، وما بين هذه العشائر والسلطات الحاكمة من أزمات، كل هذا كان يحول دون وجود حدود واضحة لأفغانستان.

ولما كان نهر جيحون هو المظهر الطبيعي الجغرافي الذي يمكن أن يتخذ حداً سياسياً بين منطقتي النفوذ البريطاني والروسي، ويمثل في الوقت نفسه الحد الشمالي الشرقي لأفغانستان. وعلى هذا الأساس بدأت بريطانيا اتصالاتها مع

روسيا منذ ١٨٦٩.

واستمرت تلك الاتصالات حتى ١٨٧٣، حيث توصل الطرفان إلى اتفاق ١٨٧٣، ولقد وافقت الحكومة الروسية فيه على وجهة النظر البريطانية باعتبار نهر جيحون حداً بين نفوذ الامبراطوريتين وبالتالي الحد السياسي والجغرافي لأفغانستان.

ولم يتطرق هذا الإتفاق إلى نقاط تفصيلية إو إلى تحديد واضح للحدود حتى يحول دون ظهور أزمة في المستقبل بين الدولتين. فقد كانت الموافقة الروسية مجرد مجاملة ليس إلا، حتى لا تثير معارضة الحكومة البريطانية ــ المنافس الوحيد لها في وسط آسيا الإسلامية ــ خاصة وأنها ــ روسيا ــ كانت تتجه للتوسع في أراضي خيوه والقبائل التركمانية فلذلك أعلنت الحكومة الروسية أنها لا تمانع وجهات نظر الحكومة البريطانية في أن يكون نهر جيحون حداً سياسياً لأفغانستان، وكانت روسيا تدرك تماماً أن قبولها بالاقتراح البريطاني سوف يثير عليها سخط أمير بخارى الذي كانت له بعض المطالب بالسيادة على الأراضي الأفغانية في واخان وشغنان ولكنها مقتنعة في الوقت نفسه أنها إذا ما رفضت الاقتراح البريطاني أو إذا وقفت موقفاً سلبياً تجاه الحكومة البريطانية فإنها تخشى أن تثير سخط بريطانيا، وبالتالي تقوم بريطانيا ببعض الاجراءات التي من شأنها أن تعوق التوسع الروسي في منطقة وسط آسيا الإسلامية التي لم تثبت فيها روسيا إقدامها بعد. ولذلك كانت الموافقة الروسية خطة سياسية لتفادي معارضة بريطانيا (المحتملة) إبان التوسع الروسي في خيوه والمنطقة التركمانية.

وفي ثمانينيات القرن التاسع عشر، أثار الزحف الروسي في المنطقة التركمانية المخاوف البريطانية والأفغانية في أن يمتد الزحف الروسي إلى المناطق المجاورة لأفغانستان. وكانت أكثر المناطق الأفغانية التي تثير القلق الأفغاني والبريطاني تلك الأراضي التي كانت تقع بين نهر جيحون ومدينة حيرات، والتي لم يتطرق إليها اتفاق ١٨٧٣.

وقد وجدت بريطانيا في هذا الوقت فرصة لتأكيد وجودها السياسي في أفغانستان. ذلك الوجود الذي فشلت في تحقيقه بالقوة العسكرية ــ خصوصاً بعد

المخاوف التي أبداها الأمير الأفغاني، فطالبته بالخضوع للسياسة البريطانية حتى لا تقع بلاده فريسة الأطماع الروسية.

ولكي تثبت حسن نواياها للأمير أرسلت مساعدة مالية له مقدارها ١٨٠ ألف جنيه استرليني، خصصت للإنفاق على الاستعدادات لمواجهة الزحف الروسي. كما أعلنت بريطانيا أنها ستقف في وجه محاولة التدخل الروسي في الأراضي الأفغانية. وكان من بين أساليب بريطانيا في مثل هذه الحالات أن تتذرع بالقيام بعملية مسح المنطقة محل النزاع ولا شك أن عملية المسح هذه كانت تهدف إلى عدة أمور:

(١) إشعار الأطراف المعنية بالوجود البريطاني في المنطقة.

(٢) الحصول على معلومات سريعة عما يحدث من تطورات في المنطقة.

وفي تلك الأثناء سيطرت روسيا على مرو واعتبرت بريطانيا ذلك الحدث أنه أعطى روسيا قاعدة استراتيجية على تخوم الأراضي الأفغانية.

وعقدت الحكومة البريطانية في لندن اجتماعاً لوضع السياسة المناسبة تجاه سياسة روسيا، وكان واضحاً أمام الحكومة البريطانية أنها لا تستطيع منع الزحف الروسي من جهة الشمال بالطرق العسكرية أو السياسية، فإذا ما مالت إلى تبني الأسلوب العسكري، فإنه يتطلب منها احتلال أفغانستان وقد فشلت بريطانيا في محاولتين للسيطرة على أفغانستان، كما ظهر لنا من خلال الحرب الأفغانية الأولى والثانية، ومن الناحية السياسية فإن المسئولين الروس لم يلتزموا بما أعلنوه من عهود سياسية على أنفسهم.

وظهر اتجاهان أمام الحكومة البريطانية لمواجهة الزحف الروسي:

الأول: تقديم دعم عسكري ومالي مناسب لأفغانستان يمكنها من صد الزحف الروسي، ورأى بعض أعضاء الحكومة أن تقديم الدعم العسكري والمالي لأفغانستان قد يعطي روسيا الحق نفسه للتدخل في شئون أفغانستان، بل والعمل على كسب أميرها إلى جانب حكومة القيصر، واستخدام أفغانستان كقوة معادية للهند.

الثاني: أن تعمل حكومة الهند البريطانية على تقوية قواتها المسلحة لمواجهة أية احتمالات على الجبهة الأفغانية.

وخطورة هذا الاقتراح تكمن في لفظ بريطانيا لسياسة الدولة الحاجزة وبذلك تترك المجال مفتوحاً أمام روسيا للاقتراب من حدودها الشمالية وهذا ما تعارضه بريطانيا منذ أوائل القرن التاسع عشر.

أوضح المستر ريبون Ripon نائب الملكة أن سياسة روسيا في المنطقة التركمانية ومرو لا تعني أنها ستسير قدماً في عملياتها العسكرية نحو أفغانستان والهند لأن مثل ذلك العمل سوف يؤدي إلى تأزم الموقف بين الإمبراطوريتين، ومن المحتمل أن تؤدي إلى حرب بين الدولتين. وهذا ما لا تفكر فيه روسيا مطلقاً، لأنه سوف يجرها إلى عمليات عسكرية كبيرة في وقت لم تكن قد وطدت فيه نفوذها بعد في المناطق التي استولت عليها، وأصبح الاعتقاد المسيطر على الحكومة البريطانية هو وقف التقدم الروسي عن طريق استخدام الأساليب السلمية وخاصة عن طريق تحديد الحدود الأفغانية الروسية (١).

بدأت الحكومة البريطانية اتصالاتها الدبلوماسية مع الحكومة الروسية سنة ١٨٨٤، واقترحت العمل على تحديد الحدود الأفغانية الروسية من الشمال الغربي خاصة عند منطقة التقاء نهر هاري رود بالميرغاب ثم الاستمرار بالعمل حتى خوجا صالح في الشمال الشرقي.

وما دفع بريطانيا إلى التفكير في البدء من الشمال الغربي أنها كانت هي وأفغانستان تتوقعان أن يقوم الروس بمحاولة بسط نفوذهم على أراضي تلك الجهة، ولذلك رفضت اقتراح روسيا الذي طالب بضرورة بدء العمل من خوجا صالح في الشمال الشرقي ثم الاتجاه إلى الشمال الغربي وتذرعت بأن خوجا صالح منطقة بعيدة ويتطلب الوصول إليها جهد أو مشقة من أعضاء اللجنة، خاصة وأن حالة الطقس في تلك الفترة شديدة البرودة.

زيادة على ذلك أن خوجا صالح تقع ضمن الأراضي الأفغانية على ضوء اتفاق ١٨٧٣، وهي بذلك لا تحتاج إلى تحديد.

(١) Rostogi, Ram: India and Afghan Relations, 1888-1900. P. 43-45.

وإزاء رفض الحكومة الروسية لجأت بريطانيا إلى القيصر الروسي وكانت تأمل من وراء ذلك دفعه إلى ممارسة ضغط على المسئولين السياسيين الروس، وقد رحب القيصر الروسي بالاقتراح البريطاني، ولكنه لم يعط رأياً قاطعاً إلا على ضوء تقرير من وزير الحربية الروسية.

أدركت بريطانيا النتيجة قبل وصول تقرير وزير الحربية لأن العسكرية الروسية كانت لا تفضل الوصول إلى اتفاق بين الدولتين بشأن أفغانستان خاصة وأنها كانت تتطلع إلى السيطرة على مزيد من الأراضي في وسط آسيا الإسلامية، وتضع أهمية كبرى على سيطرة روسيا على أراضي بلخ ومأمينا الأفغانية. ولذلك فكرت الحكومة البريطانية في حل لتجنب الخلاف القائم بينها وبين روسيا عن طريق اجتماع ممثلين عن الطرفين في سرخس Sarkhs (١) لبحث جميع المشكلات المتعلقة بالحدود الأفغانية الروسية على أرض الواقع (٢).

الموقف الروسي:

اتبعت روسيا في المشكلة الأفغانية سياسة مرحلية حتى لا تثير اعتراض بريطانيا، وبالتالي عدم وضع الصعاب في طريق تنفيذ برنامجها التوسعي، ففي عام ١٨٦٩ أدركت الحكومة الروسية أن تخوف بريطانيا من سياستها التوسعية في المنطقة الإسلامية يكمن في أفغانستان، فأعلن القيصر الروسي أن أفغانستان بعيدة عن المخططات الروسية، وما دفع روسيا إلى ذلك الموقف أنها لم تكن قد وطدت نفوذها بعد في خوقند وبخارى وتخشى أن تشعل لها بريطانيا أزمة في المنطقة تحول دون استمرار سيطرتها فيها.

وحينما تجددت الإتصالات البريطانية والروسية بشأن تحديد نفوذ كل من روسيا وبريطانيا في وسط آسيا الإسلامية. أكدت روسيا من جديد ما أعلنته في السابق من حيث أن أفغانستان بعيدة عن المخططات الروسية وهذا ما قوى الإعتقاد البريطاني في أن يكون نهر جيحون الحد الطبيعي بين نفوذ الدولتين في

---

(١) أنظر الخريطة، ص ١٩٠.

(٢) F.O. 539/24. No. 51. sir E. Thornton to Earl of Granville.

وسط آسيا الإسلامية والحد السياسي لأفغانستان. وحينما أرادت بريطانيا أن تدخل فكرتها هذه حيز التنفيذ عن طريق اتفاق سياسي بين الدولتين رفضت روسيا على أساس أن الإقرار بنهر جيحون حداً سياسياً بين روسيا وأفغانستان سوف يثير جدلاً حول تبعية بادقشان إما لبخارى أو لأفغانستان، فقد سبق أن كانت هذه المنطقة تابعة لبخارى وسيطرت عليها أفغانستان منذ ١٨٥٩ [(١)].

وحتى لا يثير الموقف الروسي أية ردود سيئة في العاصمة البريطانية تقدمت الحكومة الروسية باقتراح في نوفمبر ١٨٧١ تعترف فيه بالسيادة الأفغانية على الأراضي التي تقع تحت سلطة الأمير الأفغاني وتقوم بريطانيا بمنعه من محاولة السيطرة على أية أراضي بخارية، وفي الحقيقة لم تقدم الحكومة الروسية شيئاً جديداً من خلال هذا الإقتراح ولكنها قدمت الرفض بصورة غاب عن فطن الساسة البريطانيين إدراكها، فحينما اعترفت روسيا بسيادة الأمير الأفغاني على الأراضي التي تحت سلطانه كانت واثقة تمام الثقة أن مقاطعة بادقشان شبه مستقلة عن أفغانستان، ولم توجد قوات أفغانية فيها، وأن حاكم بادقشان قد تمرد على سلطة الأفغان منذ الحرب الأهلية الأفغانية بل أنها طالبت من بريطانيا أن تتعهد بمنع الأمير من إرسال قواته إلى المناطق التي لم تكن فيها قوات أفغانية من قبل، وهذا يعني أن تقوم بريطانبا بمنع الأمير من إرسال قوات أفغانية لتأكيد سلطته في بادقشان.

وكانت روسيا لبقة في تضليل بريطانيا في هذا الموقف فبريطانيا التي لم تكن قد أفاقت من عزلتها المجيدة بعد رأت في الموقف الروسي هذا من باب مسايرة الحكومة القيصرية لمطالبها. وزيادة في خداع بريطانيا أعلن وزير الخارجية الروسية المستر جورتشاكوف أن بلاده لا تعارض التحديد البريطاني للحدود الأفغانية الروسية أو بمعنى آخر أن يكون نهر جيحون هو الحد الفاصل بين النفوذ الروسي والبريطاني في وسط آسيا الإسلامية وهو في نفس الوقت اعتراف ضمني بالحد السياسي للأراضي الأفغانية. وهذا ما عرف باتفاق كلارندون ـــ جورتشاكوف ـــ

---

(١) F.O. 539/23. No. 157. Memorandum on Shighnan and Roshan by sir H.C. Rawlinson. Dated April 12, 1884, P. 163.

أو اتفاق ١٨٧٣[١] .

ومما دفع الحكومة الروسية إلى هذا الموقف المؤيد أنها كانت تدرك إذا ما رفضت وجهة النظر البريطانية فإن الإنجليز سيثيرون ضدها مشاكل قد تعرقل توسعها في منطقتي خيوه والمنطقة التركمانية. فكان هذا أهم عامل في التوصل إلى اتفاق الطرفين على جعل نهر جيحون حداً فاصلاً بين مناطق نفوذ الطرفين سنة ١٨٧٣. ولم يكن هذا الاتفاق وثيقة سياسية معتمدة بين الدولتين، كما لم يتطرق إلى أية تفاصيل سياسية كانت أم عسكرية، وهذا يؤكد أن قبول روسيا به كان خطوة مرحلية حتى لا تثير الحكومة البريطانية ضدها في المنطقة الإسلامية، ويعتبر اتفاق ١٨٧٣، أيضاً مكسباً سياسياً لروسيا لأنه أعطى لها حرية العمل العسكري والسياسي في المناطق القريبة من نهر جيحون، وحينما فرغت من تلك المهمة وأصبحت تلك المناطق تحت سيطرتها المباشرة، رفضت عام ١٨٨٢ اتفاق ١٨٧٣، وعارضت الطلب البريطاني للعمل على تحديد الحدود الأفغانية من الشمال الغربي. واقترحت أن يبدأ تحديد الحدود من خوجا صالح في الشمال الشرقي. ثم الاتجاه نحو الشمال الغربي.

وكان هدف روسيا من وراء ذلك أن تدفع بالاهتمام البريطاني إلى الشمال الشرقي، بينما تفسح لنفسها المجال كي تواصل سياستها التوسعية في الشمال الغربي وخاصة جنوبي مرو في المناطق الواقعة ما بين نهري الميرغاب وجيحون حيث كان ينتشر في هذه المناطق قبائل الساريك Sarik [٢] وما شجع روسيا على التطلع إلى هذه الجهة أن بعض زعماء قبائل الساريك أعلنوا عن استعدادهم للخضوع تحت السيادة الروسية، ولم يجد حث بريطانيا للقيصر الروسي أي تغيير على موقف بلاده، فقد أصرت روسيا على موقفها المتعنت، ولكنها مع ذلك لم تعارض الاجتماع في سرخس مع البريطانيين والأفغان لبحث مشاكل الحدود.

---

(١) F.O. 539. 9. No. 52. The Earl of Clarendon to Sir. A. Buchanan. Wiesbaden Sept. 3, 1869. P. 44.

(٢) تنتشر قبائل الساريك ما بين يوليتان Youltan على الميرغاب حتى الحدود الأفغانية ويبلغ تعدادها ٥٠٦ ألف نسمة.

أنظر: F.O. 539. 24. Inclosure No. 2. in No. 76. M. de Giers to Sir E. Thoronton. St. Petersburg. Dated August 1, 1884. P. 60.

اجتماع سرخس:

اقترحت بريطانيا عقد اجتماع بين الجانب البريطاني والأفغاني من جهة والجانب الروسي من جهة أخرى خلال شهر أكتوبر ١٨٨٤ في مدينة سرخس للنظر في المشاكل المتعلقة بالحدود الأفغانية الروسية، وقد بدأت الاستعدادت البريطانية فعينت المستر بيتر لامسدن Peter Lumsden لرئاسة الجانب البريطاني الأفغاني في المفاوضات. وطلبت من نائب الملكة في الهند أن ينقل فحوى الاتصالات البريطانية الروسية، وما توصلت إليه من نتائج للأمير الأفغاني. وتكليف الأمير باختيار أحد رجاله المخلصين للاشتراك مع الجانب البريطاني في المباحثات المقبلة مع روسيا. وفي الوقت نفسه عينت روسيا الجنرال زيلينو Zelenoi الذي مثلها في مؤتمر برلين مندوباً عنها[١].

والواضح لنا بأن خلاف الدولتين بكل أبعاده وتناقضاته قد نقل إلى مدينة سرخس، فلم يكن هناك خط عام تسير عليه لجنة المفاوضات، فكل جانب زود مندوبيه بالتعليمات التي تخدم مصالحه، فنائب الملكة أرسل إلى المستر لامسدن يطلب منه أن يسير في مباحثاته مع الجانب الروسي على ضوء اتفاق ١٨٧٣ الذي تنصلت منه روسيا[٢] ومن الطبيعي ألا يتخلى الجانب الروسي عن مصالحه في أراضي الساريك، خاصة وأن جزءاً من قبائل الساريك يخضع تحت السيطرة الروسية منذ السيادة الروسية على مرو فهي بذلك لا توافق على أن ينقسم رعاياها إلى قسمين، كما أن كل دولة لم تعط مندوبيها حرية التصرف بل ألزمتهم بالعمل فقط طبقاً للتعليمت الصادرة من حكومتهم.

وصل أعضاء الجانب البريطاني في الموعد المحدد، لكن الجانب الروسي لم يصل في الموعد بل وصل في ربيع ١٨٨٥[٣]، وكانت الحكومة الروسية قد أرسلت إلى بريطانيا اقتراحاً يطالب بأن يبدأ عمل لجنة الحدود من بولي خاتون khatum Puli أو من أي مكان يقع في الجنوب بدلاً من سرخس نفسها، وكان الاقتراح

---

(١) F.O. 539/25. No. 180. Memorandum in reply to the Memorandum inclosed in M. de Giers's Despatch of January 16, 1885. P. 126.

(٢) F.O. 539/24. No. 74. Draft Instructions to Major General Sir. P. Lumsden. India Office Dated August 1884. P. 57.

(٣) Marvin, Charles: The Russians at the Gates of Herat New York 1885, P. 84.

الروسي مجرد خطة للتهرب من أي اعتراف بهوية هذه المنطقة الأفغانية، والتمهيد للسيطرة الروسية عليها.

اضطرت الحكومة البريطانية القبول بالمقترحات الروسية، خاصة وأنها كانت تأمل الكثير من وراء اجتماع اللجنة[1]

مشكلة بانجه: Pandjeh

في الوقت الذي كانت تجري فيه الاتصالات الروسية البريطانية بشأن تحديد الحدود وعقد الاجتماع في سرخس انفجرت مشكلة بانجه، فبعد سيطرة روسيا على مرو تقدم الجنرال كوماروف Komaroff واستولى على بولي خاتون التي تبعد ٣٩ ميلاً من سرخس[2].

أثار التصرف الروسي الرعب في سكان سرخس، وأصبح الاعتقاد السائد بينهم أن الروس سيواصلون زحفهم العسكري حتى يسيطروا على مدينتهم. وكان أهالي سرخس في ذلك الوقت يعتبرون أنفسهم رعايا لأمير أفغانستان فأرسلوا إلى كابول يطالبون بحمايتهم من الروس. أرسل الأمير الأفغاني قوة أفغانية إلى سرخس في يوليو ١٨٨٤، وذلك لبث الطمأنينة في نفوس سكانها.

أثار التصرف الأفغاني رداً سيئاً في العاصمة الروسية، وخاصة وأن القيادة العسكرية الروسية ما زالت ترنو بأنظارها على هذه المنطقة، وكانت القيادة السياسية تأمل في تحقيق أطماع القيادة العسكرية بالطرق السياسية فأصدرت الحكومة بياناً أدعت فيه أن المنطقة الممتدة ما بين بولي خاتون وجنوب سرخس على نهر هاري رود منطقة غير مأهولة وأن سكانها قد هاجروا منها خوفاً من غارات التكة التركمانية، ولجأوا إلى أراضي مرو، وبناء على ذلك فمن حق هؤلاء السكان أن تعود لهم أراضيهم وبمعنى آخر أن يكون لروسيا الحق في السيطرة على تلك المناطق.

أثار السلوك الروسي هذا خوف الأمير الذي وجد فيه مقدمة لتوسع روسيا على

(١) F.O. 539/25. No. 180. Memorandum in reply to the Memorandum inclosed in M. de Giers Despatch of January 16, 1885. P. 126.

(٢) Marvin, Charles: The Russians at the Gates of Herat P. 85-7.

حساب الأراضي الأفغانية، وكان يخشى أن تمتد المطالب الروسية لتشمل بانجه، ولذلك أرسل قوة أفغانية في سبتمبر ١٨٨٤ سيطرت على بانجه.

عارضت روسيا هذه الإجراءات واعتبرت سكان بانجه غير أفغان وليس من حق الأمير السيطرة عليها، وهو بذلك يحاول السيطرة على منطقة تبعد ٨٠ كم عن حدود بلاده (١).

أما بريطانيا فلم تعارض الإجراءات الأفغانية على أساس أنها لو كانت معارضة لرغبات سكان بانجه لثاروا ضد الأفغان ولرفضوا التبعية لأفغانستان إذا ما كانوا يعتبرون أنفسهم غير أفغان. وحاولت من جانبها أن تصل إلى حل وسط للطرفين حتى لا تتفاقم الأمور بينهما ــ فطالبت روسيا بالإنسحاب من بولي خاتون في مقابل تكفلها بمنع الأمير من التقدم على طول نهر الميرغاب جنوبي بانجه (٢) إلا أن الإقتراح البريطاني لم يرض الحكومة الروسية وقد وجدت القيادة العسكرية الروسية في هذا الموقف فرصة لإقناع القيادة السياسية بعدم جدوى الحلول السياسية فدفعت قواتها العسكرية خلال شهر فبراير ١٨٨٥ وسيطرت على ممري بولي خستي Puli Khesti وممر ذي الفقار.

سبب التحرك العسكري الروسي هزة قوية في كل من أفغانستان وبريطانيا. فالحكومة البريطانية كانت ترى أن المنطقة التي سيطرت عليها روسيا تقع على نهر الميرغاب وهي أراضي أفغانية، وأن الأمير كان يمارس سلطته عليها، وكان السكان راضين بتبعيتهم لأفغانستان. وكانت الدوائر البريطانية ترى أنه ليس لدى روسيا أي مبرر لتصرفها العسكري، ولذلك رجحت الشائعات التي ترددت في ذلك الوقت عن عزم الكولونيل علي خانوف للسير في عمليات عسكرية جديدة نحو الأراضي الأفغانية، وبالتالي نحو الهند وأن التمركز الروسي في بولي خاتون يساعدهم على تحقيق ذلك الهدف (٣).

أما في أفغانستان، فقد سبب التحرك الروسي خوفاً كبيراً، وساد الاتجاه نحو العمل على صد الزحف الروسي على الأراضي الأفغانية، ووضع الأفغان خطة

(١) F.O. 539/25. No. 66. Translation of Russian Notice P. 65.

(٢) Rostogi, Ram. India and Afghanistan 1888-1900. P. 67.

(٣) F.O. 539/25. No. 121. Sir Thomson to Earl of Granville Tehran Dated Febr. 28, 1885. P. 96-7.

لذلك الغرض تعتمد أساساً على عبور القوات الأفغانية نهر خوشق Khushk والتمركز على الشاطىء الأيسر للنهر، وبذلك يستطيع الأفغان مراقبة التحركات الروسية في الممرات والقواعد الحربية القريبة.

وحقيقة لا يمكن أن تكون هذه الخطة من فكر العسكريين الأفغان الذين كانوا في مرات سابقة يتجنبون الاقتراب من الروس، وأن الضباط الإنجليز هم الذين رسموا تلك الخطة خاصة وإن الشعور بالخطر الروسي كان مشتركاً بين الجانبين، كما أن العلاقات بين بريطانيا وأفغانستان كانت قوية ومتينة.

موقف الروس من التحرك الأفغاني:

فسر الروس إجراءات إقامة التحصينات والمعسكرات الأفغانية على الشاطىء الأيسر لنهر خوشق، أنها كانت بتحريض من الضباط البريطانيين وكان الروس يعتقدون أن الإنجليز يرمون من وراء ذلك إلى سيطرة الأفغان على مزيد من المواقع التي من شأنها أن تعوق الاتصال الروسي بقاعدة أق روبات Robat Ak [1] الروسية، وإن هذا الإجراء في حد ذاته يمثل خطراً على التحركات الروسية في المنطقة، ولذلك تقدمت قوات روسية بقيادة الجنرال كوماروف لإجبار القوات الأفغانية على التراجع إلى الشاطىء الأيمن.

ولم يرضخ الأفغان لمطالب الجنرال الروسي مما أدى إلى حدوث اشتباك بين القوات الروسية والأفغانية خلال شهر مارس ١٨٨٥ [2] وقتل العديد من الجانبين، واتهمت روسيا الضباط البريطانيين بأنهم كانوا يوجهون القوات الأفغانية خلال ذلك الاشتباك. ومع أن الروس نجحوا في دحر القوات الأفغانية، فقد تراجعوا بعد ذلك إلى مواقعهم القديمة دون احتلال بانجه حتى لا يدفعوا الأمور إلى مرحلة أكثر خطورة خاصة وأن بريطانيا كانت تراقب بحذر التحركات الروسية. كما أن القوات الروسية قضت على الخطر الذي كانت تتصوره من جراء الوجود العسكري الأفغاني على الشاطىء الأيسر لنهر خوشق. وصرحت المصادر الروسية عن أملها بألا يؤثر ذلك في سير المفاوضات الروسية البريطانية بشأن تحديد الحدود

---

(١) F.O. 539/26. No. 146 Russian Abstract Received at F.O. April 23, 1885. P. 82.

(٢) F.O. 539/26. No. 199. Earl of Granville to Sir E. Thoronton F.O. Dated May. 4, 1885. P. 134.

الأفغانية [1].

وفي أفغانستان سببت أحداث بانجه رعباً كبيراً في مختلف الأنحاء وأصبح اعتقاد الأفغان بأن بلادهم غير قادرة على مقاومة الغزو الروسي الذي سيتواصل إلى أعماق أفغانستان.

وتردد بينهم أن حيرات هي المدينة الأولى التي ستتعرض للزحف الروسي فبدأت جماعات من سكان المدينة في الهجرة منها. وسط هذا الذعر بدأ الأمير الأفغاني يثير الحماسة الدينية والوطنية في نفوس مواطنيه للدفاع عن مقدساتهم وأرضهم حتى آخر فرد منهم كي لا يصيب بلادهم ما أصاب الإمارات والقبائل الإسلامية المجاورة. وحتى لا تصبح أفغانستان امتداداً للنفوذ والسيادة الروسية.

ونجح الأمير الأفغاني في تحريض شعبه على القتال وتشكلت مجموعات مسلحة لمراقبة وحراسة الأراضي الأفغانية. وذهبت مجموعات أخرى إلى المناطق التي كان من المحتمل أن يقوم الروس بغزوها. ونظموا أنفسهم ووزعوا الأدوار، فكانت أفغانستان كلها شبه قاعدة عسكرية، دائبة الاستعداد والحركة تنتظر الاشتباك مع (الكفار) للانتقام منهم [2].

الموقف البريطاني من أحداث بانجه:

لقد حدث الاشتباك الروسي الأفغاني على مسمع ومرأى لجنة الحدود البريطانية الروسية وكان التفسير الذي قدمه الكولونيل روجواي عضو البعثة البريطانية استناداً إلى إجراءات الكولونيل علي خانوف أن الروس يرمون إلى إذلال البريطانيين والتقليل من شأن الإنجليز أمام الأفغان والساريك ــ سكان بانجه ــ ووضح الأخطار التي ستتعرض لها بريطانيا من جراء الاحتلال الروسي لبانجه لما لها من موقع استراتيجي هام خاصة من حيث تهديد أفغانستان وحيرات بصفة خاصة، فقد كانت حيرات لا تبعد سوى ٨٠ ميلاً عن بانجه، وإذا ما وصل الروس إلى حيرات المفتاح الشمالي للهند ــ فبإمكانهم الوصول بسهولة إلى

(١) F.O. 539/26. No. 42 Sir E. Thornton to Earl of Granville St. Petersburg. Dated April 8, 1885. P. 28.

(٢) F.O. 539/97. No. 44. Sir E. Thornton to Earl of Granville St. Petersburg. Dated July 7, 1885. Translation of Russian Press. P. 65.

الهند [١].

وجدت تحذيرات روجواي أذاناً مصغية لها في الهند، فأرسلت حكومة الهند البريطانية بعض الضباط لدراسة الوضع الحربي في أفغانستان وبحثوا في إجراءات زيادة استحكاماتها العسكرية وخاصة في مدينة حيرات، كما أرسلت مساعدات مالية عاجلة إلى أفغانستان لتحقيق ذلك الغرض [٢].

وفي لندن أعلن المستر جرانفيل عن عزم بريطانيا لحل المشكلة عن طريق التهديدات العسكرية [٣]، وانتشرت في الأوساط البريطانية أن روسيا تهدف إلى تهديد الوجود البريطاني في الهند وخول مجلس العموم في ٢١ ابريل ١٨٨٥ اللورد جلادستون باتخاذ الإجراءات الحربية لصد الزحف الروسي، وعادت للوجود من جديد خطة سالزبري بشأن الهجوم على روسيا من وسط آسيا ومن المضائق. وأصبحت الحرب بين روسيا وبريطانيا على وشك الوقوع، ومارست الدول الأوروبية ضغطاً على السلطان العثماني كي يغلق المضائق في وجه بريطانيا [٤]، ولكن عدم احتلال القوات الروسية لبانجه قد خفف من حدة الموقف، كما عملت حكومة جلادستون على عدم دفع الأمور إلى المزيد من التدهور. فقد طلبت من الأمير الأفغاني ألا يرسل قواته إلى المنطقة المتنازع عليها مع روسيا ريثما يتم الوصول إلى تسوية [٥].

ومن ناحية أخرى حاولت بعض الصحف الروسية أن تكرر من جديد دوافع بلادها الإنسانية والحضارية في المنطقة، وأن بريطانيا كانت تدرك جيداً تلك الدوافع من قبل وكانت تشجع الحكومة الروسية على السير لتحقيقها. وإن الذي تطالبه روسيا على حد قول الصحف الروسية أن يحصل رعاياها الساريك في جنوب مرو على موارد المياه الموجودة في نهر الميرغاب، وأن تلك المطالب من وجهة نظرها عادلة ولا تثير معارضة أية قوى أوروبية متحضرة.

(١) F.O. 539/26. No. 265. Report By Col. Ridgway Respecting Panjdeh. P.188-190.

(٢) F.O. 539/27. Inclosure No. 1 in No. 28. Lord R. Churchill to the Viceroy of India. Office Dated July 3, 1885. P. 51.

(٣) F.O. 539/25. No. 253. Extract from the «Novosti» of March 17 (29) 1885. P. 183-185.

(٤) Hinsley, F.H.: The New Cambridge Modern History Vol. XI International Retation P. 556.

(٥) Rostogi, Ram: India and Afghanistan 1888-1900. P. 70.

ولم تمل الصحف الروسية إلى إشعال الموقف بين الدولتين، بل عرضت الأهداف التي ترمي بلادها إلى تحقيقها في صور إنسانية فزينت تصرف روسيا لاحتلال أراضي الغير في صورة موقف إنساني، ولم تحدد موقف أو صورة الذين سلبت منهم الأرض (١).

وفي تلك الأثناء أرسلت روسيا ضابطاً من طرفها إلى بانجه وأخذ يستبد بأهاليها مما دفعهم إلى الاستنجاد بالأفغان والبريطانيين (٢) اتصلت الحكومة البريطانية بالحكومة القيصرية بهدف الوصول إلى تسوية للمشكلة وأوضحت من جانبها بأن بانجه كانت دائماً ضمن الأراضي الأفغانية، في حين أصرت روسيا من جانبها على أن تكون بانجه في دائرة النفوذ الروسي وكانت تبرر وجهة نظرها بأن سكان بانجه الساريك ينتمون إلى قبائل الساريك التي تخضع تحت سيطرتها.

وبناء على ذلك فهي لا تسمح بأن تنقسم قبائل الساريك إلى قسمين (٣) وحينما فشلت في إقناع روسيا اقترحت بريطانيا حياد بانجه (٤) ولكن روسيا رفضت هذا الاقتراح أيضاً.

وبينما كانت الاتصالات جارية بين الحكومتين الروسية والبريطانية بدأ الروس في إرسال الرسل لإثارة الساريك ضد الأفغان و يتوعدون كل من لا يؤيد الروس. وكان هدف الروس من وراء ذلك أن يظهروا لسكان بانجه أنهم القوة الوحيدة التي يجب الإنصياع لها، فقد كان في مقدور القوات الروسية الاستمرار في الحرب ضد الأفغان واحتلال بانجه ولكنهم تراجعوا عن ذلك حتى لا يثيروا أزمة مع بريطانيا خاصة بعد التدخل العسكري البريطاني المباشر والذي كان واضحاً في نشاط العسكريين الإنجليز في وضع الخطط الحربية للأفغان بل وفي توجيه القوات الأفغانية خلال الاشتباك الذي حدث أخيراً، وهذا إلى جانب ما تردد عن عزم بريطانيا لدخول حرب ضد روسيا.

---

(١) F.O. 539/25. No. 253. Extract from the «Novosti» of March 17 (29) 1885. P. 183-184.

(٢) F.O. 539/27. No. Col. Ridgway to Earl of Granville - Mamuzak Dated May. 23, 1885. P. 27.

(٣) F.O. 539/25. Inclosure 4 in No. 57. Panjdeh News P. 54.

(٤) F.O. 539/97. No. Col. Ridgway to Earl of Granville - Mamuzak Dated May. 23, 1885. P. 27.

ليس معنى هذا أن روسيا قد أوقفت نشاطها تحسباً لبريطانيا، ولكنها غيرت في أسلوبها من الطابع العسكري إلى الأسلوب السياسي النفسي فقد بدأ الكولونيل علي خانوف في إرسال التهديد والوعيد إلى سكان بانجه وقد نجح في بث الرعب والخوف في نفوس السكان، فبدأ سكان بانجه بالرغم من تفضيلهم الأفغان على الروس يدركون أن مقاومتهم ومقاومة الأفغان للروس غير مجدية، ولذلك فهم لا يريدون أن تتدمر مزارعهم وحقولهم لمغامرة غير مأمونة العواقب (١).

وخلال الإتصالات مع بريطانيا لم تتنازل روسيا عن مطالبها وأعلنت صراحة أن سكان بانجه الساريك هم جزء من قبائل الساريك التي تسكن مرو، ويجب أن يمتد نفوذها إلى المناطق التي ينتشر فيها أولئك السكان لأنها لا تسمح بتقسيم رعاياها إلى عدة أقسام.

ولم يتغير الموقف الروسي رغم الإقتراحات العديدة التي قدمتها الحكومة البريطانية، وأخيراً تم التوصل بين الحكومتين إلى قرار في منتصف إبريل ١٨٨٥ يقضي بتبادل الموقعين فيأخذ الأفغان ممر ذي الفقار و يأخذ الروس مدينة بانجه.

ومن الطبيعي أن يحدث هذا التبادل تعديلاً في الحدود الأفغانية الروسية، ولكن المعلومات لدى الحكومتين قليلة عن تلك المناطق، وكانت كل دولة ترى في مقترحات الحدود التي تقدمها الدولة الأخرى أنها تخدم مصالحها، فبريطانيا كانت تجد في المقترحات الروسية محاولة منها لحرمان الأفغان من السيطرة على ممر ذي الفقار وكانت روسيا ترى في المقترحات البريطانية سعيها لقطع الطرق العسكرية الروسية.

الإقتراح الروسي بشأن الحدود:

وأخيراً قدمت الحكومة الروسية في ٢١ مايو ١٨٨٥ مشروعاً للحدود الأفغانية الروسية، فتسير الحدود وفق ذلك المشروع إلى الشمال من ممر ذي الفقار مسافة ميلين، وتتبع قمم مرتفعات وادي هاري رود، ثم إلى الشمال من ماروشاق Maruchak، وتعبر نهر الميرغاب.

(١) F.O. 539/25. No. 265. Report by Col. Ridgway Respecting Pandjeh. P. 188-190.

وطبقاً لهذا المشروع فإن روسيا أعطت الأفغان منطقة ماروشاق والأراضي المجاورة لها، في حين احتفظت لنفسها بأكبر قدر ممكن من الأراضي التي يزرعها الساريك [1]. ولكنه في نفس الوقت لم يعط الأفغان الحرية المطلقة في ممر ذي الفقار لأن الحدود تبتعد مسافة ميلين فقط وأن روسيا تستطيع بسهولة أن تستولي على الممر إذا ما طرأ ما يستدعي مثل ذلك العمل. إلى جانب أنها أعطت لنفسها بموجب هذا المشروع حق السيطرة على جميع الأراضي التي ينتشر فيها الساريك، وبذلك فإن المشروع الروسي يخدم كلية الأهداف الروسية السياسية منها والعسكرية.

أما الحكومة البريطانية فقد اعترضت على المشروع الروسي، ويرجع الإعتراض البريطاني إلى أن العرض الروسي قد أعطى الروس حق الإشراف، على ممر ذي الفقار من المرتفعات المجاورة، ولذلك قدمت تعديلاً على المشروع الروسي لإبعاد خط الحدود عن ممر ذي الفقار مسافة أكثر من ميلين. ولكن الحكومة الروسية رفضت التعديل البريطاني لأنه في نظرها يهدد طرقها العسكرية وقواعدها في أق رو باط والمناطق المجاورة منها.

تبادلت الدولتان المذكرات والاحتجاجات، ولقد أصرت بريطانيا خلالها على أن يكون إشراف الأفغان على ممر ذي الفقار إشرافاً كاملاً [2].

وفي تلك الأثناء خرج جلادستون (الأحرار) من السلطة، وتولى المحافظون زمام الأمور في يونيو ١٨٨٥، وكانت سياسة زعيمه سالزبري تعتمد على تجنب الصراع مع الروس ولذلك أراد تجديد المفاوضات مع الروس لتحديد الحدود الأفغانية [3]، فاجتمع مع السفير الروسي في لندن في ١٧ يونيو، وأوضح له صراحة رغبة حكومته في إنهاء ذلك الجدل الذي طال بين الدولتين حول الحدود الأفغانية الروسية بطريقة مرضية لجميع الأطراف [4].

---

(١) F.O. 539/26. No. 285. Memorandum Sent to M. de Staal. London. Dated May 22, 1885.

(٢) F.O. 539/27. No. 278. The Marquis of Salisbury to Mr. Thornton. F.O. Dated Sept. 17. 1885. P. 246-7.

(٣) F.O. 539/27. No. 3. The Marquis of Salisbyry to Mr. Thornton F.O. Dated July, 1, 1885. P. 1.

(٤) F.O. 539/27. No. 68. The Marquis of Salisbury to M. de Staal F.O. Dated July 17, 1885. P. 73.

توتر الموقف من جديد بين روسيا وأفغانستان:

وخلال تلك الفترة وصلت تقارير من أعضاء الجانب البريطاني في لجنة الحدود تكشف عن تعزيز روسيا لقواتها في منطقة ممر ذي الفقار لتلقي الروس معلومات خاطئة عن زيادة الحامية الأفغانية في تلك الجهة تساندها قوات بريطانية (١).

أرسلت حكومة الهند إلى الكولونيل روجواي ـــ الذي ترأس الجانب البريطاني بعد المستر لامسدن ـــ تطالبه في حالة قيام الروس بأي اعتداء على الأراضي الأفغانية أن يعمل على تنظيم المقاومة الأفغانية للدفاع عن حيرات، وأن يبذل أقصى جهوده لعرقلة الزحف الروسي، وأن يتصرف على ضوء إمكانيات المدينة والشعب الأفغاني وألا يضع في حساباته أية مساعدة بريطانية لأن حكومة الهند لا تستطيع أن ترسل له الدعم العسكري قبل فترة لا تقل عن أربعة أشهر نظراً لوسائل المواصلات التقليدية التي كانت في ذلك الوقت، وإذا ما فشل في صد الروس فعليه الانسحاب إلى الهند وإذا لم يكن ذلك ممكناً فعليه التوجه إلى طهران (٢).

وفي لندن أعرب المستر سالزبري في رسالة بعث بها إلى السفير الروسي في العاصمة البريطانية في ٢١ يوليو ١٨٨٥ عن أمله ألا تقوم روسيا بإرسال أو زيادة قواتها في المنطقة القريبة من ممر ذي الفقار خاصة وأن المباحثات ما زالت جارية بين الطرفين بشأن الحدود (٣).

وفي سنت بطرسبورج تناولت الصحف الروسية عرض وتحليل الموقف وأرجعت تأزم الموقف إلى تلقي الجنرال كماروف معلومات تفيد بأن الأفغان قد دفعوا بمواقعهم إلى الأمام (٤).

وطالبت صحيفة القوقاز في أغسطس ١٨٨٥ بتقسيم أفغانستان كحل للمشكلة الأفغانية فيكون القسم الجنوبي تحت السيطرة البريطانية، والقسم الشمالي يترك

---

(١) F.O. 539/27. No. 53. Col. Ridgway to the Marquis of Salisbury Tagao Robat. Dated July, 10, 1885. P. 68-69.

(٢) F.O. 539/27. No. 65. Lord. R. Churchill to Viceroy of India, India Office Dated July 16, 1885. P. 72.

(٣) F.O. 539/27. No. 86. The Marquis of Salisbury to Sir E. Thornton. F.O. Dated July 21, 1885. P. 92.

(٤) F.O. 539/27. Inclosure No. 2. in No. 164. Abstract from R. Press. P. 162.

لرغبات سكانه، ولم تصرح الصحيفة بالنوايا الروسية في هذا القسم، بل أرادت أن تضع بلادها بعيداً عن شهوة السيطرة عليه لأنها كانت تدرك أن روسيا لا تفتقد الأسباب التي تدفعها إلى الاستيلاء عليه خاصة وأن حادث الساريك لم يبعد عن الذاكرة بعد، فوضعت بلادها في موقف نزيه وهي في الحقيقة تود أن تنتهز كل فرصة تمكنها من السيطرة على المزيد من الأراضي. أما القسم الثالث وهو الأوسط، فقد اقترحت الصحيفة أن يكون محايداً بعيداً عن النفوذ الروسي والبريطاني، إن الاقتراح الذي قدمته القوقاز لم يحل المشكلة الأفغانية في حالة قبول الطرف البريطاني به فهو حل وقتي يقسم الأراضي الأفغانية، إلا أن المشكلة الأفغانية ستظل قائمة وسينتقل الصراع بين روسيا وبريطانيا إلى القسم الأوسط الذي اقترحت القوقاز أن يكون محايداً. وإن إعطاء بريطانيا القسم الجنوبي، ليس هذا بدافع كرم روسي ولكنه في الحقيقة[1] يوضح الأطماع الروسية في شمال أفغانستان، ذلك القسم الذي ستتركه صحيفة القوقاز لرغبات سكانه.

ويبدو أن الادعاءات التي ساقتها الصحف الروسية والحكومة نفسها بشأن تقدم الجنرال كوماروف كانت بعيدة عن الصحة. فروسيا بدأت تنظر بعين القلق للوجود البريطاني في أفغانستان وخاصة في حيرات التي اتخذتها القوات البريطانية بمثابة حصن لها لمراقبة وصد جميع التحركات الروسية في وسط آسيا الإسلامية، وأن روسيا تهدف من وراء تحرك الجنرال كوماروف إلى جس نبض بريطانيا ومعرفة الخطوات التي ستتبناها في مواجهة التحرك الروسي، فإذا كان رد الفعل البريطاني قوياً. اختلقت روسيا ذريعة لها لتبرر تحركها أما إذا كان الموقف البريطاني فاتراً فإن روسيا ستواصل تنفيذ مخططها الرامي إلى إشرافها على ممر ذي الفقار وإبعاد الأفغان ومن ثم الإنجليز عن موقع تهديد مواصلاتها وقواعدها في أق روباط.

محاولة إدخال أطراف أخرى في المشكلة الأفغانية:

وحينما لم يتوصل الطرفان إلى حل مرضي بشأن المشكلة الأفغانية، حاولت الدولتان تدويل المشكلة، خاصة بعد سياسة المؤتمرات الدولية في تلك الفترة في

(١) F.O. 539/27. No. 215. Extract from the «Kavkaz» of August 2 (14) 1885. P. 190.

الحد من تصعيد العديد من المشكلات الدولية في البلقان وفي مصر وأفريقيا. فحاولت بريطانيا أن تلفت انتباه ألمانيا للمشكلة الأفغانية، وكانت تأمل من وراء ذلك أن تكسب تأييدها ضد روسيا. ولكن ألمانيا كانت لا تؤيد فكرة وضع الصعاب أمام سياسة روسيا التوسعية في وسط آسيا الإسلامية حتى لا تدفعها إلى القيام بعمليات جديدة في البسفور والدردنيل [١].

وفي المقابل، قامت روسيا بنشاط دبلوماسي مع النمسا للموقف في جانبها [٢] كذلك مع الدنمارك التي كانت تربطها مع روسيا روابط أسرية [٣].

و يبدو أن المشكلة الأفغانية لم تحظ باهتمام الدول الأوروبية لأن هذه المشكلة لا تعنيها كثيراً وإن أبعاد الصراع الإنجليزي الروسي حولها لم يكن واضحاً لجميع الدول الأوروبية التي كانت لا تتوقع أن تكون المشكلة الأفغانية سبباً في إشعال أزمة في القارة الأوروبية فتركت للطرفين تصفية النزاع الذي كان قائماً بينهما بطرقهما الخاصة.

وحينما فشلت محاولة تدويل المشكلة الأفغانية، أصبح واضحاً أمام الدولتين أن الحل الوحيد للمشكلة الأفغانية يصدر من اتفاقهما ــ دون سواهما من الدول الأخرى.

اتفاق ١٠ سبتمبر ١٨٨٥:

اقتنع الطرفان بضرورة لحل سلمياً، وتبادلا المذكرات والتعديلات [٤] وأخيراً تم الاتفاق بين الطرفين على العمل في تخطيط الحدود من جهتي ممر ذي الفقار ومدينة بانجه، وحددا حدود بانجه إلى مسافة ٥ أميال من التقاء نهري الميرغاب وخوشق. و يشكل الجانبان وفديهما على أن يجتمعا خلال شهرين، و يصطحب كل جانب حامية تعدادها مئة رجل ولا يزيد هذا العدد إلا بعد رضى الطرفين [٥]

---

(١) F.O. 539/25. No. 200. Mr. Philip to Sir A. Paget. Pesth. Dated March, 14, 1885. P. 139.

(٢) F.O. 539/26. No. 104. Sir. A. Paget to Earl of Granville. Vienna Dated April 12, 1885. P. 57.

(٣) F.O. 539/26. No. 120. Earl of Granville to Mr. Wyndham F.O. Dated April 17, 1885. P. 63.

(٤) F.O. 539/27. No. 68. Marquis of Salisbury to M. de Staal. F.O. Dated July, 17, 1885. P. 73.

(٥) F.O. 539/27. No. 247. The Marquis of Salisbury to E. Thornton F.O. Dated Sept. 4, 1885. P. 232.

و يعطى الساريك الأراضي التي يزرعونها بين نهري الميرغاب وجيحون على أن يترك للأفغان مراعيهم (١).

وترك الإتفاق حرية إقامة المراكز الحربية كل في جانبه على أن لا تتدخل قوات الطرفين في المناطق المراد تحديدها. و يترك أمر تخطيط حدود المراعي الأفغانية بين الميرغاب وجيحون لبعثة الحدود. وإذا ما فشلت البعثة في الوصول إلى فهم واضح يرفع الموضوع إلى الحكومتين للنظر فيه، شريطة أن ترفق اللجنة الخرائط اللازمة وتحدد موقع الخلاف بين أعضاء الجانبين (٢).

وفيما يتعلق بخط الحدود، فقد وافق الطرفان بمقتضى اتفاق ١٠ سبتمبر على أن تسير الحدود من نقطة تبعد حوالي ألف ياردة شمالي الحافة الغربية لممر ذي الفقار، ثم تتبع الحدود الحافة الشمالية للممر، وتتجه بعد ذلك إلى الجنوب الشرقي وتسير موازية لاق روباط حتى قرية اسليم Islim. وتتواصل الحدود مع مرتفعات الشاطيء الأيمن لنهر خوشق حتى هوزي خان Hauzi-i-khan، ثم تسير في خط مستقيم من الميرغاب حتى مأروشاق، وتتجه بعد ذلك إلى الغرب من وادي سانجلاق Sangalak وشرقي اندخوي حتى تصل إلى خوجا صالح على نهر جيحون في الشرق (٣).

تلقت الأوساط البريطانية اتفاق ١٠ سبتمبر بارتياح كامل، وكانت تأمل من ورائه انتهاء المشكلة الأفغانية بصفة خاصة، والصراع البريطاني الروسي في وسط آسيا بصفة عامة.

---

(١) نشرت صحيفة نوفستي مقالاً للكولونيل فينوكوف Veniukoff وهو كاتب في الجمعية الأسيوية الروسية، معلقاً على الحدود الروسية الأفغانية بين نهري الميرغاب وهاري رود، وذكر أن الجزء الشمالي الذي يزخر بالقنوات والمجاري المائية اللازمة للزراعة قد أصبح في الجانب الأفغاني وتوجد في الجانب الروسي بعض المجاري المائية غربي ممر ذي الفقار، وتسير بعضها مسافة ٦-٧ كم في اتجاه هاري رود، ولكن مياهها تجف في شهور الصيف باستثناء جندول دهناتشين Dehna Tshin وتبعد هذه المجاري مسافة ألف ميل عن سرخس. أنظر: F.O. 539/27. Inclosure No. 1 in No. 306. Abstract from the Russian Press. P. 287.

(٢) F.O. 539/28. No. 88. The Viceroy of India to the Ameer of Afghanistan Kharita Dated Sept. 19, 1885. P. 62.

(٣) F.O. 539/27. Inclosure No. 1 in No. 306. Abstract from the Russian Press. P. 290.

أما الأوساط الروسية فكانت تنظر إليه على أنه مجرد محاولة من أجل الوصول إلى حدود آمنة ودائمة في وسط آسيا الإسلامية وليس اتفاقاً نهائياً أو معاهدة بين روسيا وأفغانستان أو بين روسيا وبريطانيا، وكان ما يثير قلق تلك الأوساط تواجد القوات البريطانية في حيرات.

وعلى ضوء ذلك فإن الأوساط الروسية تضع الوجود البريطاني في أفغانستان من النقاط الجوهرية في الخلاف الروسي البريطاني في المشكلة الأفغانية، ويجب البحث عن حل مناسب له.

تخطيط الحدود الأفغانية الروسية:

شكلت الحكومتان وفديهما للجنة الحدود الثانية [1] فعينت بريطانيا الكولونيل روجواي لرئاسة وفدها واختارت روسيا الكولونيل كوهلبرج Kuhl-berg وانضم إلى الوفدين عضوان عن الجانب الأفغاني هما غازي سعد الدين وحاكم حيرات[2]، وتواجد جميع أعضاء الوفود في أوائل نوفمبر ١٨٨٥ في المنطقة القريبة من الحدود. وقبل بدء اللجنة المشتركة عملها لوضع اتفاق سبتمبر موضع التنفيذ بدأت جماعات من الساريك في الهجرة من بانجه إلى الأراضي الأفغانية، وعجز الأفغان عن منعهم، ولم يحاول الروس من جانبهم وقف هجرة الساريك.

ومن المرجح أن الموقف الروسي هذا يرجع إلى تطلع الروس لضم الأراضي التي سيستقر فيها الساريك بحجة رعاياهم، وكان الوفد البريطاني يخشى أن تؤدي هجرة الساريك إلى تعطيل عمل اللجنة، وبالتالي عدم تنفيذ الإتفاق الذي تأمل عليه بلاده إنهاء الخلاف الروسي البريطاني في المنطقة، فنقل تفاصيل الموقف إلى حكومته التي بادرت، بالاتصال بسفيرها في العاصمة الروسية لحث الحكومة القيصرية على اتخاذ الإجراءات اللازمة لمنع هجرة الساريك من بانجه [3].

---

(١) كانت اللجنة الأولى التي تشكلت برئاسة المستر لانسدن البريطاني وزيلينو أنظر ص ١٦٤.

(٢) F.O. 539/28. Inclosure No. 1 in No. 167. The Viceroy of India to the Ameer of Afghanistan. Simla Dated Oct. 15, 1885. P. 106.

(٣) F.O. 539/28. No. 100. The Marquis of Salisbury to Mr. Gresvenoi. F.O. Dated Oct. 26, 1885. P. 75.

وبالفعل أصدرت الحكومة الروسية إلى قيادتها العسكرية في المنطقة أمراً تطلب منها وقف هجرة الساريك حتى تتاح فرصة العمل للجنة.

بدأت اللجنة بعد استقرار الوضع في مسح واستكشاف المنطقة، وقد استمر هذا العمل حوالي ٣ أسابيع من شهر نوفمبر ١٨٨٥، واتفق الأعضاء على تخطيط الحدود بين هوزي خان واندخوي[١] بحيث أعطت اللجنة مساحات كبيرة من الأراضي التي يسكنها الساريك إلى روسيا في حين منحت الأفغان الأراضي التي تقع على الشاطىء الأيمن لنهر خوشق، وحلت اللجنة مشكلة الري في الجانب الأفغاني عن طريق حفر عدة قنوات ما بين قره بروبا شورد Kara Propa Churd وجاهبل دوختير على نهر خوشق، وليس لروسيا حق المعارضة إذا ما نقصت المياه في النهر السابق نتيجة للقنوات التي سيحفرها الأفغان.

رفض المثلون الأفغان الإقرار بتسوية اللجنة على تخطيط حدود هذه المنطقة لأنها أعطت مساحات كبيرة من الأراضي الأفغانية إلى الروس بحجة أن تلك الأراضي يمتلكها الساريك كذلك كان موقف الأمير الأفغاني الذي رأى أن اللجنة قد ابتعدت عن نصوص اتفاق ١٠ سبتمبر وأن الروس خططوا حدود المنطقة وفقاً لمصالحهم الذاتية، كما أن تسوية اللجنة قد أعطت الروس أراضي أفغانية ـــ الأمر الذي سيمكنهم من التدخل في الشئون الأفغانية في المستقبل[٢].

وقد وجد روجواي في موقف الأمير الأفغاني محاولة منه لتحطيم الجهود من أجل الوصول إلى تسوية فحذره من النتائج التي ستقع على أفغانستان من جراء ذلك. وكان الكولونيل روجواي يقصد بذلك أنه إذا ما تعثرت الجهود المبذولة فإن

---

(١) تبدأ الحدود من هوزي خان إلى رأس القناة الكبرى على نهر خوشق والتي تبعد ٤ أميال شمالي روباتي قاشان Robati Kushan على أن تترك الآبار الموجودة في جاهي ناخاش Ghahi Nakash إلى روسيا وتسير الحدود بعد ذلك في خط مستقيم إلى قناة بانجه وتستمر مع طول مجرى نهر قاشان حتى الطرف الشمالي لوادي ماروشاق. ويعبر خط الحدود الجانب الأيمن لذلك النهر حتى شرقي أندخوي. أنظر:

F.O. 539/29. No. 1. Col. Ridgway to the Marquis of Salisbury Maruchak Dated December 27, 1885. P. 1.

(٢) F.O. 539/29. No. 109. Papers Communicated to the F.O. by the India Office No. 1. The Ameer of Afghanistan to the Viceroy of India. Kharita Dated. January 2, 1886. P. 76.

روسيا ستجد الفرصة السانحة لمواصلة سياستها التوسعية تجاه الأراضي الأفغانية، ومن ثم تفقد أفغانستان مساحات أضعاف أراضي الساريك ناهيك عن ظهور مشكلة جديدة لا تعرف أبعادها. ولذلك أرسل الكولونيل روجواي إلى نائب الملكة في الهند يطلب منه أن يقنع الأمير الأفغاني بقبول قرار اللجنة دون معارضة [1].

وكانت وجهة نظر نائب الملكة أن الأراضي التي منحتها اللجنة للروس إنما هي أراضي يسكنها الساريك ولو ضمت لأفغانستان ستكون سبباً للنزاع مع روسيا، وأن هدف بريطانيا هو الابتعاد عن كل ما يثير أي نزاع بين الطرفين في المستقبل [2] ولم يجد الأمير الأفغاني أمامه غير الرضوخ للنصيحة البريطانية وقبل بتسوية اللجنة.

مشكلة أودية الأنهار وقطع عمل اللجنة:

خلال اجتماع اللجنة في ١٩ مارس ١٨٨٦ لتقرير الحدود إلى منطقة صوفي Sofi أصر الروس على سير الحدود بعيداً عن أبي كيسور Abi Kaisor على أن تقف عند شار شامبا Char Chomba لحين صدور تعليمات أخرى من الحكومة القيصرية، وإن هذه المنطقة من الحدود أراضي صحراوية، ولم يكن فيها ما يثير الخلاف غير عدة آبار من المياه، وجد الجانب الروسي أن هذه الآبار ستكون ضمن الأراضي الأفغانية. ولذلك أصر على أن ينتهي عمل اللجنة قبل الوصول في التخطيط إلى المنطقة التي توجد فيها الآبار.

رأى الجانب البريطاني في الموقف الروسي سبيلاً لتعطيل العمل، وكانت وجهة نظره أن يمتد تخطيط الحدود حتى غربي أبي كيسور حيث لا توجد مناطق زراعية في تلك الأنحاء، وأدرك روجواي ما يثير قلق الجانب الروسي، فحاول تفادي العقبة التي ظهرت في طريق عمل اللجنة فاقترح تقديم مجموعة الآبار التي تقع بين مدينة بانجه ونهر جيحون للروس والتي يطالب بها الأفغان، لأن اللجنة وجدتها ذا أهمية كبيرة للروس في مقابل المراعي التي تقع بين تلك الآبار ومقاطعة مأمينا الأفغانية ويبلغ عرض هذه المراعي من ١٥-٢٠ ميلاً ويستخدمها سكان

(١) F.O. 539/29. No. 14. The Viceroy of India to Lord Randolph Churchill. Calcutta. Dated. January 7, 1886. P. 9.

(٢) F.O. 539/29. No. 109-3. The Viceroy of India to the Ameer of Afghanistan. Dated. P. 78.

مأمينا في رعي قطعانهم. رفض الجانب الروسي العرض البريطاني، وطالب برفع الأمر إلى الحكومة البريطانية والروسية لاتخاذ قرار فيه (١).

مشكلة خوجا صالح (٢)

حدث خلاف آخر بين أعضاء الجانبين في خوجا صالح، فلقد أوضح رئيس الوفد الروسي بأن المقصود من محطة خوجا صالح التي أشير إليها في اتفاق ١٨٧٣، الجسر الذي كان على نهر جيحون، ولذلك أصر على أن تسير الحدود الروسية الأفغانية إلى شمال قرية خامياب قرب الجسر المعني. ومعنى ذلك أن الجانب الروسي يطالب بالسيطرة على عدة قرى تسكنها قبائل أفغانية. وهذا ما لم يقبل به الأمير الأفغاني مهما كانت الضغوط.

أصر الجانب البريطاني على أن تكون مقاطعة خوجا صالح ضمن الأراضي الأفغانية فقد كانت منذ عشرات السنين في ظل التبعية الأفغانية (٣). وتشدد المندوب الروسي في موقفه، حاول الكولونيل روجواي أن يسوي المشكلة عن طريق التنازلات بحيث يعطي الروس المزيد من الأراضي في الغرب نظير تنازل الروس عن موقفهم الذي يطالب بمقاطعة خوجا صالح، ولكن كوهلبرج لا يريد أن يحمل نفسه مسئولية تبني مثل ذلك القرار، فذهب إلى المكان وحقق بنفسه على الطبيعة فوجد أن محطة خوجا صالح التي أشير إليها في اتفاق ١٨٧٣ تبعد عن قرية خامياب بحوالي ١٤ ميلاً تقريباً عند قرية إسلام، فقدم تفسيراً جديداً لاتفاق ١٨٧٣. وقال إن المقصود بمحطة خوجا صالح، هو منزل طاهر محمد خان، و يبعد هذا المكان عن

---

(١) F.O. 539/29. No. 163. Col. Ridgway to the Earl of Rosebery Maruchak. Dated. March 19, 1886. P. 143.

(٢) خوجا صالح مقاطعة أفغانية تقع على نهر جيحون وتمتد ٣٥ ميلاً في الطول من قرية بوساغا Boshagha على الحدود البخارية حتى معدية خليف Kilif Ferry وعرضها يتراوح من ٢-٨ ميل وبها ١٤ قرية هي خامياب روباط Khamiab Robat وخان تبه Khan Tapeh وديناريازا أريك Dinar Yaz Arik وإسلام ودالي Dali وضريح خوجا صالح سالار Seri of Khojah Saleh Salor وشور تبه Shur Tépé وقارقان دازار Karkan Dazar وأزها جو يا Azha Juyia وضريح خوجا صالح وأريك باتر Arik Baytr و يبلغ مجموع سكانها حوالي ٤٨٠٠ نسمة وحاولت بخارى السيطرة عليها ١٨٤٠. وأحرزت بعض النجاح إذ سيطرت على بعض الأجزاء لأن أفغانستان كانت مشغولة في ذلك الوقت بالحرب الأفغانية الأولى. و بعد أن استقرت الأمور لدست محمد طرد البخاريين منها سنة ١٨٥٠. أنظر:
F.O. 539/31. No. 3. Statement Respecting the Khojah Saleh Question. P. 5.

(٣) F.O. 539/30. Inclosure No. 1 in No. 84. Memorandum. The Khojah Saleh Question P. 62-5.

خامياب حوالي ١٧ ميلاً، أو ضريح خوجا صالح على بعد ١٢ ميلاً من خامياب. وبالتالي فإن المستر كوهلبرج يطالب أن تسير الحدود مسافة ٢١ أو ١٧ ميلاً داخل الأراضي الأفغانية، كما أن المستر كوهلبرج تناسى ما ذكره اتفاق ١٨٧٣ بأن يعطي الأمير جميع الأراضي التي تحت سيطرته وإن خوجا صالح تعتبر من ضمن تلك الأراضي، وإن انتماء أهالي خوجا صالح إلى القبائل الأفغانية لا القبائل البخارية، ولم يقدم الروس أية تنازلات.

أثار الموقف الروسي في كل من خوجا صالح وأودية نهري الميرغاب وخوشق سخط الممثلين الأفغان خاصة وأن الروس يحاولون سلب الأراضي الأفغانية تحت حجج واهية، كما أن الجانب البريطاني كان لا يستطيع أن يقتطع من أفغانستان مساحات من أراضيها أكثر مما فعله حتى لا يثير سخط الأفغان على حكومتهم.

وبذلك وصلت الأوضاع بين الجانبين إلى نقطة قطع المباحثات بعد تخطيط ما يقارب من ٣٢٠ ميلاً من الحدود امتداداً من ممر ذي الفقار حتى دوقشي Dukehi وظلت المنطقة الواقعة بين دوقشي ونهر جيحون موضع الخلاف بين الجانبين.

أرسلت الحكومة البريطانية إلى ممثليها تحثهم على حل المشكلة محلياً على ألا تحرم أفغانستان من مراعيها وأراضيها ومواطنيها، ولكن الجانب الروسي استمر في إصراره الأمر الذي أدى إلى قطع المباحثات، وبالتالي توقف العمل عن الاستمرار في تخطيط الحدود. وغادر أعضاء البعثة البريطانية نهر جيحون في ١٥ سبتمبر إلى كابول وبعدها إلى لندن وعاد الجانب الروسي إلى سنت بطرسبورج.

وتطلب الموقف بدء الإتصالات من جديد بين الحكومتين وأصرت كل حكومة ــ على ضوء تقارير الوفد البريطاني والروسي ــ على موقفها ولم تحاول أي منهما تقديم تنازلات للأخرى.

استئناف المباحثات في العاصمة الروسية:

واستمرت الدولتان في تبادل المذكرات والاقتراحات دون جدوى واستقر الرأي أخيراً على أن تعقد المباحثات من جديد في العاصمة الروسية في ٨ أبريل ١٨٨٧. أرسلت بريطانيا الكولونيل روجواي مندوباً عنها. ولم يكن استقباله في

سنت بطرسبورج مشجعاً، وذلك دلالة على فتور الجانب الروسي وعدم تشجيعه على الوصول إلى اتفاق حاسم بشأن المشكلة الأفغانية.

وتم عقد اجتماع في وزارة الخارجية الروسية حضرة المستر زنوفييه Zinoview M. رئيس قسم الشئون الآسيوية في الخارجية الروسية عن الجانب الروسي والكولونيل روجواي عن الجانب البريطاني لبحث نقاط الخلاف بين الدولتين. و بعد ذلك انقطعت الاجتماعات ولم تعين روسيا وفدها للمباحثات.

اتصل السفير البريطاني في العاصمة الروسية ببعض المسئولين في الحكومة لتحريك الموقف. وقد أدى اتصاله إلى نتائج مثمرة، فقد عينت روسيا المستر زنوفييه ممثلاً عنها. وعقدت عدة اجتماعات بين الطرفين في ٢٨-٣٠ إبريل حضرها من الجانب الروسي بالإضافة إلى زنوفييه كوهلبرج، وكان هدف هذه الاجتماعات مناقشة نقاط الخلاف بين الدولتين على ضوء الأدلة التي سجلتها بعثة الحدود المشتركة. وفيما يتعلق برأي روسيا في مشكلة خوجا صالح، أوضح زنوفييه أن حكومته لا تعني بمحطة خوجا صالح التي ذكرت في اتفاق ١٨٧٣ بمنزل محمد طاهر خان، كما سبق وأن أعلن كوهلبرج، ولكن المقصود هو ضريح خوجا صالح. وهذا يعني أن الروس يطالبون بأراضي أفغانية أكثر من الأراضي التي طالب بها كوهلبرج من قبل. فإن زنوفييه يطالب بأن تسير الحدود إلى خليف، إلى جانب بعض القنوات. وهذا يؤكد أنه ليس هدف روسيا من وراء تعنتها هذا هو الحصول على أراضي مقاطعة خوجا صالح لأنه ليست هناك أية مصالح لها في هذه الجهة. ولكن مصلحتها الحقيقية في أودية الأنهار في الغرب. وكانت تهدف من وراء تشددها إلى الضغط على بريطانيا بطريقة غير مباشرة حتى تتنازل عن أودية أنهار خوشق وقاشان والميرغاب للساريك في المنطقة الغربية (١).

هذا إلى جانب أن القيادة العسكرية الروسية كانت لا تفضل الوصول إلى

---

(١) نص اتفاق ١٠ سبتمبر ١٨٨٥ على حق روسيا في السيطرة على وادي بانجه، ولم يكن معروفاً في ذلك الوقت أن الساريك يمارسون الزراعة في داخل أودية خوشق وقاشان. وعند المعاينة على أرض الواقع وجد أعضاء اللجنة أن الإتفاق قد حرم الساريك من مزارعهم في أودية خوشق وقاشان. حاول روجواي أن يسوي هذه المشكلة عن طريق التنازلات. ولكن الجانب الروسي لم تكن لديه التعليمات الكافية لاتخاذ قرار حاسم فيها.

اتفاق في مشكلة الحدود الأفغانية، خاصة بعد إشتعال أعمال الفتن والشغب داخل أفغانستان، ولذلك كانت القيادة العسكرية تهدف إلى استغلال تلك الأوضاع من أجل بسط نفوذها وسيطرتها على مقاطعات بلخ و بادقشان الأفغانية، وإن زنوفييه نفسه كان يؤيد العسكريين في وجهة نظرهم، فقد أعلن أكثر من مرة عن واجب بريطانيا في التخلي عن محاولة تحديد الحدود الأفغانية، وترك هذا الأمر وفقاً لحرية كل دولة.

ومن ناحية أخرى فإن المستر جيرز Giers وزير الخارجية الروسية كان يريد أن ينهي مشكلة الحدود الأفغانية الروسية حتى يكرس جهود بلاده نحو القارة الأوروبية خاصة بعد الفرقة التي حدثت بين روسيا وألمانيا ومحاولتها للبحث عن حليف لها في أوروبا، وسنتطرق إلى ذلك تفصيلاً فيما بعد ــ ومن ناحية أخرى فقد كان القيصر الروسي يؤيد العسكريين لتأثيرهم البالغ عليه.

أدركت بريطانيا نوايا العسكريين الروس والمشاكل التي تنتظرها من جراء عدم الوصول إلى اتفاقية بشأن الحدود الأفغانية، خاصة وأن أحداث بانجه وما تركته من ردود فعل لم تتناس بعد، فأصبح أمامها أن الطريق الوحيد لتجنب كل ذلك هو إنهاء الخلاف القائم بينها و بين روسيا حول الحدود الأفغانية بواسطة تقديم بعض التنازلات، ولكنها لا تستطيع أن تقر بالمطالب الروسية في المناطق الشرقية (خوجا صالح) خاصة في المناطق القريبة من قرية خامياب، لأن ذلك سيكون مقدمة لتنازلات أخرى ستضطر إليها في المستقبل، وهذا ما لا يقبله الأفغان مطلقاً، ولكنها على استعداد لتقديم بعض التسهيلات أو التنازلات في المناطق الغربية خاصة وأن الساريك قد بدأوا في أعداد كبيرة بالتنقل في أودية خوشق وقاشان والميرغاب. وقد وجد روجواي في ذلك فرصة لتقديم تنازل عن ثمانية أميال من الأراضي الزراعية في الأودية، ولكن الروس طالبوا بـ ١١٠٠ ميل، وفشل روجواي في زحزحة الجانب الروسي عن مطالبه، بل إنه كان يتشدد أكثر من ذي قبل.

حاولت بريطانيا عن طريق اتصالها بالقيصر الروسي أن تحثه على إحداث تغير في الموقف الروسي ولكن موقف القيصر لم يتعد الأمل في الوصول إلي اتفاق مرضي

بين الطرفين، ولكنه لم يحاول أن يستخدم سلطته و يضغط على المسئولين الروس لتغيير وجهة نظرهم، وإن مثل ذلك الموقف كان متوقعاً من القيصر نظراً لتأثير العسكريين الروس عليه.

وفي تلك الأثناء تحركت بعض القوات الروسية إلى قرية كيركي Kerki البخارية والتي تبعد مسافة ٣٥ ميلاً عن خامياب، ولقد كان تحرك هذه القوات داخل الأراضي البخارية أو بمعنى آخر داخل النفوذ الروسي. وترددت شائعات عن احتمال غزو تلك القوات للأراضي الأفغانية في مقاطعة خوجا صالح، الأمر الذي أثار ريبة الأمير الأفغاني، وأخذ يحث الحكومة البريطانية على العمل من أجل وقف العدوان الروسي المرتقب على أراضيه.

وفي الحقيقة لم يكن هذا التصرف العسكري غير مظاهرة عسكرية من قبل القيادة الروسية لإجبار الجانب البريطاني والأفغاني على التسليم بالمطالب الروسية.

أثار التحرك الروسي ردوداً في العاصمة البريطانية، فقد حذر السفير البريطاني في سنت بطرسبورج الخارجية الروسية إذا ما كان هدف التحرك الروسي هو الوصول إلى خوجا صالح فإن بلاده سوف لا تقف ساكنة، وهذا بالطبع سوف يؤدي إلى عواقب وخيمة في المنطقة ولقد نفت الحكومة الروسية جميع الشائعات وأرجعت تحركها إلى ظروف داخلية، وإن قواتها لم تتعد الحدود الروسية، وإنها لا تقصد السيطرة على أية أراضي.

روجواي يذهب للتشاور مع حكومته:

استمر الموقف الروسي والبريطاني في تناقض، وتطلب الأمر سفر روجواي إلى لندن للتشاور.

وعشية مغادرته للعاصمة الروسية في ٣١ مايو ١٨٨٧، دعاه زنوفييه وأعرب له عن رغبته في الوصول إلى تفاهم، وذلك حسب اعتقاده ممكناً، إذا ما أكثرت بريطانيا من تنازلاتها في الغرب ووعد من جانبه بتخفيض المطالب الروسية.

وصل روجواي لندن في ٢٤ يونيه، وكان في تلك الأثناء نائب الملكة موجوداً

في العاصمة البريطانية، واجتمع مع روجواي وتباحثا سوياً في المشكلة الأفغانية واتفقا خلالها على أن ظروف أفغانستان الداخلية تتطلب سرعة الوصول إلى حل مع روسيا دون الرجوع إلى الأمير الأفغاني الذي اتهمه روجواي بأنه سبب التأخير في الوصول إلى اتفاق حتى ذلك الوقت(١)، لأنه قام بشق عدة قنوات على نهري خوشق وقاشان مما دفع بالجفاف إلى مراعي ومزارع الساريك فتراجعوا إلى مراعيهم القديمة داخل الأراضي الأفغانية.

بدأت الاتصالات من جديد بين الحكومتين لوضع حد للخلاف حول الحدود الأفغانية. وخلال تلك الاتصالات قدم روجواي عن طريق مساعده لاسو Laessoe الذي لم يغادر العاصمة الروسية ــ اقتراحاً يقضي بأن تسير الحدود في المنطقة الغربية من التل الأسود ثم تمر بتور الشيخ حتى قناة يكي يوز Yeki Yuz على نهر الميرغاب. وعن طريق هذا الاقتراح قدمت بريطانيا بعض القنوات إلى روسيا بهدف استمرار وجود المياه لري مزارع الساريك، ولكن زنوفييه أراد أن يدخل تعديلاً على الاقتراح البريطاني يقضي بأن تتواصل الحدود إلى جاهيل دوختيران بدلاً من التل الأسود.

---

(١) حينما أقرت لجنة الحدود سيادة أفغانستان على أودية خوشق وقاشان والميرغاب نصح روجواي الأمير الأفغاني بعدم تشجيع الأهالي على الإقامة في تلك الأودية وعدم إنشاء مراكز عسكرية فيها، وكان هدف روجواي من وراء ذلك أن تكون مناطق الأودية غير مأهولة وبالتالي عدم الاحتكاك بين الأفغان والروس. وذكر للأمير في رسالة بعث بها إليه في ٢ فبراير ١٨٨٦ قائلاً «هناك نقطة أريد أن ألفت انتباهك إليها وهي أن الحدود قد حددت من ممر ذي الفقار إلى ماروشاق بطريقة كانت نتيجتها أن أصبح كل جانب من الحدود غير مأهول ما عدا تلك المساحة التي تخترقها أنهار خوشق وقاشان والميرغاب وعلى كل شاطىء من هذه الأنهار قطاع ضيق من الأراضي يزرعه حتى الآن ساريك بانجه. ولذلك فإذا ما أصدرت أوامرك لكي تترك المنطقة الصغيرة المتداخلة بين تلك الأنهار والحدود الروسية بدون استقرار ما عدا بعض المراكز الأفغانية. فإن جميع الحدود من ممر ذي الفقار حتى نهر جيحون ستكون منطقة غير مأهولة وغير مزروعة وهذا من شأنه أن يمنع الاشتباك بين الأفغان والمراكز الروسية..». ويقصد روجواي أن تترك على ضفاف نهر خوشق مساحة من الأراضي غير مأهولة تمتد من تل الكرد Tappa Kurd حتى قناة جيهال دوختيران وعلى نهر قاشان المنطقة الواقعة ما بين باندي قاشان Bandi Kashan وتور الشيخ Tor Shekh وعلى الميرغاب المنطقة الواقعة بين ماروشاق وبين كاروال خانه Karawal Khana. وبالرغم من اجتماع الأمير مع روجواي إلا أن الأمير أصر على استقرار الأفغان في التل الأسود Kara Tappa وعلى فتح العديد من القنوات المائية.

استئناف المباحثات من جديد في العاصمة الروسية:

وجدت بريطانيا صعوبة بالغة في تعديل زنوفييه تتلخص في إزالة المعسكر الأفغاني في التل الأسود، على الرغم من أن ذلك المعسكر قد أقيم بدون رضى البريطانيين، فقد وجدت فيه نوعاً من الإذلال للأمير ولذلك رفضت التعديل الروسي، ولكن المندوب الروسي اعتبره ذا ضرورة ملحة من أجل الوصول إلى اتفاق بين الدولتين.

وبالرغم من ذلك فقد أدركت الحكومة البريطانية من الاتجاه الروسي أنهم عازمون حقاً على الوصول إلى تفاهم، فطلبت من روجواي العودة إلى سنت بطرسبورج ثانية، وأعلنت عن استعدادها على تعويض الساريك عن مراعيهم نقداً [1]، إذا أصرت روسيا على موقفها في الغرب في مقابل أن تقدم بعض التنازلات في مقاطعة خوجا صالح.

وصل روجواي سنت بطرسبورج في ٥ يوليو، وعقد اجتماع مطول في اليوم التالي مع زنوفييه وتوالت الاجتماعات بين الجانبين، وطالب الجانب الروسي أن تكون اجتماعاتهما غير رسمية وهذا الطلب في حقيقته أحد أساليب تمويههم فإن المستر زنوفييه كان يهدف إلى الابتعاد عن التقارير الرسمية حتى يحقق أهداف بلاده، وإذا فشل في ذلك فمن السهل عليه أن يدعي أسباب الفشل ويلحقها بموقف بريطانيا الغير إنساني تجاه قبائل الساريك التي تعمد الحكومة البريطانية إلى حرمان تلك القبائل من مراعيها ومزارعها.

ومن خلال تقارير الاجتماعات التي تمت بين الجانبين ــ الروسي والبريطاني ــ حاول كل طرف أن يفسر اتفاق ١٨٧٣ بالشكل الذي يخدم مصالحه وأصر زنوفييه على أن تسير الحدود الروسية إلى جاهيل دوختران وأن تقدم بريطانيا بعض التنازلات في الشرق أيضاً.

وبعد مناقشات ومجادلات طويلة بين الطرفين تقدم روجواي باقتراح يقضي بأن تسير الحدود أسفل التل الأسود عند نقطة تلاقي نهري خوشق والمورغور Morghor وتتبع الحدود بعد ذلك مجرى خوشق حتى قناة يكي يوز على نهر

(١) F.O. 539/35. No. 126. Col. Ridgway to the Marquis of Salisbury. Dated August 15, 1886. P. 87-96.

الميرغاب. ويعتبر هذا الاقتراح حلاً وسطاً بين المطالب الروسية والأفغانية في الغرب، فقد أعطى الأفغان التل الأسود وجاهيل دوختران وتور الشيخ، كما أخذ الأفغان من أراضي الساريك روباتي قاشان Robati Kashan وبابولي Babuli في حين أعطى هذا الاقتراح جميع الأراضي التي يزرعها الساريك في أودية خوشق وقاشان والميرغاب (١) لروسيا.

وبمزيد من التردد وافق زنوفييه على الاقتراح البريطاني، وبذلك أنهى الجانبان الشق الأول من الخلاف الذي طال بينهما.

وكانت الخطوة التالية هي الوصول إلى اتفاق في الشرق، ولقد كان معروفاً أنه في مقابل التنازلات البريطانية في الغرب، ستكون تنازلات روسية في الشرق. وبعد مناقشات طويلة وتفسير الاتفاقيات السابقة (١٨٧٣-١٨٨٥) انحصر الخلاف بين روسيا وبريطانيا في المراعي والآبار التي يستخدمها سكان خامياب الأفغان منذ فترة طويلة. أراد الجانب الروسي أن يرسم الحدود بحيث يحرم سكان خامياب من المراعي والآبار التي يستخدمونها. ومثل هذا الموقف رفضته روسيا لرعايا الساريك في الغرب. وفشل الجانب البريطاني في إقناع زنوفييه بالرغم من تكرار اللقاءات بينهما.

حاولت بريطانيا من خلال اتصال سفيرها ببعض المسئولين السياسيين الروس أن تحدث تأثيراً على الموقف الروسي. فقد اتصل السفير البريطاني بوزير الخارجية الروسية ــ المستر جيرز ــ في ١٥ يوليو. وشرح له الموقف وتعقيداته والتنازلات التي قدمتها بريطانيا في أودية أنهار خوشق وقاشان والميرغاب.

ويبدو أن المستر جيرز كان لا يؤيد أراء زنوفييه، ولم تكن لديه سلطة لإجباره على تبني موقف سياسي محدد لأنه ــ كما أشرنا من قبل ــ كانت تدعمه السلطة العسكرية التي كانت لها دوراً مؤثراً في توجيهه السياسة الروسية.

وأخيراً وبعد محاولات أدرك روجواي أسلوب التمويه الروسي، فقد اقترح في ١٦ يوليو عقد جلسة رسمية يسجل فيها موقف الجانبين. شعر زنوفييه بالخطورة التي

(١) F.O. 539/33. Inclosure No. 3. in No. 11 Memorandum for His Highness the Ameer of Afghanistan P. 24.

تكمن وراء هذا الاقتراح وعلى وجه الخصوص افتضاح أمره، والكشف عن القوى العسكرية التي تسانده والتي حاولت خلال الفترة السابقة اتهام الحكومة البريطانية بتأخير الوصول إلى اتفاق بشأن الحدود الأفغانية.

ولقد نجحت السلطة العسكرية في إقناع السياسيين الروس بتلك الفكرة كما تمكنت من كسب القيصر لصفها، وكانت تهدف من وراء ذلك أن تنتهز الأحوال الداخلية المضطربة في أفغانستان من أجل السيطرة على المزيد من الأراضي الأفغانية.

ويبدو أن اقتراح روجواي قد أثر في الموقف الروسي، فلم يعد زنوفييه متصلباً كما كان من قبل، وأعلن عن استعداده لحل الخلاف البريطاني الروسي في الشرق. وبعد اقتراحات وتعديلات من قبل الجانبين توصلا إلى حل لمشكلة الحدود الشرقية عن طريق اتفاق ينص على احتفاظ سكان خامياب بمراعيهم وآبارهم نظير إعطاء روسيا بئر نزار Nazar الذي يقع شرق دوقشي (١).

وعن طريق هذا الاتفاق فقدت أفغانستان مساحة من أراضيها تقدر بـ ١٥ ميلاً من مقاطعة خوجا صالح، ويسكنها حوالي ٩٦٠ أسرة (٢).

وسويت بعد ذلك جميع الأمور الجانبية وأعدت مسودة للنقاط التي تم الوصول إلى حلها وبذلك انتهت مشكلة الحدود الغربية والشرقية لأفغانستان والتي استغرق العمل بها زهاء ثلاث سنوات تقريباً. وفقدت أفغانستان خلال هذه التسوية بعض المناطق مثل مدينة بانجه ومساحات من الأراضي في أودية خوشق وقاشان والميرغاب وبعض الأميال من مقاطعة خوجا صالح ولكنها مع ذلك أضافت إلى الأراضي الأفغانية مساحة تقدر بـ ٤٠٠ميل مربع.

أعلن الأمير الأفغاني عن رضاه التام على التسوية النهائية للحدود الأفغانية الروسية وأن ممر (ذي الفقار) وماروشاق في نظره أكثر أهمية من جميع الأراضي التي فقدتها بلاده.

---

(١) F.O. 539/35. No. 126. Col. Ridgway to the Marquis of Salisbury. Dated August 15, 1886. P. 95-96.

(٢) F.O. 539/31. No. 156. Col. Ridgway to Earl of Rosbery August 1, 1886. P. 143-160.

وفي لندن قوبلت التسوية بسرور بالغ، وأعربت الأوساط البريطانية عن ارتياحها للنتيجة التي حققتها جهود الكولونيل روجواي، إلا أنه كان ينتابها في الوقت نفسه شعور باحتمال ظهور المشكلة الأفغانية على مسرح الأحداث من جديد. وهنا برز اتجاهان في العاصمة البريطانية للقضاء نهائياً على المشكلة وهما:

الأول: أن تقوم بريطانيا بكافة الإجراءات التي من شأنها العمل على استمرار أفغانستان كدولة حاجزة للهند البريطانية، وهذا الاتجاه يطالب بأن تكون بريطانيا يقظة وسريعة الحركة، بل وضع أفغانستان في داخل الدائرة الحربية الهندية خلال العمليات الدفاعية والهجومية.

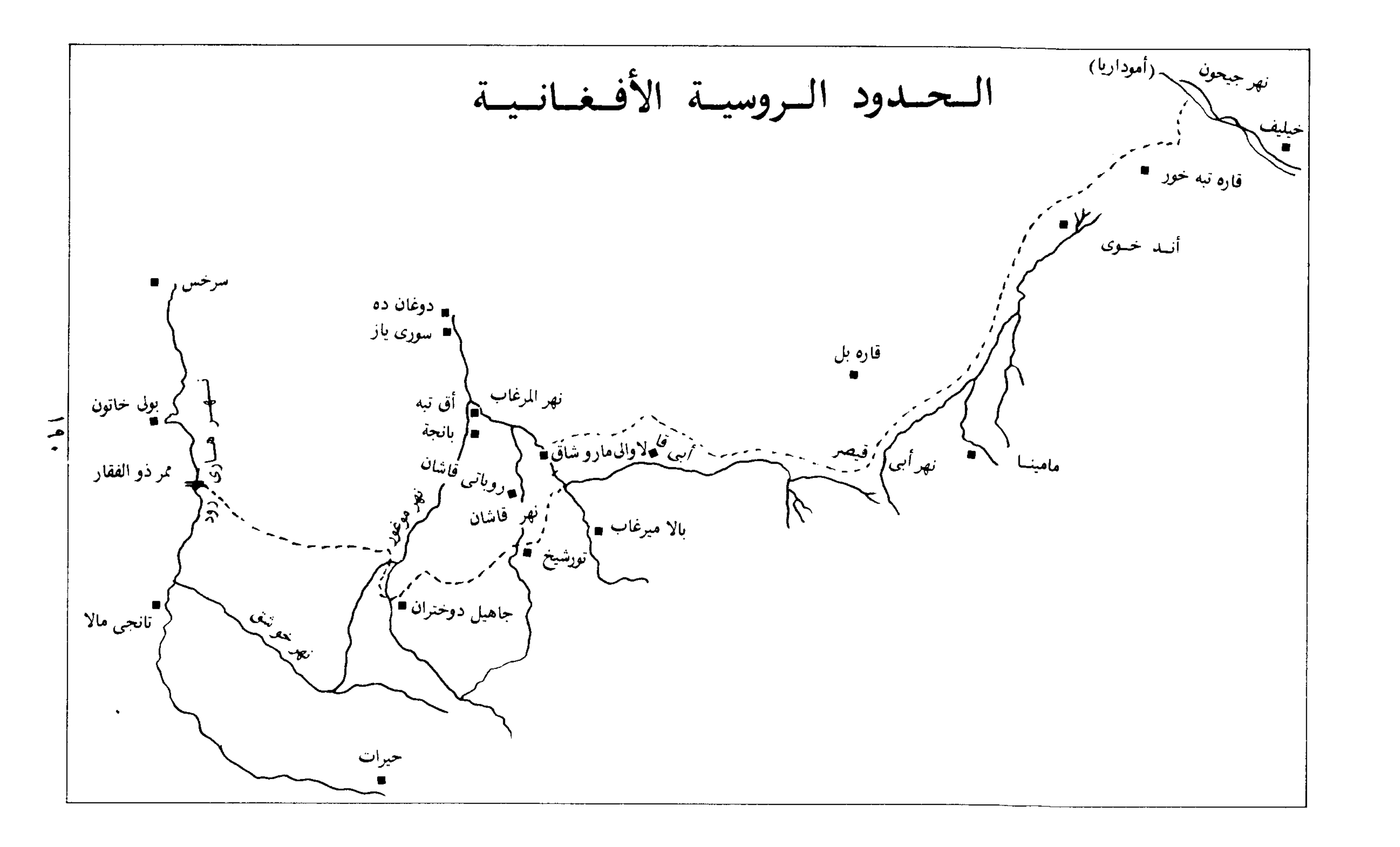
الثاني: الحيلولة دون وقوع أفغانستان في أحضان السياسة الروسية حتى لا تؤدي إلى تعقيدات سياسية وعسكرية مقبلة. ولا يختلف الاتجاه الثاني كثيراً عن الاتجاه الأول. فكلاهما طالب بالنفوذ البريطاني على أفغانستان حتى يحول دون اشتعال المشكلة الأفغانية من جديد.

حاول الكولونيل روجواي أن يخفف من القلق الذي تعانيه تلك الأوساط فأوضح بأن روسيا لا تفكر في القيام بأية مغامرة تجاه أفغانستان لأنها مشغولة في سياستها الأوروبية وخاصة بعد تفجر الموقف في البلقان سنة ١٨٨٥ وعلاقتها مع ألمانيا بعد معاهدة إعادة التأمين، وموقفها في القارة الأوروبية بعد الفرقة مع ألمانيا، وسنتطرق إلى جميع هذه الأمور في الظروف الدولية التي أدت إلى اتفاق ١٩٠٧.

إلى جانب أن الكولونيل روجواي كان يثق شخصياً بالقيصر الروسي وبوزير خارجيته المستر جيرز، فإن قيام حرب روسية انجليزية ليس بالأمر السهل على روسيا لأن مثل تلك الحرب سوف تسبب استنزافاً لطاقاتها الاقتصادية [١]. كما أن السياسة الروسية مكروهه في القارة الأوروبية وتفتقد الحلفاء [٢]، وبالتالي لا تجرؤ على الإقدام على مثل تلك الخطوة المتهورة.

(١) F.O. 539/35. No. 126. Col. Ridgway to the Marquis of Salisbury Dated August 15, 1886. P. 98-99.

(٢) أنظر الفصل السابع.


الحدود الروسية الأفغانية
نهر جيحون
(أموداريا)
خيليف
قاره تبه خور
أنـد خـوى
قاره بل
مامينا
نهر أبى
قيصر
أبى
لاوالى
مارو شاق
بالا ميرغاب
تورشيخ
نهر قاشان
جاهيل دوختران
نهر المرغاب
أق تبه
بانجة
روباتى قاشان
دوغان ده
سورى ياز
سرخس
بولى خاتون
ممر ذو الفقار
تانجى مالا
حيرات

مشاكل الحدود الأفغانية الروسية:

من المشاكل التي أعقبت تسوية الحدود الأفغانية مشكلة مياه الأنهار في الغرب وفي الشرق.

ففي الشرق جرفت الفيضانات في نهر جيحون القنوات المحفورة في الجانب الأيسر للنهر، والتي كانت تمد قرية بوساغا Bosagha البخارية بالمياه. ومن خلال المعاينة أثبتت حكومة التركستان الروسية عدم صلاحية تلك القنوات ولا بد من حفر قنوات جديدة. واستقر الرأي على حفر قنوات جديدة على مسافة ١٢ ميلاً عن قرية خامياب الأفغانية في داخل الأراضي الأفغانية، ثم توصل هذه القنوات بقنوات أخرى إلى قرية بوساغا.

أجرى رئيس بلدية بوساغا الاتصالات مع السلطات الأفغانية لتنفيذ الأعمال الضرورية لحفر القنوات الجديدة في الأرض الأفغانية، وأعلن عن استعداده لدفع التعويضات المناسبة عن الأراضي التي ستحفر فيها القنوات الجديدة.

ولا يعني هذا أن تسيطر روسيا على الأراضي الأفغانية التي ستشق فيها القنوات ولكنه إجراء وقتي ريثما يتم إصلاح القنوات المحطمة في بوساغا[١].

أثار الطلب الروسي ريبة الأمير الأفغاني خاصة وأنه كان يتوقع أن يتحول من مجرد الإشراف على حفر قنوات إلى احتلال دائم للأراضي التي ستشق فيها القنوات.

طلبت روسيا من بريطانيا التدخل، أعلنت الحكومة البريطانية عن استعدادها لبذل مساعيها مع الجانب الأفغاني، قامت بريطانيا بعدة اتصالات مع الأمير الأفغاني وحاولت من جانبها أن تبث في نفسه الطمأنينة. وإنها تثق بالوعود الروسية، وأخيراً وافق الأمير في أبريل سنة ١٨٩١ على تشكيل لجنة لبحث المشكلة على أن تبدأ مهام عملها في شهر سبتمبر بعد انتهاء الفيضانات الصيفية[٢]. وتشكل روسيا من جانبها لجنة، وتعمل اللجنتان على دراسة المشكلة على أرض

---

(١) F.O. 539/53. No. Préces of Information Respecting Central Asian Affairs P. 4.
(٢) F.O. 539/53. No. 110. The Marquis of Salisbury to M. de Staal. F.O. Dated Oct. 24, 1891. P. 156.

الواقع.

وقد طلبت الحكومة الروسية والبريطانية من أعضاء اللجنتين أنه في حالة عدم توصلهم إلى حل مرضي أن يبعثوا بالتقارير إلى لندن وسنت بطرسبورج حتى تتخذ الحكومتان قراراً مناسباً (١).

وبعد الدراسة الميدانية التي قام بها أعضاء اللجنتين الروسية والأفغانية البريطانية، توصلتا إلى قرار بضرورة توصيل المياه إلى قرية بوساغا ريثما يتم إصلاح القنوات التي حطمتها فيضانات نهر جيحون.

وفيما يتعلق بمشكلة المياه في الغرب ففي خلال صيف ١٨٩٠ لم تصل مياه نهر خوشق إلى شاماني بد Chamman-i-Bed، فاشتكى الحاكم العام لمقاطعة القزوين من نقص المياه وأرجع السبب إلى الأفغان الذين يروون الأراضي التي تقع في وادي خوشق بين جيهال داختور والتل الأسود مخالفين بذلك التسوية التي تمت في سنت بطرسبورج بشأن الحدود الأفغانية الروسية.

ولذلك طلب أن يصدر الأمير الأفغاني أمراً يمنع فيه الأفغان من الاستمرار في ذلك العمل. وفي فبراير ١٨٩٢ احتج السفير الروسي في لندن على استمرار الأفغان في ري أراضيهم في حين تعاني الأراضي الروسية من نقص المياه، كرر ذلك الطلب ثانية إلى المستر سالزبري في مايو من العام نفسه. وتم الاتفاق أخيراً على تشكيل لجنة من بريطانيا برئاسة الضابط البريطاني يات Yate ومن الجانب الروسي برئاسة اجناتيو M. V. Ignatiew وممثل من الحكومة الأفغانية.

عقدت اللجنة أولى جلساتها في أواخر مايو ١٨٩٣، وطلب المندوب الروسي تحطيم القنوات الثلاث الأولى (٢)، وأصر على منع الأفغان من سحب المياه من

(١) F.O. 539/64. No. 23. Memorandum by Mr. Bertie on the question with Russia Respecting Kushk Canals in Afghan Territory P. 36-7.

(٢) بعد المعاينة وجد أعضاء اللجنة المشتركة في المنطقة التي سبب الشكوى ٦ قنوات:

الأولى: وتعرف باسم قناة الطاحونة وتقع حوالي ١٧٠٣ ياردة جنوب التل الأسود، و يبلغ طولها ميل و ١١٦٧ ياردة.

الثانية: قارة تبه قايين Kara Tépé Kaiyin وهي جافة غير مستعملة وقد طلب الأمير الأفغاني ردمها منذ ١٨٩٢. =

نهر خوشق، أو فتح قنوات جديدة أسفل جيهال دختور[1].

اعترض الجانب البريطاني وصرح الكولونيل يات بأن للأفغان الحق في سحب المياه من نهر خوشق أسفل جيهال داختور. هددت الحكومة الروسية بالانسحاب من المفاوضات وخشيت الحكومة البريطانية أن يؤدي ذلك إلى أزمة جديدة مع روسيا، ولذلك طلبت من مندوبها سحب اعتراضه على الطلب الروسي[2].

أنهت اللجنة أعمالها في ٤ سبتمبر ١٨٩٣، وتعهد الأفغان بعدم سحب المياه من نهر خوشق بين جيهال داختور والتل الأزرق لأي غرض كان[3].

في ضوء عرضنا السابق نستطيع القول بأن التوسع الروسي في المنطقة الإسلامية في وسط آسيا خلال النصف الثاني من القرن التاسع عشر قد أدى إلى تضييق المسافة الفاصلة بين نفوذ الدولتين العظميين في آسيا ـــ في ذلك الوقت ـــ خاصة وأن روسيا استغلت عزلة بريطانيا المجيدة لدفع نفوذها إلى الإمارات الإسلامية، وأرجعت دوافع تحركها هذا إلى عوامل إنسانية وحضارية. ومع ذلك لم تنته العمليات العسكرية، بل اقترب الوجود الروسي كثيراً من التمركز البريطاني في الهند، وارتفعت صيحات البريطانيين محذرة من الخطر الروسي الزاحف، كما أن الحكومة البريطانية بدأت تشكك في الأهداف الإنسانية والحضارية التي كانت ترفعها روسيا. وترى من خلفها المزيد من التوسع والانتشار الروسي في المنطقة.

= الثالثة: قارة تبه قالان Kara Tépé Kalan وتبعد عن التل الأزرق حوالي ميل و ١١٢٠ ياردة و يبلغ طولها ٢,٣/٢ ميل والمساحة التي تعتمد الري من هذه القناة تبلغ ١٩٤,٢/١ فدان.

الرابعة: شابغول Chapgul ولا توجد فيها المياه بانتظام معظم شهور السنة وتكون جافة إلا في وقت فيضان نهر خوشق.

الخامسة: خواجا جيرو يبلغ طولها ٣ ميل و ٦٠٠ ياردة وتوجد فيها المياه بانتظام.

السادسة: بولي خشتي وقد ردمها الأمير سنة ١٨٩٢.

وإن جملة الأراضي التي ترويها هذه القنوات حوالي ٧٧٩ فدان مزروعة بالقمح والخضروات. أنظر:

F.O. 539/63. Inclosure No. 2. in No. 66. Lieutenant Col. Yate to the Government of India protocol No. 1 Dated May 18, 1893. P. 59-60.

(١) F.O. 539/63. Inclosure No. 11 in No. 86. Col Yate to the Government of India Chihal Dakhtor Dated July 31, 1893. P. 116.

(٢) F.O. 539/64. No. 23 Memorandum by Mr. Bertie on the question with Russia Respecting the Khushk Canals in Afghan territory P. 36-37.

(٣) F.O. 539/64. Inclosure No. 5 in No. 50 Col. Yate to the Government of India Chihal Dakhtor Dated Sept. 4, 1893. P. 77.

ولذلك أصبح واضحاً أمامها ضرورة العمل على تحديد نفوذ كل من الدولتين في وسط آسيا الإسلامية، وكانت بريطانيا ترى في نهر جيحون فاصلاً طبيعياً وسياسياً بين الدولتين، فبدأت اتصالاتها مع الحكومة القيصرية لاقناعها بوجهة النظر البريطانية. ولم تكن روسيا في ذلك الوقت قد وطدت بعد نفوذها في المنطقة الإسلامية، وتخشى إذا ما عارضت الاقتراح البريطاني أن تثير بريطانيا ضد سياستها في المنطقة. كما أن الاقتراح البريطاني اعترف بسيادة روسيا على المناطق التي تقع شمال نهر جيحون.

ولذلك وافقت على الاقتراح البريطاني بجعل نهر جيحون حداً بين النفوذ الروسي والبريطاني في وسط آسيا الإسلامية، وكانت موافقة روسيا هذه مجرد موافقة مبدئية خاصة وإنها لم تكن قد انتهت بعد من تنفيذ مخططها التوسعي في الأراضي التركمانية، وكانت تدرك في الوقت نفسه ما يثير قلق بريطانيا في المنطقة خاصة أفغانستان ــ الدولة الحاجزة للهند ــ فأعلنت الحكومة الروسية في مناسبات عديدة أنها لا تعتزم مد نشاطها العسكري نحو الأراضي الأفغانية. وكان ذلك خطة مرحلية من قبل روسيا حتى لا تلفت نظر بريطانيا لبرنامجها التوسعي.

وحينما انتهت روسيا من السيطرة على معظم الأراضي الواقعة على الشاطىء الشمالي لنهر جيحون تنصلت من وعدها الذي قطعته على نفسها أمام بريطانيا. ومن ثم بدأت الاتصالات من جديد بين الدولتين لتحديد الحد الفاصل بينهما ومن ثم الحد السياسي الذي يفصل روسيا عن أفغانستان وكانت الحكومة البريطانية تخشى أن يتواصل الزحف العسكري إلى الأراضي الأفغانية خاصة وأن السلطة العسكرية الروسية كانت لا تحبذ العمل على تحديد حدود أفغانستان لأنها كانت ترغب في أن تستغل الأحداث الداخلية الأفغانية من أجل مد سيطرتها على بعض المقاطعات الأفغانية في الشرق والغرب.

ولم تتوصل الدولتان خلال اتصالاتهما إلى حل لمشكلة الحدود الأفغانية فتقرر أن تنقل خلافاتهما بكل تناقضاتها إلى أرض الواقع، وتعمل لجنة من قبلهما على دراستها والعمل على حلها، ولكنهما في الوقت نفسه لم تعطيا تلك اللجنة حرية الحركة من أجل الوصول إلى تسوية نهائية، فكل دولة زودت ممثليها بوجهة

نظرها، وطلبت منهم الالتزام بها.

وقبل بدء اللجنة في تخطيط الحدود انفجرت مشكلة بانجه التي أوشكت أن تكون سبباً في أحداث حرب بين الدولتين لولا ميل الجانبين إلى السلم وفشلت اللجنة في تحقيق المهمة التي أرسلت من أجلها. ومن ثم بدأت الاتصالات من جديد بين العاصمتين والتي توجت باتفاق ١٠ سبتمبر ١٨٨٥، الذي يعتبر بحق بداية العمل الحقيقي للتسوية.

وعلى ضوء اتفاق ١٠ سبتمبر شكلت الدولتان لجنة ثانية لتخطيط الحدود ونجحت هذه اللجنة في تخطيط حدود مساحات كبيرة، ولم تنجز كل المهمة نظراً لاختلاف نص الاتفاق عن الواقع الجغرافي. وفقدان الجانب الروسي في اللجنة لحرية العمل، بل كان مقيداً بتعليمات حكومته، ولذلك فشلت اللجنة في تخطي مشكلة الأودية في الغرب، ومشكلة خوجا صالح في الشرق.

تحولت الجهود بعد ذلك إلى سنت بطرسبورج ولجأت الحكومة الروسية إلى التمويه بسبب ضغط العسكريين الروس الذين كانوا يطمعون في السيطرة على بعض الأراضي الأفغانية وفشلت المحاولة الأولى، وتبعتها محاولة أخرى ومارست بريطانيا في العاصمة الروسية نشاطاً سياسياً واسع النطاق، إذ كانت ترى ضرورة الوصول إلى اتفاق خاصة بعد الفوضى التي انتشرت في الأراضي الأفغانية وكانت تخشى أن تمد روسيا يدها إلى أفغانستان في تلك الظروف الحرجة، وبالتالي تختفي الدولة الحاجزة والتي سعت طويلاً من أجل الحفاظ على وجودها، وبالفعل نجحت بريطانيا في دفع الجانب الروسي للوصول إلى تسوية بشأن الحدود الأفغانية الروسية، ولقد كانت تلك التسوية تفتقد الأساليب الفنية التي نراها ــ اليوم في الحدود المعاصرة، مثل تحديد مجرى النهر أو المنسوب أو الجرف أو العمق. وقد سبب هذا فيما بعد بعض المشاكل بين الدولتين وخاصة فيما يتعلق بمشاكل المياه.

وحينما انتهى الجانبان من مشكلة الحدود الأفغانية الروسية تفجرت لهما مشكلة حدود جديدة في البامير، وهذا ما سنتطرق إليه في الفصل التالي.



الفصل الخامس

مَوقِفُ بَريطانيا تجاه السَياسَةِ الروسيَّة في البامير ومَشاريع السّكك الحَديديّة



كان من أهم نتائج مؤتمر برلين ١٨٧٨ اعتقاد القيصر الروسي بأن هذا المؤتمر ليس سوى تحالف أوروبي بزعامة بسمارك ضد روسيا، وإنه فضل عليها النمسا، وهي نتيجة لم تكن روسيا تتوقعها قط. وقد نتج عن هذا الموقف ثلاث نتائج:

الأولى: الفرقة بين روسيا وألمانيا. فقد كانت روسيا تتوقع من جراء وجودها في عصبة الأباطرة الثلاثة أن يقوم أعضاء العصبة بخدمة مصالحها خاصة في البلقان، ولكنه ظهر لها منافس جديد في البلقان من أعضاء العصبة نفسها، ونعني بذلك النمسا. وكان موقف بسمارك صعباً في الاحتفاظ بكل من روسيا والنمسا وما بينهما من تنافس في عصبة واحدة، ولذلك اختار الجانب النمساوي، لأن تحالفه معه سيبعد عنه شبح المطالب النمساوية في الأراضي التي سلختها منها ألمانيا ١٨٦٦، إلى جانب أن التحالف مع النمسا يغطي ظهر ألمانيا تغطية تعطي لألمانيا فرصة التفرغ لأي هجوم فرنسي عليها. ومن أجل هذا الغرض بدأ بسمارك يتقرب من النمسا وأخذ يحث حكومتها على عقد تحالف معه لضمان سلامة الدولتين (النمسا وألمانيا)، وردع أية قوة تتعرض لأي واحدة منهما. وتواصلت جهود بسمارك مع النمسا حتى توجت بالتحالف الثنائي سنة ١٨٧٩ [(١)].

وحينما تفجرت المشكلة البلقانية مرة ثانية من جديد ١٨٨٥، وضح تماماً أن الفرقة بين ألمانيا وروسيا لا رجعة فيها، فقد وقف بسمارك موقف الحليف من النمسا ضد روسيا [(٢)]، وتجلى ذلك عندما صممت روسيا على عزل فرديناند أوف ساكس كوبرج Ferdenand o. s. Kuberg عن عرش بلغاريا ١٨٨٧، وقد وقفت النمسا في مواجهتها بقوة، وحينما لمح القيصر الروسي إلى استخدام القوة ضد النمسا، أبدى بسمارك تأييده التام للنمسا ونشر في فبراير ١٨٨٧ نصوص الحلف الثنائي. وكانت بريطانيا وإيطاليا في موقف معادي لسياسة روسيا في البلقان

---

(١) دكتور عبد العزيز نوار، التاريخ المعاصر، أوروبا من الثورة الفرنسية إلى الحرب العالمية الثانية، ص ٣٢٨-٣٢٩.

(٢) المرجع السابق، ص ٣٣١.

وكانت النمسا العضو الثالث في اتفاقية البحر المتوسط التي عقدت بين الأطراف الثلاثة في مارس ١٨٨٧، وقد تعهدت بمقتضاها كل من إيطاليا وبريطانيا بالمساندة الدبلوماسية للنمسا في المشكلة البلغارية.

كما أن روسيا كانت تدرك عجزها التام عن القيام بحرب كبيرة في القارة الأوروبية [١] أو حتى تستطيع وحدها فرض كلمتها في المجتمع الأوروبي، ولم تعد محاولات الارتباط الودي مع ألمانيا مجدية وبذلك قضى على معاهدة إعادة التأمين.

الثانية: التقارب الروسي الفرنسي:

إزاء موقف روسيا هذا في القارة الأوروبية، فقد دفعت الظروف روسيا نحو التحالف مع فرنسا التي كانت تراقب التطورات التي كانت تحدث على مسرح القارة الأوربية، وتعمل في الوقت نفسه على اقتناص روسيا، بعد جهود بسمارك لتضييق الخناق على فرنسا والتي كانت واضحة في الحلف الثنائي مع النمسا. ولم تكن دوافع التحالف الروسي الفرنسي عسكرية فقط، بل كانت هناك أيضاً دوافع اقتصادية، فقد كانت روسيا تعاني من التخلف الصناعي وفي الوقت نفسه كانت تتطلع إلى التوسع الاستعماري في الشرق، وكان ينقصها حينذاك الرأسمال والخبرة الفنية. ولذلك كانت فرنسا هي الدولة الأوروبية الكبرى الوحيدة بالنسبة لروسيا التي تستطيع أن تقدم لها المال، فقدمت فرنسا لها الأموال لمد السكك الحديدية والخبراء في مد الطرق والمنشآت الإنتاجية العسكرية وبعض المنشآت الصناعية [٢].

الثالثة: التحرك الاستعماري نحو الشرق:

في الوقت الذي كانت تتصارع فيه الدول الأوروبية من أجل السيطرة والاستعمار في القارة الأفريقية، لم تشارك روسيا في هذا الصراع بحكم عوامل حربية واقتصادية وسياسية وعلمية وجغرافية، ولذلك اتجه كل نشاطها جهة الشرق وأخذت العسكرية الروسية ترى في تقدمها السياسي والعسكري في آسيا النجاح

---

(١) Hinsley, F.H.: The New Cambridge Modern History, Vol, XI. International Relation P. 556-557.

(٢) دكتور عبد العزيز نوار، التاريخ المعاصر، أوروبا من الثورة الفرنسية حتى الحرب العالمية الثانية، ص ٣٣٣.

الذي فقدته في القارة الأوروبية، فتدخلت في الصين سياسياً وعسكرياً ثم الإمارات الإسلامية في وسط آسيا. وحاولت في ثمانينيات القرن التاسع عشر أن تمد تقدمها إلى الأراضي الأفغانية، وانتهت تلك المحاولة بتحديد الحدود الأفغانية، وأخذت في الوقت نفسه تعمل على تقوية نفوذها في وسط آسيا الإسلامية عن طريق الشروع في بناء السكك الحديدية، كما لجأت إلى تأكيد وجودها في البامير وذلك بهدف النيل من بريطانيا، ولحماية أراضيها في مقاطعة فيرغانه. وهذا بدوره أدى إلى ظهور مشكلة جديدة من مشاكل الصراع الروسي البريطاني في وسط آسيا.

وسنحاول في هذا الفصل إلقاء الضوء على هذه المشكلة.

البامير(١):

هي منطقة جبلية تسكنها جماعات من القرغيز، وقد ظلت هذه الجماعات خاضعة تحت سيادة الصين حتى سنة ١٨٣١، فقد وقعت في هذا العام معاهدة بين الصين وخوقند، تنازلت الصين بمقتضاها عن السيادة السياسية في المنطقة لخوقند. وأصبح سكان البامير يدفعون الضرائب إلى خوقند حتى عام ١٨٤٥، وفي هذا العام انفجر الصراع على السلطة في خوقند مما أدى إلى انتشار الفوضى السياسية في جميع أنحاء الخانة. ومن بين المناطق التي تعرضت لتلك الفوضى البامير، واستغل شيوخ قبائل القرغيز عدم وجود سلطة مركزية تفرض سلطانها عليهم فأعلنوا انفصالهم عن خوقند.

وظلت البامير تعيش في حالة الانفصال هذه حتى امتد التوسع الروسي إلى خوقند، وأخذت روسيا تطالب بالبامير على اعتبار أنها جزء من أراضي خوقند الروسية. وبناء على ذلك فمن حقها أن تبسط نفوذها على المنطقة.

---

(١) البامير، منطقة جبلية تلتقي فيها جبال تيان شان ونوزداجاتا Nuzdagata وهندوكوش، وتحدها من الشمال حافة جبال الليوي، ومن الجنوب جبال هندوكوش. وتمتد من الشمال إلى الجنوب ١٨٠ ميل، ومن الشرق إلى الغرب ٢٠٠ ميل، وترتفع حوالي ١٢ ألف قدم عن مستوى سطح البحر وكانت توجد في المنطقة إبان فترة البحث ثروة حيوانية كبيرة. أنظر:
F.O. 539/59. No. 55 Extract from the «Times» of Oct. 20, 1892. P. 58-59.

سياسة بريطانيا:

كانت بريطانيا تدرك مدى الخطورة التي ستلحق بها من جراء سيطرة الروس على هضبة البامير، وخاصة أن روسيا تستطيع من البامير تهديد المناطق الشمالية الشرقية من الأراضي الهندية. فلذلك لجأت إلى إدخال أطراف جديدة في المشكلة، على اعتبار أن تلك الأطراف سوف لا تكون على درجة مساوية للخطر الروسي، وفي هذا المجال حاولت بريطانيا إلى:

توريط أفغانستان:

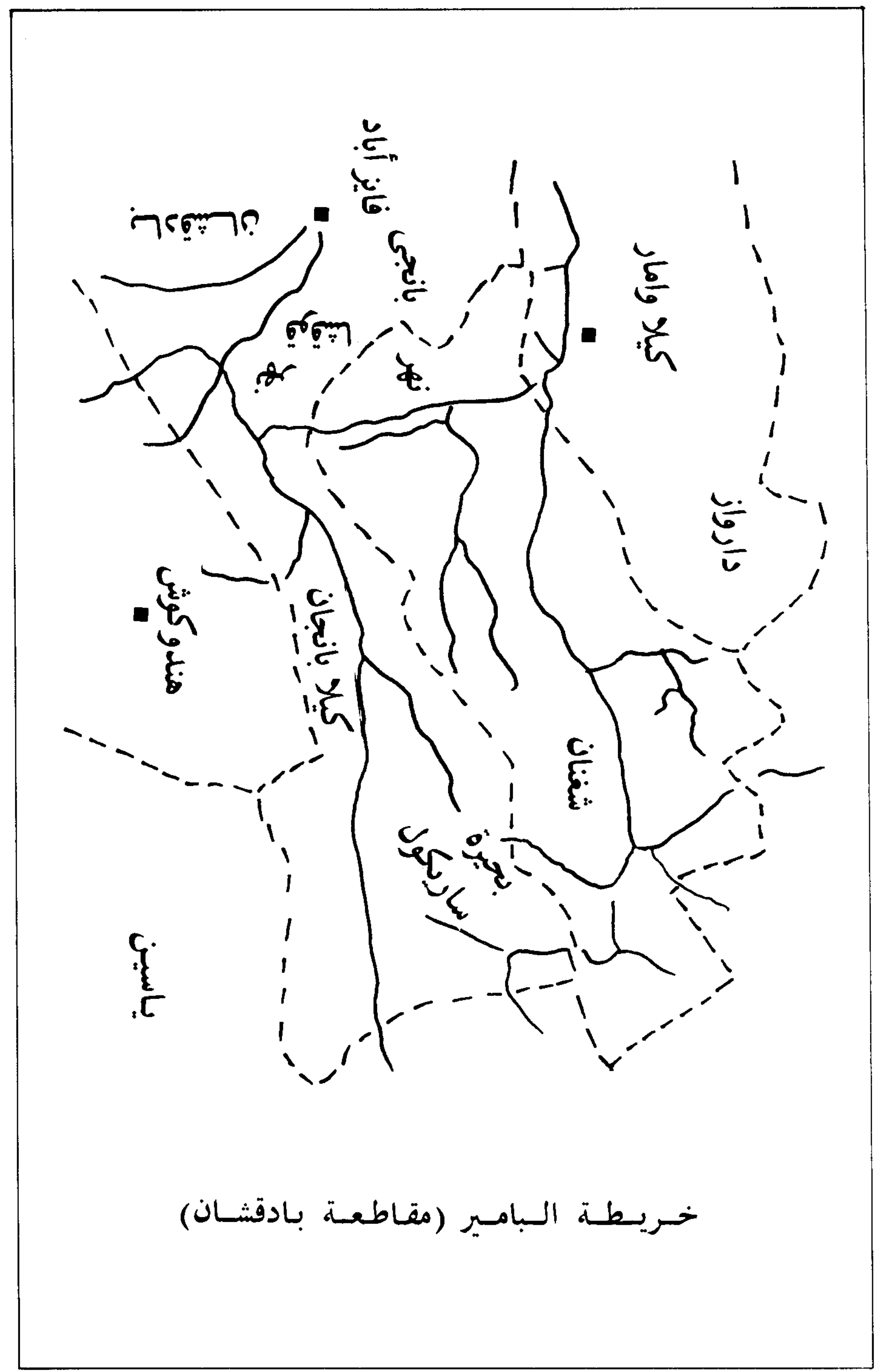
كانت بريطانيا ترى أن قرغيز البامير إنما هم رعايا لحكام مقاطعة شغنان وروشان الأفغانية. وقد أصرت بريطانيا خلال اتصالاتها مع الحكومة الروسية على اعتبار أراضي البامير من الحدود الشمالية الشرقية لأفغانستان، حتى بحيرة فكتوريا (ساريكول ــ الخشب) ضمن مقاطعة بادقشان الأفغانية وكان ما يدفع بريطانيا إلى مثل ذلك الموقف رغبتها في تأكيد الوجود الأفغاني في تلك المنطقة حتى تصد الزحف الروسي المرتقب تجاه جبال هندوكوش وخاصة السفوح الشمالية. ومما أثار التحرك البريطاني هذا حملة البامير الروسية التي تجولت في الهضبة خلال صيف ١٨٨٣.

ومن جهة أخرى لجأت بريطانيا إلى تحريض الأمير الأفغاني على تدعيم وجوده السياسي عن طريق الوجود العسكري في المنطقة، فأرسلت حكومة الهند اللورد كروس Cross إلى الأمير الأفغاني لكي يشرح له وجهات نظر الحكومة، وأعلن عن استعداد حكومة الهند لتقديم المساعدة المالية والحربية، وتدعيم العمل الأفغاني في وجه الحكومة الروسية خلال اتصالاتها بها (١).

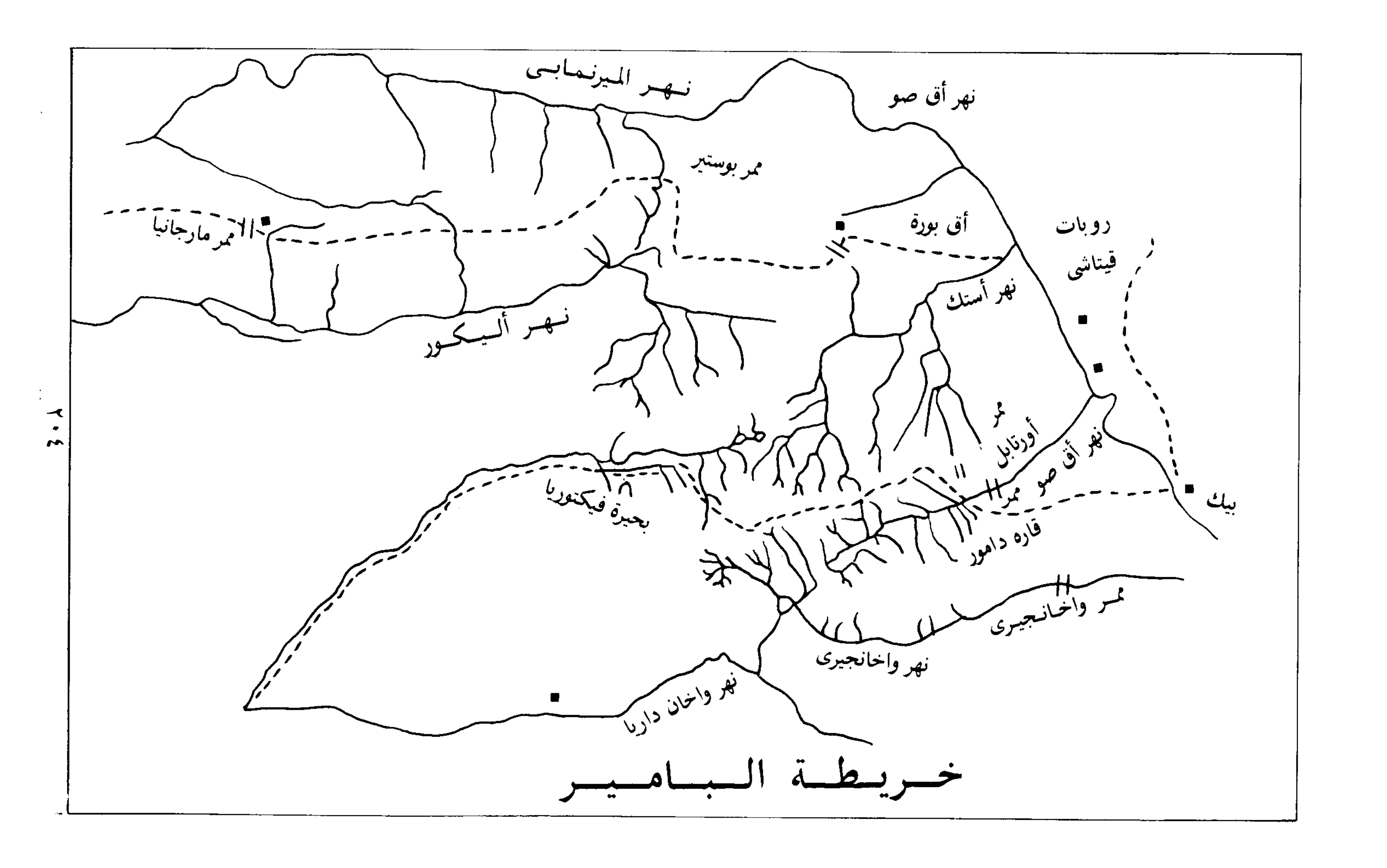
وجد الأمير الأفغاني في العرض البريطاني ما شجعه على إعلان موافقته عليه فأرسل في أغسطس ١٨٨٣ قواته العسكرية وسيطرت على بادقشان وواخان، وبذلك نجحت بريطانيا في إقناع الأمير وبالتالي في تحقيق الهدف الذي كانت تسعى إليه من وراء تحركها.

---

(١) F.O. 539/37. No. 56. India Office to F.O. India Office Dated Febr. 15, 1888. P. 50-51.



خريطة البامير (مقاطعة بادقشان)



خريطة البامير

ثار السكان القرغيز ضد تصرف الأفغان وأرسلوا وفداً منهم إلى قائد حملة البامير الروسية الكابتن بوتياتا Putiata يطلبون منه مساعدة روسيا ضد الأفغان، لا يعني هذا أن القرغيز أرسلوا في طلب السيادة الروسية عليهم، فقد كان هدفهم أن تساعدهم روسيا باعتبارها القوة الكبيرة في المنطقة لدحر الأفغان عنهم.

رفض الكابتن الروسي طلب القرغيز بحجة صعوبة الاتصال بهم بسبب المرتفعات، ونصحهم بالخضوع للأفغان إذا لم يكن في مقدورهم مقاومة القوات الأفغانية بوسائلهم الخاصة. ولذلك رضخ القرغيز للأفغان رغم أنهم كانوا يشعرون بالاستقلال عن القوى الكبرى الطامعة في بلادهم وعن أفغانستان، وكانوا يفضلون التبعية للصين عنها للأفغان أو الروس لأن الأفغان والروس يفرضون عليهم الضرائب (١).

موقف روسيا:

احتجت روسيا رسمياً على سلوك الأمير الأفغاني ووجدت فيه نقضاً للتفاهم الروسي البريطاني حول أفغانستان، وكان ذلك التفاهم يقوم على اعتراف روسيا بالأراضي التي تحت سيطرة الأمير الأفغاني على أن تتكفل بريطانيا من جانبها بمنعه من محاولة السيطرة على أية أراض جديدة (٢). فطالبت بريطانيا بإقناع الأمير الأفغاني بسرعة سحب قواته من المنطقة، ومن ناحية أخرى أثار العمل العسكري الأفغاني خان بخارى الذي وجد فيه إعتداءاً صارخاً على أراضيه، فبعث في طلب المساعدات العسكرية من طشقند حتى يتمكن من طرد الأفغان بالقوة.

وخشيت الحكومة الروسية أن يؤدي الموقف في البامير إلى تفجر أزمة مع بريطانيا فبدأت اتصالاتها مع الحكومة البريطانية بقصد حل النزاع الذي حدث في أعالي الميرغابي ــ أحد روافد نهر جيحون ــ ودافعت بريطانيا عن الوجود الأفغاني في المنطقة واعتبرته حقاً شرعياً للأفغان لأنه داخل نطاق نفوذهم (٣).

---

(١) F.O. 539/51. Inclosure No. 1 in No. 3 Captain Younghusband to Mr. Cunningham. Yarkand Dated Sept. 15, 1890. P. 7.

(٢) سبقت الإشارة إليه في الفصل الرابع حول الحدود الأفغانية الروسية.
F.O. 539/23. No. 157. Memorandum on Shighnan and Roshan. By Mr. H.C. Rawlinson Dated April 12, 1884. P. 164.

(٣) أنظر أيضاً:
F.O. 539/62. Inclosure No. 4 in No. 1 Summary of Discussion Between Great Britain and Russian Government on the Boundary of Afghanistan P. 3.

في حين كانت روسيا ترى في التحرك الأفغاني إعتداءاً صارخاً على الأراضي البخارية، واقترحت من جانبها كحل وسط بين المطالب الأفغانية والبخارية أن تقسم المنطقة بين بخارى وأفغانستان وكان رأي بريطانيا أن الاقتراح الروسي يؤكد الوجود الروسي في البامير ومن ثم لم تتلاش بعد الأخطار التي كانت تتوقعها من الشمال الشرقي للبامير. ولذلك رفضت هذا الاقتراح الروسي.

واستمرت الاتصالات بين الدولتين دون أن تسفر عن نتيجة حاسمة. إذ ظلت الدولتان تتبادلا المذكرات حتى عام ١٨٩٢.

وخلال عامي ١٨٩٢-١٨٩٣ حدث اشتباكان بين الأفغان والروس حركا الموقف من حالته الساكنة ودفعاه إلى درجة أقلقت الدولتين.

الاشتباك الروسي الأفغاني الأول:

بالرغم من تعهد روسيا بعدم إرسال أية بعثات عسكرية إلى البامير[١] بقصد الوصول إلى تسوية سياسية في المنطقة إلا أنها أرسلت الكولونيل يونوف Yonoff إلى البامير ١٨٩٢ وكانت تصحبه قوة ما بين ٣٠٠-٤٠٠ جندياً[٢].

وزعم يونوف بأنه قد جاء لوضع الأمور في نصابها، فقد اشتكى إليه القرغيز من الأفغان الذين سلبوهم قطعانهم، وكان الأفغان في ذلك الوقت متمركزين في سوماتا Somatah. تحرك الضابط الروسي في ٢٤ يوليو ١٨٩٢ إلى مقر المعسكر الأفغاني. واستفسر القائد الأفغاني عن سبب تواجد القوات الروسية في المكان، ولكن الكولونيل يونوف طلب منه إخلاء المكان. وحينما وجد يونوف أن تحذيراته للأفغان غير مجدية أمر جنوده بتجريد القوات الأفغانية من أسلحتها. ولم تكن القوات الأفغانية في حالة تمكنها من إطلاق الرصاص على الروس الذين كانوا يحاصرون المكان وخلال عملية تجريد القوات الأفغانية من أسلحتها حدث اشتباك

(١) أثارت بعثة يونوف قلق الحكومة البريطانية فاتصلت بالحكومة الروسية التي أعلنت أنها لا تهدف إلى السيطرة على البامير وتعهدت من جانبها بعدم إرسال بعثات أخرى جديدة على البامير وسنتطرق إلى ذلك تفصيلاً بعد قليل خلال الحديث عن الاحتكاك الروسي البريطاني في البامير.

(٢) F.O. 539/66. No. 70 Précis by Mr. Barrington on the Pamir Negotiotions. P. 51-55.

بالأيدي بين الجانبين، وكان الروس يمثلون الأغلبية في التعداد، ومن ثم حسموا الاشتباك لصالحهم، فقد تمكن الكولونيل يونوف من القبض على القائد الأفغاني مع خمسة من جنوده، وفر الباقي، وظل الأفغان في الأسر حتى ٦ أغسطس حيث أطلق الروس سراحهم (١).

الاشتباك الأفغاني الروسي الثاني:

طلب الكابتن فانوفسكي Vannovsky من القائد الأفغاني في كلاوامار Kilawamar في روشان السماح له ولجنوده بالمرور من غابي إلى دارواز في الأراضي البخارية لمقابلة أحد الجنرالات الروس (٢). رفع الضابط الأفغاني في (كلاوامار) الأمر إلى الحاكم العام لبادقشان للبت فيه. رفض حاكم مقاطعة بادقشان السماح للروس بالمرو عبر الأراضي الأفغانية (٣).

أثار الرد الأفغاني سخط الكابتن الروسي الذي أوضح عن نواياه السلمية فلم يأت على حد قوله بقصد السيطرة أو الاحتلال رغم أن الأهالي قد جاءوه وأعربوا عن رغبتهم في الخضوع تحت السيطرة الروسية (٤) إلا أن ذلك لم يغير شيئاً في الموقف الأفغاني. وفي ذلك الجو المتوتر أطلقت بعض الجماعات من سكان بادقشان والتي تمقت الأفغان النار على بعض المواقع الأفغانية في ١٩ سبتمبر ١٨٩٣ (٥) أعتقد الأفغان أن الروس هم الذين أطلقوا عليهم النار، فضربوا المواقع الروسية برصاص بنادقهم، وأحرز الأفغان في البداية بعض النجاح، إلا أن الروس أجبروهم على التراجع إلى قلعة وامس Vams (٦).

أثارت الاشتباكات الروسية الأفغانية قلق الحكومة الروسية والبريطانية،

---

(١) F.O. 539/59. No. 55. Extract from the times of Oct. 20, 1892. P. 62.

(٢) كانت الأراضي البخارية والأفغانية متداخلة في أعالي نهر جيحون، وخاصة مقاطعة داروزا البخارية وبادقشان الأفغانية فكانت دارواز متداخلة في الأراضي الأفغانية وبادقشان في الأراضي البخارية.

(٣) F.O. 539/63. No. 97. The Viceroy of India to the Earl of Kimberly Dated. Sept. 24, 1893. P. 123-4.

(٤) F.O. 539/64. No. 38. Papers Communicated by India Office (10) P. 58-9.

(٥) F.O. 539/64. Inclosure No. 11. in No. 49. General Saiyid Shah Khan to the Ameer of Afghanistan Dated Sept. 19, 1893. P. 17.

(٦) F.O. 539/63. No. 97. The Viceroy of India to the Earl of Kimberly. Dated Sept. 24, 1893. P. 123-124.

وأصبح ضرورياً أمامهما الوصول إلى حل للمشكلة حتى لا تؤدي إلى إثارة أزمة جديدة لا تعرف الدولتان مداها. واقترح السفير البريطاني في العاصمة الروسية أن تقوم الدولتان بتشكيل لجنة من الجانبين تكون مهمتها تحديد موضع الخلاف الروسي الأفغاني. ولم يمانع السفير البريطاني في أن تقوم اللجنة التي اقترحها بتخطيط الحدود في البامير، ولم يحدد المناطق المراد تحديدها أو الدول صاحبة النفوذ في المنطقة. ولكن روسيا لم تلتفت إليه لأنها كانت تدرس في ذلك الوقت إعداد سياسة تضمن لها مصالحها في المنطقة، وحتى تخفف من حدة تأزم الموقف طلبت من الكولونيل يونوف الانسحاب من سوماتا في سبتمبر ١٨٩٢ (١) كما تقدمت روسيا باقتراح لحل الخلاف يقضي بحصولها على الأراضي القريبة من ممرات هندوكوش. وكانت روسيا تهدف من وراء ذلك، ألا تقع تلك المنطقة في أيدي بريطانيا وأفغانستان حتى لا تقوم أي منهما بتهديد مقاطعة فيرغانة.

عارضت بريطانيا الاقتراح الروسي واعتبرته خطوة استراتيجية لحماية مقاطعة فرغانة، وتقدمت بريطانيا باقتراح مضاد يقضي بتقسيم الأراضي غير الواردة في اتفاق ١٨٧٣ ــ بين بريطانيا وروسيا بشأن الحدود الأفغانية الروسية ــ والتي تقع شرق بحيرة فكتوريا أو ساريكول وغربها إلى قسمين فيأخذ الروس القسم الشرقي والأفغان القسم الغربي(٢). وكان هدف بريطانيا من وراء هذا الاقتراح أن تبعد الوجود الروسي عن الاقتراب من مرتفعات هندوكوش.

ترددت روسيا في القبول بالمشروع البريطاني، وتقدمت من جانبها بعدة تعديلات كشرط للموافقة عليه. واستقر الرأي على أن تسعى الحكومة البريطانية لإقناع الأمير الأفغاني بإخلاء شغنان وروشان على أن تتنازل بخارى عن بعض الأراضي الواقعة على الضفة الجنوبية لنهر جيحون من مقاطعة دارواز لأفغانستان، وعندئذ سوف لا تعارض روسيا في أن يكون خط الحدود شرقي بحيرة فكتوريا (٣) وسنتطرق إلى ذلك تفصيلاً فيما بعد في نطاق التسوية النهائية للبامير.

(١) F.O. 539/66. No. 70. Précis by Mr. Barrington on the Pamir Negotiations. P. 51-55.

(٢) F.O. 539/63. No. 89. The Earl of Rosbery to M. de Staal F.O. Dated Sept. 19, 1893.

(٣) F.O. 539/66. No. 91. The Earl of Rosbery to M. de Staal F.O. Dated January. 22, 1894. P. 14.

ب ــ توريط الصين:

سبق القول أن البامير كانت تحت سيطرة الصين حتى سنة ١٨٣١ وحيث تراجعت إلى الشاطىء الأيسر لنهر أق صو Ak Su (أنظر الخريطة ص ٢٠٤) وكانت بريطانيا تخشى من أن تقع المنطقة تحت السيطرة الروسية، وكما حرضت أفغانستان للسيطرة العسكرية على مقاطعة بادقشان فإنها أيضاً حرضت الصين. وكان ما يدفع بريطانيا إلى مثل ذلك الموقف، إلى جانب الوقوف في وجه روسيا، إنها كانت تطمع إلى تنمية تجارتها في التركستان الصينية، منذ عودة أراضي تلك المنطقة إلى الصين بعد الاحتلال الروسي لها(١).

وفي الحقيقة كانت بريطانيا تهدف إلى تحويل التركستان الصينية إلى منطقة نفوذ اقتصادي لها كجزء من المخطط البريطاني في الصين والذي كان يرمي إلى وضع الأغلال السياسية والتجارية والاقتصادية التي من شأنها أن تحد من سياسة الحكومة المركزية، ولم تمارس بريطانيا ذلك علانية بل بهدوء وفي خفاء تام(٢).

وافقت حكومة بكين على العرض البريطاني ووجدت فيه فرصة لتأكيد سلطاتها على المنطقة(٣). فأرسلت قواتها في أبريل ١٨٩٢، كما بعثت حاكماً من طرفها على الكور بامير Alicur Pamir (أنظر الخريطة ص ٢٠٣)، ويدعى شانج Chang (٤). ولكن الكولونيل يونوف أجبر تلك القوات على التراجع ثانية خلف نهر أق صو، وكان ما يهم الصين في البامير أق طاش والأراضي التي تقع في الجنوب منها، وخاصة المناطق التي تجاور الأراضي الهندية، وذلك حتى تشكل مع هضبة البامير حاجزاً طبيعياً للصين في الجنوب الغربي، وبالتالي تحول دون محاولة القوى الغربية تهديد الأراضي الصينية في حوض نهر تاريم(٥).

حاولت الصين أن تسوي المشكلة سلمياً مع روسيا فأرسلت مندوباً عنها

(١) F.O. 539/51. No. 2 India Office to F.O. India Office Dated August 14, P. 1-2.

(٢) بانيكار: آسيا والسيطرة الغربية، ترجمة عبد العزيز جاويد، ص ١٨٢-١٨٣.

(٣) F.O. 539/54. No. 103 (2) Captain Younghushand to the Marquis of Lansdowne. Camp. Westfoot of Wakhijuri Pass Dated August 2, 1891. P. 141.

(٤) F.O. 539/66. No. 8 Mr. Howard to the E. Of Rosebery St. Peter. Dated. January 8, 1894. P. 6.

(٥) F.O. 539/66. No. 70. Précis by Mr. Barrington on the Pamir Negotiations P. 51-55.

للتباحث مع السلطات الروسية. وقدم المندوب الصيني في ٣٠ نوفمبر ١٨٩٣ بعض التنازلات مثل تخلي بلاده عن بعض الأراضي الصينية التي تقع شمال أق طاش[١]، ولكن روسيا أصرت على ضرورة بقاء الصين خلف أق صو كما كان عليه الحال منذ عام ١٨٣١.

موقف بريطانيا:

بالرغم من أن بريطانيا هي التي حرضت الصين على التحرك العسكري في منطقة البامير، إلا أنها لم تقف من ورائها تدعمها وتشد من أزرها كما حدث مع أفغانستان وذلك يرجع إلى أن بريطانيا قد نجحت في تحقيق الهدف الذي كانت ترمي إليه من وراء دفع الصين ألا وهو إثارة مظاهرة سياسية في المنطقة في وجه الروس، كما أن الأراضي التي تطالب بها الصين لا تتمتع بأهمية استراتيجية كبيرة مثل وجود الممرات التي تستطيع روسيا أن تستغلها في تهديد الأراضي الهندية، يضاف إلى هذا أن هناك عدة دول أوروبية كانت تنافس بريطانيا في الصين، وتخشى أن تتوقع تلك الدول بأن بريطانيا تسعى إلى فتح حلبة جديدة من حلبات التنافس الاقتصادي والسياسي بل والعسكري في الأراضي الصينية، ومن ثم تكون بريطانيا قد مهدت الطريق أمام التواجد الأوروبي في المنطقة، ولذلك لم تعتن بريطانيا كثيراً بالمصالح الصينية، فقد أعلن وزير الخارجية البريطانية أنه يجب على روسيا ألا تتناسى مطالب الصين في الأراضي التي تقع جنوب أق طاش[٢]. وكان هذا التصريح البريطاني مجرد مجاملة للصين، فبالرغم من إدراك بريطانيا للأهمية التي توليها الصين لمنطقة أق طاش حتى الحدود الهندية، إلا أنها طلبت من الصين ألا تتشدد في مواجهة الشروط الروسية خلال المباحثات التي جرت بين الصين وروسيا في سنت بطرسبورج خلال شهر نوفمبر ١٨٩٣[٣]، ووعدتها من جانبها بأن تعمل لصالح الصين في المباحثات التي ستجري بين روسيا وبريطانيا بشأن البامير[٤].

(١) F.O. 539/66. No. 8. Mr. Howard to the E. of Rosebery St. Peter. Dated. January 8, 1894. P. 6.

(٢) F.O. 539/66. No. 70. Précis by Mr. Barrington on The Pamir Negotiation. P. 51-55.

(٣) F.O. 539/71. No. 21. The Earl of Rosebery to Mr. O'conor, F.O. Dated December 29, 1893. P. 9.

(٤) F.O. 539/71. No. 6. The Earl of Rosebery to Mr. O'conor, F.O. Dated December 18, 1893, P. 4.

الإحتكاك الروسي البريطاني في هضبة البامير:

كان أول احتكاك بين روسيا وبريطانيا في هضبة البامير ظاهراً في شخص الكابتن البريطاني يونجشبند Younghusband والعالم الروسي جرومبيرهيفسكي B. L. Gromberhevskii (١)، فقد أرسلت كل من الدولتين مبعوثها بهدف ظاهري هو البحث والتنقيب، ولكن الهدف الحقيقي من وراء إرسالهما هو استكشاف المنطقة تمهيداً للغزو العسكري، فروسيا أرسلت حملة عسكرية برئاسة الكولونيل يونوف في صيف ١٨٨٣، وعلى الرغم من أن قائد الحملة أعلن صراحة أنه لم يأت إلى تلك المنطقة بهدف الاحتلال والسيطرة، إلا أنه أثار قلق بريطانيا التي وجدت في حملته مقدمة لاحتلال عسكري دائم للبامير، لذلك دافعت عن شرعية الوجود الأفغاني في المنطقة كجزء من مخططها لإبعاد الروس من الاقتراب من ممرات هندوكوش.

وتابعت روسيا سياستها في منطقة وسط آسيا الإسلامية ونعني بها عدم الإفصاح عن حقيقة الأهداف التي تسعى إليها، وعدم الإفصاح عن حقيقة المهمة التي يقوم بها مبعوثوها في مناطق البامير وأفغانستان وما حولها، فكانت حكومة روسيا تدعي أنها لا تسعى إلى السيطرة على المناطق الطامعة فيها، وفي الوقت نفسه تصدر تعليماتها إلى رجالها بالعمل على السيطرة على تلك المناطق، وعلى هذا النمط كانت بعثة الكولونيل يونوف للمرة الثانية في أواخر ١٨٩١ (٢)، فقد أصدرت إليه التعليمات بأن يحتل منطقة البامير وطرد القوات الصينية والأفغانية (٣)، وأشاعت بين سكان المنطقة أنهم ليسوا سوى رعايا لروسيا. وفي الوقت نفسه كانت الحكومة الروسية تصرح بأن بعثة الكولونيل يونوف هذه إنما أرسلت للتدريب على الرماية في منطقة البامير.

وفي الحقيقة أن هذا التبرير ــ كما سبق أن أوضحنا ــ ليس إلا حجة ظاهرية فقط، فهناك من المناطق غير البامير يمكن أن تتدرب فيها قوات الكولونيل يونوف على الرماية، وكان اختيار هذه المنطقة بالذات يهدف إلى خلق وجود

(١) Becker, Seymour: Russia's Protectorates in Central Asia. P. 126.

(٢) F.O. 539/66. No. 70. Précis by Mr. Barrinton of the Pamir Negotaitions. P. 51-55.

(٣) F.O. 539/51. No. 23. Marquis of Salisbury to Sir J. Walsham. F.O. Dated August 30, 1891. P. 36.

مادي روسي في المنطقة يمهد لتحقيق الأهداف الروسية فيها، وفي الوقت نفسه لا تقدم حجة رسمية للإنجليز لمعارضة النشاط الروسي هناك [(١)].

تجول الكولونيل يونوف في معظم أنحاء البامير بل واخترق إحدى ممرات هندوكوش إلى داخل شيترال Chitral.

أثار اختراق الروس لممرات هندوكوش مخاوف حكومة الهند البريطانية إذ وجدت فيه تهديداً لأمنها وسلامتها فدفعت بقواتها العسكرية لاحتلال هنزا Hunza ونيجرس Nagyrs على السفوح الجنوبية لهندوكوش وبالفعل سيطرت على المنطقتين بدون قيد أو شرط [(٢)] كما أصدرت الأوامر إلى قوات الحدود الهندية بصد الروس إذا ما حاولوا اختراق الممرات ثانية [(٣)].

ومن جهة أخرى فقد أرسلت الكابتن يونجشبند مرة أخرى إلى البامير لرصد تحركات الروس في المنطقة. وقابل الكابتن البريطاني الكولونيل الروسي بالقرب من بوزي جومباز Bozi Gumbaz [(٤)]، وأعلن الأخير بأن لديه تعليمات من حكومته بضم البامير، ثم عاد ثانية وطلب من الكابتن البريطاني الابتعاد كلية عن البامير، حاول الكابتن بونجشبند إقناع الكولونيل يونوف بأن المكان الموجود فيه يتبع مقاطعة واخان الأفغانية، ولكن الكولونيل الروسي لم يصغ إليه وطالبه بتنفيذ أمره.

ومن ناحية أخرى ألقت القوات الروسية القبض على ضابط بريطاني آخر في البامير ثم أطلقت سراحه بعد عدة أيام.

أثار التصرف الروسي في البامير ضد الضابطين البريطانيين ردوداً سيئة في العاصمة البريطانية فقد وصف المستر سالزبري تصرف الروس في البامير بأنه غير قانوني ووحشي [(٥)]، وإن الروس يحاولون بسط نفوذهم على منطقة بعيدة عن التبعية الروسية، وهذا من شأنه أن يؤدي إلى ظهور مشكلة جديدة مع أفغانستان.

---

(١) F.O. 539/54. Inclosure No. 7. in No. 92. Captain Younghusband to the Government of India. Tashleurghan Dated August 5, 1891. P.93.

(٢) F.O. 539/56. Inclosure No. 2. in No. 25. Sir Morier to M. de Giers. Dated December 25, 1891. P. 25.

(٣) F.O. 539/51. No. 24. India Office to F.O. India Office. Dated August 31, 1891. P. 36.

(٤) تقع بوزي جومباز ضمن أراضي مقاطعة واخان أنظر الخريطة ص ٢٠٣-٢٠٤.

(٥) F.O. 539/61. No. 31. Memorandum by Mr. Bertie on the Question with Russia as to the Pamir. P. 65.

وفي سنت بطرسبورج نفت وزارة الخارجية الروسية أن تكون الحكومة الروسية قد أصدرت تعليمات إلى الكولونيل يونوف تخوله بالعمل الذي قام به حيال الضابطين البريطانيين (١). وفي الوقت نفسه أظهرت الخارجية الروسية عن ميل الحكومة الروسية للوصول إلى اتفاق بين الدولتين بشأن البامير.

بدأت الاتصالات بين الطرفين الروسي والبريطاني في مارس ١٨٩٣، وفتحت خلالها من جديد مشكلة شغنان وروشان الأفغانية، وطالبت روسيا بضرورة تنازل أفغانستان عن هاتين المقاطعتين (٢).

موقف بريطانيا:

جاء هذا في وقت بدأت فيه موازين القوى تتغير في القارة الأوروبية بعد التفاهم الفرنسي الروسي في أغسطس ١٨٩١ والذي توج بمعاهدة سياسية عسكرية في ديسمبر ١٨٩٣، وفي الوقت نفسه بدأت الرأسمالية والعسكرية الألمانية تنطلق في سياسة استعمارية على النسق الفرنسي والإنجليزي الأمر الذي أثار مخاوف بريطانيا من النشاط الاستعماري الألماني فيما وراء البحار. وفي خارج القارة الأوروبية كانت روسيا تنطلق في سياستها التوسعية نحو الشرق في منشوريا وكوريا اللتين أصبحتا في الوقت نفسه هدفاً للامبريالية اليابانية الناشئة. كما أن الولايات المتحدة الأمريكية مدت نشاطها الاستعماري إلى الفلبين، وأعلنت الحرب على اسبانيا وسلبتها منها عنوة.

كل هذا كان سبباً في تغيير موازين القوى التي لم تكن محددة المعالم بسبب وجود الولايات المتحدة الأمريكية وبريطانيا واليابان خارج المحالفات، وبالرغم من وجود مجالات الصدام ين بريطانيا وفرنسا وبين بريطانيا وروسيا. إلا أن بريطانيا كانت تسير نحو التعاون مع هاتين الدولتين (٣).

وظهر ذلك واضحاً حينما وصل الطلب الروسي بشأن إخلاء شغان وروشان

---

(١) F.O. 539/56. No. 20. Sir. Morier to Marquis of Salisbury St. Peter. Dated December 30, 1891. P. 18.

(٢) F.O. 539/63. No. 75. (1) The Earl of Kimberly to Viceroy of India. India Office. Dated July 13, 1893. P. 95.

(٣) دكتور عبد العزيز نوار، التاريخ المعاصر، أوروبا من الثورة الفرنسية حتى الحرب العالمية الثانية، ص ٣٣٥-٣٣٦.

إلى العاصمة البريطانية وأعرب بعض أعضاء الحكومة البريطانية عن رغبتهم في تنفيذ الطلب الروسي، كما أن الحكومة البريطانية ــ كما ظهر من عرضنا في الفصل السابق ــ مارست ضغطاً على الأمير الأفغاني لمنعه من القيام بشق القنوات على نهر خوشق. كل ذلك يوضح أن حدة التباعد والصدام الروسي البريطاني بدأت تخف تدريجياً منذ أواخر التسعينيات وسنتطرق إلى ذلك تفصيلا فيما بعد.

اختلف البريطانيون بشأن الطلب الروسي لإخلاء شغان وروشان فكان المستر كمبرلي وزير الهند Kamberlly يفضل إخلاء أفغانستان لتلك الأراضي عن مواجهة صعوبات مقبلة بين بريطانيا وروسيا (١). أما المستر روسبيري ــ وزير الخارجية البريطانية ــ فكان يعارض وجهة نظر كمبرلي و يرى أن بريطانيا إذا أقرت بالطلب الروسي فإنها تكون بذلك قد انتهكت حقاً لصديق لها ــ أي أفغانستان ــ مارس سلطته السياسية والعسكرية على تلك الأراضي منذ عدة سنوات (٢).

و بالرغم من ذلك فإن الحكومة البريطانية لم تخف المكاسب التي تنتظرها من وراء التنازل الأفغاني، فالقيصر الروسي لم يظهر رفضه للاقتراح البريطاني الذي كان يقضي بتقسيم البامير إلى منطقتي نفوذ في مقابل التنازل الأفغاني عن روشان وشغان، وأن قبول القيصر الروسي بالاقتراح البريطاني من وجهة النظر البريطانية يعتبر أكثر فائدة لها من الناحية العسكرية عن التواجد الأفغاني في شغفان وروشان لأنه سيمد النفوذ البريطاني حتى بحيرة فكتوريا في البامير(٣).

و بناء على ذلك فقد أصبح واضحاً أمام بريطانيا ضرورة إقناع الأمير بالتنازل عن شغفان وروشان في مقابل زيادة المساعدات المالية البريطانية لأفغانستان، وتقديم بعض الأراضي لأفغانستان على الحدود الهندية الأفغانية بالإضافة إلى الأراضي التي ستضم لأفغانستان من مقاطعة دارواز البخارية.

---

(١) F.O. 539/63. No. 75. (1) The Earl of Kamberlly to Viceroy of India. India Office. Dated July 13, 1893. P. 95.

(٢) F.O. 539/63. No. 79. The Earl of Rosebery to Mr. Howard. F.O. Dated Sept. 8, 1893. P. 99.

(٣) F.O. 539/66. No. 70. Précis by Mr. Barrington on the Pamir Negotiations. P. 51-55.

وتعهدت بريطانيا من جانبها على أن يكون الإخلاء الأفغاني في نطاق اتفاق رسمي مع روسيا لا تستطيع الحكومة الروسية بعد ذلك تحريفه أو العبث به [١].

ولم يجد الأمير الأفغاني بداً من إعلان موافقته في يوليو ١٨٩٣ لإخلاء شغفان وروشان. وكانت بريطانيا تتوقع بعد النجاح الذي حققته مع الأمير الأفغاني أن تسارع روسيا لتنفيذ الواجبات المفروضة عليها على ضوء الاقتراح البريطاني، ولكن الحكومة الروسية دخلت في تفاصيل فرعية بهدف المماطلة مما أثار سخط الحكومة البريطانية، وكان ذلك ظاهراً في رفضها لمناقشة مشكلة تحديد نفوذ الدولتين في البامير، أو حتى تقديم أية تنازلات من جانبها لروسيا.

وهنا حاول وزير الخارجية الروسية تهدئة الأمور بين الدولتين حتى لا تندفع إلى مرحلة حرجة فاقترح أن تسير الحدود في البامير من الطرف الغربي من بحيرة فكتوريا، حتى موستاغ على طرفها الشرقي [٢].

وجدت بريطانيا في اقتراح المستر جيرز أنه يعطي لروسيا حق السيطرة على منطقة بوزي جومباز وعلى ممر واخانيجيوري Wakhanijuri وجميع الوديان التي تقع شمال ممر كيليك Kilik [٣]. كما إنه في نظر العسكرية البريطانية يحمل طابعاً عدوانياً و يهدد مباشرة الوجود البريطاني في الهند لأنه سيكون بإمكان روسيا وفق هذا الاقتراح إقامة المراكز الحربية على مسافة ٦٠ ميلا من الشاطىء الأيمن لنهر أبي بانجه Abi Panja [٤].

وعلى ضوء هذه الظروف فإن بريطانيا ستجد نفسها مضطرة لإقامة الاستحكامات على طول الشاطيء الجنوبي لنهر أبي بانجه. ولم يكن هذا الإجراء في حد ذاته كافياً للعسكرية البريطانية التي وجدت أنه من الضروري لردع الروس واتقاء شرهم يجب إبعادهم حتى شرقي بحيرة فيكتوريا أو ساريكول. واقترح نائب الملك ضرورة إرسال قوات عسكرية إلى البامير بشكل لا يلفت نظر الروس إليها.

---

(١) Ibid. P. 54.

(٢) F.O. 539/64. Inclosure No. 1 in No. 63. The Governor General of India in Council to the Earl of Kamberlly - Simla. Dated. Oct. 25, 1893. P. 137.

(٣) أنظر الخريطة، ص ٢٠٣.

(٤) أنظر الخريطة، ص ٢٠٤.

وكان واضحاً من التقارير البريطانية أن الحكومة البريطانية عازمة على رفض سيادة روسيا على بوزي جومباز بأي طريقة حتى لا تدع لها فرصة السيطرة على الممرات القريبة من مرتفعات هندوكوش (١).

موقف روسيا:

نتيجة للموقف البريطاني المتشدد بدأت الحكومة الروسية في دراسة المشكلة من جديد على ضوء تقارير من العسكريين والباحثين الروس. وبعد الانتهاء من تلك الدراسة اتخذت الحكومة قراراً بالموافقة على الاقتراح البريطاني بشأن تقسيم النفوذ في البامير، وسلمت روسيا بدخول بوزي جومباز في إطار النفوذ البريطاني.

وفي مذكرة سرية لبريطانيا تعهدت روسيا من جانبها بعدم اختراق قواتها لنهر الميرغابي في مقابل عدم تقدم القوات البريطانية بعيداً عن جليجات و ياسين وشيترال، وتمتنع كل من الدولتين عن إرسال الحملات العسكرية أو إقامة التحصينات الحربية في المنطقة المتوسطة الفاصلة بين النفوذ الروسي والبريطاني. تعطي الأراضي التي تقع شمال حدود نفوذ الدولتين إلى خان شغفان وروشان في ظل السيادة الروسية، والأراضي التي تقع جنوبها إلى واخان على أن تبقى تحت السيطرة الأفغانية (٢).

أصبح الموقف الروسي بعد الاقتراح الذي قدمته الحكومة القيصرية مشجعاً، إلا أنه لم يحظ بموافقة الحكومة البريطانية تماماً، وطلبت من روسيا ضرورة الاجتماع في لندن لبحث جميع جوانب مشكلة البامير. وخلال أبريل ١٨٩٣ ترددت شائعات عن محاولة روسية لغزو البامير. ونفت الحكومة الروسية تلك الشائعات على أساس أنه لا يوجد أي مبرر يدفعها للقيام بمثل ذلك العمل طالما لم تقم بريطانيا أو أفغانستان بشيء من شأنه أن يدفع روسيا لتحريك قواتها في المنطقة.

---

(١) F.P. 539/64. Inclo. No. 1 in No. 63. The Governor General of India to E. Kamberly Simla. Dated Oct. 25, 1893. P. 137-8.

(٢) F.O. 539/64. No. 92. India Office to F.O. India Office Dated December 19, 1893. P. 170-171.

تسوية الحدود في البامير:

بعد تبادل وجهات النظر والمراسلات بين بريطانيا وروسيا، اتفق الطرفان على ما يلي:

تبدأ الحدود من شرقي بحيرة فكتوريا وتسير مع خط تقسيم المياه في خط مواز لساحل البحيرة المقابل، ويستمر هذا الخط حتى ممرات بندرسكي Bendersky وأورتابل Ortabel، ثم تسير مع قمم المرتفعات المجاورة للممرات السابقة حتى نهر أق صو، ثم يتجه في الناحية الشرقية حتى الحدود الصينية.

ووافق الطرفان على تشكيل لجنة ثلاثية من أفغانستان وروسيا وبريطانيا لرسم خط الحدود في مواقعها ولإعداد التقارير عن الحدود الصينية، وذلك للوصول إلى تفاهم بين الدولتين حول تحديد نصيب الصين في البامير[١].

بعثة تخطيط الحدود:

ترأس الجانب البريطاني الجنرال جيرارد Gerard وكانت تصحبه بعثة مكونة من ستة عشر شخصاً. وكان الجانب الروسي بدوره يتكون من ستة عشر شخصاً وقد تقرر مبدئياً عقد الاجتماع الأول للبعثة في بوزي جومباز في ٢٢ يوليو ١٨٩٥[٢].

ولكن هذا المكان استبدل بشاطىء بحيرة فكتوريا. وصل أعضاء البعثة الروسية في ٢٠ يوليو ١٨٩٥ والجانب البريطاني في ٢٢ يوليو. وتأخر الأفغان عن حضور الاجتماع الأول والذي قرر فيه الجانبان الانتهاء من مهمة تخطيط الحدود قبل نهاية شهر أغسطس ١٨٩٥[٣]. وكان الجانب الروسي مقيداً بتعليمات حكومته مما أفقده الليونة خلال المباحثات مع البريطانيين والأفغان، والتي كانت تتطلب نوعاً من التحرك السريع، مثل تقديم بعض التسهيلات أو التنازلات من أجل إنجاز المهمة المناطة بهم. وحينما وصل أعضاء الوفد الأفغاني إلى مقر البعثتين الروسية والبريطانية لم تكن معهم أوراق معتمدة من الحكومة الأفغانية

---

(١) F.O. 539/69. No. 33. The Earl of Rosbery to M. de Staal, Dated P. 21.

(٢) F.O. 539/70. Inclosure No. 4. in No. 8. The Governement of India to Major General Gerard. Simla Dated. June 15, 1895. P. 7.

(٣) F.O. 539/70. Inclosure No. 4. in No. 35. General Gerard to the Government of India. Lake Victoria. Dated August 2, 1895. P. 28.

تثبت هويتهم الرسمية كمندوبين عن أفغانستان في المباحثات الجارية بشأن تخطيط أراضي البامير.

وأصر الجانب الروسي على أن تكون لديهم مثل تلك الأوراق، ولم تجد محاولات الجنرال البريطاني جيرارد في إقناع الجانب الروسي بمواصلة العمل ريثما يصل اعتماد الحكومة الأفغانية، وأصر الجانب الروسي على موقفه. وأرسلت حكومة الهند تطلب من الأمير الأفغاني سرعة إرسال اعتماده الرسمي لمندوبيه (١).

تخطيط الحدود في البامير:

وحينما وصل الاعتماد الأفغاني لمندوبيه بدأت البعثة المشتركة (الروسية الأفغانية البريطانية) عملها على تخطيط الحدود، ولم تعترضها صعوبات كبيرة، لكن نشأ خلاف بين الجانب البريطاني والروسي خصوصاً بعد وصولها إلى نهر أق صو، وتطلب الموقف منهم لإتمام مهمة تخطيط حدود المنطقة قيام الجانبين الروسي والبريطاني، ببعض التنازلات لمراعاة ظروف السكان المحلية نظراً لاختلاف نصوص الاتفاق الذي وقعته الدولتان البريطانية والروسية عن الواقع الجغرافي الذي وجدوه.

وأصر الجانب الروسي على تنفيذ الاتفاق بحذافيره، ولكن الجانب البريطاني أراد أن تسير الحدود إلى الجنوب من نهر أق صو لا شرقي النهر السابق كما جاء في الاتفاق حتى لا يقع النهر المذكور في الأراضي الروسية وبالتالي يحرم سكان المنطقة المجاورة من مصدر المياه. وأصر الجانب الروسي على موقفه، بل طلب نقل المباحثات إلى الحكومتين لاتخاذ قرار فيه (٢).

وأعلن الأمير لوبانوف Lobanoff السفير الروسي في العاصمة البريطانية ـ ضرورة توقف عمل اللجنة، وترك الأمر كلية لمباحثات الدولتين (٣)، واتخذت الإجراءات لمغادرة أعضاء الوفود البامير. وكانت بريطانيا ترى ضرورة الانتهاء من هذه

---

(١) F.O. 539/70. Inclosure No. 8. in No. 35. General Gerard to the Government of India. Lake Victoria. Dated July 29, 1895. P. 30.

(٢) F.O. 539/70. No. 38. The Marquis of Salisbury to Sir. F. Lascelles. F.O. Dated Sept. 9, 1895. P. 30.

(٣) F.O. 539/70. No. 37. Sir. F. Lascelles to the Marquis of Salisbury. St. Peter. Dated Sept. 7, 1895. P. 30.

المهمة حتى لا تؤدي إلى صعوبات جديدة مع روسيا.

فقدمت الحكومة البريطانية بعض التنازلات التي نالت رضا الحكومة الروسية والتي بدورها قدمت بعض التسهيلات، فأعطى موقف الحكومة الروسية والبريطانية هذا فرصة العمل للبعثة من جديد. وبالفعل واصلت البعثة تخطيط حدود البامير الذي أتمته في ١١ سبتمبر. وصادقت الحكومة الروسية على عمل اللجنة في مارس ١٨٩٦ (١).

مشاريع السكك الحديدية في وسط آسيا الإسلامية:

إن اتساع الأراضي الروسية في منطقة وسط آسيا الإسلامية ــ على النحو الذي عرضناه ــ قد دفع بالمسئولين السياسيين والعسكريين الروس إلى التفكير في ربط تلك الأراضي بخطوط مواصلات سريعة، وكانت السكك الحديدية تمثل في ذلك الوقت أداة الربط تلك.

دوافع إنشاء السكك الحديدية

أ ــ دافع عسكري:

إن اتساع الأراضي الروسية قد أثار اهتمام العسكريين الروس لربط جميع القواعد العسكرية المتناثرة بخطوط مواصلات سريعة وحديثة خاصة وإن القوات العسكرية الروسية كانت تعاني في كثير من الحروب التي خاضتها من نقص الإمداد والتموين، إلى جانب أنها في بعض الأوقات كانت تخوض أكثر من معركة في آن واحد، ويتطلب منها الأمر ضرورة إرسال التعزيزات لقواتها، ولكنها تفشل في ذلك لاعتمادها على وسائل المواصلات التقليدية، وخاصة الجمال، فعلى سبيل المثال لم يصل خلال حرب القرم من الإمدادات الروسية للقوات المحاربة في ساحة القتال غير الثلث (٢).

وبالرغم من الانتصارات التي حققتها روسيا في وسط آسيا الإسلامية إلا أنها ظلت تستشعر بالضعف العسكري لعدم ترابط قواعدها ومراكزها المبعثرة.

---

(١) F.O. 539/70. No. 70. Sir. F. Lascelles to the Marquis of Salisbury. St. Peter. Dated Sept. 11, 1895.

(٢) F.O. 539/11. No. 244. Colonel Barker to Earl of Granville. Northern Persia. Dated August 13, 1873. P. 244.

ب ـ دافع سياسي:

إن إنشاء السكك الحديدية في الأراضي الروسية يعطي الحكومة الروسية حرية التحرك السريع في مختلف الأنحاء، وبالتالي قمع أية حركة معادية أو مناوئه للنظام القيصري. إلى جانب أن روسيا تهدف إلى ربط البامير بخراسان. وهذا ما دفع روسيا إلى رفض الاعتراف بمقاطعة بادقشان ضمن الأراضي الأفغانية خلال المباحثات التي أجرتها مع بريطانيا، بل أنها صراحة أعلنت أنه بدون السيطرة على بادقشان في البامير فإنها لا تستطيع أن تضمن لنفسها السلام في مقاطعة التركستان (١).

وبناء على ذلك فإن روسيا كانت تخطط لربط البامير بخراسان ثم بمقاطعة بحر قزوين ولا يتسنى لها ذلك إلا من خلال السكك الحديدية.

جـ ـ دافع اقتصادي:

سبق القول خلال عرضنا للفصل الأول، أن هناك صلة تجارية بين روسيا ووسط آسيا الإسلامية، وكان القطن الخام الصلة التجارية الهامة بين الجانبين وكان التبادل التجاري بينهما في زيادة مستمرة، وكانت القوافل التجارية في كثير من الأحيان تتعرض لغارات قطاع الطرق. ولذلك فإن روسيا عن طريق السكك الحديدية تجنب تجارتها تلك الغارات وتجد لنفسها أداة إتصال منتظمة بينها وبين وسط آسيا الإسلامية من شأنها أن تعمل على زيادة إنتاج المصانع الروسية لتوفر المادة الخام دون إنقطاع.

ومن أهم مشاريع السكك الحديدية الروسية:

أ ـ خط حديد أورنبرج بشاور. وصاحب فكرة هذا المشروع المهندس الفرنسي فرديناند دليسبس F.de lesseps وكان يهدف من ورائه إلى ربط مقاطعة التركستان أو أورنبرج بمقاطعة بشاور الهندية عبر الأراضي الأفغانية.

---

(١) F.O. 539/15. Inclosure No. 2. in No. 188. Minute by the Viceroy of India. P. 224-225.

أهمية المشروع في نظر المستر دليسبس:

١ ــ تنمية المواصلات الدولية في المنطقة.

٢ ــ تشجيع التجارة بجميع أنواعها.

٣ ــ تستطيع روسيا بواسطته تحريك قواتها العسكرية ضد الوجود البريطاني في الهند[١].

عرض المستر دليسبس مشروعه هذا على السفير الروسي في العاصمة التركية وأوضح له المزايا التي ستحظى بها روسيا نتيجة موافقتها عليه[٢].

عرض السفير الروسي مشروع دليسبس على القيصر الروسي ووضح له الأهداف التي تكمن ورائه، وزيادة على المزايا التي وضحها المسيو دليسبس بين السفير أهمية المشروع من الناحية السياسية، فإن روسيا تستطيع بواسطة هذا المشروع تأكيد سلطتها القوية في المناطق التي سيسير فيها الخط الحديدي. وافق القيصر على مشروع دليسبس بصفة مبدئية لكنه ترك القرار النهائي إلى الحكومة الروسية.

شكلت الحكومة الروسية من جهتها لجنة خاصة لدراسة المشروع ووضع تقرير عنه، وحتى تنتهي اللجنة من تلك الدراسة سمحت للمسيو دليسبس بزيارة الأراضي الروسية التي سيسير فيها الخط الحديدي، وتكفلت بحمايته ومساعدته أثناء تجواله في الأراضي الروسية.

تشكلت اللجنة الروسية من جمعية تنمية الزراعة والتجارة الروسية، وبعد دراسة تفصيلية لطبيعة المشروع والفائدة التي ستجنيها روسيا منه[٣] وجدت أن بريطانيا ستستفيد منه أكثر من روسيا[٤]. إلا أن اللجنة الروسية لم تعلن رفضها للمشروع.

---

(١) F.O. 539/11. No. 175. Lord. A. Loftus to the Earl of Granville. St. Peter. Dated July 9, 1873. P. 167.

(٢) F.O. 539/11. No. 175. Extract from St. Petersburg Gazette. P. 168.

(٣) F.O. 539/11. No. 175. Lord A. Loftus to Earl of Granville. St. Peter. Dated July 9, 1873. P. 167.

(٤) F.O. 539/11. No. 175. Extract from St. Petersburg Gazette P. 168.

موقف بريطانيا من المشروع:

ومن جهة أخرى فقد حاول المسيو دليسبس أن يحظى بموافقة الحكومة البريطانية على مشروعه، وأبرز لها أهمية مشروعه بالنسبة للسياسة البريطانية في المنطقة مثل:

أ ــ قدرة بريطانيا على تحريك قواتها بسهولة إلى جهات النزاع أو المناطق التي ينشأ فيها تمرد.

ب ــ تستطيع بريطانيا أن تفرض سيطرتها الكاملة على نهر كابول [١].

وبالرغم من الإغراءات التي قدمها المسيو دليسبس، إلا أن الحكومة البريطانية قد وافقت على المشروع بمزيد من التردد، وأصدرت حكومة لندن تعليماتها إلى حكومة الهند لتقديم التسهيلات لابن دليسبس ومرافقه ولكنها مع ذلك لم تخف الصعوبات والأخطار التي تنتظرهما وأعلن المستر جرانفيل صراحة، أن الحكومة البريطانية لا تشجع على مثل ذلك المشروع [٢]. لأنه يقدم لروسيا تسهيلات عسكرية لا تجدها بدونه، كما أن سلطات الهند رفضت السماح لهما بدخول الأراضي الهندية. ويرجع الموقف البريطاني هذا إلى أنها مازالت ــ في ذلك الوقت ــ مشدودة إلى سياسة العزلة، بالإضافة إلى أن بريطانيا لا زالت في ذلك الوقت مقتنعة بتأكيدات الحكومة الروسية ونواياها السلمية في وسط آسيا الإسلامية فهي إذاً ليست في حاجة إلى دفع عملياتها العسكرية بعيداً عن حدود الهند أو أن تتورط في مشاكل مع الأفغان هي في غنى عنها [٣].

وبعد عودة ابن دليسبس ومرافقه إلى أوروبا وبعد أن اكتشف حقيقة موقف الحكومة البريطانية الرافض لمشروعه، فإن حماسته لهذا المشروع قد ضعفت بدرجة كبيرة ووجه كل اهتمامه إلى مشروع قناة بنما [٤].

---

(١) F.O. 539/11. No. 251. M. de lesseps to Earl of Granville Parie. Dated Oct. 30. 1873. P. 255.

(٢) F.O. 539/11. No. 294. Earl of Granville to M. de Lesseps F.O. Dated 15, 1874. P. 308.

(٣) أنظر الفصل الرابع.

(٤) Curzon, George: Russia in Central Asia. P. 35-36.

٢ ـ خط حديد القزوين:

بعد نجاح روسيا في وضع أقدامها على الشاطىء الشرقي لبحر قزوين، أنشأت لنفسها القواعد العسكرية في تلك الجهة مثل كراسنوفودسك للإنطلاق التوسعي منها إلى أراضي التركمان وكانت الآمال الروسية في أن يصبح بحر قزوين في المستقبل القريب بحيرة روسية. ومع النجاح العسكري الذي حققته روسيا في الأراضي التركمانية أصبحت المراكز العسكرية الروسية في قزيل أورات وغيرها بعيدة عن القاعدة الأساسية على ساحل بحر قزوين، وأصبح الإتصال بين تلك المراكز وكراسنوفودسك شبه مقطوع، ونظراً للوسائل التقليدية التي كانت تستخدمها روسيا في المواصلات لاقت الصعوبات في التل الأزرق مما أدى إلى تفشي روح التذمر بين الجنود الروس، وكان هذا الوضع العسكري السيء سبباً في تركيز الاهتمام نحو بناء خط حديدي يبدأ من شرقي بحر قزوين حتى قزيل أورات[١]. واقترح بعض المسئولين الروس مد هذا الخط الحديدي إلى مرو أو حيرات، ثم يستمر حتى مقاطعة كويتا البريطانية[٢].

وحينما تولى تشرنائيف منصب الحاكم العام للتركستان كان يخشى أن يمتد خط حديد القزوين إلى مقاطعته، وبالتالي تتحمل التركستان نفقات إقامة المشروع، ولكنه في الحقيقة كان يخشى أن تحد وسائل المواصلات السريعة من سلطته المطلقة في التركستان، ولذلك انتقد المشروع بشدة وأخذ يشجع ويؤيد مشاريع السكك الحديدية البعيدة عن التركستان[٣].

وأخيراً وبعد التصادم الذي حدث على الحدود الأفغانية الروسية في بانجه بين روسيا وأفغانستان في مارس ١٨٨٥، والذي كان على وشك أن يصعد المواجهة العسكرية بين بريطانيا وروسيا[٤] قررت الحكومة الروسية في مايو ١٨٨٥ الشروع في بناء خط حديد القزوين. وقد وصل الخط في ديسمبر ١٨٨٥ إلى عشقباد، ومرو في يونيو ١٨٨٦.

---

(١) أنظر الفصل الثاني. التقدم العسكري الروسي على التل الأزرق.

(٢) سيطرت بريطانيا على مقاطعة كويتا بعد معاهدة يعقوب أباد ١٨٧٦ أنظر الفصل الثالث.

(٣) Becker, Seymour: Russia's Protectorates in Central Asia. P. 126.

(٤) أنظر الفصل الرابع، مشكلة بانجه.

فكرت روسيا في مد الخط إلى بخارى، وكان أمير بخارى يتمتع بسلطات تجعله مستقلا في النواحي الداخلية عن روسيا، وكان الروس حتى ذلك الوقت لم يتغلغلوا كثيراً من الناحية الاجتماعية أو الثقافية في الأراضي البخارية، وكانت طبيعة العلاقة الروسية البخارية أشبه ما تكون بعلاقة قائمة بين دولتين متحالفتين. لهذا حينما فكرت روسيا في مد الخط الحديدي إلى بخارى كانت تهدف إلى تغيير طبيعة تلك العلاقة.

ولم تنفذ تلك الفكرة مباشرة بل كانت ترى أنه من الضروري إقناع الأمير البخاري مظفر الدين خان بأهداف المشروع وأهميته لبخارى. فأرسل القيصر الروسي ألكسندر الثاني (١٨٨١-١٨٩٤) شاريكوف N.V.Charykov المساعد العسكري للحاكم العام للتركستان ــ إلى بخارى ووضح المندوب الروسي بأن هدف بلاده ليس التدخل في الشئون الداخلية البخارية، وإن روسيا على استعداد كي تدفع لبخارى تعويضاً عن الأراضي التي سيسير فيها الخط الحديدي [١] وأثار شاريكوف المخاوف في نفس الأمير من الاعتداءات الأجنبية، وخاصة أفغانستان، وإن الخط الحديدي سيمنح بخارى اطمئناناً يمكنها من ردع أي معتدي على أراضيها و يقصد بذلك الأفغان والإنجليز، وقد اطمأن الأمير مظفر الدين لنوايا الروس، ولكنه لم يستطع مصارحة شعبه الذي كان لا يزال فاقداً الثقة بهم.

وأخيراً توصل الجانبان في ٢٥ يوليو ١٨٨٦ إلى اتفاق يقضي بأن يقدم الأمير العمال على أن تتعهد روسيا من جانبها في حالة قيام حرب مع أفغانستان أن تعطي روسيا التركستان الأفغانية إلى بخارى. واشترط الأمير البخاري أن يبقى الاتفاق سرياً حتى لا يثير غضب البخاريين.

كان في مقدور الحكومة الروسية أن تجعل الخط الحديدي يمر في مناطق بعيدة عن بخارى أو في الأطراف ولكنها أصرت على أن يسير الخط الحديدي من قلب بخارى العاصمة حتى تضمن تنفيذ أغراضها السياسية والعسكرية، فكانت روسيا تطمع من وراء هذا الخط أن تؤكد سلطتها القوية على بخارى، وأن تزيل كل

(١) Becker, Seymour: Russia's Protectorates in Central Asia. P. 127.

الامتيازات التي كانت تتمتع بها بخارى عن غيرها مثل الاستقلال الذاتي والشخصية الاجتماعية والثقافية المستقلة [١].

وبناء على هذا فإن أساليب الاتصال بين بخارى وروسيا قد ازدادت وبالتالي أخذت الشخصية البخارية الذاتية تتلاشى تدريجياً. وفعلا بدأ العمل ووصل الخط الحديدي إلى سمرقند في مايو ١٨٨٨ وطشقند ١٨٩٨ [٢].

موقف بريطانيا من خط حديد القزوين:

اعتبرت بريطانيا خط حديد القزوين أسلوباً روسياً جديداً لتهديدها لأن الخط الحديدي سوف يمكن روسيا من استخدام قدرتها العسكرية ليس فقط في الأراضي المجاورة للتركستان، ولكن أيضاً من مناطق بعيدة مثل أمسك وجميع الجهات الغربية من سيبيريا وعندئذ سيكون في مقدور روسيا تجميع قوات كبيرة في خيليف Kilif أو كيركي على نهر جيحون [٣] ـ وبذلك تستطيع القوات الروسية تهديد بلخ وباميان وكابول من جهة حيرات وقندهار من جهة أخرى. وتحتم الضرورة في هذا الوضع على العسكرية البريطانية تقسيم قواتها مع أفغانستان إلى قسمين لمواجهة زحفين روسيين [٤]:

الأول: من جهة الشمال الشرقي.

الثاني: من جهة الشمال الغربي.

إزاء هذا الخطر الروسي المحتمل، كانت بريطانيا تفكر في طريق آخر غير الطريق الحربي فكانت تدرك عجز الاقتصاد الروسي عن تمويل مثل ذلك المشروع، فلذلك فكرت في مقاومة هذا الخطر عن طريق بث الدعاية المغرضة في الأسواق المالية الأوروبية حتى لا تقدم تلك الأسواق الدعم المالي لمشاريع السكك الحديدية الروسية.

---

(١) أنظر الفصل الثاني

(٢) Becker, Seymour: Russia's Protectorates in Central Asia. P. 128.

(٣) أنظر الخريطة ص ٢٠٣-٢٠٤.

(٤) Curzon, George: Russia in Central Asia. P. 262.

ولكن بريطانيا لم تنجح في محاولتها تلك لأن الحكومة الروسية لم تلجأ إلى الأسواق المالية لطلب الدعم، ولكن فرنسا هي التي قدمت الأموال لمد خطوط السكك الحديدية، وقدمت لها الخبراء في مد الطرق. وكان هذا تمهيداً للتحالف العسكري بين الدولتين عام ١٨٩٣ كما سنرى فيما بعد.

يتضح لنا من خلال عرضنا السابق بأن النشاط الروسي قد امتد إلى البامير لهدف استراتيجي هام، ألا وهو حماية مقاطعة فيرغانة الروسية، وفي الوقت نفسه تستطيع تهديد الهند البريطانية. حينما أدركت بريطانيا النوايا الروسية، اتجهت إلى سياسة توريط كل من أفغانستان والصين على أمل خلق العراقيل أمام الأطماع الروسية في المنطقة عن طريق إحياء تبعية المنطقة من الناحية السياسية لكل من الدولتين..

وحرضت أفغانستان والصين على خلق الوجود العسكري لكل منهما في البامير، وفي القوت نفسه ظلت تراقب بحذر التحركات الروسية. ووقفت تساند مطالب حليفتها إلا أن تلك المساندة لم تتعد المذكرات السياسية بل أنها طلبت من الصين أن تقبل بالشروط الروسية رغم إدراك بريطانيا بأن الشروط الروسية تتعارض مع مصالح الصين. ووقفت نفس الموقف مع أفغانستان ــ بالرغم من الفارق النسبي في الموقف البريطاني تجاه كل من الصين وأفغانستان، وطلبت من الأمير الأفغاني التنازل عن بعض أراضيه وقدمت له التهديد في صور إغراءات متعددة، ولم يكن أمام الأمير من سبيل غير القبول بوجهة النظر البريطانية. ومما دفع بريطانيا إلى ذلك الموقف مع الصين وأفغانستان أنها أصبحت تدرك أن الخطر الذي من أجله دفعت الدولتين إلى المظاهرة العسكرية، قد تلاشى وأن الاتفاق مع روسيا يضمن لها مصالحها الاستراتيجية في المنطقة.

ووقفت بريطانيا بعناد أمام جميع محاولات روسيا التي كانت تهدف إلى إحداث ثغرة في الاستراتيجية البريطانية في المنطقة عن طريق السيطرة على بعض الممرات في البامير. واضطرت روسيا إلى التنازل عن مطالبها مما أدى إلى توصل الطرفين إلى اتفاق ١٨٩٥ بشأن تحديد نفوذ الدولتين في البامير. وبذلك نجحت بريطانيا في إبعاد التهديد المباشر عنها في هذه الجهة، ولكنها في الوقت نفسه

أخذت تنظر بعين القلق للمشاريع الروسية لإنشاء السكك الحديدية، ووجدت في تلك المشاريع تهديداً لوجودها في الهند ولسياستها في أفغانستان، ولذلك عارضت مشروع دليسبس، بل منعت مندوبه من دخول الهند، كما حاولت أن تعرقل مشروع خط حديد القزوين حينما أدركت الخطر الذي ينتظرها من جراء هذا المشروع.

على أن المنافسة بين الدولتين لم تنته بعد، بل انتقلت إلى مسرح جديد ألا وهو إيران، وهذا ما سنتطرق إليه في الفصل التالي.



الفصل السادس

موقف بريطانيا من النشاط الروسيّ في شمال شرقيّ إيران



عرفنا فيما سبق أن روسيا بدأت نشاطها التوسعي الاستعماري تجاه الأراضي الإيرانية، وقد اشتد ذلك النشاط في النصف الأول من القرن التاسع عشر، ولكنه تحول من الطابع العسكري إلى الطابع السياسي بعد معاهدة تركمنجاي، واستمر النهب الروسي للأراضي الإيرانية تحت غطاء التعاون الودي.

ونجحت روسيا في أن تكون لنفسها النفوذ القوي في إيران. وقد أثار ذلك ريبة الحكومة البريطانية في أن يمتد الخطر الروسي المتقدم إلى أفغانستان ــ الدولة الحاجزة للهند البريطانية ــ من جهة، أو أن يتواصل الزحف الروسي في اتجاه شمال العراق والخليج العربي، مفتاح الطريق إلى الهند من جهة أخرى.

ولذلك حذر السفير البريطاني في طهران من النفوذ الروسي القوي في إيران، وحث حكومته على أن تحذو حذو الحكومة الروسية حتى تجعل لها نفوذاً موازياً للنفوذ الروسي في إيران. وحاولت حكومة اللورد بيكونسفيلد بعد محاولتها كسر نطاق العزلة ــ وعن طريق النشاط الإقتصادي في أن تجد لنفسها مثل ذلك النفوذ. ولكن روسيا وقفت لها بالمرصاد، واشتدت حدة المنافسة بين الدولتين في إيران فحاولت كل منهما أن تجر أطرافاً أخرى إلى حلبة الصراع الذي كان قائماً بينهما. وكانت الدول الأوروبية ــ كما رأينا ــ لا تشجع وضع العراقيل في طريق سياسة روسيا الأسيوية التوسعية حتى لا تثير لها أزمة جديدة في البلقان، كما أن تلك الدول كانت تجهل حقيقة إيران جغرافياً وسياسياً.

وعلى ذلك فقد أصبح واضحاً أمام الدولتين أن الصراع يعني فقط روسيا وبريطانيا وعليهما اتخاذ قرار حسمه، وطالت جولات المنافسة بينهما قبل وصولهما إلى اتفاق ١٩٠٧.

وسندرس هنا تلك الجولات خاصة تلك التي حدثت في شمال شرقي إيران على إعتبار أنها ضمن دائرة البحث، ومن أهمها:

١ ـ مشكلة الحدود الإيرانية الروسية (شمال شرق إيران):

سبق القول بأن روسيا مارست سياسة توسعية في الأراضي الإيرانية تحت غطاء التعاون الودي والنشاط التجاري، وكانت إيران تقدم المساعدات للقوات الروسية التي كانت تعمل في الجبهة التركمانية بحجة القضاء على القبائل التي يعتبرها الطرفان عدوهما المشترك، ولكن النشاط الروسي امتد إلى مناطق تدين بالولاء لإيران، وحتمت الضرورة هنا إلى البحث عن حدود واضحة بين الدولتين.

إتفاق ١٨٦٩:

دارت المباحثات بين إيران وروسيا بشأن ذلك الغرض وتوصلا عام ١٨٦٩ إلى اتفاق يقضي بأن يكون نهر أترك Attrek من مصبه عند تشكسلار على بحر قزوين إلى نقطة إلتقائه مع نهر سومبار Sombar عند شات Chat الحد بين الدولتين. وأعطى هذا الاتفاق الشاطىء الإيمن من النهر لروسيا والشاطىء الإيسر لإيران.

ولم يتطرق هذا الاتفاق إلى أية نقاط فنية مثل تحديد مجرى النهر، أو الجرف، أو المنسوب، وتعهدت الحكومة الروسية من جانبها بعدم التدخل في شئون عشائر الياموت التركمانية التي كان يمتد انتشارها إلى داخل الأراضي الإيرانية، وعدم بناء أية قلاع أو حصون بالقرب من الحدود الإيرانية [١].

تم هذا الاتفاق في وقت لم تكن فيه روسيا قد بدأت بعد نشاطها التوسعي في خيوة والأراضي التركمانية، وبعد الانتصار الذي حققته روسيا في التل الأزرق والمعاهدة التي وقعتها الحكومة الروسية مع الصين في سنت بطرسبورج في فبراير ١٨٨١ [٢] عمد الروس إلى تركيز أنفسهم في وسط آسيا الإسلامية بصورة أوضح من قبل هاتين الحادثتين، وأن الجنود الروس الذين حاربوا في الجبهة التركمانية الصينية قد عادوا إلى شاطىء بحر قزوين [٣] وقد أدى هذا إلى إثارة المخاوف الإيرانية في أن يبدأ الروس في عمليات عسكرية ضد الأراضي الإيرانية، ودعت الضرورة هنا إلى تحديد نفوذ كل من الدولتين في أراضي الاخال التركمانية [٤].

---

(١) F.O. 539/21. No. 39. Mr. Thomson to Earl of Granville Tehran. Dated December 2, 1881. P. 22.

(٢) أنظر التمهيد القوي المؤثرة في وسط آسيا (روسيا).

(٣) F.O. 539/22. No. 74. Lieutenant Colonel Swaine to Lord Ampthill. Berlin. Dated. May 4, 1883. P. 59-60.

(٤) أنظر الفصل الثاني

معاهدة ١٨٨١ السرية:

عقدت روسيا مع إيران معاهدة سرية ١٨٨١ بشأن تحديد نفوذ كل منهما في أراضي الاخال التركمانية، وقد نصت تلك المعاهدة على مد الحدود الروسية من بابا دورماز Baba Dormaz إلى منطقة تبعد مسافة ٨ أميال شمال سرخس الجديدة New Sarkhs واعتراف إيران بتبعية تركمان وادي أتك Attek لروسيا وعدم مطالبة إيران بدفع الضرائب لها. وأن ترفع جميع الأمور المتعلقة بهم إلى السفارة الروسية في طهران، ولا تقوم إيران بأية اجراءات من شأنها حرمان تلك العشائر من المياه.

وهددت روسيا إيران إذا لم تقبل بالشروط الروسية فإنها ستقوم بالإستيلاء على وادي نهر أتك كلية، واشترطت روسيا بقاء هذه المعاهدة سرية لمدة ٥ سنوات [١].

إزاء التهديد الروسي وافقت الحكومة الإيرانية على المعاهدة الروسية على مضض وأخذت تتحين الفرصة المواتية لمفاتحة روسيا من جديد بشأن الوصول إلى حل مرض لمشكلة الحدود الشمالية الشرقية.

وفي صيف ١٨٨١ طالبت إيران روسيا بعقد مزيد من المباحثات بين الطرفين، وتذرعت الحكومة الروسية بأن الاستكشافات الأولية بشأن الحدود لم تستكمل بعد، وأن المسّاحين الروس لا يستطيون العمل في تلك المناطق خلال الصيف لحرارته المرتفعة. ولكن إيران كررت طلبها مراراً، وأخيراً وافقت الحكومة الروسية على الطلب الإيراني وعينت الجنرال زيلينو Zelenoi للتباحث مع إيران، وأذيع بأنه سوف يتحرك إلى استرأباد خلال شهر ديسمبر ١٨٨٢. وعينت إيران من جانبها سليمان خان حاكم استرأباد السابق.

ولم يكن الاجراء الروسي في حقيقته إلا خطة لكسب مزيد من الأراضي الإيرانية، وخاصة تلك التي تقع بالقرب من مصب نهر أترك في بحر قزوين، ومع ذلك فقد أعلن في سنت بطرسبورج أن بعثة الحدود الروسية لا تستطيع الإجتماع

---

(١) F.O. 539/24. No. 233. Mr. Thomson to Earl of Granville Tehran. Dated December 8, 1884. P. 155-6.

بالبعثة الإيرانية قبل ربيع ١٨٨٣ نظراً لأن الخرائط كانت غير جاهزة، وأن الشتاء قد تقدم كثيراً وأصبح غير ملائم للعمل(١).

ومما دفع روسيا إلى موقف المماطلة هذا أنها كانت مشغولة بمشكلة مرو والسيطرة الروسية عليها، خاصة بعد الاستعداد الذي أظهره زعمائها للخضوع تحت السيطرة الروسية إلى جانب مشكلة الحدود الأفغانية التي أثيرت من جديد في ثمانينيات القرن التاسع عشر. في حين كانت إيران ترى أنه من المناسب الإنتهاء من مهمة تخطيط الحدود بأقصى سرعة حتى لا تخسر مزيداً من الأراضي في الشمال الشرقي. وقد ركزت الحكومة الإيرانية مطالبها في الآتي:

أ ــ سيطرة إيران على خليج حسين قولي Hussein Kuli على مصب نهر أترك في بحر قزوين(٢).

ب ــ إنسحاب المواقع الروسية من مقاطعة كلتش شينار Keltch Chenar على نهر قاشان واعتبارها من ضمن الأراضي الإيرانية.

جـ ــ دمج أراضي عشائر اليامون في إدراة استرأباد الإيرانية(٣).

وأخيراً رضخت الحكومة الروسية أمام إلحاح الحكومة الإيرانية، وتقدمت بعثة الحدود الإيرانية الروسية المشتركة لتخطيط حدود الدولتين. وقامت أولا بمسح المنطقة المجاورة لتشكسلار سعياً لتخطيط حدود المنطقة القريبة من مصب النهر. ومن خلال المعاينة، وجد أعضاء البعثة أن خليج حسين قولي يتبع روسيا لأنه يقع على الجانب الايمن لنهر أترك، وبذلك يعتبر ضمن الأراضي الروسية وفقاً لاتفاق ١٨٦٩.

وفيما يتعلق بالمطالب الإيرانية للسيادة على عشائر اليامون(٤) فقد وجد أعضاء البعثة الروسية والإيرانية أن المطالب الإيرانية هنا عادلة ولكنه حدث

(١) F.O. 539/22. No. 8. Mr. Thomson to the Earl of Granville Tehran. Dated December 12, 1882. P. 4.

(٢) أنظر الخريطة، ص ٧٧.

(٣) F.O. 539/23. No. 68. Mr. Thomson to the Earl of Granville Tehran. Dated January 1884. P. 51.

(٤) وجد أعضاء البعثة المشتركة أن هناك ثلاث تجمعات لليامون تنتشر في مساحة من الأراضي قدرت بحوالي ٣٠ ميلاً مربعاً.

التباس، ذلك أن الياموت قد أقاموا على نهر أترك سداً بغرض ري أراضيهم، وكان مجرى النهر ضعيفاً مما أدى إلى تحويله كلية. فوقعت أراضيهم على الجانب الأيمن للنهر، وعلى ذلك وجد أعضاء الجانب الروسي في اتفاق ١٨٦٩ ما يؤيد سيادتهم على المنطقة ولكن الجانب الإيراني كان يرى أن الحل الصحيح يكمن في تحطيم السد حتى يعود النهر إلى مجراه القديم. وتشبث كل جانب برأيه ولم تجد الحلول الوسط أية نتيجة حاسمة في المشكلة. فأصدر الشاه الإيراني تعليماته إلى الجانب الإيراني بالعمل على تخطيط الحدود من بوجنورد Bujnurd إلى شات، وترك الأراضي المثار عليها الخلاف لقرار من الحكومة الروسية والإيرانية (١).

مشكلة الحدود بين بابا دورماز وسرخس:

إلى جانب الخلاف الذي حدث عند مصب نهر أترك، فقد حدث خلاف آخر في منطقة أخرى من الحدود الروسية الإيرانية، وخاصة ما بين بابا دورماز وسرخس وكان ما يخيف الشاه الإيراني في هذه الجبهة الزحف الروسي البطيء على استرأباد وخاصة أن الحدود ما بين بابا دورماز وسرخس غير محددة. وكان الروس يقابلون الطلب الإيراني لتحديد هذه المنطقة بالمراوغة، بل أعربوا عن رأيهم في تبني حدود طبيعية على نحو مشابه للحدود الأفغانية. وكان هدف روسيا من وراء ذلك أن تدفع بحدودها إلى داخل الأراضي الإيرانية حتى شرقي سرخس بنحو تتنازل فيه إيران عن خراسان الجنوبية إلى روسيا (٢).

وكان هذا من الصعب على الحكومة الإيرانية أن تقر به. حاولت الحكومة الإيرانية أن تسوي الخلاف بشأن هذه المنطقة عن طريق تقديم مساحة صغيرة من الأراضي لروسيا، ولكن الحكومة الروسية رفضت العرض الإيراني وأصرت على موقفها لمد الحدود حتى شرقي سرخس.

إزاء الموقف الروسي المتصلب لجأت إيران إلى بريطانيا على أمل أن تقدم لها حكومة لندن التأييد السياسي في وجه روسيا. اعتبرت الحكومة البريطانية أن

---

(١) F.O. 539/27. No. 8. Mr. Thomson to the Earl of Granville Tehran. Dated June 13, 1885. P. 5.

(٢) F.O. 539/24. No. 54. Mr. Nicolson to the Marquis of Salisbury Tehran. Dated January 10, 1888. P. 52-54.

الطلب الإيراني قد جاء بعد فوات الأوان. ولم تقدم بريطانيا لإيران أية مساعدة أو أي دعم، ولكنها وضعتها في موضع اللوم وعدم الاكتراث للتحذيرات البريطانية من جراء الزحف الروسي على قارى قاله(١)، وكانت إيران تثق في ذلك الوقت بالوعود الروسية التي قطعتها حكومة سنت بطرسبورج على نفسها والتي كانت تظهر النوايا السلمية والإنسانية من وراء تحركاتها العسكرية تلك، وهذا ما دفع إيران إلى عدم الإلتفات للتحذيرات البريطانية.

ومع ذلك فقد قدمت الحكومة البريطانية النصيحة لإيران، وحثتها على التقرب من زعيم قبيلة سالور التي تقطن الشاطىء الايسر لنهر هاري رود ــ كوسيلة لمنع التقدم الروسي في هذه الجهة، لأن الزعيم التركماني سوف يقدم ولائه لإيران، وسيعارض السيطرة الروسية على أراضي قبيلته.

ولم تظهر إيران أي إهتمام لتلك النصيحة لأنه كان من الصعب على إيران أن تثق بوعد الزعيم التركماني أمام إغراءات روسيا وسطوتها الحربية ولذلك أصبح الحل الوحيد أمامها هو التفاوض مع روسيا.

اتفاق ٦ مارس ١٨٨٦:

بدأت إيران اتصالاتها من جديد مع الحكومة الروسية، وبعد تبادل المقترحات والتعديلات وافق الطرفان الروسي والإيراني على تسوية للحدود فيما بينهما، فقد وافقا على أن تبدأ من قلعة الكرد Kurdi Fort وتتبع الحدود مجرى نهر أترك القديم حتى مسافة ٢ كم جنوبي دوشان قيري Duchan Keri، ثم تتجه إلى الغرب مسافة ١/٢ كم شمال خليج تشاه Tchah، ومن نقطة تفرع نهر أتك إلى عدة فروع تسير الحدود إلى الفرع الجنوبي والأخير حتى خليج حسين قولي بحيث يترك الخليج كلية إلى روسيا(٢).

٢ ــ أثر امتياز رويتر على السياسة الروسية:

إلى جانب مشكلة الحدود الشرقية الإيرانية، فقد شهد التنافس الروسي

---

(١) F.O. 539/37. No. 30. Earl of Granville to Mr. Thomson F.O. Dated July 19, 1884. P. 53.

(٢) F.O. 539/39. Inclosure No. 2. in No. 41. Protocol Regarding the line of Frontier between Persia and Transcaspain from the Kurdi Ford th the caspain Sea. Chekislar. Dated March. 6, 1886. P. 33.

البريطاني جولة أشد في مشاريع السكك الحديدية في الأراضي الإيرانية، وقد بدأت هذه الجولة عندما تمكن البارون رو يتر في ٢٥ يوليو ١٨٧٢ من الحصول على امتياز إنشاء خط حديدي يبدأ من رشت على بحر قزوين حتى الخليج العربي [١]، وكانت بريطانيا تهدف من وراء هذا المشروع إلى ربط مواصلاتها في البحر المتوسط بالهند، وذلك عن طريق بناء السكك الحديدية في إيران. وقد أعطى الامتياز بريطانيا الحق في ربط السكك الحديدية الإيرانية بالمواصلات البريطانية الخارجية سواء كانت في اتجاه الهند أو أوروبا إلى جانب عزمها على خوض غمار المنافسة الاقتصادية مع الروس في الأراضي الإيرانية.

أثار الامتياز البريطاني سخط الحكومة الروسية التي طالبت بامتيازات مقابلة للامتياز الذي أعطته إيران لبريطانيا، حتى تحول دون سيطرة بريطانيا على مراكز هامة من الاقتصاد الإيراني، ولذلك تقدمت بعدة مشروعات لبناء السكك الحديدية في الاجزاء الشمالية والشمالية الشرقية من إيران.

وجدت الحكومة الإيرانية في المطالب الروسية ما من شأنه أن يزيد من حدة التنافس بين الدولتين، وتخشى من مغبة ذلك أن تقع أراضيها تحت السيطرة الأجنبية، ولكذلك فضلت إلغاء الامتياز الذي منحته للبارون رويتر، ولم تعلن ذلك صراحة، بل لجأ المسئولون الإيرانيون إلى وضع العراقيل أمام تنفيذ المشروع، حتى تمكنوا في النهاية من سحب الامتياز من البارون رو يتر [٢].

اعتبرت بريطانيا موقف إيران تجاه البارون غير عادل، وطالبتها في حالة اصرارها على سحب الامتياز أن تعطي البارون رو يتر تعويضاً للنفقات التي أنفقها. وكانت الحكومة البريطانية تهدف إلى وضع إيران في ضائقة مالية، حيث أن البارون أعلن أنه قد نقل إلى إيران الكثير من معدات المشروع ولكن الحكومة الإيرانية لم تتقيد بالإلتزامات التي تعهدت بها.

واستمرت بربطانيا في الضغط على إيران لتنفيذ مشاريع السكك الحديدية

---

(١) كذلك أعطى الإمتياز البارون رو يتر حق تنفيذ جميع أعمال المناجم والأراضي الغير مزروعة، وإدارة الغابات الحكومية و يسري هذا الامتياز لمدة ٢٠ عاماً.

(٢) Issawi, Charles: The Economic History of Iran 1800-1914. The University of Chicago Press. P. 177.

بطريقة غير مباشرة مثل توضيح أهمية السكك الحديدية من الناحية العسكرية والاقتصادية لإيران، وكان السياسيون البريطانيون في كل مناسبة يفاتحون المسئولين الإيرانيين سواء في طهران أو في لندن بمشاريع السكك الحديدية وأهميتها، حتى رضخت إيران وأعطت من جديد امتياز الخط الحديدي إلى البارون رويتر سنة ١٨٨٤ [١].

كان تحليل البعثة الروسية في طهران للمشروع على أنه ضربة موجهة ضد روسيا، وإنه سوف يؤدي إلى أضعاف النفوذ الروسي في إيران، بل سيعطي لبريطانيا النفوذ الذي تتمتع به روسيا، وسيتيح للتجارة البريطانية فرصة منافسة التجارة الروسية في الاسواق الإيرانية خاصة في أسواق المناطق الشمالية والشمالية الشرقية، والتي كانت شبه مقفلة أمام بريطانيا نظراً للدعاية الروسية التي كانت تظهر التجارة البريطانية بأغراض الاحتكار والفساد، وإن إيران بقبولها المشروع البريطاني، قد خالفت التفاهم الذي كان قائماً بينها و بين روسيا في أن تكون جميع المشروعات في إيران وخاصة في الشمال والشمال الشرقي على أساس موافقة الحكومة الروسية وطبقاً لاختيارها. ولم يتردد بعض المسئولين الروس في الاعلان صراحة عن ضرورة وضع إيران تحت الوصاية أو الحماية الروسية حتى تغلق جميع النوافذ أمام التوغل البريطاني في المنطقة [٢].

أثار الموقف الروسي ردوداً سيئة في العاصمة البريطانية، وكانت توقعات رجالاتها أن تقوم الحكومة الروسية بإجراء عسكري على الحدود من شأنه أن يدفع الحكومة الإيرانية إلى تغيير موافقتها على امتياز البارون رو يتر، ولذلك حاولت بريطانيا الوصول إلى تفاهم مع الحكومة الروسية بشأن مشكلة السكك الحديدية في إيران، فبدأت اتصالاتها الدبلوماسية مع سنت بطرسبورج وأوضحت للحكومة الروسية عن ضرورة استمرار الالتزام البريطاني الروسي بسلامة الأراضي الإيرانية، وأنها لا تقصد من وراء إنشاء السكك الحديدية على حد زعمها ـــ أية

---

(١) F.O. 539/27. No. 229. The Marquis of Salisbury to Earl of Malet. F.O. Dated Sept. 2, 1885. P. 208.

(٢) F.O. 539/37. No. 57. Mr. Nicolson to the Marquis of Salisbury. Tehran. Dated January 10, 1888. P. 52-4.

مكاسب ذاتية أو حتى منافسة مشاريع السكك الحديدية الروسية، وإن كل هدفها ينحصر في تنمية ثروات إيران الوطنية [١].

موقف روسيا:

لم تجد روسيا فيما قدمته الحكومة البريطانية ما يهدىء قلقها، ولذلك استمر الضغط الروسي على الشاه الإيراني لرفض امتياز رويتر، كما لجأت إلى وضع العراقيل أمام النشاط البريطاني في حيرات، مثل الدعاية المغرضة.

شكلت روسيا لجنة خاصة لدراسة مشروعات السكك الحديدية التي يمكن أن تقوم الحكومة الروسية بتنفيذها، وذلك بهدف منافسة المشاريع البريطانية. وقد رأس تلك اللجنة بولياخوف Poliakhoff ورفائيلوفيتش Raffaelovitch. وانتهت اللجنة من دراستها تلك واقترحت أن تقوم الحكومة الروسية ببناء سكة حديدية من الحدود الروسية في الشمال الشرقي إلى مدينة طهران على أن يكون لها خطان فرعيان الأول من طهران إلى بحر قزوين والثاني من طهران إلى الخليج العربي [٢].

ومما شجع الحكومة الروسية على التفكير في بناء السكك الحديدية سواء في إقليم القزوين أو في الأراضي الإيرانية القرض الذي قدمته فرنسا وقدره ٣٠٠ مليون فرنك تقريباً [٣]. وكانت فرنسا تقصد من وراء عملها هذا تمهيد الطريق أمام تحالف روسي فرنسي، وبالفعل فقد وقعت الدولتان معاهدة عسكرية في أغسطس ١٨٩٢.

ومارس السفير الروسي في طهران ضغطاً على الحكومة الإيرانية لقبول المشروع الروسي. ولم يجد الشاه أمامه غير الموافقة عليه [٤] لأن الشاه الإيراني كان يخشى أن يقوم الروس في حالة رفضه لمشروعهم بغزو أراضيه أو حتى بإثارة القلاقل والاضطرابات في المقاطعات القريبة منهم.

---

(١) F.O. 539/37. No. 64. The Marquis of Salisbury to Sir. R. Morier. F.O. Dated February 21, 1888. P. 56.

(٢) F.O. 539/48. No. 38. Sir. R. Morier to M. de Giers St. Peter. Dated April 1 (13), 1890. P. 26-27.

(٣) Issawi, Charles: The Economic History of Iran 1800-1914. P. 185.

(٤) F.O. 539/48. No. 38. Sir. R. Maries to M. de Giers St. Peter. Dated April 1 (13), 1890. P. 26-27.

موقف بريطانيا:

أثار الموقف الإيراني الإيجابي من المشاريع الروسية سخطاً في العاصمة البريطانية وتوقع رجال الحكومة البريطانية أن تقوم روسيا بمشاريع جديدة في إيران للسكك الحديدية وخاصة في المنطقة الواقعة ما بين خراسان وحيرات من جهة، وما بين بحر قزوين والخليج العربي من جهة أخرى. وعن طريق هذه المشاريع تستطيع روسيا أن توجه عدة ضربات لبريطانيا، فمن المنطقة الأولى تستطيع روسيا أن تهدد أفغانستان الدولة الحاجزة للهند البريطانية، ومن المنطقة الثانية تستطيع روسيا أن تهدد الوجود البريطاني في الخليج العربي.

وقد أثارت هذه التوقعات سخط المستر سالزبري رئيس الحكومة البريطانية فأرسل محتجاً على موقف إيران نحو المشاريع الروسية، وأوضح أن اتفاق روسيا وإيران بشأن السكك الحديدية قد عرض المصالح البريطانية في المنطقة للخطر(١)، واعتبرت بريطانيا أن عمل الشاه كان متناقضاً لمواقف الصداقة التي كانت بريطانيا تتعامل بها معه ومع وزرائه، ويجب على الشاه أن يضع في اعتباره مدى الاخطار التي ستتعرض لها المصالح البريطانية ازاء الموافقة على مشاريع السكك الحديدية الروسية، وكانت ترى أنه يجب على إيران أن تقدم تعويضاً لبريطانيا، وكان التعويض المناسب في نظر الحكومة البريطانية يكمن في اعطاء بريطانيا في جنوب إيران مشاريع مماثلة في القيمة والأهمية للمشاريع الروسية(٢). وحق إنشاء خطوط الترام في المناطق المجاورة للمدن في الأهواز(٣).

ولم تكن قائمة المشاريع هذه هي نهاية مطاف الآمال البريطانية لتوازن مصالح الدولتين في إيران، بل كانت بريطانيا تهدف إلى إلغاء الاتفاق الروسي الإيراني بشأن السكك الحديدية، وذلك عن طريق تنصل إيران من الاتفاق، فأثارت المخاوف في نفس الشاه وأوضحت له أن السكك الحديدية في الأجزاء

---

(١) تعهدت إيران من جانبها بعدم القيام بانشاء خطوط حديدية إلا بعد مشاورة ورضا الحكومة الروسية عليها، وإذا كانت روسيا تستطيع القيام بها فإنها تفضل على غيرها من الدول الأخرى.

(٢) F.O. 539/49. No. 47. Memorandum of Conversation with the Amines Sultan. Gulahek Dated. July 22, 1890. P. 31.

(٣) F.O. 539/49. No. 87. The Marquis of Salisbury to Mr. Wolff F.O. Dated May 19, 1890. P. 51.

الشرقية والشمالية سوف تعطي روسيا مركزاً استراتيجياً تستطيع منه تهديد الأراضي الإيرانية، ولم تستبعد ــ أمام الشاه ــ محاولة روسيا من وراء تلك المشاريع أن تسيطر على الاجزاء الشرقية والشمالية من إيران (١).

ومن ناحية أخرى، فقد كانت الحكومة البريطانية تدرك عجز روسيا عن توفير المال اللازم لمشاريع السكك الحديدية في إيران، وقد وجدت في هذا فرصة لها للانتقام من روسيا عن طريق استغلال مكانتها في الأسواق المالية للتأثير على أصحاب الاموال وحثهم على الامتناع عن تقديم المال لروسيا، والاعلان عن أن مشاريع السكك الحديدية في إيران إنما هي تحمل نوايا عدوانية ضد بريطانيا، وبذلك تغرس في نفوس أصحاب الأموال الشعور بالشك في استقرار الأوضاع في المنطقة، ومن ثم عدم تشجيعهم لاستغلال أموالهم في منطقة لم يحسم فيها الصراع بعد (٢).

ومع ذلك فلم يحدث الموقف البريطاني أي تغيير في الموقف الروسي أو الإيراني، بل إن روسيا وبعد حصولها على المال من فرنسا تشددت في اغلاق أبواب إيران في وجه المنافسة الاقتصادية الإنجليزية واستخدمت روسيا نفوذها في الدوائر الإيرانية، ونجحت أخيراً في عقد اتفاقية مع إيران في ٢٨ أكتوبر (١١ نوفمبر) ١٨٩٠ تعهدت فيها الحكومة الإيرانية بعدم إنشاء خطوط حديدية في أراضيها، ولمدة عشر سنوات تالية لتاريخ عقد الاتفاقية. وبذلك وضعت إيران حداً ــ ولو إلى حين ــ لهذه المشكلة، كما أن روسيا نجحت ــ عن طريق نفوذها في إيران ــ في الوقوف في وجه المنافسة البريطانية. وظلت إيران مقفولة أمام المشاريع البريطانية في مجال السكك الحديدية حتى أوائل القرن الحالي، وحينما خشيت روسيا من أهداف المشاريع الاقتصادية الالمانية بعد الاتفاقية الإيرانية الالمانية ١٩٠٣، في أن تمتد مشاريع السكك الحديدية من العراق إلى مناطق أخرى وخاصة في الأراضي الإيرانية، ولذلك اتفقت روسيا وبريطانيا بعد

---

(١) F.O. 539/49. No. 47. Memorandum of Conversation with Amin el Sultan. Gulahek E. Dated July 22, 1890. P. 31.

(٢) F.O. 539/48. No. 87. The Marquis of Salisbury to M. Wolff F.O. Dated May 19, 1890. P. 51.

معاهدة ١٩٠٧ على إعادة مشاريع السكك الحديدية البريطانية من جديد، وبدأت عدة مشاريع بريطانية في الظهور لربط الخليج العربي بالهند (١).

٣ ــ أثر قرار الملاحة في نهر قارون على الشمال الشرقي من إيران:

لم تكن مشاريع السكك الحديدية وحدها مجال المنافسة بين روسيا وبريطانيا، ولكن تلك المنافسة امتدت إلى مسح الأنهار وإعدادها للملاحة. وكان من أهم الأنهار التي أثارت المنافسة الروسية البريطانية في إيران نهر قارون. فقد تقدمت بريطانيا باقتراح إلى الشاه الإيراني يقضي بفتح الملاحة في النهر السابق، وما دفع بريطانيا إلى ذلك:

أ ــ ازدياد حجم التجارة الإيرانية في الخليج العربي.

ب ــ الوقوف في وجه التغلغل الروسي، خاصة وأن بريطانيا كانت تتوقع أن يمتد ذلك التغلغل حتى الخليج العربي (٢).

وقد زينت بريطانيا للشاه الفوائد التي ستجنيها إيران من وراء الموافقة على عرضها هذا (٣)، وظلت تلح على الشاه منذ ١٨٧١، حتى أصدر قراراً في أكتوبر ١٨٨٢ يقضي بفتح نهر قارون من الأهواز حتى الخليج العربي أمام جميع البواخر التجارية الدولية دون استثناء (٤).

رد الفعل الروسي:

في طهران، أرسلت البعثة الروسية في العاصمة الإيرانية إلى حكومة الشاه تعلن عن تأثرها البالغ تجاه القرار الإيراني لفتح نهر قارون أمام الملاحة الدولية، خاصة وأنها كانت قد أعطت وعداً مكتوباً من الشاه تعهدت فيه بألا تقدم على أي مشروع من ذلك القبيل دون مشاورة الحكومة الروسية وأثارت البعثة الروسية

---

(١) Issawi, Charles: The Economic History of Iran 1800-1914. P. 192.

(٢) Ibid. p. 171.

(٣) تحصيل الرسوم الجمركية من السفن الداخلة والخارجة من النهر، تسهيل نقل البضائع ما بين المحمرة وشوستر Shuster إلى جانب المزايا العمرانية التي ستعود على إيران مثل خطوط الترام. أنظر:
F.O. 539/40. No. 25. Notes for an Arrangement as derived from conversation with the Amin es Sultan and condensed by his Excellency in Persian for submission to the Shah Tehran. Dated Oct. 1, 1888 p, 168.

(٤) Issawi, Charles: The Economic History of Iran 1800-1914. p. 175.

المخاوف من أن يؤدي القرار الإيراني بفتح نهر قارون للملاحة إلى احتلال عسكري بريطاني، على نحو مشابه لقناة السويس في مصر(١).

وفي سنت بطرسبورج ــ أبدى وزير الخارجية الروسية بعض الملاحظات والتي تنم في مجموعها عن حقد روسيا على الخطوة البريطانية في نهر قارون، واعتبرها خطة بريطانية لفتح إيران في وجه التجارة البريطانية. وكان ما يثير قلق روسيا في هذا الخصوص، أن تصل التجارة البريطانية إلى المقاطعات الشمالية الشرقية الإيرانية والتي تعتمد عليها مقاطعة القزوين من الناحية الإقتصادية، وعلى ضوء ذلك فإن الحكومة الروسية ستجد نفسها مضطرة لاتخاذ إجراءات مشابهة لإعادة التوازن بين النفوذ البريطاني والروسي في إيران.

وفي نطاق الصحافة، فقد نظرت الصحافة الروسية إلى مشروع فتح الملاحة في نهر قارون على أنه ضربة بريطانية إلى المصالح الإقتصادية والسياسية الروسية في إيران. وإن ذلك المشروع من وجهة نظرها سوف يعطي بريطانيا السيطرة على تجارة إيران، لأنه سيكون في مقدور التجارة البريطانية الوصول إلى أسواق المقاطعات الجنوبية الشرقية، وإن البضائع البريطانية ستتمكن من منافسة البضائع الروسية بكل نجاح(٢).

وطالبت صحيفة نوفي فريما في ٢ ديسمبر ١٨٨٨ بأن تسعى الحكومة الروسية إلى المحافظة على نفوذها في إيران وعلى وجه الخصوص مقاطعة خراسان نظراً لأهمية هذه المقاطعة من الناحية الإقتصادية والعسكرية لمقاطعة قزوين الروسية.

في الوقت الذي كانت تبدي روسيا فيه مخاوفها من جراء فتح قارون قامت بريطانيا بإنشاء وكالة عسكرية لها في عاصمة خراسان، وقد كانت لها في الوقت نفسه قنصلية وكان يمثلها فيها أحد المسلمين الهنود.

شعرت روسيا من خلال التصرف البريطاني بأن بريطانيا قد اقتربت كثيراً من أراضيها وأصبحت قادرة على مراقبة الروس ورصد تحركاتهم في وسط آسيا الإسلامية، فضلاً عن أن بريطانيا تستطيع بنجاح منافسة التجارة الروسية في

(١) F.O. 539/40. No. 162 letter to persian legation at St. Peter. Dated. Nov. 12, 1888, P. 136.

(٢) F.O. 539/40. No. 78 Sir. Morier to the Marquis of Salisbery St. Peter Dated. November 21, 188, p. 57.

الشمال الشرقي لإيران ونشر الشائعات المغرضة ضدهم. ولكي تفوت على بريطانيا أهدافها العسكرية والإقتصادية قررت روسيا أن تخوض الصراع ضد بريطانيا في هذه المنطقة. فقررت وزارة الخارجية الروسية أن تفتح لها قنصلية في مدينة مشهد في ٢٣ أكتوبر ١٨٨٨ كرد على التمثيل البريطاني في خراسان [١].

موقف إيران:

رفضت إيران الطلب الروسي على أساس أن مدينة مشهد مدينة مقدسة مثل مكة والمدينة ولا تسمح للأجانب بالإقامة فيها، وإذا ما وافقت على الطلب الروسي فإنها تخشى أن تحذو الدول الأوروبية حذوها وتطالب إيران فتح قنصليات لها في مشهد.

جاء هذا في الوقت الذي رفض فيه حاكم إحدى المقاطعات الشمالية الشرقية تزويد الروس بالقمح، كما أن إيران لم تنفذ ما تعهدت به لبناء طريق العربات من عشقباد إلى مشهد والذي تبني عليه روسيا آمالاً كباراً لتسهيل اتصالها مع المقاطعات الشمالية الشرقية الإيرانية [٢].

اعتبرت روسيا الرفض الإيراني هزيمة سياسية لها، واتهمت السفير البريطاني في طهران بأنه كان من وراء الرفض الإيراني، وادعت أن الرشاوي التي كانت تقدمها بريطانيا لشراء الضمائر أعانت على ذلك وأعلنت صحيفة نوفي فريما أن بريطانيا زادت الإعتمادات المالية لسفارتها في طهران[٣].

ومن جهة أخرى فقد كان النجاح السياسي الذي حققته بريطانيا في إيران

---

(١) تنبع من مقاطعة خراسان عدة مجاري مائية تروي مساحات كبيرة من الأراضي الروسية وخاصة أراضي قبائل الأتيك والأخال، كما أن روسيا تستطيع أن تجد لنفسها منها منطلقاً عسكرياً نحو الهند عبر أفغانستان. أنظر:

F.O. 539/40 No. 117. H. Wolff to the Marquis of Salisbury. Tehran Dated Oct. 27, 1888. p. 94.

(٢) F.O. 539/40. No. 99. Abstract from the Russian Press. p. 86.

(٣) زادت الملكة مصروفات السفارة البريطانية في طهران إلى ٢٥٠ ألف جنيه استرليني، وأرجعت الصحيفة كسب بريطانيا لمشروع فتح الملاحة في نهر قارون إلى مئة ألف جنيه استرليني استخدمها المستر ولف، وتساءلت الصحيفة ماذا تكون النتيجة لو استخدم المستر ولف مليون جنيه؟.

مثار اهتمام الروس الذين حاولوا اتباع الطريق نفسه الذي سار فيه السفير البريطاني المستر ولف، ونعني به طريق الرشوة، فقد خصصت وزارة المالية الروسية ما يقارب من مليون روبل [1] لهذا الغرض. وبذلك بدأت مباراة الجنيهات الإسترلينية والروبلات الروسية في القصر والدوائر الإيرانية إلى جانب الضغوط السياسية التي كانت تجري من وراء الستار، فقد كانت مسئولية الدبلوماسية الروسية أن تخلق لنفسها نفوذاً موازياً للنفوذ البريطاني حتى ولو كان ذلك عن طريق الضغط والإكراه والرشوة.

المطالب الروسية:

تقدمت روسيا بعدة طلبات إلى الحكومة الإيرانية اعتبرتها موازية للامتياز الذي منحته الحكومة الإيرانية لبريطانيا في نهر قارون، وكان من بين تلك المطالب:

١ ـ فتح روسيا حق الملاحة في المورداب وروافدها وجميع الأنهار التي تنبع من الأراضي الإيرانية وتصب في بحر قزوين.

٢ ـ ألا تعطي إيران أي امتياز لإنشاء السكك الحديدية لأية دولة خلال خمس سنوات، على أن تقوم روسيا خلال هذه الفترة بدراسة مشاريع السكك الحديدية وخاصة تلك التي ستقوم روسيا بتنفيذها، أما باقي المشروعات فيكون من حق إيران منحها لأية دولة أخرى.

تعتبر المطالب الروسية هذه محاولة منها لإعادة هيبتها في إيران وللإنفراد بالسيطرة الإقتصادية في المناطق الشمالية والشمالية الشرقية من إيران.

لم تعارض إيران الشروط الروسية هذه، وخاصة تلك التي تتعلق بالمناطق الشمالية والشمالية الشرقية، ولكنها بتحريض من السفير البريطاني أعلنت أن الشرط الثاني والذي يتطرق إلى مشاريع السكك الحديدية، فإن فترة الخمس سنوات التي حددتها الحكومة الروسية لدراسة تلك المشاريع فترة طويلة وأعطت روسيا مدة سنتين تقوم خلالهما الحكومة الروسية بدراسة مشاريع السكك الحديدية

(١) كان المليون روبل في ذلك الوقت يساوي ١٠٠ ألف جنيه استرليني.

التي تفضل تنفيذها[١]، لأن الشاه الإيراني كان يود الخروج من تلك المشكلة بأقصى سرعة حتى يتيح الفرصة لازدهار اقتصاده الوطني.

واستمرت الاتصالات بين الحكومة الروسية والإيرانية، في حين كانت بريطانيا تمارس مشروعها بكل نجاح. واستمر المسئولون الروس في التعريض بالمشروع البريطاني والإظهار عن نوايا بريطانيا الاستعمارية في إيران التي ستقع حتماً في شباك السيطرة الاستعمارية البريطانية على نحو مماثل لمصر.

٤ ــ امتياز الدخان:

تمكنت بريطانيا من الحصول على حق استغلال إنتاج الدخان في الأراضي الإيرانية ولمدة ٥٠ عاماً ابتداء من ٩ مارس ١٨٩٠، وكان نصيب الشاه من وراء هذا المشروع ١٥ ألف جنيه استرليني سنوياً، ١/٥ صافي الأرباح[٢]. وقد أصدر الشاه فرمانا في فبراير ١٨٩١ إلى جميع حكام المقاطعات الإيرانية لمساعدة الشركة البريطانية التي ستقوم باستغلال الدخان والاعتراف بوكلائها في مختلف المقاطعات[٣].

وحتى لا يثير الشاه معارضة الروس ضد هذا المشروع اقترح منح اللجنة الروسية التي يمثلها بولياخوف ورفائيلوفتش بعض الإمتيازات مثل خطوط الترام في المدن الشرقية أو الجنوبية[٤].

احتجت روسيا على مشروع الدخان، وطالب السفير الروسي في طهران بإلغاء الإمتياز، وأرجع موقف حكومته هذا إلى حرصها على عدم وقوع التجارة الإيرانية بصفة عامة وتجارة الدخان بصفة خاصة في يد الإحتكارات البريطانية، ولم يظهر السفير الروسي الدافع الحقيقي الذي دفع حكومته إلى معارضة المشروع ألا وهو عدم التأثير على التجارة الروسية والإحتكارات الروسية التي كانت تنتشر في طول الأراضي الإيرانية وعلى وجه الخصوص في المناطق الشمالية والشمالية الشرقية،

(١) F.O. 539/41. No. 211. Memorandum. Tehran. Dated February, 18, 1888. p. 147-148.

(٢) F.O. 539/60. Inclosure No. 2 in No. 24 General Paton to Mr. Kennedy. Tabrez — Dated May 13, 1891. p. 12.

(٣) F.O. 539/60. No. 52. Mr. Kennedy to the Marquis of Salisbury. Gulahek. Dated. Sept. 19, 1891. p. 41.

(٤) F.O. 539/60. No. 24 General Paton to Mr. Kennedy. Tabrez Dated May., 9, 1891. p. 20.

وادعى بأن الإمتياز الذي منحته إيران إلى الميجور تالبوت Talbot مدير المشروع البريطاني لاستغلال الدخان ــ كان مناقضاً للتعهد الإيراني بالرجوع إلى روسيا في حالة إعطاء أية امتيازات إلى الدول الأوروبية.

وحينما لم تلتفت إيران إلى التحذيرات والإعتراضات الروسية لجأت روسيا إلى بث الدعاية المغرضة عن المشروع البريطاني، كما عمدت إلى إثارة الإيرانيين في المناطق الشمالية والشمالية الشرقية، ووضحت لهم الأخطار التي تنتظر بلادهم من جراء امتياز الدخان مثل:

خروج تجارة الدخان من أيديهم إلى أيدي البريطانيين، وإفلاس التجار الوطنيين الذين يتاجرون بالدخان والذين سيضطرون في نهاية الأمر إلى البطالة(١).

وقد عمت الدعاية الروسية والحماسة الدينية ضد البريطانيين جميع المقاطعات الإيرانية ولقد تزعمت تلك الحركة كل من مدينة شيراز ومشهد وطالب المجتهدون والأئمة الشاه بضرورة إلغاء الإمتياز لأن نهاية المطاف لهذا المشروع أن يدفع بالأراضي الإيرانية إلى الوقوع تحت السيطرة الإستعمارية كما حدث في مصر، وهددوا الشاه إذا لم يرضخ لمطالبهم فإنهم سيلجأون إلى طلب المساعدة الروسية(٢).

حاولت بريطانيا من جانبها تهدئة الموقف، فقد اتصلت ببعض المسئولين الإيرانيين وحاولت إقناعهم بمزايا المشروع من الناحية الإقتصادية، ولكنها في الحقيقة كانت تهدف إلى الحيلولة دون وقوع أولئك المسئولين، في التيار الشعبي المتذمر(٣)، ومن جهة أخرى فقد انتشر الوكلاء البريطانيون في مختلف المناطق الإيرانية بهدف تهدئة الجماهير الثائرة الساخطة على المشروع، وأظهروا لتلك الجماهير أهدافهم (الإقتصادية) وأرجعوها إلى رغبة بلادهم ــ بريطانيا ــ في تنمية التجارة الإيرانية، ونفوا الدعايات الروسية عن أنفسهم(٤).

(١) F.O. 539/60. Inclosure No. 2. in No. 24 General Paton to Mr. Kennedy. Tabrez. Dated. May, 13, 1891 p. 12.

(٢) F.O. 539/60. No. 52. Mr. Kennedy to the Marquis of Salisbury. Gulahek Dated. Sept. 19, 1891. p. 41.

(٣) F.O. 539/60. No. 23. Memorandum Submitted to the Shah by Mr. Ornstein. p. 26.

(٤) F.O. 539/60. No. 24 General Paton to Mr. Kennedy. Tabrez Dated. May., 9, 1891. p. 20.

لم تؤثر هذه المحاولة على ثورة الجماهير الإيرانية، وظلت المعارضة الشعبية دون هوادة، وخشى أمين السلطنة أن ينتشر التذمر الشعبي من الأجزاء الجنوبية والشرقية إلى بقية الأراضي الأفغانية، ولاح في الأفق فكرة إلغاء العطاء وتعويض الشركة. وإن مثل هذه الفكرة في نظر الحكومة البريطانية ستؤدي إلى صعوبات أهمها التعويضات المالية التي ستطالب بها الشركة صاحبة الإمتياز(١).

انتهز السفير الروسي في طهران فرصة التذمر الشعبي في الجنوب والشرق من إيران وأخذ يحث الشاه على ضرورة إلغاء الإمتياز، وكان الشاه الإيراني في موقف لا يستطيع فيه أن يقف في وجه الشعب الثائر، ولذلك سيطرت عليه فكرة إلغاء الإمتياز كطريق لتلاشي الصعوبات الداخلية، فأعلنت الحكومة الإيرانية عن استعدادها لدفع تعويض مالي للشركة قدره نصف مليون جنيه استرليني، في حين تستولي الحكومة الإيرانية على جميع ممتلكات الشركة في الأراضي الإيرانية(٢).

وبذلك نجحت روسيا في إثارة صعوبة جديدة أمام محاولة التوغل البريطاني في الشئون الإقتصادية الإيرانية، كما فشلت من قبل (في فترة البحث) بشأن امتياز السكك الحديدية.

على ضوء ما سبق نستطيع القول بأن التنافس الروسي البريطاني قد اتخذ من الأراضي الإيرانية مسرحاً جديداً له، ومن بين المناطق التي تعرضت لهذا التنافس الأجزاء الشمالية الشرقية من إيران، وقد تميز هذا التنافس في هذه المنطقة بالدهاء والحنكة السياسية إلى جانب استخدام الأموال لشراء الضمائر، وأسلوب الضغط والوعيد وقد تمتعت روسيا بالنفوذ القوي في الجهة الشمالية الشرقية نظراً لقربها الجغرافي من الأراضي الروسية. ونجحت روسيا في التغرير بإيران لخدمة مصالحها الذاتية في المنطقة التركمانية إبان التوسع الروسي فيها، وادعت بأنها تحارب عدواً مشتركاً بينها وبين إيران. وكانت روسيا تدرك أن إيران كانت تعاني الكثير من

---

(١) F.O. 539/60. No. 67. Sir. Lascelles to the Marquis of Salisbury Tehran. Dated. December 26, 1891, p. 40.

(٢) قدرت قيمة الآلات بـ ١٧٤ ألف جنيه استرليني، وكانت توجد في مقر الشركة كميات من الدخان قيمتها حوالي ٤٠ ألف جنيه وإلى جانب مجموعة الأسهم التي كانت تمتلكها الشركة وتبلغ حوالي ١٥ ألف جنيه. أنظر:
F.O. 539/60. No. 129. Sir. F. lascelles to the Marquis of Salisbury. Tehran Dated. March 13, 1892 p. 100.

جراء الهجمات التركمانية على أراضيها مما دفع الحكومة الإيرانية إلى تقديم التسهيلات للقوات الروسية مثل الإمداد ووسائل النقل.

وحينما وطدت روسيا إقدامها في المنطقة وانضوت تلك السهوب تحت سيادة روسيا شعرت إيران بالخطورة وأدركت أن أراضيها ستكون الخطوة التالية للخطط الروسية التوسعية، فطالبت بتحديد حدودها الشمالية الشرقية مع روسيا، ولكن روسيا استخدمت أسلوب المراوغة ذلك الأسلوب الذي استخدمته جيداً في تخطيط الحدود الأفغانية من أجل زيادة كسب الأراضي.

ولم تلتفت إيران للتحذيرات البريطانية التي كانت تطالبها بتبني سياسة حازمة بشأن التحركات الروسية في المناطق الشمالية الشرقية، خاصة بعد المحاولات التي قام بها السفير البريطاني في طهران والذي لوح لإيران بمساعدة بلاده لها، وعرض في ذلك الوقت مرو على إيران، وقد أثار العرض البريطاني اهتمام إيران خاصة وأنها كانت في ذلك الوقت تتبنى خطة مستقبلية تهدف أساساً إلى الوصول إلى حيرات، فاندفعت إيران في نشوة حماسية بالغة لوقف الروس عند حدهم.

وحينما أدركت موقفها الضعيف أمام الروس انحنت أمام شروطها وحينما حاولت بريطانيا دفع شحنة من الشجاعة في شرايين إيران ضد الروس عن طريق امتياز السكك الحديدية، لم تتخذ إيران رأياً قاطعاً بل رضخت للشروط الروسية، وألغت ما تعهدت به لبريطانيا، وحينما حاولت إيران الوقوف في وجه الروس عن طريق امتياز الدخان، ألهبت روسيا روح المعارضة ضد المشروع والشاه معاً، واضطر الشاه إلى إلغاء الإمتياز، بالرغم من الفائدة المالية التي ستعود على خزانته الخاصة باعتباره شريكاً في المشروع.

وكان مما يدفع روسيا إلى هذا الموقف حرصها على الحفاظ على مصالحها في إيران بصفة عامة، والأجزاء الشمالية الشرقية بصفة خاصة، فعارضت مشروع رويتر وفتح نهر قارون أمام الملاحة الدولية، وطالبت بمزايا مماثلة لها في الشمال والشمال الشرقي.

وقد ظل التنافس بين الدولتين قائماً بعد التسعينيات، ولكنه اتخذ طابعاً مغايراً

لقبل التسعينيات، فقد اتصف بالهدوء ــ الأمر الذي مهد لاتفاقية ٣٠ أغسطس ١٩٠٧ والتي قسمت إيران إلى ثلاثة أقسام. القسم الشمالي لروسيا، والجنوبي لبريطانيا، والأوسط لشاه إيران.

وسنحاول في الصفحات التالية دراسة الظروف الدولية التي مهدت للإتفاق الروسي البريطاني.

الفصل السابع

الظروف الممهدة
لعقد الوفاق الروسي البريطاني «١٩٠٧»



عرفنا فيما سبق أن بريطانيا حاولت بكل طاقاتها الحد من تدهور علاقاتها مع روسيا في وسط آسيا لكي تحول دون مواجهة أزمة جديدة في المنطقة فتراجعت وقتياً عن تنفيذ مشاريعها الإقتصادية في الأراضي الإيرانية، ومارست ضغطاً على الأمير الأفغاني حتى يقبل بالتسوية التي اقترحتها اللجان المشتركة لحل المشاكل التي نجمت عن تخطيط الحدود الأفغانية الروسية وتنصلت من وعودها بشأن مساندة ودعم مطالب الصين في البامير.

ومما دفع بريطانيا إلى تبني هذا الموقف في آسيا رغبتها في التفرغ لمواجهة المشاكل التي ظهرت خلال العقد الأخير من القرن التاسع عشر في مناطق عديدة من العالم، ففي القارة الأوروبية اعتقد ساستها أن التحالفات هي طريقهم لمواجهة القوى المعادية أو المنافسة فأخذوا يعملون على كسب الحلفاء. وشهدت الفترة ما بين (١٨٩٥-١٩٠٧) العديد من المحاولات التي تؤكد هذا الإتجاه. وسنشير هنا إلى ما يهمنا منها خاصة تلك التي ساعدت على الوفاق الروسي البريطاني (أغسطس ١٩٠٧).

أولاً: محاولات التقارب البريطاني الألماني والألماني الروسي:

وسط التكالب الاستعماري في الشرق الأقصى وما تردد عن المخططات الروسية في بورت أرثر ومنشوريا وما أشيع عن المعاهدة السرية بين الصين وروسيا[(١)]، أدركت بريطانيا عدم جدوى سياستها التي كانت توصف بسياسة العزلة، فإذا ما استمرت في تنفيذها فإن الدول الأخرى ستقرر مستقبل الصين وفقاً لمصالحها دون اعتبار لمصالح بريطانيا، ومن ثم أخذت تفتش لها عن حليف، ولقد وجدته في ألمانيا نظراً للمشاعر الودية من الشعبين وللقرابة التي تربط

---

(١) أنظر معاهدة لي ــ لوبانوف السرية.

Rostovsky, A. Lobonov: Russia and Asia, U.S.A.: The George Wahr Publishing Company. Mich. 1951. PP. 223-225.

العزشين، إلى جانب أن ألمانيا كانت حينذاك أقل الدول الأوروبية منافسة للسياسة الاستعمارية البريطانية(١). وفي المقابل فإن ألمانيا وبعد دراسة تقيمية للسياسة الأوروبية، قررت عدم تقييد تحركها السياسي إذ كانت تفضل أن تختار حليفها في الوقت الذي تشعر فيه بحاجتها إليه وفقاً لشروط تحددها هي(٢)، وكررت بريطانيا محاولتها ثانية (١٩٠١) ولكن بدون جدوى، وأخيراً وبعد دراسة الموقف السياسي في القارة الأوروبية قررت بريطانيا أن ألمانيا منافسة وليست حليفة بسبب سعيها الدائب لتعزيز أسطولها البحري ولتغلغلها الاقتصادي في (الشرق الأوسط) وموقفها من حرب البوير، ولذلك بدأت تفتش لها عن حليف آخر وقد وجدته في غير الدول الأوروبية ونعني بذلك اليابان (يناير ١٩٠٢).

محاولات التقارب الألماني الروسي:

وفي الوقت الذي رفضت فيه ألمانيا محاولات التقارب البريطاني منها كانت تسعى إلى التقرب من روسيا وتشجعها على النشاط الاستعماري انطلاقاً من اعتباراتها السياسية الأوروبية. وكانت الدوائر السياسية الروسية تعتبر علاقة بلادها مع ألمانيا ركناً أساسياً في سياستها الخارجية ولكنها مع ذلك لم تهمل تحالفها مع فرنسا. وفي الوقت الذي تعرضت فيه القوات الروسية للهزائم في جبهة الشرق الأقصى كان الامبراطور الألماني يبث الثقة في نفس القيصر من خلال برقياته العديدة له والتي تضمنت الأمل في تخطي الروس للصعوبات الداخلية والخارجية التي واجهتهم. وحينما تم الوفاق الودي بين بريطانيا وفرنسا، اعتقدت الدوائر الألمانية بأنه موجهاً ضد ألمانيا وإنه سيغير من موازين القوى داخل القارة الأوروبية، ولذلك تحركت ألمانيا سريعاً لإخراج روسيا من دائرة التحالفات الفرنسية وعقدت معها معاهدة تجارية في النصف الثاني من يوليو ١٩٠٤، وأعربت عن استعدادها للدخول في حلف مع روسيا.

وتلقت الدوائر الروسية المحاولة الألمانية هذه بمزيد من الشك، وأعرب وزير الخارجية عن اعتقاده بأن ألمانيا تهدف من ورائها إلى تعكير صفو العلاقات

---

(١) The History of the Times: The Twentieth Century Test 1884-1912. London: Written Printed and Published at the office of the Times. 1947. P. 207.

(٢) Churchill, Rogers platt: The Amglo-Russian Convention of 1907., U.S.A.: The Torch Press. 1939. P. 1.

الفرنسية الروسية، وحث حكومته على عدم الدخول في أي تحالف ريثما يتم تهدئة الأوضاع الداخلية وتسوية مشاكل الشرق الأقصى[1]. ولكن الامبراطور الألماني نجح من خلال واقع روسيا العسكري والفوضى الداخلية في إقناع القيصر الروسي بأهمية الدخول في تحالف بين البلدين، وتوصل الطرفان إلى اتفاق في أكتوبر ١٩٠٤ بينهما. ولقد أثار هذا الاتفاق سخط الدوائر الروسية خاصة وزير الخارجية الذي طلب حكومته بالتشاور مع فرنسا قبل التوقيع على الاتفاقية، كما انضم إليه ويت Witte وزير المالية الروسي الذي وجد في إثارة فرنسا ما من شأنه أن يؤثر على العلاقات الاقتصادية معها.

وإزاء المعارضة الروسية اضطر القيصر إلى التراجع عن موقفه (نوفمبر ١٩٠٤)، ومع أن الموقف الروسي قد تسبب في سخط القيصر، إلا أن ألمانيا كانت حريصة على استمرار الاتصالات مع روسيا وعدم إعطاء بريطانيا فرصة التأثير على السياسة الروسية خاصة بعدما تردد في الأوساط الأوروبية عن محاولات دلكاسيه لتقريب وجهات النظر الروسية البريطانية[2] ودبرت الدوائر الألمانية خطة لاصطياد القيصر بعيداً عن المعارضة، وتم لها ذلك في بجوركو Bjorko يوليو ١٩٠٥ حيث وقع الطرفان معاهدة بجوركو[3] التي أثارت سخط الوزير الروسي والذي قدم استقالته احتجاجاً على سلوك القيصر، ووصف المعاهدة بأنها ضارة بالمصالح الروسية في القارة الأوروبية لأنها ستتحول في القريب ضد فرنسا حليفة روسيا المخلصة واضطر القيصر إلى التراجع كما فعل من قبل في نوفمبر ١٩٠٤، وبذلك استطاعت روسيا التخلص من المحاولة الألمانية[4] للمرة الثانية.

وحرص أزفوسكي IZVOLSKY وزير الخارجية الجديد على عدم إثارة عواصف سياسة تسبب غضب ألمانيا[5]، ولكن سياسة ألمانيا الاقتصادية في آسيا الصغرى أثارت غضب بريطانيا وروسيا معاً، فروسيا وجدت في النشاط الاقتصادي

(١) Churchill, Rogers P.; The Ang.- Con. 1907. PP. 77-79.

(٢) Churchill, Rogers P.: The Ang. R. Con. PP. 80-83.

(٣) Ibid. PP. 88-89.

(٤) Ibid. PP. 98-100.

(٥) Woodward, E.L.: Great Britain and the German Navy London; Oxford University Press. 1964. P. 150.

الألماني في شمال آسيا الصغرى خاصة مشاريع السكك الحديدية ما من شأنه أن يعزز من قوة الدولة العثمانية العسكرية و يطيل من حياتها السياسية، وهذا ما لا تحبذه روسيا، كما لا ترغب أن تنافسها قوة أوروبية في المنطقة القريبة من حدودها.

أما بريطانيا فقد وجدت في النشاط الإقتصادي الألماني في الأناضول ما يهدد مصالحها الإقتصادية خاصة في قونية، كما أنه يعتبر مصدر خطر على طريق مواصلاتها إلى الهند ونفوذها في الخليج العربي، ولذلك سارعت بالاحتجاج لدى ألمانيا التي هددت بسحب مساندتها للمخططات البريطانية في مصر. فكانت بعض الأوساط البريطانية تشجع توغل ألمانيا في هذه الجهة لأنها تجد فيه ما يعكر صفو العلاقة الروسية الألمانية ويمهد الطريق أمام التفاهم الروسي (١).

التنافس الاستعماري في منطقة الخليج وإيران وأثره على العلاقة الروسية البريطانية:

شهدت إيران ومنطقة الخليج في أواخر القرن التاسع عشر وأوائل القرن الحالي تنافساً استعمارياً اقتصادياً، فقد بذلت ألمانيا ومنذ ١٨٩٨ مجهودات لكي تجعل لنفسها موطىء قدم في الأراضي الإيرانية والخليج العربي ونجحت شركات ألمانية في الحصول على الموافقة الإيرانية لتأسيس فروع لها للتصدير والاستيراد على شاطىء الخليج العربي (٢). وحصلت بعضها على امتياز لبناء طريق جديدة من خانقين – على الحدود الإيرانية التركية – إلى طهران (٣)، وحاولت شركات أخرى احتكار صيد اللؤلؤ في الخليج وتأسيس شركة لإنتاج ولتسويق السجاد الإيراني (٤)، وقامت روسيا في الفترة نفسها بنشاط بحري واقتصادي استهدف حسب الاستصراخات البريطانية ميناء بندر عباس. وزاد من المخاوف البريطانية تردد وحدات بحرية روسية على هذا الميناء وتصريح القنصل البريطاني في بغداد،

---

(١) Woodward, E.L.: Great Brit. and the Ger. Navy. PP. 142-144.

(٢) lenczowski, George, Russia and the West in Iran, 1918-1948. A Study in Big Power Rivalry. Cornell University Press. 1949. P. 145.
F.O. 539/80. Inclosure I in No. 46. vice Consul Pogson to Acting Consul General Gosling. Humburg, March 28. 1899. P. 39.

(٣) د. محمود علي الداوود: الخليج العربي والعلاقات الدولية، جـ ١ ص ١٦٦.

(٤) Lenczowski, G.: R. and the Wost in Iran.P.146.

الذي طالب بتواجد وحدة بحرية روسية دائمة في المنطقة يكون مقرها بندر عباس[(١)]، واعتقد اللورد كيرزون ــ نائب الملك ــ بأن محطة الفحم الفرنسية في مسقط ستكون محطة للأسطول الفرنسي الحربي الذي سيمهد الطريق للقوات الروسية في المنطقة، كما أنه في أحيان كثيرة كان يطلق على المسيو أوتافي، الممثل الفرنسي في مسقط لقب الممثل الروسي الفرنسي[(٢)]. ولقد أثارت محاولة روسيا لاستخدام ميناء مسقط لغرض إمداد سفنها بالفحم الحجري قلق بريطانيا التي كانت تخشى من أن يكون ذلك مقدمة لقيام روسيا بالاتصال بشيوخ الخليج العربي، الذين رفضوا ــ بتدخل بريطانيا ــ قيام علاقات بينهم وبين روسيا[(٣)].

موقف بريطانيا من النشاط الروسي:

كانت السلطات البريطانية تعتبر منطقة الخليج العربي بحيرة بريطانية مقفلة وتنادي بأن حدود الهند تنتهي بالعراق والكويت. فكان الأسطول البريطاني يتردد على موانىء البحرين وبندر عباس وبوشهر والبصرة والكويت وهرمز وجاربار، بهدف حماية التجارة[(٤)].

ولقد أثار النشاط الروسي في منطقة الخليج قلق السلطات البريطانية وبحثت عدة تقارير سياسية وعسكرية وبحرية قضية الدفاع والهجوم على الخليج العربي، فوضعت البحرية البريطانية دراسة حول احتمال وجود أسطول روسي في منطقة الخليج فأشارت إلى قيام روسيا فور حصولها على منفذ في منطقة الخليج بتحصين ذلك الميناء والعمل على ربطه بالسكك الحديدية الروسية عبر إيران. ووجود مثل ذلك الأسطول لا يمثل خطراً كبيراً على البحرية البريطانية بسبب أن معظم الوحدات البحرية الروسية موزعة ما بين بحر البلطيق وبحر الصين، وهذا يسهل مهمة الأسطول البريطاني في القضاء عليه[(٥)]، وقامت العسكرية البريطانية بإعداد عدة

---

(١) محمود الداود: المرجع السابق ص ١٧٢.

(٢) Ronaldshay, Earl: The Life Of Lord Curzon. Vol.2. P.13.

(٣) محمود الداود: المرجع السابق ص ١٦١.

(٤) محمود الداود: الخليج العربي والعلاقات الدولية، جـ ١ ص ١٦٢.

(٥) المرجع السابق ص ١٥٢-١٥٧.

دراسات حول احتمال قيام حرب مع روسيا، وأشارت التقارير ــ في حالة قيام حرب مع روسيا ــ إلى ضرورة توجه الأسطول البريطاني في المحيط الهندي إلى بندر عباس وبوشهر ويقوم بإنزال قوات عسكرية للسيطرة على عربستان لأهميتها الاقتصادية ثم لاحتلال كرمنشاه لوقوعها على طريق العراق. وأوضحت تلك التقارير سهولة السيطرة البريطانية على إيران رغم توقعاتها بمقاومة طفيفة من قبل الشعب الإيراني. أما في حالة هجوم روسي، فقد طالب اللورد سالزبري أن تعمل حكومة الهند على تزويد إيران بالأسلحة والضباط والمال لعرقلة التقدم الروسي فترة تكفي لوصول إمدادات جديدة إلى الأسطول البريطاني في منطقة الخليج(١).

كذلك وجدت بريطانيا في النشاط الروسي الألماني، خاصة سكة حديد بغداد ما يهدد نفوذها ومصالحها في المنطقة فسارعت إلى الاتصال بشيوخ الخليج العربي الذين رفضوا قيام علاقات بينهم وبين روسيا، كما عقدت اتفاقية ١٨٩٩ مع الشيخ مبارك ــ أمير الكويت ــ الذي تعهد بعدم التنازل عن أي جزء من أراضيه لدولة أجنبية بدون موافقة الحكومة البريطانية. ولقد كانت هذه الاتفاقية موجهة ضد النشاط الألماني(٢).

أثر التنافس في إيران على العلاقة الروسية البريطانية:

تطرقنا في الفصل السادس إلى المنافسة الاقتصادية والسياسية في الشمال والشمال الشرقي من إيران، وأشرنا من خلال ذلك إلى إبعادها بين روسيا وبريطانيا في الأراضي الإيرانية، وعرفنا بأن روسيا كانت صاحبة النفوذ القوي في إيران خاصة طهران والأجزاء الشمالية. وحاولت بريطانيا الحفاظ على مصالحها الاقتصادية والاستراتيجية في هذه المنطقة، الأمر الذي دفعها إلى خوض جولات من المنافسة مع روسيا، وترجع أسباب هذه المنافسة إلى ما يلي:

١ ــ توجيه روسيا نشاطها السياسي والإقتصادي بعد مؤتمر برلين إلى آسيا بما في ذلك إيران. وكانت الدول الأوروبية تشجع توجهها هذا حتى لا تثير لهم أزمة أوروبية جديدة.

---

(١) المرجع السابق ص ١٥٦.
(٢) محمود داوود: الخليج العربي والعلاقات الدولية، جـ ١ ص ١٦١.

٢ ــ أهمية إيران التجارية، فكانت إيران تحتل نسبة ٩٠٪ من حجم التبادل التجاري البريطاني في منطقة الخليج العربي. فكانت تأمل زيادة التبادل معها حتى يصل إلى ٣ ملايين جنيه استرليني عام ١٩٠٦ بدلاً من ٤٠٠ ألفاً عام ١٨٩٩ في حين بلغت الصادرات والواردات الروسية مع إيران ما يزيد عن ٣٠ مليون مارك روسي، وارتفع عام ١٩٠٦ إلى ٥٦ مليون مارك(١).

٣ ــ انتشار الفساد بين شاهات إيران وحكوماتهم وتسابق رجالاتهم إلى ممثلي الدولتين لكسب ودهم فتفشى الفساد السياسي والاقتصادي والإداري في البلاد.

ونجحت روسيا في إحراز المكانة الأولى في إيران، ويرجع أسباب نجاحها إلى:

١ ــ سهولة الاتصال البري والبحري (بحر قزوين) بالأراضي الإيرانية، فالسكك الحديدية وإعداد الطرق البرية قد ساعدت على تيسير التنقل وشجعت على النشاط التجاري بين البلدين.

٢ ــ زيادة نفقات روسيا المالية في إيران، وتسهيل القروض للشاه وتقديم الرشاوي لوزرائه والهدايا الثمينة لرجالات بلاطه، ولقد ساعد توغلهم المالي هذا على أن يكونوا قريبين من الشئون الاقتصادية والسياسية الإيرانية.

٣ ــ وجود فرق القازاق الإيرانية والتي دربت على النسق الروسي منذ ١٨٨٣، وكان الضباط الروس على رأس هذه الفرق، ومن الطبيعي أن تسخر هذه الفرق لخدمة المصالح السياسية والاقتصادية الروسية حتى لو تطلب الأمر قصف مبنى المجلس والجامع الكبير في طهران.

موقف بريطانيا من النشاط الروسي في إيران:

اعترف البريطانيون بعجزهم في التغلب على النفوذ الروسي في إيران خاصة الأجزاء الشمالية، بل إن حكومة لندن اعترفت بأنه في مقدور روسيا ضم هذه

---

(١) أنظر الجدول بالملحق.

المنطقة دون أن تكون بريطانيا قادرة على التحرك لمعارضته [١]. وكانت حكومة الهند تنظر بقلق بالغ في التوغل الروسي وتخشى من أن يواصل الروس زحفهم للحصول على ميناء على شاطىء الخليج العربي، والذي دفعها إلى هذا الاعتقاد عزم روسيا على فتح قنصليات لها جديدة في الجنوب، وتزايد عدد السفن الروسية التي كانت تتردد في الخليج، واعتبرت الدوائر البريطانية ذلك الوضع مصدر تهديد للسياسة البريطانية، فقامت حكومة لندن وحكومة الهند بوضع دراسة تكفل لبريطانيا مصالحها خاصة في الجنوب. ففي الهند قام اللورد كيرزون بدراسة الموقف واستقر رأيه على العمل المشترك من جانب روسيا وبريطانيا للإصلاح الإداري والمالي في إيران، وتقسيم إيران إلى منطقتي نفوذ بين الدولتين [٢]. في حين وجدت حكومة لندن ضرورة اتخاذ إجراءات استثنائية لتقوية مركز بريطانيا في الجنوب مثل:

ـ زيادة الأموال المخصصة للسفارة البريطانية في طهران بهدف تسخيرها لشراء القرارات السياسية والاقتصادية ولإغراء رجالات النظام بتأييد السياسة البريطانية.

ـ العمل على التوغل في الجنوب وحماية المصالح البريطانية في هذا الإقليم وإنشاء سكك حديدية فيه لأهداف تجارية وعسكرية.

ـ مساندة الاستقلال المتداعي للبلاد والإعلان عن هدف بريطانيا الرامي إلى حماية استقلال إيران ووحدة أراضيه. ولقد استخدمت بريطانيا هذا الإعلان ستاراً لها كي يساعدها على التوغل في الأوساط الإيرانية حتى تظهر بمظهر الصديق المخلص الحريص على استقلال إيران، عكس حال روسيا التي تتحين الفرص لتحقيق مكاسب ذاتية لها.

ـ لم تهمل بريطانيا استخدام أسلوب التهديد وخاصة عندما أشيع بأن الأسطول الروسي (بحر البلطيق) سوف يقطع طريقه إلى الشرق الأقصى و يتحول ليسيطر على ميناء جاربار الإيراني على المحيط الهندي باتفاق مع حكومة إيران.

---

(١) Ronlandshay, E.: The Life of Lord Curson. Vol. II. P. 27.

(٢) Churchill, Rogers P.: The Ang. R. Con. 1907. P. 214.

ولقد سلمت بريطانيا مذكرة لكل من إيران وروسيا كانت بمثابة إنذار، إذ أعلنت صراحة في يناير ١٩٠٥ بأن بريطانيا لم تقف ساكنة أمام ما يهدد تجارتها ونفوذها الاستراتيجي في هذه الجهة، كما حذرت الحكومة الإيرانية من التخلي عن أي منفذ لها أو أن تسمح بإقامة محطة عسكرية روسية لأن ذلك سيؤدي إلى مشاكل خطيرة [١].

ومن خلال هذا التناقض بين مصالح وطموحات كل من روسيا وبريطانيا، فإن الوصول إلى اتفاق بينهما أمر صعب، ولكن دخول ألمانيا حلبة التنافس في إيران قد غير الموقف كلية. فبدأت روسيا ترتاب من النشاط الألماني في إيران خاصة في الأجزاء الشمالية، فقام المسيو أزنولسكي ــ وزير الخارجية ــ بزيارة برلين في أكتوبر ١٩٠٦ وأوضح للألمان بأن بلاده لا تنظر باطمئنان نحو سياسة ألمانيا الإقتصادية في هذه الجهة، فنشاط البنوك الألمانية وبناء السكك الحديدية، وانتشار خطوط التلغراف يعرض المصالح الروسية للخطر [٢]. وخلال انعقاد مجلس الوزراء الروسي في فبراير ١٩٠٧ تطرق النقاش إلى سكة حديد بغداد، وأعلن المجلس عن معارضته لإنشاء هذا الخط لأنه يعني أن تتوغل التجارة الألمانية إلى مقاطعات إيران الشمالية التي ستفتح أبوابها حتماً للنشاط الأجنبي، كما أن ظروف روسيا الاقتصادية لا تسمح لها بالمشاركة فيه. وكان التقرير العسكري للخط بأنه خسارة عسكرية لروسيا التي ستضطر إلى زيادة عدد قواتها المتمركزة على حدود القوقاز لدرء الأخطار المتوقعة لأن روسيا لا تستطيع منع تنفيذ المشروع بالقوة [٣].

أما بريطانيا، فكانت تنظر بقلق إلى النشاط الألماني في إيران وأعلنت بأنها لن تمنع التجارة المشروعة من إيران والخليج، ولكنها ستقاوم بكل الوسائل محاولات إنشاء قاعدة بحرية أو ميناء عسكري. وأعلنت بعض الأوساط البريطانية ١٩٠٤ بأنها تفضل الوجود الروسي في القسطنطينية على التواجد البحري الألماني في إيران والخليج العربي [٤].

---

(١) Churchill, Rogers P.: The Ang. R. Con. 1907. P. 219.

(٢) Churchill; Rogers. P.: The Ang. R. Con. P. 219.

(٣) Ibid. P. 135-7.

(٤) Ibid. P. 101.

وفي تلك الأثناء طلبت إيران قرضاً من روسيا، وإزاء العجز الروسي عن تلبية هذا الطلب، فإن روسيا لا تمانع في أن تقدم قرضاً مشتركاً مع بريطانيا لإيران حتى تسد الطريق أمام محاولات ألمانيا بتقديم المال للشاه لأنها أي ألمانيا سوف تستغل هذا القرض للتأثير على أمور أخرى في الشئون الإيرانية [1]، وبناء على ذلك يمكن القول بأن الخوف من الخطر الألماني كان أحد العوامل التي ساعدت على بدء المفاوضات بين الطرفين الروسي والبريطاني لتسوية خلافاتهما في إيران.

ثانياً: الوفاق الودي وأثره على العلاقة الروسية البريطانية:

يعتبر الاتفاق البريطاني الياباني خطوة حذرة في السياسة البريطانية للخروج من سياسة العزلة، فلم يعطها ثقلاً استراتيجياً في القارة الأوروبية، بل إن بعض الأوساط الأوروبية قابلت العمل البريطاني بالإزدراء لأنه أدى إلى عقد اتفاق مع السلالة الصفراء، وارتفعت الأوساط التي تحذر الحكومة البريطانية من وضعها السياسي الضعيف في ظل معاداة فرنسا وروسيا معاً وطالبتها بالسعي لتعزيز مركز بريطانيا السياسي دون الاعتماد على قدراتها المالية أو البحرية فقط.

جاء هذا في وقت كان فيه الرأي العام الفرنسي يحبذ فكرة التقارب مع بريطانيا، كما أن أنصار السياسة الاستعمارية أدركوا أهمية الوفاق مع بريطانيا حتى لا تقف عقبة أمام تنفيذ مخططاتهم. ويضاف إلى ذلك أن دلكاسيه كان من أنصار سياسة الوفاق مع بريطانيا، لأن هذا الاتجاه سيعزز من موقف بلاده أمام ألمانيا. ولقد أثارت الزيارات المتبادلة للملك البريطاني والرئيس الفرنسي للعاصمتين البريطانية والفرنسية روحاً جديدة في البلدين لتخطي العقبات التي تعترض الوفاق بين الدولتين والرغبة في العودة إلى صداقة الشعبين القديمة [2]. كما أن تأزم الموقف في الشرق الأقصى وانفجار الحرب الروسية اليابانية، دفع الطرفان إلى الإعتقاد بضرورة سرعة الوصول إلى تسوية شاملة بينهما.

وفي ٨ أبريل ١٩٠٤، توصل الطرفان إلى وفاق أنهى معظم المشاكل المعلقة

---

(١) Churchill: The An. R. Con. P. 134, 151.

(٢) Monger, G.W.: End of Isolation, British Foreign Policy. London. 1963. P. 128-29.

بينهما في مصر والمغرب وغربي أفريقيا ومدغشقر وجنوب شرقي آسيا[1].

المشكلة المغربية:

أدركت ألمانيا أنها المقصودة من وراء الوفاق الودي، فحاولت كسر سلسلة المحالفات التي عقدتها فرنسا وفشلت مع روسيا رغم نجاحها المبدئي مع القيصر، فاتجهت بعد ذلك إلى اختبار صلابة الوفاق الودي في المشكلة المغربية والتي ظهرت بسبب تضارب المصالح الاقتصادية والاستراتيجية للدول الأوروبية، فألمانيا وجدت فيها ما يخدم سياستها الأوروبية الرامية لإضعاف التحالف الفرنسي الروسي ولاستعراض قوتها البحرية النامية ولضمان مصالحها الاقتصادية. أما فرنسا فقد وجدت في المشكلة المغربية ما يخدم سياستها الاستعمارية في الشمال الأفريقي، كما أنها بحاجة إلى إحراز بعض النجاح الذي من شأنه أن يزيل الإذلال الذي لحق فرنسا من جراء حادثة فاشودة[2]، إلى جانب مصالحها الاقتصادية.

أما بريطانيا فقد كانت لا تحبذ إثارة المشكلة المغربية في ظل هيمنتها الاقتصادية والاستراتيجية، وهذا ما دفعها إلى التردد في اتخاذ قرار بشأن المبادرة الفرنسية لحل المشكلة[3]. ولقد شهدت باريس ومدريد ولندن اتصالات دبلوماسية مكثفة لتحديد مناطق نفوذ كل واحدة منهم في الأراضي المغربية الأمر الذي أثار سخط برلين، وحاولت فرنسا بعد زيارة الامبراطور لمدينة طنجة أن تخفف من حدة سخط ألمانيا، فأرسلت لها عدة مذكرات توضح الموقف الفرنسي. وفي ٨ يونيو ١٩٠٥ طالبت ألمانيا بعقد مؤتمر لبحث المشكلة، وعقد هذا في ١٦ يناير ١٩٠٦ بالجزيرة والتزمت حكومة الأحرار بالموقف الفرنسي الذي ساندته روسيا[4]. وفشلت ألمانيا في تقويض الوفاق الودي، بل ساعد على تمهيد الطريق أمام الاتصالات الروسية البريطانية.

---

(١) Gooch ® Temperlly: The British Document on the Origins of the War, 1898-1914. Vol. 4. Inclosure in No. 57. Memorandum by Mr. Holer. Dated; Nov. 13, 1904. P. 64-66.

(٢) Gifford, Presser ® Roger, Louis: France ® Britain in Africa. Yale Univ. Press. 1971. P. 335.

(٣) Monger, G.W.: End of Isolation, P. 132.

(٤) Ibid. P. 257.

ثالثاً: الصراع في الشرق الأقصى وأثره على الوفاق الروسي البريطاني:

الوفاق البريطاني الياباني عام ١٩٠٢:

أشرنا إلى أن بريطانيا كانت تسعى إلى الخروج من عزلتها، وفشلت محاولاتها للتقارب مع ألمانيا فأخذت تفتش عن حليف آخر، وقد وجدته في غير الدول الأوروبية، ونعني بذلك اليابان. وكانت هناك دلائل تشير إلى التقارب بينهما، ومن ذلك أن بريطانيا لم تشترك مع الدول الأوروبية الثلاث التي وجهت إنذاراً إلى اليابان، ورحبت اليابان بالاحتلال البريطاني لميناء وي هاي وي، كرد على احتلال روسيا لميناء بورت أرثر، وتأييد كل منهما لسياسة الباب المفتوح في الصين إلى جانب مخاوفهما من الخطر الروسي، كما أن قواتهما كانت من أولى القوات التي تحركت نحو بكين في أعقاب انتشار ثورة البوكسر عام ١٩٠٠[١]. ولقد بدأت المباحثات بين الدولتين في إبريل ١٩٠١ وسط ترحيب الأوساط البريطانية واليابانية على السواء[٢]. وتوصل الطرفان في ٣٠ يناير ١٩٠٢ إلى مشروع الوفاق بينهما والذي خلق نوعاً من الإحساس بالأمان لكل منهما في الشرق الأقصى، واعترف الطرفان ضمنياً بالنفوذ الياباني في كوريا. وشعرت روسيا أنها المعنية من وراء الوفاق الياباني البريطاني، ولذلك اقترح القيصر عقد مؤتمر للدول الكبرى تتدارس فيه أسباب الصراع والعمل على منع تدهور العلاقات الدولية[٣]. وأدركت الدوائر الأوروبية دوافع الاقتراح الروسي خاصة ما سببه الوفاق البريطاني الياباني من قلق لذلك لم تكترث به[٤].

الحرب الروسية اليابانية:

كان التنافس الاستعماري في منشوريا وكوريا من الأسباب التي فجرت الحرب بين روسيا واليابان، فتحصين روسيا لميناء بورت أرثر ورغبتها في ربط منشوريا بسكة حديد سيبيريا، والتأثير الروسي على الحياة الاقتصادية والمالية

---

(١) Churchill: The Ang. R. Con. 1907. PP. 49-50.

(٢) Gooch ® T.: The Brit. Doc. on the Org. of the War. vol. 4. No. 118. Agreement Between the United Kingdom ® Japan relative China ® Corea. PP. 118-130.

(٣) Ibid. Vol. II; No. 125. Anglo-Japanese Agreement. Jan. 30, 1902. PP. 114-120.

(٤) Churchill: The Ang. R. Con. 1907. P. 50.

لكوريا، أثار مخاوف اليابان في أن يكون ذلك مقدمة لتوطيد النفوذ الروسي في كوريا التي يعتبرها اليابانيون «سهم صوب رأسه إلى اليابان». ووجد اليابانيون في المقترحات الروسية بادره مشجعة لتسوية الخلاف القائم بينهما(١)، ولكن السلطة العسكرية والتي أصبحت تمثل النفوذ الأقوى في الحكومة الروسية منذ اكتوبر ١٩٠٣، كانت تصر على استمرار الحرب حتى يشمل كل كوريا(٢). في حين كانت تصر اليابان على عودة منشوريا إلى الصين وأن تكون جنوب كوريا منطقة محايدة(٣).

شعر السياسيون الروس بخطورة الوضع إزاء تزمت الجانبين خلال مباحثاتهما والهوة التي تفصل بينهما، ولذلك اتصلوا بفرنسا وبريطانيا على أمل إقناع اليابان بضبط النفس ريثما تتم محاولتهم للتأثير على السلطة العسكرية، وحثها على مزيد من الإعتدال. ورفض المستر لانسدون أن تقوم بلاده بأي ضغط على اليابان وتذرع بأن الحكومة اليابانية لا ترغب في تدخل أي طرف، وبالرغم من جهود دلكاسيه، إلا أنه فشل في محاولته للتأثير على الموقف الياباني(٤).

لا شك أن موقف بريطانيا السلبي هذا قد شجع اليابان على تصعيد الموقف، فقطع اليابانيون المفاوضات في ٦ فبراير ١٩٠٤ ودفعوا بقواتهم إلى بورت أرثر (٨ فبراير)، وكان هذا بداية اشتعال الحرب الروسية اليابانية التي واجهت خلالها روسيا هزيمة قاسية. وتركت هزيمة روسيا أصداءاً واسعة على المستويين الداخلي والخارجي، فلقد كان الرأي العام الروسي يريد السلام بدون القيام بانتقام ثأري، بل إن بعض القطاعات الروسية كانت تطالب بالتحالف مع اليابان بعد إتمام الصلح معها، ولكن القيصر وقيادته العسكرية يريدون استمرار القتال حتى يتم لهم تحقيق نصر يحفظ لهم ماء وجههم. وتحولت مشاعر سخط الروس إلى ثورة ضد القيصرية التي واجهتها بكل عنف، وراح عدة آلاف ضحية الإجراءات القمعية(٥)، كما اشتدت الحركة المطالبة بالإصلاح الدستوري واضطرت الحكومة

---

(١) Gooch ® T.: The Brit. Doc. on the Orig. of the War. Vol. 4. In. No. 66. R. Counter Proposal to Japan. PP. 74-5.

(٢) Albrecht, René: A Diploatic Hist. Of Europe Since the Congress of Vienna. PP. 245-6.

(٣) Churchill: The Ang. R. Con. 1907, P. 53.

(٤) Ibid. P. 54.

(٥) Churchill: The Ang. R. Con. 1907. PP. 84-5.

إلى إجراء انتخابات كانت الأولى في تاريخ روسيا (١٩٠٦) وأصبح لروسيا دستور، ولكن الحكومة كانت تعتقد أن ذلك الدستور مجرد ستار تحجب به الطموح الوطنية، ولذلك لم تهتم بقوانينه ومن الطبيعي أن يواجه أعضاء المجلس هذا السلوك بنوع من الجفاء، ولذلك كانت العلاقة بين المجلس والحكومة غير منسجمة.

وقد أثار عدم الإستقرار الداخلي قلق الحكومة الروسية التي أرادت أن تنهي أمر السلام مع اليابان بأقصى سرعة كي تتفرغ لمواجهة التذمر الشعبي في بلادها[١]. وفي الخارج فقد أدت هزيمة روسيا إلى تدهور هيبتها في القارة الآسيوية ابتداءاً من الشرق الأقصى ومروراً بإيران وأفغانستان، كما أن الدوائر الأوروبية وبدافع من تعصبها وإحساسها بالتفوق الحضاري كانت لا تريد أن تقر بواقع هزيمة روسيا إذ ظلت تعتقد بأن الوقت لصالح روسيا خاصة بعد احتمالات وصول الإمدادات إلى ساحة القتال[٢]، كما أن الأحرار البريطانيين كانوا ينظرون بالعطف تجاه المحاولة المتعثرة التي قامت بها الطبقة الوسطى لإقامة نظام برلماني[٣].

أنهت معاهدة بورتسموث الحرب (٥ نوفمبر ١٩٠٦) وحصلت اليابان بمقتضاها على مكاسب كبيرة في الشرق الأقصى، فقد اعترفت روسيا بتفوق المصالح اليابانية الإقتصادية والعسكرية في كل من كوريا ومنشوريا وتنازلت روسيا عن بعض الأراضي الصينية التي تحت نفوذها لليابان مثل لياوتونج، وبورت أرثر، وخط حديد بورت أرثر سوكون ونصف سخالين[٤]. ولم تنه المعاهدة الخلاف الروسي الياباني، فقد كانت روسيا تريد إقراراً من اليابان بمصالحها في منشوريا، كما أن اليابان كانت تشعر بأن المعاهدة السابقة لم تحقق المكاسب التي كانت ترجوها من وراء الحرب التي خاضتها مع روسيا، ولذلك طالبت السلطات العسكرية بأن تعمل الحكومة على تعويض خسارة بورتسموث عن طريق الاستفادة بأكبر قدر ممكن في منشوريا وكوريا، ولذلك تنكرت اليابان للاتفاق الذي عقد

(١) Stephenson, Graham: A Hist. of Russia. London: Macmillan. 1969. PP. 205-29.

(٢) Churchill: The Ang. R. Con. 1907. P. 63.

(٣) Stephenson, G.: A Hist. of Russia. P. 290.

(٤) عبد العزيز نوار: التاريخ المعاصر، أوروبا ص ٣٤٧-٣٤٨.

في أكتوبر عام ١٩٠٥ بين شركات يابانية وأمريكية، والتي كانت تعبر عن سياسة الباب المفتوح في جنوب منشوريا، كما أصدر الامبراطور أمراً (يونيو ١٩٠٦) بنظم شركة جنوب منشوريا للسكك الحديدية وبمقتضاه اقتصرت ملكية الأسهم فيها على الصينيين واليابانيين فقط، وفشل إيتو Itto رئيس الحكومة في محاولته لإقناع العسكريين بالاعتدال(١)، إلا أنه أوجد أملاً طفيفاً في الاتفاق مع روسيا خلال المفاوضات التي بدأت معها في صيف عام ١٩٠٦، وحتى أواخر العام لم تحرز المباحثات بين الطرفين نتائج تذكر بسبب مطالب اليابان في السيطرة على معظم المصائد الصينية، وحق الملاحة في نهر سينجاري Sungari وفروعه والذي كان حقاً روسياً حصلت عليه بمقتضى اتفاق سابق مع الصين إلى جانب اعتقاد العسكريين بقدرتهم على فرض شروطهم على روسيا الضعيفة آنذاك.

اعتقدت الخارجية الروسية بأن القيام بحملة دبلوماسية وإعلامية سوف يدفع اليابان إلى تغيير موقفها، ولذلك اتصل الوزير الروسي أزفولسكي بالسفير الأمريكي في سنت بطرسبورج وأوضح له أهداف اليابان في الشرق الأقصى على ضوء الظروف الأخيرة. والولايات المتحدة من بين الدول التي لها مصالح تجارية في الصين تؤيد سياسة الباب المفتوح، كما أنها مارست بعض الضغوط على اليابان خلال مباحثات بورتسموث للوصول إلى اتفاق. كما اتصلت روسيا بفرنسا التي زاد اهتمامها الإقتصادي في الصين في الآونة الأخيرة في المناطق الجنوبية القريبة من الهند الصينية. وكانت فرنسا تخشى من أن تدفع الحماسة اليابانيين بعد انتصارهم على روسيا إلى التدخل في شئون الهند الصينية، ولذلك قامت بمعارضة مستترة لليابان كانت واضحة في تقديم المساعدة لمرور سفن الأسطول الروسي (بحر البلطيق)، واستغلت فرنسا فرصة طلب اليابان ـــ عن طريق سفيرها في باريس ـــ لقرض فرنسي مع بداية عام ١٩٠٧، فنظرت إلى المسألة من زاوية أخرى، فقد وضعت في اعتبارها مقابل تقديم المال لليابان تحقيق هدفين:

الأول: اقتصادي وهو الحفاظ على مصالحها الاقتصادية في جنوب الصين.

الثاني: سياسي ذلك أن التعاون مع اليابان سوف يعزز موقف فرنسا في الشرق

(١) Edwards, E.W.: Journal of Modern Hist. December, 1954, Vol. 26. P. 342.

الأقصى، يضاف إلى ذلك تسهيل مهمة الوفاق بين اليابان وروسيا لأن فرنسا حريصة على تحالفها مع روسيا، إذ كانت تخشى من محاولة إحياء تحالف الأباطرة الثلاثة. وعلى ذلك فإن وجود روسيا في دائرة التحالفات الفرنسية أكثر أهمية من اعتبارات الشرق الأقصى.

ومن هذا المنطلق فإن السياسة الفرنسية تحركت لتدعيم موقف روسيا خلال مباحثاتها مع اليابان، بل أن فرنسا وضعت أموالها كسلاح في يد الروس وأن عجز اليابان في العثور على احتياجاتها المالية في لندن قد جعل تغيير موقفها أمراً لا مفر منه.

الوفاق الفرنسي الياباني (١٠ يونيو ١٩٠٧):

سارت المباحثات اليابانية الفرنسية بدون صعوبات تذكر منذ فبراير ١٩٠٧ وكانت فرنسا حريصة على مشاورة روسيا من خلال سفيرها في سنت بطرسبورج وتوصل الطرفان إلى وفاق بينهما في يونيو ١٩٠٧ تضمن مبادىء احترام واستقلال الأراضي الصينية، وفتح أبواب الصين لتجارة جميع الشعوب، والمعاملة بالمثل للرعايا الفرنسيين واليابانيين في مناطق نفوذ كل منهما، واعترفت فرنسا بنفوذ اليابان في جنوب منشوريا وفوكين، كما اعترفت اليابان بنفوذ فرنسا في يونان، وكوانج تونج، وكوانج تسي(١).

الوفاق الروسي الياباني (يوليو ١٩٠٧):

في الوقت الذي كانت تجري فيه الاتصالات اليابانية الفرنسية، كانت هناك مباحثات يابانية وروسية، ولم توقع فرنسا اتفاقها مع اليابان إلا بعد أن تأكدت بأن هناك اتفاقاً سيتم بين روسيا واليابان. وبالفعل وقع الجانب الروسي والجانب الياباني على مشروع وفاق بينهما والذي فض الخلافات بين الدولتين في منغوليا ومنشوريا وشمل على اعتراف الدولتين باستقلال الصين والإقرار بسياسة الباب المفتوح وموافقة الدولتين على استمرار الوضع الراهن في الشرق الأقصى (في ذلك الوقت) واحترام كل طرف لمناطق نفوذ الطرف الآخر، وقسمت منشوريا إلى

(١) Edwards; E.W.: Journal of Modern Hist. Vol, 26. PP. 348-349.

قسمين، كان نصيب روسيا القسم الجنوبي واليابان القسم الشمالي، واعتراف روسيا بنفوذ اليابان في كوريا، بينما اعترفت اليابان بالمصالح الخاصة لروسيا في منغوليا الخارجية (١).

ولقد أدى هذا الوفاق إلى شعور اليابان بالاطمئنان في الشرق الأقصى فلم تعد تتوقع قيام دول أوروبا بتبني إجراء مشترك كما حدث عام ١٨٩٥، وفي نفس الوقت سهلت مهمة حصولها على المال الفرنسي. وعلى الجانب الروسي، فإن روسيا تستطيع أن تنظر بمزيد من الثقة إلى المستقبل بعد أن وضعت حد لاحتمالات الثأر التي كان يريدها العسكريون الروس، كما أنها بسطت سيطرتها على منغوليا والجزء الجنوبي من منشوريا، وهي مناطق هامة في خطة التوسع الاقتصادي الروسي وأعطت روسيا حرية المشاركة بقدر أكبر في الشئون الأوروبية، وفوق هذا، فقد مهدت الطريق أمام الوفاق في أغسطس عام ١٩٠٧ (٢).

رابعاً: محاولات التقارب الروسي البريطاني:

كان وفاق ١٩٠٧ تتويجاً لسلسلة من الاتصالات الروسية البريطانية بدأت منذ صيف ١٨٨٨ حينما كان القيصر الروسي في زيارة لبرلين، وأقدم أمير ويلز، بدون الرجوع إلى وزارة الخارجية البريطانية، على تقديم اقتراح بتقسيم إيران إلى منطقتي نفوذ بين روسيا وبريطانيا، وأبدى القيصر استعداد بلاده للوصول إلى اتفاق مع بريطانيا في إيران كخطوة تمهيدية لتسوية جميع المسائل المعلقة بينهما في آسيا، ولم يخف مشاعر بلاده في العيش بسلام وإرساء دعائم ودية مع بريطانيا.

أبدت الأوساط السياسية البريطانية امتعاضها لهذه المحاولة، إذ كانت تخشى أن يستغل الروس نفوذهم في طهران لمصلحتهم الخاصة دون اعتبار للمصالح البريطانية، كما أنها كانت تفتقد الثقة في الوعود الروسية، وإن عبارات القيصر من وجهة نظرها كلمات رقيقة خالية من أي مضمون حقيقي (٣).

ويبدو أن بريطانيا لم تكن تميل في ذلك الوقت إلى التفاهم مع روسيا لأنها

(١) Edwards, E.W.: Journal of Modern Hit. Vol. 26. P. 350.

(٢) Ibid. PP. 351-4.

(٣) Churchill: The Ang. R. Con. 1907. P. 12.

لم تعد تمثل ذلك الخطر الذي كانت تخشاه خلال السبعينيات والثمانينيات على وجودها في الهند، وذلك يرجع إلى:

١ ــ إعطاء المواقع الجبلية أهمية أكبر من حيث الأثر الحربي في حماية الهند وعرقلة الزحف المعادي (الروسي).

٢ ــ إن الرأي العام البريطاني لم يعد يهتم بالتهديدات الروسية بل إن نسبة من البريطانيين كانت تعتقد بأن روسيا أصبحت بدورها تتخوف من أن تقوم بريطانيا بتهديد نفوذها في وسط آسيا الإسلامية أو أن تعرقل التدخل الروسي في إيران[١].

وفي أواخر القرن الماضي كانت بريطانيا تواجه مشاكل استعمارية في آسيا وأفريقيا وإنها لا تستطيع بسياسة العزلة التي تتبعها أن تخوض بنجاح معارك المنافسة مع القوى الأخرى، ولذلك مال المسئولون البريطانيون إلى قيام علاقات حسنة من روسيا، فبدأت بريطانيا ومنذ (١٨٩٦) تحت قيادة حكومة سالزبري تدريجياً في بذل مجهودات لتحسين وضع بريطانيا الدولي، وظهرت العبارات التي تطالب بضرورة تسوية الصعاب الخارجية ومن بينها تلك التي تتعلق بالمنافسة مع روسيا في القارة الآسيوية[٢]. ولتحقيق مثل هذا الأمر يتطلب وجود ثقة بين الطرفين، فكان يجب على البريطانيين أن يقنعوا الروس بأن حرب القرم ومؤتمر برلين قد طويت صفحتاهما وإنه حان الوقت للوصول إلى حل لمشاكل الدولتين.

وفي المقابل أعلنت روسيا خلال زيارة القيصر لبريطانيا في صيف ١٨٩٦ عن موقفها للسير مع بريطانيا بشأن التفاهم وضمان المصالح المتبادلة، وأن الهند بعيدة عن أنظار الروس وطموحاتهم[٣]. وقابل البريطانيون إعلان القيصر بكل ترحاب وأوضح سالزبري بأنه لا يوجد ما يحول دون التفاوض مع روسيا شأنها في ذلك شأن بقية الدول الأخرى، وأعرب تشمبرلين ــ وزير المستعمرات ــ للسفير الروسي في لندن عن أمله في ألا يكون هناك تناقض بين المصالح الروسية والبريطانية في آسيا.

(١) Churchill: The Ang. R. Con. 1907. PP. 13-14.

(٢) Ibid. P. 15.

(٣) Ibid. P. 16.

مع بداية عام (١٨٩٧) انتقد رئيس الحكومة البريطانية سياسة بلاده في حرب القرم ومؤتمر برلين وأطلق ملاحظته الشهيرة بأن بريطانيا قد راهنت على حصان خاسر.

وفي الجانب الروسي، أظهرت السياسة الروسية عداءها لبريطانيا بالرغم من كلمات القيصر الودية، وأعلن مورافيف Muravyev ـــ وزير الخارجية الروسية ـــ في برلين بأن بريطانيا ستظل العدو الرئيسي لبلاده، وكانت الصحف الروسية تنتقد السياسة البريطانية في آسيا الصغرى والشرق الأقصى ومصر، وأعلن القيصر نيقولا الثاني بأنه سيعيش حتى يرى بريطانيا وقد خرجت من مصر[١].

تضارب المصالح الروسية والبريطانية في الشرق الأقصى:

كانت المصالح الروسية متمركزة في شمال الصين خاصة في منشوريا، في حين كانت مصالح بريطانيا في وادي يانجتسي Yangtse في الجنوب. وكانت كل دولة ترتاب من تحرك الأخرى في الصين، وزاد من المخاوف البريطانية نزول القوات الروسية إلى ميناء بورت أرثر[٢].

وانطلاقاً من النهج الودي نحو روسيا والذي اختطه سالزبري، قررت الحكومة البريطانية في يناير ١٨٩٨ القيام بمبادرة لتحديد مصالح كل من روسيا وبريطانيا في الصين، وأعلنت بريطانيا عن استعدادها لمساعدة روسيا في بلوغ أهدافها في الشمال في مقابل احترام روسيا لمصالح بريطانيا في الجنوب. وهذه المبادرة تضمن لبريطانيا هدفين:

الأول ـــ حرية الحركة في البحر الأصفر وخليج تشبلي.
الثاني ـــ إشعار روسيا بالأمان خاصة وأن بريطانيا ستمتنع عن التوغل إلى الشمال.

ولكن من ناحية أخرى كانت روسيا تنظر بعين القلق للمبادرة البريطانية، خاصة وأن ألمانيا قد سيطرت على إقليم كياوتشا في ١٤ نوفمبر ١٨٩٧، وهذا بدوره سوف يصعد من حدة التنافس الاستعماري، كما أنها لم تنته بعد من إتمام

(١) Churchill: The Ang. R. Con. 1907. P. 17.

(٢) Rostovsky, Lobonov: R. ® Asia. P. 228.

خط حديد سيبيريا الذي تضع آمالاً اقتصادية وحربية هامة، ولذلك قدمت لبريطانيا بعض التوضيحات حول:

١ ــ موقف بريطانيا إذا ما استمر الاحتلال الروسي لميناء بورت أرثر.

٢ ــ موقف بريطانيا في حالة تطور النزاع بين روسيا واليابان. وكانت الحكومة الروسية تعتقد بأن الخلاف مع اليابان في الشرق الأقصى سوف يتطور بينهما، وكانت تريد من بريطانيا في هذا الوضع ألا تقوم بالتعاون مع اليابان أو أن تقدم لها المساعدة ضد روسيا.

وقبل وصول الرد البريطاني، أعلن القيصر في ٢ نوفمبر ١٨٩٨ عن موافقته على الدخول في مفاوضات مع بريطانيا بشأن المشكلة الصينية، وكان يأمل أن يكون هذا بداية لتصفية الخلافات بين البلدين (١). وقبل أن تأخذ المفاوضات طابعها الجدي ظهرت مشكلتان:

الأولى ــ مرض مورافيف وتولي الكونت لامسدروف منصبه مؤقتاً ويحتاج بعض الوقت لاستيعاب مشاكل روسيا السياسية.

الثانية ــ معارضة روسيا لتقديم بريطانيا قرضاً للصين، وكانت الصين قد حصلت على قرضين عام ١٨٩٦، الأول من روسيا، والثاني من بيوت مالية ألمانية وبريطانية، ولكن هذه الأموال لم تكف الحكومة الصينية، بل طالبت بالمزيد وبدأت في العام التالي اتصالاتها مع البيوت المالية الألمانية والبريطانية لقرض قيمته ١٦ مليون جنيه استرليني.

ولقد احتجت روسيا على تصرف الحكومة الصينية، الأمر الذي أدى إلى وقف إجراءات إتمام القرض. وطالب السفير البريطاني في العاصمة الروسية بسحب الإعتراض الروسي حتى تسير المفاوضات بين الجانبين سيراً حسناً (٢).

تذرعت روسيا بعدم إلمامها بالظروف المحيطة بموضوع القرض، ولكنها تهدف في الحقيقة إلى الاشتراك مع بريطانيا في تقديمه، وهذا ما ترفضه بريطانيا التي كانت ترى بضرورة تسوية الخلافات المعلقة بين الطرفين أولاً.

---

(١) Churchill: The Ang. R. Con. 1907. PP. 20-21.

(٢) Ibid. P. 1907. P. 22.

اقتراح القيصر الروسي:

وفي ١٢ فبراير ١٨٩٨ قدم القيصر اقتراحاً يهدف إلى إزالة معوقات المفاوضات، و يقضي بسحب المعارضة الروسية للقرض البريطاني في مقابل موافقة بريطانيا على استئجار روسيا لميناء بورت أرثر و Talianwan لمدة ٢٠ عاماً أو أي ميناء آخر يقع شمال الصين لا تتجمد مياهه(١).

وترجع دوافع الطلب الروسي هذا إلى ما يلي:

١ ــ رغبة روسيا في الحصول على منفذ بحري لها على المحيط الهادي لا تتجمد مياهه، تستطيع السفن الروسية التزود منه بالوقود وتلجأ إليه للإصلاح في حالة عطبها(٢).

٢ ــ أن روسيا تهدف إلى أن تجعل منه قاعدة للحفاظ على مصالحها الاقتصادية والاستراتيجية في شمال الصين وخليج تشيلي إلى جانب أهميته في مواجهة اليابان منافسة روسيا في الشرق الأقصى.

٣ ــ الأهمية التجارية لهذا المنفذ لأنه سيكون نهاية خط حديد سيبيريا، ولذلك فإن روسيا لا ترغب بعد ذلك العناء الذي تحملته لكي ينتهي هذا الخط عند منطقة تتجمد مياهها فترات من السنة.

كانت بريطانيا ترى أنها إذا ما قبلت بهذا الشرط، فإنها ستعمل على تحطيم الامبراطورية الصينية خاصة وأن القوى الطامعة تتربص الفرص المواتية للانقضاض على الأراضي الصينية، فرفضت الاقتراح الروسي و بذلك فشلت هذه المحاولة للوصول إلى تفاهم بين الطرفين. وتحولت بريطانيا إلى تحقيق مصالحها بدون الرجوع إلى روسيا، فلجأت إلى طرق سرية في الدوائر الصينية لتحقيق هدفها في إبرام القرض ونجحت في ذلك.

موقف روسيا:

نقل السفير الروسي في لندن المعلومات الخاصة بالقرض لحكومته وأعلنت

(١) Ibid. P. 23.

(٢) Ibid P. 24.

الخارجية الروسية عن أسفها للتصرف البريطاني، واتهمت الحكومة الصينية بنقض التزاماتها مع روسيا[١]، وبررت رغبتها في استئجار بورت أرثر أو غيره بدافع حاجة روسيا الحيوية والاستراتيجية له، وليس بدافع المقايضة للقرض البريطاني أو مكافأة للجهود التي بذلتها روسيا خلال الحرب الصينية اليابانية[٢].

وعموماً فإن الإجراء البريطاني قد شجع الحكومة الروسية على أن تمارس ضغطاً على الصين لتنفيذ أهدافها في بورت أرثر، ولم تكن الحكومة الصينية في وضع يمكنها من معارضة المطالب الروسية، فاضطرت في ١٨٩٨ إلى الموافقة على تأجير بورت أرثر لمدة ٢٥ عاماً مع حق إنشاء خط حديدي يتصل بسكة حديد منشوريا.

موقف بريطانيا:

تحركت بريطانيا سريعاً من أجل الحصول على مكاسب تعادل تلك التي أحرزتها روسيا، وكانت أنظارها تتجه نحو ميناء وي هاي وي، ولا سيما وقد جرت اتصالات تمهيدية مع اليابان التي كانت تسيطر على المكان[٣]، ووعدت اليابان بتسليم الميناء لبريطانيا قبيل الجلاء عنه. ومما دفع اليابان إلى هذا الموقف أنها كانت تخشى أن يقع الميناء في أيدي قوى أخرى تتناقض مصالحها مع المصالح اليابانية في الصين، واضطرت الحكومة الصينية إلى الموافقة في ٢ إبريل ١٨٩٨ على تأجير ميناء وي هاي وي، لبريطانيا بشروط مشابهة لتلك التي عقدتها روسيا بشأن بورت أرثر على أن يكون بداية تنفيذ تلك الشروط فور جلاء القوات اليابانية عن الميناء وأن يستمر الوجود البريطاني فيه طالما ظل الروس في بورت أرثر، كذلك منحت بريطانيا كولون مقابل جزيرة هونج كونج[٤].

مشروع الوفاق البريطاني الروسي في الصين:

وخلال شهر يوليو ١٨٩٨، ومع قدوم السفير البريطاني الجديد للعاصمة

(١) Churchill: The Ang. R. Con. 1907. P. 24.

(٢) Ibid. P. 25.

(٣) Ibid. P. 26.

(٤) Ibid P. 27.

الروسية وهو السير شارلز سكوت، فقد لاح في الأفق نوعاً من الأمل في التقارب بين بريطانيا وروسيا، فتلاشت الإنتقادات بين الجانبين وانكبت الخارجية البريطانية على إعداد مشروع للوفاق بين الجانبين في الصين وسلمته للحكومة الروسية في ١٦ سبتمبر وحددت بريطانيا في مشروعها مناطق النفوذ الروسي في منشوريا والبريطاني في وادي يانجتسي، وأن تمتنع كل دولة عن البحث في مشاريع إنشائية أو استثمارية سواء لها أو لرعاياها في منطقة نفوذ الدولة الأخرى(١).

ولم يشمل المشروع البريطاني طموحات روسيا في الصين إلى جانب سخط وزير المالية الروسية عليه، لأنه يمنع مشاركة البنك الصيني الروسي من المساهمة في القسم الجنوبي من الصين.

وفي أواخر ١٨٩٨ بدأ المسئولون البريطانيون يميلون أكثر إلى فكرة التفاوض مع روسيا خاصة بعد فشل بريطانيا في الخروج من عزلتها وتشكيل تحالف مع ألمانيا، كما أن و يت قد خفف من معارضته للمشروع البريطاني وأعرب عن أمله في إرساء أسس علاقات ودية ومتينة مع بريطانيا وتخطي جميع الصعاب التي تحول دون تحقيق ذلك.

و يبدو أن ما دفع روسيا إلى هذا الاتجاه هو حرصها بألا تندفع بريطانيا إلى اليابان بعد ذلك التفاهم الذي تم بينهما بشأن وي هاي وي، واليابان في نظر الدوائر الرسمية هي المنافس الأكثر خطراً على مصالحها في الصين.

في ظل هذه المعطيات، بدأت المفاوضات بين الجانبين، وتوصل الطرفان في ٢٨ إبريل ١٨٩٩ إلى التوقيع على اتفاقية تضمنت تحديد نفوذ كل منهما في الصين طبقاً لما جاء في المشروع السابق، واعترفت روسيا بحقوق بعض البريطانيين خارج المنطقة المحددة لبريطانيا خاصة في الوسط. وتركت الاتفاقية للحكومة الصينية الموافقة عليها، ولكن الحكومة الروسية مارست ضغطاً عليها للحصول على موافقتها، كما تعهدت الحكومة الصينية بعدم السماح بإنشاء خطوط حديدية في الشمال أو الشمال الشرقي لغير الروس أو بدون موافقتهم. وكانت روسيا مسرورة

---

(١) Ibid. P. 28.

من هذا لأنه في نظرها يوازي ما غنمته بريطانيا في العام السابق(١).

وفي الجانب البريطاني كانت الاتفاقية خطوة حذرة في سياستها للخروج من عزلتها المجيدة، وفي نفس الوقت محاولة لأجل الوصول إلى اتفاق سلمي لجميع مناطق النزاع مع روسيا(٢)، وطالبت بعض الأوساط في أن تمتد هذه الروح كي تشمل إيران. ولكن هذا الشعور لم يدم طويلاً، فسلوك روسيا فيما يتعلق ببورت أرثر واحتمال ربطه بسكة حديد سيبيريا دفع بريطانيا إلى الاعتقاد بأن روسيا ستندفع في عمليات جديدة تهدف إلى كسب مزيد من الامتيازات في الصين، بل والتطلع إلى كوريا خاصة ميناء Masamp. ولقد ثبت صحة التوقعات البريطانية هذه عندما أجبرت روسيا الحكومة الكورية في ٣٠ مارس ١٩٠٠، على توقيع معاهدة منحت روسيا بمقتضاها الأراضي المحيطة بالميناء السابق لبناء مستودع للفحم أو مستشفى بحري وكانت الدوائر البريطانية واليابانية تخشى من أن يحول الروس هذا الميناء إلى قاعدة عسكرية أو بحرية تشكل تهديداً لليابان(٣)، ولكن انفجار ثورة البوكسر غير الموقف فقد هاجم الصينيون الخط الحديدي في منشوريا (يوليو ١٩٠٠)، وبدأت محاولة روسية جديدة بسيطرة قواتها على تلك المقاطعة وعلى مدينة نيو شاونج New chawang وعلى إدارة جماركها، وأكد وزير الخارجية الجديد الكونت لامسدروف بأن بقاء القوات الروسية ليس دائماً، بل ستنسحب فور انتشار الطمأنينة والسلام والتزام الصين بحماية الخط من الغارات في المستقبل(٤).

إن عمل روسيا هذا يتناقض مع ما أعلنته مع القوى الأخرى لضمان ولحماية الأراضي الصينية واحترام حقوق الدول الأخرى، ولذلك سعت اليابان وبريطانيا إلى تقويض الإنجاز الروسي هذا فحرضتا الصين على عدم توقيع معاهدة منفصلة مع روسيا وكانت الصين تنتظر هذا الموقف بفارغ الصبر، فرفضت على الفور الشروط التي قدمتها روسيا لها.

---

(١) Rostovsky, Lobonov: R. ® Asia. P. 229.

(٢) Churchill: The Ang. R. Con. 1907. P. 33.

(٣) Ibid. PP. 42-43.

(٤) Ibid. P. 44.

وبالرغم من المرارة التي كان يشعر بها البريطانيون من جراء سلوك روسيا خلال حرب البوير، إلا أن الأمل كان يحدوهم في الوصول إلى اتفاق مع روسيا بشأن المشكلة الصينية، فقد كانت الخارجية البريطانية تعتقد بأن روسيا ما زالت رغم التناقض السياسي معها تحتفظ بشعور الصداقة لبريطانيا، كما أن وزير الخارجية الجديد قد شرع في تبني سياسة أكثر ميلاً لبريطانيا منذ أواخر عام ١٩٠٠ ولعل ذلك ناتج عن مخاوف روسيا من الأطماع اليابانية(١).

موقف روسيا من السياسة البريطانية خلال حرب البوير:

وخلال اشتعال حرب البوير، أظهرت روسيا العداء لسياسة بريطانيا وكان ذلك واضحاً في التالي:

١ ــ تحريك قواتها في وسط آسيا الإسلامية بقصد إثارة مخاوف بريطانيا.

٢ ــ محاولة تشكيل جبهة أوروبية للعمل المشترك ضد سياسة بريطانيا في حربها ضد البوير. ومن أجل ضمان موافقة الدول الأوروبية. فلقد سافر الوزير الروسي مورافيف إلى فرنسا التي رفضت الفكرة الروسية وأوضح دلكاسيه بأن سياسة بلاده المثلى تقوم على التفاهم المشترك مع بريطانيا كما أوضحت ألمانيا عن عدم رغبتها في التدخل(٢). وإزاء الرفض الأوروبي لهذه المحاولة تقدمت روسيا باقتراح جديد لتشكيل قوة بحرية مهمتها إمداد البوير بالسلاح. ورفضت الدول الأوروبية أيضاً هذا الاقتراح، وأخيراً ونتيجة للإلحاح الروسي، تقرر بأن تقدم تلك الدول نصيحة لبريطانيا تطالبها بوقف هدر الدماء في الجنوب الأفريقي(٣).

اتجاه روسيا نحو سياسة جديدة:

وخلال شهري يناير وفبراير عام ١٩٠٠ انكبت مجموعة من الوزراء الروس على دراسة وضع روسيا الاستراتيجي في العالم وسبل تقويته وظهرت أمامهم الضرورات الآتية:

(١) Churchill: The Ang. R. Con. 1907. PP. 45-6.

(٢) Ibid. P. 36.

(٣) Ibid. P. 38.

أولاً ـــ تقوية مركز روسيا في البحر المتوسط عن طريق سيطرة روسيا على Ceuta الذي يقع في مقابل جبل طارق في الأراضي الاسبانية وكانوا يعتقدون بإمكانية شرائه أو استئجاره من أسبانيا(١).

ومثل هذا الاعتقاد يعتبر ضرباً من الخيال، ذلك أن أسبانيا لم تكن عندها رغبة في إدخال قوي أخرى إلى أراضيها، كما أن روسيا لا تمتلك حرية التحرك البحري، بالمضائق تحول دون خروج قوتها البحرية من البحر الأسود، كما أن الأسطول البريطاني يحول دون استخدام القوة الروسية البحرية في بحر البلطيق، وإذا ما فكرت الدوائر الرسمية في أن يكون هذا الإجراء رداً على سيطرة بريطانيا على وي هاي وي، فإنه يعتبر إجراءاً طائشاً لأنه ليس لروسيا مصالح اقتصادية كبيرة في البحر المتوسط، كما أن روسيا فيما لو نجحت في إغراء أسبانيا في الحصول عليه فإنها تعجز عن الدفاع عنه أمام التهديد البريطاني خاصة من قاعدة جبل طارق البريطانية.

ثانياً ـــ وفيما يتعلق بالبلقان، فإن السياسة الروسية ابتعدت عن الأساليب الهوجاء، بل كانت حذره في تناولها لوضع روسيا في المنطقة، فحثت السلطان العثماني على عدم منح أية مشاريع لسكك حديدية في المناطق الجنوبية للبحر الأسود والتمست من السلطان عدم تحصين المضائق(٢).

ثالثاً ـــ طالب بعض الوزراء بضرورة سيطرة روسيا على ميناء في الخليج العربي، ولكن وزير الخارجية عارض هذا الاقتراح بسبب أن ذلك سوف يكلف روسيا نفقات كثيرة، كما سيثير سخط بريطانيا.

رابعاً ـــ طالب مورافيف بالتخلي عن محاولة ضم أية أراضي من إيران، أو أفغانستان نظراً لمركز روسيا القوى في إيران، كما أن مثل هذه المحاولة سوف تثير سخط المسلمين في أراضيها خاصة بخارى التي لم تستطع روسيا حتى هذا الوقت من فرض سيطرتها التامة عليها، وأن الأهمية التجارية لروسيا في هذه الجهة تفوق ضم أية أراضي جديدة، لأن روسيا إذا ما واصلت سياستها السلمية فإن علاقاتها التجارية ستزداد حجماً مع

---

(١) Ibid. P. 39.

(٢) Churchill: The Ang. R. Con. 1907. P. 40.

أفغانستان. وهذا بدروه سوف يدفع الأمير إلى الثقة بروسيا وإلى فتح حدود بلاده لها وإقامة مراكز تجارية روسية في المدن الأفغانية الكبيرة، وهذه الفوائد أكثر أهمية لروسيا من سيطرتها على أية أراضي.

و يبدو أن الحكومة الروسية قد اقتنعت بوجهة نظر وزير الخارجية، فاعلنت في ٦ فبراير ١٩٠٠ عن احترامها للالتزام الذي تعهدت به (١٨٧٢-١٨٧٣) بشأن أفغانستان، وأعربت عن رغبتها في فتح علاقات، سياسية معها خاصة وأنها جارة طبيعية للأراضي الروسية[١].

محاولات التقارب بين روسيا وبريطانيا (١٩٠٣):

قام وزير الخارجية البريطانية المستر لانسدون خلال أغسطس ١٩٠٣ بجهود لاقناع الروس باستئناف المفاوضات بين الجانبين لحل المشاكل التي لم يتطرق إليها اتفاق ١٨٩٩ خاصة منشورياً، كما طلب في أكتوبر من نفس العام من السفير الفرنسي في لندن أن تقوم فرنسا بإقناع روسيا للدخول في مفاوضات مع بريطانيا. و يبدو أن التدخل الفرنسي قد حقق الهدف البريطاني، إذ أعلنت روسيا عن موافقتها للاتصال بروسيا، و بدأت في لندن عدة اجتماعات خلال شهر نوفمبر، كانت في مجموعها محاولات لتوضح حسن النوايا لكل منهما، ولكنها لم تتطرق إلى نقاط جوهرية بسبب أن السفير الروسي في لندن كانت تنقصه التعليمات التي يسير بمقتضاها خلال مناقشاته[٢]. كما أن روسيا كانت مشغولة بالمفاوضات مع اليابان الخاصة بنفوذ كل منهما في منشوريا وكوريا.

العلاقة الروسية البريطانية خلال الحرب الروسية اليابانية:

ازدادت العلاقة الروسية البريطانية سوءاً بعد اشتعال الحرب الروسية واليابانية خاصة بعد رفض بريطانيا للطلب الروسي الذي ناشدها باستخدام نفوذها لأحداث تغيير على موقف اليابان قبيل اشتعال الحرب. وفي هذه الظروف تحركت بريطانيا تحركاً حذراً لكي لا تشعر بأنها تحاول استغلال أوضاعها السيئة، واستخدمت في هذا المجال حليفتها الجديدة وحليفة روسيا المخلصة (فرنسا) وأعلن دلكاسيه بأنه

(١) Churchill: The Ang. R. Con. 1907. P. 41.

(٢) Ibid. P. 48.

سيبذل قصارى جهده رغم صعوبة مهمته لوضع أسس للتفاهم بين بريطانيا وروسيا[١].

وقام الملك البريطاني بخطوة إيجابية في هذا الشأن عندما اجتمع مطولا خلال زيارته بالسفير الروسي «أزفولسكي» في ١٤ أبريل ١٩٠٤ وتحادث معه بروح ودية وصارحه الملك بأن الوفاق مع فرنسا قد أعطاه الأمل لعقد تحالف مماثل بنفس الروح مع روسيا وإن بلاده سوف تزود سفيرها الجديد في العاصمة الروسية شارلز هاردنج Charles Hardinge بالتعليمات التي تخوله بحث سبل ازالة الصعوبات التي تعترض الاتفاق بين الدولتين.

ولم تسفر هذه المقابلة عن نتيجة مادية عاجلة في العلاقة البريطانية الروسية، ولكنها كانت محاولة ناجحة لاقتحام الجدار النفسي الذي شيدته الأحداث وما نتج عنها من مشاعر العداء بين الشعبين، كما زودت أزفولسكي بشحنة من الانفعالات شجعته على السير في طريق الاتفاق مع بريطانيا حينما تقلد الخارجية الروسية فيما بعد. كما يمكن أن نعتبر هذه المقابلة خطوة مشجعة في طريق الاتصالات الروسية البريطانية، ولكن ظهرت صعوبات من جديد حالت دون تحقيق ذلك منها:

١ ــ اكتشاف بريطانيا محاولة روسية لتهريب الأسلحة من المضائق، ذلك أن روسيا حاولت عن طريق طرادين من أسطول المتطوعين الروس ارسال أسلحة عبر المضائق إلى جبهة الشرق الأقصى لتعزيز قواتها المحاربة وادعت بأن حمولتهما من البضائع التجارية ولكن سفناً من الأسطول البريطاني والألماني اكتشفت هذه المحاولة وكانت روسيا تأمل أن تتغاضى بريطانيا عن هذه المحاولة.

٢ ــ المراسيم التي أصدرتها روسيا في ٢٦ فبراير ــ ١٨ مارس ــ ٩ مايو ١٩٠٤ والتي تحدد في مجموعها المواد التي تستوردها روسيا من الخارج، وكان آخر تلك المواد الفحم. ولقد أثرت هذه المراسيم على حجم الصادرات البريطانية لروسيا[٢].

---

(١) Woodward, E.L.: Great Brit. ® The Ger. Navy. PP. 148-9.

(٢) Churchill: The Ang. R. Con. 1907. PP. 66-67.

٣ ــ حملة يونجشبند الى التبت. وكان الروس ينظرون بقلق إلى هذه الحملة ليس فقط لآثارها السياسية أو الحربية، بل للمكانة الدينية التي يشعر بها عدة ملايين من البوذيين الروس نحو لاهاسا[١].

٤ ــ بعثة المستر لويس داني Louis Dane إلى أفغانستان وما تردد عن الأهداف البريطانية من ورائها منها: السيطرة البريطانية على أفغانستان وإنشاء السكك الحديدية فيها لتعزيز جبهتها العسكرية وتلاشي وجود أفغانستان كدولة حاجزة بين روسيا وبريطانيا[٢].

٥ ــ حادثة شاطىء دوجر. أرادت روسيا أن تعزز قواتها في الشرق الأقصى ولذلك دفعت بأسطولها بحر البلطيق. وخلال سيره في بحر الشمال ليلة ٢٢ أكتوبر ١٩٠٤ وعند شاطىء دوجر تبادلت سفن الأسطول اطلاق النار مع سفن صيد معظمها بريطانية، قتل من جراء ذلك اثنين من الصيادين البريطانيين وجرح العديد منهم، إلى جانب تحطيم ما يقارب من ٥٠ سفينة صيد[٣]. أثار الحادث سخط الحكومة البريطانية وطالب لانسدون بضرورة لجوء الأسطول الروسي إلى ميناء فيجو Vigo الأسباني والتحقيق مع الضباط الروس وعزل أولئك الذين تسببوا في الحادث، وهدد بقيام حرب بين البلدين خلال أسبوع إذا لم تنصاع روسيا لهذا الأمر.

وعلى المستوى الشعبي، فلقد أثار الحادث سخط البريطانيين الذين نددوا بالروس وطالبوا بالانتقام منهم. وفي الجانب الروسي، فقد أعلن القيصر عن أسفه للحادث وأعرب عن استعداده لتقديم تعويضات للصيادين ولأسرهم، ورفضت الحكومة الروسية طلب لانسدون بلجوء أسطولها إلى ميناء فيجو، وبررت تصرف ضباط أسطولها بأنه كان موجهاً ضد طربيدين يابانيين، ظهرا فجأة ليلة الحادث. واقترح القيصر تشكيل لجنة دولية للتحقيق في الحادث وتعهد مسبقاً بتنفيذ قرارات تلك اللجنة. ولقد أدى هذا الاقتراح إلى تخفيف سحب السخط والانفعالات التي تجمعت في أفق العلاقة الروسية البريطانية والتي كانت تنذر بنتائج غير مرضية.

---

(١) أنظر الفصل الثامن: التبت

(٢) أنظر الفصل الثامن: أفغانستان

(٣) Churchill: The Ang. R. Con. 1907. PP. 71-73.

وفي ٢٥ فبراير ١٩٠٥ أصدرت اللجنة القرارات التالية:

١ ــ نفت اللجنة وجود طوربيدات يابانية بالقرب من شاطىء دوجر ولذلك أدانت قرار اطلاق النار من سفن الأسطول الروسي ورفض قائده تقديم المساعدة للمصابين في الحادث.

٢ ــ دفع تعويضات مقدارها ٦٥ ألف جنيه استرليني بسبب الأضرار المادية والبشرية التي حلت بالصيادين البريطانيين[١].

العلاقة الروسية البريطانية بعد معاهدة بورتسموث:

بعد توقيع المعاهدة الروسية اليابانية ازدادت احتمالات الوصول إلى اتفاق بين روسيا وبريطانيا في الأوساط البريطانية، فالمشاعر العدائية للروس قد خفت حدتها، وانتشرت في أوساط المثقفين البريطانيين كتابات تولستوي ودستوفوسكي كما أن الأحزاب البريطانية خلال حملاتها الانتخابية لم تؤجج العداء للروس، بل أبرزت في برامجها أهدافاً للتقريب بين وجهات النظر الروسية والبريطانية.

ولاثبات حسن النوايا البريطانية، أرسلت الحكومة دعوة إلى و يت وزير المالية الروسي لزيارة لندن، والذي اعتذر بسبب مشاغله، ولكنه أبدى عن استعداده لبذل كل ما في وسعه لتصفية المشاكل بين الدولتين.

ولم يعد سراً في الدوائر الأوروبية بأن بريطانيا أخذت تنشط منذ سبتمبر ١٩٠٥ في الاعداد لبدء المفاوضات مع الروس. ويمكن تفسير السلوك البريطاني هذا برغبتها في الحيلولة دون وقوع روسيا في شبكة المخططات الألمانية والتي فشلت في جذب روسيا إليها من خلال اتفاق ١٩٠٤ ومعاهدة بجوركو (يوليو ١٩٠٥).

حزب الأحرار وسياسته للتقارب مع روسيا:

حينما جاء الأحرار إلى السلطة (ديسمبر ١٩٠٥)، تابعت الحكومة الجديدة نفس السياسة الخارجية للمحافظين خاصة فيما يتعلق بالتقارب مع روسيا، بل

(١) Churchill: The Ang. R. Con. 1907. P. 83.

سارت خطوات في مستهل عهدها تعبر عن رغبتها الصادقة في الاتفاق مع روسيا منها ما يلي:

١ ـ اجتماع وزير الخارجية الجديد ادوارد جراي في ١٣ ديسمبر ١٩٠٥ بالسفير الروسي في لندن وأوضح له أهمية الاتفاق بين الطرفين على نحو ما حدث مع فرنسا، لأنه لصالح كليهما في آسيا وأوروبا(١).

٢ ـ وجه الملك البريطاني في الدورة البرلمانية الجديدة كلمات رقيقة إلى القيصر عبر عن مشاعر بلاده الودية نحو روسيا(٢)، بل إنه أرسل يدعو القيصر لزيارة العاصمة البريطانية الذي اعتذر بسبب ظروف روسيا الداخلية(٣).

٣ ـ أعلن المستر جراي في مجلس العموم عن رغبة حكومته في السير لتحسين العلاقات مع روسيا وتصفية جميع المشاكل المعلقة معها.

٤ ـ عينت حكومة الأحرار أرثر نيكولسن سفيراً لها في العاصمة الروسية وهو يؤمن بأهمية الاتفاق بين البلدين ومتحمساً له.

يضاف إلى ذلك ما كان سائداً في الأوساط البريطانية بضرورة استرجاع روسيا لمكانتها في أوروبا لأن ذلك سيؤثر على موازين القوى داخل القارة لصالح فرنسا(٤).

أزفولسكي وسياسته للتقارب مع بريطانيا:

عين الكسندر أزفولسكي في ١٢ مايو ١٩٠٥ وزيراً للخارجية الروسية، وكانت سياسته تتركز حول:

١ ـ استمرار التحالف مع فرنسا والعمل على تعزيزه بانضمام كل من بريطانيا واليابان إليه لأن روسيا لا تستطيع أن تقوي مركزها في الشرق الأقصى إلا بالمصالحة مع اليابان وتصفية خلافاتها مع بريطانيا في آسيا لأن أزفولسكي

(١) Churchill: The Ang. R. Con. 1907. P. 108.

(٢) Ibid. P. 102.

(٣) Ibid. P. 108.

(٤) Ibid. P. 115.

يدرك أن بلاده تحتاج لمساعدة بريطانيا وفرنسا لكي تستعيد مكانتها في أوروبا.

٢ ــ تخطي الفوضى الداخلية واعادة تنظيم المؤسسات الحكومية وتبني سياسة اصلاحية جديدة.

٣ ــ عدم اثارة عواصف سياسية تسبب سخط ألمانيا وفي الوقت نفسه لا تندفع لاحياء تحالف الأباطرة الثلاثة.

لا شك أن هذه السياسة أكثر واقعية لروسيا من سياسات لامسدروف ومورافيف فقد تمكن أزفولسكي من تشخيص نقاط ضعف بلاده السياسية وكان تحديده لاطار تحركه السياسي تحديداً إيجابياً وواقعياً (١).

المبادرة البريطانية الجديدة:

خلال اللقاء الذي تم في العاصمة الروسية بين السفير البريطاني ووزير الخارجية الروسي في ٢٩ مايو ١٩٠٦، استعرض الطرفان العلاقة الروسية البريطانية، وأشار نيكولسن إلى الصعوبات التي تحول دون الوفاق بينهما، واقترح في هذا المجال أن يقوم الطرفان بدراسة تلك المشاكل كل واحدة على حدة، على أن تبدأ بمشكلة التبت وأن تتخذ المباحثات الطابع السري لأنه يخشى أن تتدخل ألمانيا إذا ما علمت بأمرها خاصة وأن الامبراطور يستطيع أن يؤثر على شخصية القيصر الروسي. وخلال حفل تقديم أوراق السفير البريطاني للقيصر الروسي، رحب بالخطوة البريطانية وأبدى عن مشاعره المؤيدة للاتفاق مع بريطانيا (٢).

وعقدت الجلسة الأولى بين الجانبين في ٧ يونيو ١٩٠٦ وقدم فيه نيكولسن الاتفاقات التي عقدتها بريطانيا مع الصين والتبت ووعد أزفولسكي بدراستها وابداء وجهة نظر روسيا حولها خلال اللقاء القادم. ولكن لقاءات الصيف لم تسفر عن نتائج إيجابية في العلاقة البريطانية الروسية بسبب الآتي:

١ ــ تكريس معظم وقت أزفولسكي لاعادة تنظيم وزارة الخارجية والتخلص من

(١) Woodward, E.L.: Great Brit. ® The Ger. Navy. P. 150.

(٢) Churchill: The Ang. R. Con. 1907. P. 128.

الشخصيات والتنظيمات التي كان يعتبرها عائقاً أمام تنفيذ سياسته[١].

٢ ــ رغبة بريطانيا في زيارة بعض وحدات بحرية بريطانية للموانىء الروسية المطلة على بحر البلطيق. ولقد جاءت هذه الرغبة في رسالة رسمية وجهتها بريطانيا مع نهاية شهر مايو. وكان هدف بريطانيا من وراء ذلك خلق نوع من الثقة ببريطانيا، ولكن الروس وجدوا فيها اهانة بسبب تحطم وحداتهم البحرية في الحرب الروسية اليابانية بالاضافة إلى عدم استقرار الأوضاع الداخلية الروسية، ولذلك أعلن أزفولسكي في ١٢ يونيو أنه من الأفضل أن يبقى الأسطول البريطاني بعيداً حتى لا تؤدي زيارته إلى نتائج عكسية، كما أرسل القيصر برقية إلى الملك البريطاني يرفض فيها استقبال الوحدات البريطانية في وقت تعاني فيه بلاده القلق والفوضى[٢].

٣ ــ خلال افتتاح جلسات الاتحاد البرلماني الأوروبي ألقى رئيس الوزراء هنري كامبل بانرمان خطاباً في ٢٣ يونيو ١٩٠٦ في الجلسة الافتتاحية لم يشجب فيه المرسوم القيصري الذي حل بمقتضاه الدوما (٢١ يونيو)، كما لم يمدحه ولكنه أعلن بأن الدساتير الجديدة لا ترضي الشباب وإن الدوما سيعود بشكل أو بآخر. ولقد لقيت هذه العبارة ترحيباً حاراً من أعضاء الوفود البرلمانية، ولكن الحكومة الروسية اعتبرت ذلك تدخلا من قبل رئيس الوزراء البريطاني في الشئون الداخلية الروسية[٣].

وحاولت بريطانيا من جانبها أن تجمد الموقف، فأرسلت إلى سفيرها في ٧ سبتمبر ١٩٠٦ تطلب منه فتح المفاوضات مع روسيا في أية مشكلة، وإن بريطانيا لا تعارض في أن تتلقى مقترحات روسية مهما كانت[٤]. ومن ثم بدأت مرحلة جديدة من الاتصالات بين الدولتين حول المشاكل الثلاث إيران ــ أفغانستان ــ والتبت، وهذا ما سنتطرق إليه في الفصل التالي.

(١) Ibid. PP. 129-130.

(٢) Ibid . P. 131.

(٣) Ibid. P. 132.

(٤) Ibid. P. 133.

الفصل الثامن

الوفاق الروسيّ البريطاني أغسطس ١٩٠٧



شجعت معاهدة يونيو ١٩٠٧ بين روسيا واليابان الحكومة الروسية على مواصلة مسيرتها الدبلوماسية نحو استعادة مكانتها كدولة كبرى بعد الهزة العنيفة التي تعرضت لها على يد اليابان، كما منحت المعاهدة ثقة الحكومة الروسية بنهج أزفولسكي السياسي فكانت دافعة له للسير في تنفيذ برنامجه السياسي الرامي إلى الوفاق مع بريطانيا، فلم يكن متزمتاً معها وبذل كل جهده في مواجهة المتشددين من العسكريين والسياسيين حتى كللت مجهوداته بالنجاح وتم توقيع اتفاقية أغسطس ١٩٠٧ التي تضمنت تسوية لثلاث مشكلات بين روسيا وبريطانيا وهي: إيران، أفغانستان، التبت.

وسنتطرق إلى دراسة كل واحدة منها على حدة.

أولا ــ إيران:

أشرنا في الفصل السابع[١]، إلى التنافس الاقتصادي بين روسيا وبريطانيا في إيران وذكرنا بأن النشاط الألماني قد أدى إلى تضييق حدة تناقض الطموحات البريطانية الروسية حتى بات أمر الوصول إلى تسوية بينهما ضرورة تحتمه الظروف الأوروبية وأوضاع المنطقة نفسها.

تقسيم إيران إلى مناطق نفوذ:

خلال الاتصالات التمهيدية التي جرت بين الطرفين، ساد مبدأ تقسيم إيران إلى مناطق نفوذ. ولم تكن فكرة التقسيم هذه حديثة جاءت بها اتفاقية أغسطس، ولكنها ترجع إلى تسعينيات القرن التاسع عشر عندما اقترح السفير البريطاني في طهران ــ ولف ــ تقسيم إيران إلى قسمين. وكرر هذا الاقتراح المستر دوراند Durand، وطبقاً لاقتراحه يسير الخط الفاصل بين القسمين من خانقين على الحدود

(١) أنظر ص ٢٣٦.

التركية الإيرانية، ثم يتجه عبر مدن كرمنشاه وهمذان وأصفهان و يزد ــ كيرمان حتى يصل إلى اقليم سستان(١).

في عام ١٨٩٩، اقترح كيرزون بأن يمتد الخط الفاصل إلى الشمال من قاشان بدلا من أصفهان، وهذا في نظره يمكن قبول روسيا به نظراً للوفاق الذي جمعهما في اتفاقية أبريل ١٨٩٨ بشأن تحديد مشاريع السكك الحديدية لكل منهما في الأراضي الصينية(٢).

كانت حكومة لندن من حيث المبدأ توافق على فكرة التقسيم وطلبت من حكومة الهند أن تتريث قليلا بعد طرحها لمشروع كيرزون على أن تواصل اعتباراتها الحربية للدفاع عن المصالح البريطانية في المنطقة وتزيد من نفوذها في الجنوب(٣)، ولكن ظهور النشاط الألماني في المنطقة قد غير من موقف الحكومة البريطانية التي اتصلت بروسيا ولمّحت بها بالتوغل الألماني وأهدافه الغير محددة. ولقد استمعت روسيا بمزيد من التردد لوجهة النظر البريطانية، إذ كانت ترى أن التقسيم سوف يحصر نشاطها في منطقة واحدة وأن طموحاتها في السيطرة على إيران كلها. ولذلك لم تعط رداً محدداً (١٩٠٣) لوزير الخارجية البريطانية لانسدون(٤).

ولكن الموقف الروسي قد تغير عام ١٩٠٥ للأسباب الآتية:

١ ــ استمرار التوغل الألماني في الأجزاء الشمالية حتى باتت تخشى من أن يؤثر ذلك على مصالحها ونفوذها في المنطقة.

٢ ــ الأحداث الداخلية في إيران وما نتج عنها من ثورة عارمة ضد الحكومة وطالبت بالاصلاح الدستوري وقيام حكومة وطنية وكان ما يقلق روسيا أن تتصاعد الأحداث في إيران لتشكل تياراً قوياً يقتلع المصالح والنفوذ الأجنبي منها.

٣ ــ إلى جانب عدم استقرار الأوضاع الداخلية في روسيا نفسها خلال أكتوبر عام ١٩٠٥، وما أصاب الهيبة الروسية من تدهور بعد الهزيمة التي لحقت بها خلال حربها مع اليابان.

(١) F.O. 539/92. No. 10. Sir A. Nicolson to Sir Edward Gray. St. Peter., February 20, 1907. PP. 9-10.

(٢) Roland Shay, E.: The Life of Lord Curzon. Vol. II P. 30.

(٣) Churchill: The Ang. R. Con. 1907. P. 228.

(٤) Ibid. P. 233.

موقف الأحرار:

وعندما حل الأحرار في رئاسة الحكومة البريطانية أعلن جراي صراحة للسفير الروسي في لندن بأن حكومته تدرك الوضع الراهن في روسيا ولا تريد أن تستغله للحصول على مكاسب لها في إيران، ولكنها تعتقد بأن استمرار الوضع على ما هو عليه سوف يزداد سوءاً والضرورة تحتم على الدولتين التعاون فيما بينهما، وللإعراب على الإخلاص البريطاني، أوضح المستر جراي بأن بريطانيا رفضت أن تقدم قرضاً قيمته ٨٠٠ ألف جنيه استرليني (يناير ١٩٠٦) لإيران نظير رقابتها المالية على ميزانية البلاد(١)، كما طلبت من سفيرها في طهران التشاور مع زميله الروسي فيما يمكن عمله لحماية مصالح البلدين في خضم الأوضاع غير المستقرة في إيران(٢).

مهدت هذه الظروف الطريق أمام الدولتين لفتح المشكلة الإيرانية خلال صيف ١٩٠٦، ولم تكن هناك أسس محددة تسير عليها مباحثاتهم، فكان كل طرف يطرح بعض الآراء التي تثير شكوك الطرف الآخر. ولذلك اقترحت الحكومة البريطانية وضع نقاط معينة يتفاوض عليها الجانبان(٣). ولكن وزير الخارجية الروسية الجديد كان يقوم بدراسة المشكلة. ولذلك لم تعلن برأيها لبريطانيا. وفي ١٦ سبتمبر ١٩٠٦ أعلن أزفولسكي بأن التقسيم هو الحل الذي يرضى الأهداف الروسية والبريطانية(٤). ولكن وزير الخارجية كان يعبر عن رأيه الشخصي لا عن رأي حكومته حيث كان معظم الوزراء يرفضون هذا الرأي نظراً لتأثير القطاع العسكري عليهم، إلى جانب ما كانت تخشاه روسيا من أن يؤدي التقسيم إلى إثارة أزمة مع الدول التي لها مصالح اقتصادية في إيران.

أدرك المستر نيكولسن صدق وعزم أزفولسكي على الوصول إلى اتفاق ولذلك طلب من حكومته أن ترسل إلى الحكومة الروسية شروطاً محددة للتفاوض بين الدولتين بشأن المشكلة الإيرانية(٥).

(١) Churchill: The Ang. R. Con. 1907. P. 234.

(٢) Ibid. P. 235.

(٣) Ibid. P. 145.

(٤) Ibid. P. 142.

(٥) Ibid. P. 236.

أخذت الحكومة البريطانية اقتراح سفيرها مأخذ الجد وعكفت على وضع بعض الأسس العامة للتسوية وقدمتها للحكومة الروسية(١٣ ديسمبر ١٩٠٦) وتتكون هذه الأسس من:

- تحترم كل دولة روسيا وبريطانيا سلامة الأراضي الإيرانية واستقلالها وترغبان في استمرار النظام والتطور السلمي.

- تتعهد بريطانيا بألا تسعى إلى كسب تنازلات سياسية أو تجارية لصالحها أو لرعاياها وألا تتقدم بطرق مباشرة أو غير مباشرة بهدف الحصول على تلك التنازلات.

- تقسم إيران إلى منطقتي نفوذ ويسير الخط الفاصل بينهما من نقطة على الحدود الأفغانية إلى جيزاك ـ بيرجند ـ كيرمان حتى بندر عباس على الخليج العربي. ويضم النفوذ البريطاني إقليم سستان[1].

طلبت الخارجية الروسية بعض الوقت لدراسة المقترحات البريطانية، وخلال لقاءات السفير البريطاني بوزير الخارجية الروسية لم يتطرق أزفولسكي إلى المقترحات البريطانية، الأمر الذي دفع نيكولسن إلى الاعتقاد بأن أزفولسكي قد فقد حماسته للوفاق. ولكن كانت هناك بعض الدوافع التي دفعت روسيا إلى موقف الركود، منها:

- بدء المفاوضات الروسية اليابانية وقد كرس أزفولسكي كل جهده وراء تلك المباحثات نظراً لأهميتها بالنسبة لروسيا.

- وما تردد عن عدم قيام بريطانيا بالإنسحاب من وادي تشومبي في التبت واحتمال تحول التواجد البريطاني في الوادي إلى احتلال دائم، وهذا يؤثر على مكانة روسيا في نفوس سكانها البوذيين.

وخلال اجتماع السفير البريطاني بوزير الخارجية الروسية، أعلن صراحة بأن بلاده لا تعارض أن تقوم روسيا بتقديم مقترحات إذا كانت تعارض ما قدمته بريطانيا، وأوضح أزفولسكي صراحة بأنه ليس عنده مقترحات محددة من حكومته،

---

(١) Churchill: The Ang. R. Con. 1907. P. 244.

كما أنه لا يعارض شخصياً الشروط البريطانية رغم أنه يفضل أن تمتد حدود الإقليم الروسي إلى الجنوب قليلاً.

لا شك أن طلب أزفولسكي هذا كان نابعاً من توجيهات القطاع العسكري في الحكومة الروسية والذي كان يخشى من أن تقوم بريطانيا باستغلال وضع روسيا الضعيف وتعمل على توطيد نفوذها في إيران، ولذلك طالب بتعزيز سلطة روسيا في إيران عن طريق: الحصول على منفذ لها على الخليج العربي يتصل بالأراضي الروسية بواسطة خط حديدي، وزيادة رقابة روسيا وتواجدها في إقليم سستان. ولذلك حاول الوزير الروسي كسب معارضة العسكريين الذين رفضوا محاولة أزفولسكي وأصر هو على موقفه، وإزاء هذا التباين بين الجانبين، الجانب السياسي والعسكري فقد أصبح من الصعب الحصول إلى قرار فاصل في ظل غياب القيصر خارج العاصمة الذي يستطيع أن يحسم الخلاف. ولذلك اعتبر أزفولسكي هذه الفترة وحتى عودة القيصر مرحلة لتبادل وجهات النظر بين الجانبين[1]. وطرق الطرفان جميع عناصر المشكلة الإيرانية وتم الوصول إلى حلول لها، عدا:

١ ـ مشكلة القرض المشترك:

كانت الحكومة الإيرانية في حاجة إلى الأموال، ورفض المستر جراي تقديم قرض إليها، كما أن الدوائر المالية الروسية لا تستطيع توفير الأموال، ولكن الدوائر السياسية الروسية والبريطانية تخشى من أن تقوم ألمانيا بتقديم المال لإيران، ولذلك طلبت الدولتان من ممثليها في طهران اعداد تقرير عن الأموال التي تحتاجها إيران بصفة عاجلة والضمانات التي تحول دون تبدد تلك الأموال. وكان أزفولسكي لا يرغب في تدخل قوة ثالثة حتى ولو كانت ألمانيا.

اتخذت الدولتان اجراءات تخفف من العبء المالي على الحكومة الإيرانية مثل: تأجيل الأقساط المقرر دفعها للبنوك الروسية والبريطانية. أصرت بريطانيا على اشرافها على جمارك الموانىء الإيرانية المطلة على الخليج العربي والجنوب كضمان لنصيبها من الأموال التي ستقدمها بواسطة القرض وطالبت روسيا أن تقدم بريطانيا نصيبها من القرض على وجه السرعة على أن تدفع هي المال المقرر

(١) Churchill: The Ang. R. Con. 1907. PP. 236-237.

عليها في القرض بعد أن تتخطى الصعوبات المالية التي تواجهها. واستمر النقاش بين الجانبين فترة ليست قليلة، وعندما لم يتوصلا لحل له، فقد جاءت الأحداث لتضع حداً لخلافهما، فبعد أن افتتح شاه إيران مجلس الشعب الجديد في أكتوبر ١٩٠٦، رفض المجلس القرض، فتذرع كل من جراي وأزفولسكي بضرورة الحصول على موافقة المجلس كشرط أساسي لتنفيذ القرض(١).

٢ ـ مشكلة خطوط التلغراف:

تلقت الحكومة البريطانية في أواخر أغسطس ١٩٠٦ أنباءاً عن محاولة روسية للإشراف على خطوط التلغراف بين مشهد ونصرت أباد في اقليم سستان، ولقد أثار ذلك ردوداً سيئة في لندن للأسباب الآتية:

ـ أنه يتعارض وما أعلنته روسيا باستمرار الوضع الراهن في إيران.

ـ ان التواجد الروسي في هذا الجزء يهدد المصالح البريطانية الاقتصادية والاستراتيجية على السواء فتستطيع روسيا منه أن تسيطر على طرق التجارة البرية وتضع أسواق المنطقة تحت هيمنتها إلى جانب اشرافها على الممرات ذات الأهمية العسكرية في الاقليم.

ـ يعتبر ضربة للآمال البريطانية في الحصول على اقليم سستان.

اتصلت الحكومة البريطانية بوزير الخارجية الروسية الذي نفى أن يكون له علماً بهذا الأمر، كما أنه لم يرسل إل سفير بلاده في طهران يطلب منه السعي إلى ذلك مع الحكومة الإيرانية.

و يبدو أن الذي قام بهذا العمل هو الجانب العسكري الذي تزعمه الجنرال باليتزين Palitzin وكان يهدف من وراء ذلك تحقيق بعض الانتصارات لروسيا بعد الهزائم التي واجهتها في جبهة الشرق الأقصى والفوضى الداخلية التي كانت تعيشها. ولذلك عارض فكرة التخلي عن إقليم سستان لبريطانيا نظراً لأهميته الاستراتيجية خاصة وجود ممرات فيه تشرف على طرق التجارة إلى الهند وتحكمها

(١) Churchill: The Ang. R. Con. 1907. P. 239.

في مرور القوات من إيران عبر أفغانستان إلى الهند[١]. ولم يستبعد استخدام هذا الإقليم كمنطلق حربي في مواجهة أزمات قد تنشأ مع بريطانيا في وسط آسيا[٢]. ومع ذلك فلقد وعد أزفولسكي نيكولسن ببذل جهوده لتخطي هذه الصعاب.

اللجنة الروسية:

شكلت روسيا لجنة لدراسة سياستها الخارجية خاصة فيما يتعلق بعلاقتها مع بريطانيا، ولقد أدخل أزفولسكي السفير الروسي في لندن عضواً في تلك اللجنة نظراً لتحمسه لسياسة التقارب مع بريطانيا من جهة ولمساندته في مواجهته مع الدائرة العسكرية. عارض أعضاء اللجنة ضم إقليم سستان إلى بريطانيا للأسباب التي سبق ذكرها، بالإضافة إلى محاولة بريطانيا ربط الإقليم بالسكك الحديدية سواء من جهة أفغانستان أو بلوخستان، وهذا من شأنه أن يعزز القوة البريطانية في حالة حدوث أزمة مع روسيا.

أوضح أزفولسكي صراحة بأن الاتفاق مع بريطانيا سوف يؤكد العلاقة السلمية لا إثارة الأزمات[٣]، وخلال المناقشات الوزارية، تطرق بعض الوزراء الروس إلى المشكلة الإيرانية، وحاول العسكريون إقناع الأعضاء بعدم جدوى الوفاق مع بريطانيا لأن إيران ستصبح تحت سيطرتهم في المستقبل القريب ولكن تدخل وزير المالية و يت بالإضافة إلى السياسيين وعلى رأسهم أزفولسكي نجحوا في زحزحة العسكريين عن موقفهم المتصلب وأبدوا موافقتهم للتفاوض مع بريطانيا شريطة أن تقدم بعض التنازلات مقابل انسحاب روسيا من (مواقع استراتيجية)، ولم يحددوا طبيعة تلك التنازلات ولكن من المرجح أنها تحوم حول عدم فرض أية عراقيل للنشاط الروسي الاقتصادي في إيران، إلى جانب توقعاتهم بأن تقوم بريطانيا بتخفيف تشددها في مشكلة المضائق التركية.

وخلال انعقاد مجلس الوزراء الروسي في ١٤ فبراير ١٩٠٧ لمناقشة جدوى الدخول في معاهدة مع بريطانيا بشأن إيران، أوضح وزير الخارجية أنه من

---

(١) Churchill: The Ang. R. Con. 1907. P. 220.

(٢) Ibid. P. 242.

(٣) Ibid P. 245-246.

الضرورة بمكان اتخاذ قرار سريع وحاسم نحو الاقتراح البريطاني بتقسيم إيران، وذكر الوزراء بأن هذا الاقتراح لم يحظ بموافقة روسيا حتى ذلك الوقت بسبب اعتقاد بعض الأوساط بقدرة روسيا على بسط نفوذها على الأراضي الإيرانية. ومثل هذا الاعتقاد في نظره سوف يزيد من حدة الصراع مع بريطانيا. ولكنه يرى بأن الحل الصحيح يكمن في تحديد مناطق النفوذ في إيران. واقترح بعض الوزراء أن تكون إيران منطقة مغلقة أمام مختلف أنشطة الشعوب الأخرى اقتصادياً.

ومثل هذا الاقتراح ــ كما سنرى فيما بعد ــ سوف يثير سخط الدول الأخرى التي لها بعض الأنشطة الاقتصادية خاصة ألمانيا. وهذا يتعارض مع سياسة الخارجية الروسية في عدم إثارة سخط جارتها ألمانيا، بل إنها تريد أن تكسب ألمانيا حتى لا تكون حجر عثرة أمام عقد المعاهدة مع بريطانيا. كما رفضت الدوائر العسكرية من جديد إعطاء إقليم سستان لبريطانيا، رغم إدراكها التام بعجزها عن صد بريطانيا فيما لو أقدمت على احتلاله.

وهنا قام أزفولسكي بجهد لإقناع المعارضة بأهمية الوفاق، لأنه في نظره سوف يضمن المصالح الاقتصادية والسياسية الروسية في إيران، إلى جانب أن ذلك سوف يعزز من مكانتها في المجال الدولي، بعد تدهور هيبتها أثر هزيمتها في الحرب مع اليابان والاضطرابات الداخلية التي انتشرت في أرجائها. وأخيراً قبل الجميع بمبدأ التنازل عن إقليم سستان، ولكن الأمل كان يحذوهم في التعويض عن كرمهم هذا في مناطق أخرى ذات قيمة لروسيا(١). ونعتقد بأنهم كانوا يتطلعون إلى المضائق.

المشروع الروسي لتسوية المشكلة الإيرانية:

وفي ١٨ فبراير ١٩٠٧ قدم وزير الخارجية الروسية مذكرة تتضمن أسساً لحل المشكلة الإيرانية وهي كالآتي:

١ ــ يبدأ الخط الفاصل بين نفوذ الدولتين بالقرب من قصر شيرين على الحدود التركية، ثم يمر عبر مدن أصفهان ــ يزد ــ قاخ Kaki و ينتهي عند منطقة

---

(١) Churchill: The Ang. R. Con. 1907. PP. 150-52.

تقابل قاشان على الحدود الأفغانية.

٢ ـــ تعارض روسيا ما قدمته بريطانيا فيما يتعلق بعدم سعي روسيا إلى السيطرة على جمارك إيران نظراً للاتفاقيات السابقة مع إيران والتي تقضي بإشرافها على جمارك إقليم فارس والخليج العربي كضمان لديونها.

٣ ـــ ارتباط التسوية الإيرانية بالمشكلة الأفغانية.

وحينما وصلت هذه المذكرة للحكومة البريطانية طالبت بإدخال بعض التعديلات مثل:

ـــ أن تكون منطقة ذو الفقار نهاية للحد الفاصل بين الدولتين بدلاً من قاشان.

ـــ أن تكون العاصمة الإيرانية مقر البعثات الدبلوماسية منطقة محايدة وألا تكون محرمة على البريطانيين(١).

وكان هدف بريطانيا من التعديل الأول، هو إبعاد الروس عن التواجد في جهة الحدود الأفغانية الإيرانية، في حين كانت روسيا تصر على رأيها. وأخيراً تنازلت عن ذلك، وبذلك تمت تسوية إحدى نقاط الخلاف بينهما(٢).

مشكلة العائدات والاتفاقيات السابقة:

كانت إيران قد عقدت اتفاقيات مع روسيا وبريطانيا كان بعضها يعطي لروسيا مميزات اقتصادية في الجنوب ولبريطانيا مميزات مماثلة في الشمال ومن أمثلتها سكك حديدية ـــ بنوك ـــ تلغراف. وبعد أن ساد مبدأ التقسيم بين الدولتين، كان لا بد من تصفية مظاهر التواجد لكل واحدة منهما في نفوذ الدولة الأخرى. فكانت بريطانيا تسعى منذ مايو ١٩٠٧ إلى تجديد إشرافها على خطوط التلغراف لمدة ٢٠ عاماً أخرى لينتهي عام ١٩٢٥، وأن فرعين منها (طهران ـــ خانقين) تقعان ضمن النفوذ الروسي، ولذلك عارضت روسيا محاولة بريطانيا هذه، وكانت بريطانيا تأمل أن تتغلب على المعارضة الروسية هذه عن

(١) Churchill: The Ang. R. Con. 1907. P. 248.
(٢) Ibid. PP. 249-251.

طريق تقديم النوايا الحسنة. ولكن روسيا لم تغير موقفها المعارض، وأخيراً تم التوصل إلى اتفاق يقضي بتنازل بريطانيا عن هذين الخطين على أن تشرف عليهما روسيا، كما اتفق الطرفان على أن تسير العطاءات، كما كانت أو كما عقدت.

وفيما يتعلق بالضمانات، وافق الطرفان على استمرارها حتى توقيع الاتفاقية وبعد ذلك التاريخ يجمع الموظفون في كل قسم من منطقتي النفوذ الروسي والبريطاني العائدات وتقدم للدولة الأخرى، وفي حالة تأخير إيران في دفع تلك الأموال تتبادل الدولتان وجهات النظر في الوسائل التي تكفل حقوق كل منهما في منطقة نفوذ الدولة الأخرى(١).

الوضع في إيران:

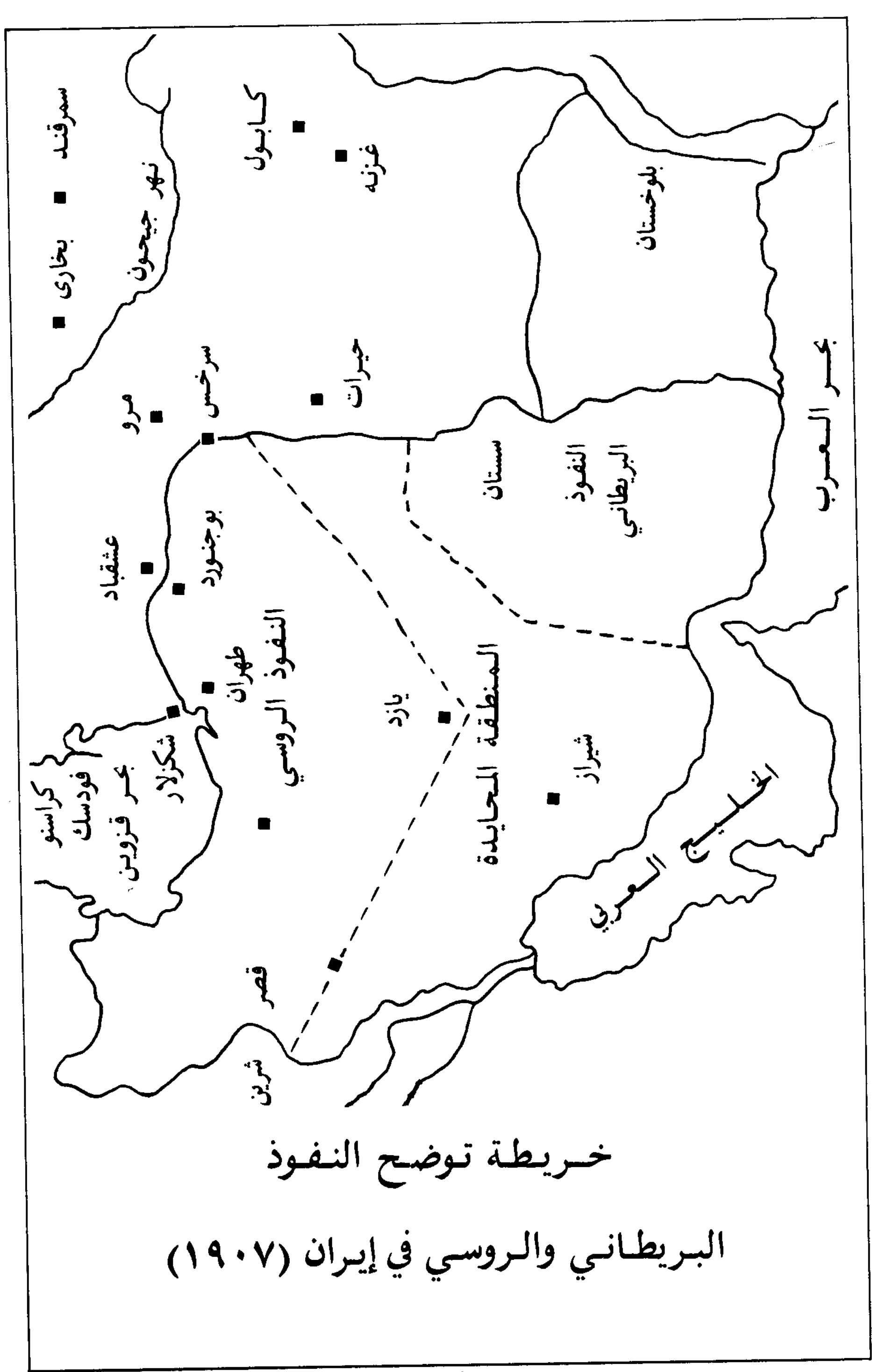
أخذ الوضع في إيران خلال شهر مارس يزداد خطورة، الأمر الذي أثار قلق وزير الخارجية الروسية الذي اتصل بالحكومة البريطانية لتبني إجراء مشترك وعرضت عليها مشروع إرسال قوات عسكرية وروسية بريطانية، ولكن بريطانيا ترى بأن الحالة لم تصل إلى درجة تثير فزع روسيا. بل أثار المشروع نفسه قلق بريطانيا أكثر من وضع إيران لأنه أعاد إلى الوجود ما كان يردده العسكريون الروس في ضرورة استخدام الأسلوب الحربي لحماية المصالح الروسية في إيران، وكانت بريطانيا تريد أن تتعاون مع روسيا للحفاظ على الشاه ولضرب التيار الشعبي بطرق سلمية لا حربية. ولقد سببت سياسة بريطانيا هذه سخط سفيرها في طهران الذي أرسل في ١١ إبريل يعرب عن أسفه لاتباع مثل هذه السياسة(٢). ومن المرجح أن يرجع موقف السفير البريطاني إلى:

- رغبته في إظهار بلاده بمظهر الدولة الدستورية التي تساعد القوى التي تسعى لنيل الحقوق الدستورية لا البطش بها أو مساندة الشاه ضدها.
- لا يريد لبلاده أن تكون شريكة للأتوقراطية الروسية في ضرب التيار الدستوري الوطني، خاصة وأنه وجد تحولاً في الأوساط الإجتماعية والمثقفة نحو ألمانيا.

---

(١) Ibid. PP. 254-6.

(٢) Ibid. PP. 257-8.



خريطة توضح النفوذ

البريطاني والروسي في إيران (١٩٠٧)

وأخيراً توصل الطرفان إلى ما يلي:

(١) **المادة الأولى،** حددت النفوذ الروسي الذي يبدأ من قصر شيرين عبر أصفهان ــ يزد ــ قاخ وينتهي عند منطقة تقاطع الحدود الأفغانية الروسية، ولا تسعى بريطانيا في هذا الجزء لنفسها أو لرعاياها أو رعايا قوة ثالثة للحصول على عطاءات ذات صفة تجارية أو سياسية مثل الخطوط الحديدية ــ البنوك ــ التلغراف ــ الطرق. وألا تعارض بريطانيا بصيغة مباشرة أو غير مباشرة أية مشروعات روسية في هذه المنطقة.

(٢) **المادة الثانية،** حددت منطقة النفوذ البريطاني بالقرب من جيزاك على الحدود الأفغانية ــ بيرجند ــ كيرمان، حتى بندر عباس. وتتمتع بريطانيا بنفس خصائص روسيا في منطقتها.

(٣) **المادة الثالثة،** عينت المنطقة الفاصلة، وتشمل الصحراء على أن تفتح التجارة والصناعة فيها أمام الجميع.

وتطرق الوفاق إلى العائدات والسيطرة على الجمارك، كما أشرنا إليها من قبل، وبذلك تمت تسوية إحدى نقاط خلاف البلدين والتي استمرت ردحاً من الزمن.

ثانياً: أفغانستان:

كانت أفغانستان المنطقة الثانية التي شملها الوفاق البريطاني الروسي، وقبل الحديث عن التسوية التي تتعلق بهذه المنطقة، يجدر بنا أن نشير إلى العلاقة البريطانية الروسية مع أفغانستان في الفترة التي سبقت الاتفاقية.

بعد الحرب الأفغانية الثانية (١٨٧٩-١٨٨١)، مالت السياسة البريطانية إلى عدم استخدام الأسلوب الحربي في تعاملها مع الأفغان، وتحولت إلى الطرق المالية والسياسية، وكانت تعتقد أن هذا الأسلوب هو أفضل طريق للإحتفاظ بأفغانستان كدولة حاجزة للهند البريطانية[١]، وتمكنت ــ كما أشرنا سابقاً ــ من جذب

---

(١) F.O. 539/74. No. 75. The Marquis of Salisbury to Sir N. O'conor? F.O. Dated June 30, 1889. P. 68.

الأمير الأفغاني إلى المخططات البريطانية، فأصبح أمير أفغانستان يتعامل مع الدول الأجنبية من خلال مشورة وقرار حكومة الهند.

ومع أن روسيا كانت قد منحت الأمير الأفغاني ــ عبد الرحمن خان ــ حق اللجوء في أراضيها خلال الحرب الأهلية الأفغانية (١٨٦٣-١٨٦٨)، إلا أن الأمير كان يخشى من تغلغل النفوذ الروسي في أراضيه بعد توليه السلطة عام ١٨٨٠. ولكنه لم يغلق أفغانستان في وجوههم، فقد كان الروس يظهرون في الأراضي الأفغانية خلال ثمانينيات القرن التاسع عشر. وبعد أن كشفت روسيا عن أطماعها في أفغانستان خلال محاولات تحديد الحدود الأفغانية الروسية، حرم الأمير عبد الرحمن دخول الروس لأراضيه، وبذلك أصبحت بريطانيا صاحبة النفوذ القوي في أفغانستان.

وخلال تسعينيات القرن التاسع عشر، أصاب العلاقة الأفغانية البريطانية بعض الفتور بسبب أطماع بريطانيا في مقاطعة هانزا (البامير)(١)، والحملات التي كانت تلاحق القبائل الأفغانية التي كانت تقطن على الحدود الهندية، بحجة تأديبهم لمنعهم من التوغل إلى الأراضي الهندية(٢).

لم تستغل روسيا هذا الموقف لتعزيز علاقاتها مع أفغانستان، فقد كانت مشغولة في شئون الشرق الأقصى، وفي أواخر القرن التاسع عشر، شعرت روسيا بحرج موقفها إزاء محاولات التقارب بين بريطانيا وألمانيا وما أشيع عن قرب التحالف بينهما، ومثل هذا التحالف ــ إن وقع ــ في نظر الدوائر الروسية خطر على مصالحها في الشرق الأقصى، ناهيك عن المنافسة الاقتصادية الإيرانية. ولم تستطع روسيا أن تفجر الموقف في الشرق الأقصى، لأنها كانت تدرك أنها الهدف المعني من وراء تحرك بريطانيا السياسي في هذه الجهة خاصة بعد تحالفها مع اليابان، ولكنها نجحت في الوقوف في وجه منافسة بريطانيا الاقتصادية في إيران، بل كان النفوذ الروسي هو الأقوى في الشمال وعلى الشاه نفسه، وبذلك فقد أصبح وسط آسيا يمثل النجاح الذي تعتز به روسيا، بل والمنطلق لتوجيه الضربات ضد بريطانيا، فانتهزت روسيا انشغال بريطانيا في حرب البوير،فأرادات أن تحقق

---

(١) F.O. 539/86. Inclosure No. 1. in No. 41. Extract from the Novoe Vremya of March 7, 1903, P. 36.

(٢) Churchill The Ang. R. Con. 1907. P. 269.

لنفسها مكسباً مشابهاً للذي أحرزته في إيران[1]، فدفعت بعض وحداتها على ضفاف نهر خوشق، ورجحت الصحف الغربية احتمال قيام القوات الروسية بغزو الأراضي الأفغانية خاصة مدينة حيرات[2].

لم يكن هدف روسيا غزو أفغانستان أو السيطرة على حيرات وإن ما قامت به مجرد مظاهرة سياسية لتعزيز الطلب الذي تقدمت به في فبراير ١٩٠٠ بشأن إعادة النظر في التعهدات والإلتزامات الخاصة بأفغانستان. فقد كانت روسيا تسعى أساساً إلى فتح أفغانستان أمام الاتصالات السياسية والتجارية الروسية، لأن التعهدات السابقة بشأن أفغانستان كانت نتاج ظروف مغايرة للواقع الاقتصادي والسياسي، فالمناطق الروسية القريبة من أفغانستان قد ربطت بالسكك الحديدية وكان التبادل التجاري بين مقاطعات الحدود الأفغانية والروسية يتم عن طريق التهريب لأن الأمير تعهد أمام بريطانيا بألا يتم أي اتصال سياسي أو تبادل تجاري بينه وبين الدول الأخرى إلا بعد موافقة بريطانيا، وأن روسيا هي الدولة المعنية من وراء هذا القرار أو الالتزام وكان اجتماع أجناتيف المفوض التجاري الروسي في بخارى في ٢١ فبراير مع مجموعة من التجار الأفغان، يؤكد رغبة روسيا وعزمها على تحقيق الطلب الذي تقدمت به لبريطانيا والخاص بفتح العلاقات التجارية والسياسية مع أفغانستان إذا أعلن لهم أجناتيف صراحة بضرورة بناء علاقات تجارية بين البلدين المتجاورين على أساس واضح بدلاً من طريق التهريب[3].

لم تعط حكومة لندن رداً قاطعاً للطلب الروسي، بل أرسلته إلى حكومة الهند لإبداء رأيها فيه، فأرسلت حكومة الهند إلى الأمير الأفغاني للتشاور معه في الأمر وكان حبيب الله خان[4]، يخشى من مغبة فتح الاتصال مع الروس أن يؤدي إلى حدوث العديد من المشكلات، وكانت وجهة نظره إذا ما كان هناك ضرورة للاتصال بالروس، فيجب أن تنشيء الحكومة الروسية من جانبها عدة مراكز تجارية على الحدود كما تقيم أفغانستان مراكز أخرى مشابهة، ويتم التبادل

---

(١) F.O. 539/86. Inclosure No. 1. in No. 198. Précis by Mr. Parker on the Subject of Russo-Afghan Relations. P. 230.

(٢) المقطم: ٣٢٨١ في ١٠ يناير ١٩٠٠، ٣٣١٧ في ٢٢ فبراير ١٩٠٠.

(٣) F.O. 539/83. Government of India to Lord G. Hamilton, Simla, May 17, 1900. P. 57.

(٤) تولى السلطة في كابول عام ١٩٠١ بعد وفاة والده عبد الرحمن.

التجاري بين البلدين من خلال هذه المراكز ولا داعي للاتصال المطلق بين الدولتين.

وحينما علمت حكومة لندن بوجهة النظر الأفغانية، أرسلت إلى الحكومة الروسية تخبرها بأنها ما زالت تدرس الموضوع وفور انتهائها من ذلك ستبعث لها برأيها. شعرت روسيا بأن بريطانيا تراوغها في هذا الأمر، ولذلك حاولت أن تسلك مسلكاً آخر، إذ قام بعض المسئولين الروس في التركستان بمحاولة لبناء علاقة ودية لهم مع الموظفين الأفغان وأرسلوا الرسائل المفعمة بالحب والود لحاكم حيرات، كما استغل الروس فرصة نقص محصول القمح وقاموا ببيع القمح الروسي بأثمان زهيدة للأفغان. وبالرغم من ذلك فقد فشل الروس في كسب ثقة الأفغان الذين كانوا يخشون من عاقبة اتصالهم بهم أن يحدث لهم ما حدث للإمارات الإسلامية التي سيطرت عليها روسيا[١]، وأرسلت حكومة الهند رأيها بشأن الطلب الروسي لفتح أبواب أفغانستان أمام التجارة الروسية وكان يتضمن مخاوفها من أن تتحول العلاقة التجارية إلى نفوذ سياسي، ولذلك يجب أن تؤكد روسيا بأن أفغانستان بعيدة عن الأطماع الروسية وإن كل أهدافها معها ذات طابع تجاري محض.

ولقد أرسلت حكومة لندن هذا الرأي من خلال مذكرة بعثت بها إلى سفيرها في سنت بطرسبورج، ولكن الخارجية الروسية كانت مشغولة في إجراء بعض التنظيمات والتغيرات التي أرادها الوزير الجديد الكونت لامسدروف[٢].

فتحت المشكلة الأفغانية من جديد عام ١٩٠٣ في لندن بين وزير الخارجية البريطانية والسفير الروسي، وجددت روسيا احترامها لاستقلال ولوحدة الأراضي الأفغانية ولكنها وجدت في الاتفاقيات التي عقدتها مع بريطانيا منذ ١٨٧٢ قد تمت في ظروف مغايرة ولا بد من دراسة الوضع على ضوء الواقع فأعرب الوزير البريطاني عن استعداد حكومته لتلقى أية مقترحات روسية في هذا الشأن ولكن روسيا لم ترسل ردها سريعاً مما أتاح مزيداً من الوقت للدراسة ولتبادل الآراء بين

(١) F.O. 539/88. Incl. No. 1. in No. 50 Mr. H. Dobbs to the Government of India. Camp Bala Murghab Dated Febr. 13, 1904. P. 40.

(٢) F.O. 539/86. Inclosure in No. 198. Précis by Mr. Parker on the subject of Russo-Afghan Relation PP. 216-222.

حكومة لندن وحكومة الهند، وكان رأيهما المشترك عدم السماح لمندوبين روس بدخول الأراضي الأفغانية لأنهما يعتبران ذلك تهديداً لبريطانيا(١).

موقف الأمير الأفغاني:

كان حبيب الله خان ميالاً إلى العزلة عن الجانبين، فقد رفض دعوة وجهها إليه اللورد كيرزون لزيارة الهند، كما رفض دعوة اجناتيف للتفاوض بين الدولتين بشأن التسهيلات التجارية، بل إنه احتج على تصرفاتها مع الأفغان. ولقد ترك هذا الموقف أثره على بريطانيا لأنها اعتبرته دعماً لها خلال مباحثاتها مع الروس(٢).

وخلال شهر مايو ١٩٠٣ قام الروس بتحطيم إشارات الحدود الروسية الأفغانية بالقرب من حيرات ووضعوها على مسافة ٤٠ كم داخل الأراضي الأفغانية، واحتجزوا اثنين من الفرسان التركمان كانا يحملان رسائل من الأمير إلى حاكم المدينة. واقترحت الحكومة البريطانية في ٢٧ مايو بأن يقوم أحد موظفيها في سستان بالتحقيق في الحادث على أن يعاونه موظف روسي من الدرجة نفسها. ولكن روسيا رفضت الاقتراح البريطاني. وقدمت حكومة الهند مشروعاً آخر يقضي بإرسال ضباط بريطانيين وروس إلى منطقة النزاع وإعادة إشارات الحدود إلى سابق تواجدها(٣)، ولكن روسيا أيضاً رفضته(٤). وكان هدف روسيا، أن تكون هناك علاقات مباشرة بينها وبين أفغانستان دون وساطة بريطانيا، وهذا يؤكد رغبة روسيا في إحداث تغيير في طبيعة العلاقة الروسية الأفغانية.

وجدت بريطانيا في الطلب الروسي هذا محاولة لتقويض هيمنتها على أفغانستان سياسياً على الأقل ولذلك كان ردها على الحكومة الروسية بأن تتم تسوية هذه المشكلة على نحو مشابه للتسويات السابقة والتي كانت تتم من خلال الاتصالات الروسية والبريطانية فقط. ولكن روسيا لم تلتفت للرد البريطاني

(١) Churchill: The Ang. R. Con. 1907. PP. 275-6.

(٢) Ibid. P. 277.

(٣) Ibid. PP. 277-278.

(٤) F.O. 539/88. Inclosure No. I. in No. 50. Mr. H. Dobbs to the Government of India. Camp Bala Murghab. Dated Feb. 13, 1904. P. 40.

وأصرت على موقفها.

وفي تلك الأثناء تأزمت العلاقة بين روسيا واليابان وأصبحت الحرب وشيكة الوقوع بين الطرفين، ولذلك لجأت روسيا إلى فض مشكلة الحدود الأفغانية حتى تتفرغ لمواجهة الوضع المتردي في الشرق الأقصى، فأرسلت عدداً من جنودها وأرجعوا إشارات الحدود إلى وضعها السابق (١). وحينما اشتعلت الحرب الروسية اليابانية، كانت الدوائر الروسية تتوقع أن تنتهز بريطانيا الأزمة التي تمر فيها روسيا وتفتح عليها ثغرة في وسط آسيا الإسلامية، خاصة وأنها في عقد تحالفي مع اليابان، ولذلك وضع العسكريون الروس خطة تقوم على إرسال التعزيزات بشكل مكثف إلى قواعدها العسكرية في مرو وطشقند وسمرقند.

وقد أثارت هذه التحركات ريبة العسكريين البريطانيين في الهند رغم إدراكهم لصلتها بأحداث الحرب الدائرة في الشرق الأقصى، ولكنهم أشاروا على حكومة الهند بإرسال مندوب بريطاني إلى كابول لتوثيق ارتباطه وتحالفه مع حكومة الهند البريطانية. فأرسلت حكومة الهند السير لويس داني Louis Dane Sir على رأس بعثة كانت تحمل معها الشروط البريطانية وأهمها:

١ ـــ تنظيم الجيش الأفغاني على يد ضباط انجليز.
٢ ـــ السماح لحكومة الهند بإنشاء خطوط حديدية وتلغرافية في أفغانستان.
٣ ـــ لا تشتري الحكومة الأفغانية سلاحاً أو ذخيرة إلا من بريطانيا.
٤ ـــ ربط سياسة أفغانستان الخارجية ببريطانيا.
٥ ـــ الدعم المالي البريطاني لأفغانستان.
٦ ـــ تدخل القوات البريطانية لمساعدة أفغانستان إذا ما تعرضت لأي اعتداء خارجي.

وصل المبعوث البريطاني كابول في ١٢ ديسمبر ١٩٠٤، وكان من المتوقع أن تنتهي مهمته خلال فترة وجيزة كما دلت على ذلك الاتصالات البريطانية التمهيدية التي سبقت وصول السير داني، ولكن هزيمة روسيا قد غيرت الموقف، فقد أثار الانتصار الياباني حماسة الأمير الأفغاني الذي اعتقد أن بلاده من خلال

(١) F.O. 539/88. Inclosure No. I. in No. 68. Notes on Reported Russian Activity in Central Asia. PP. 58-9.

موقعها الاستراتيجي الممتاز في وسط آسيا تستطيع أن تلحق بروسيا هزيمة مشابهة لتلك التي أصابتها على يد اليابانيين لاعتبارات ثلاثة:

الأول: قرب أفغانستان جغرافياً من روسيا.

الثاني: قدرة أفغانستان على قطع طريق المواصلات والطرق الحربية الروسية.

الثالث: إمكانية سيطرتها على الممرات الجبلية بالتعاون مع شعوب وسط آسيا الإسلامية، وبذلك يحولون دون وصول الإمدادات العسكرية الروسية كما حدث في الجبهة اليابانية[1].

لا شك أن الأمير كان يغالي في تصوراته هذه، فلا يستطيع أن يواجه القوات الروسية المنتشرة على طول حدود بلاده، بل إن والده الأمير السابق كان يرتاب من مجرد اقتراب الروس لاحدى إشارات الحدود أو تحرك إحدى الفصائل الروسية، فما بالك لو دخل معها في جبهة تزيد على ١٥٠٠ كم تفقد قواته أساليب التنظيم الحديثة ووسائل الاتصال والإمداد، فلا شك بأن الأمير سيتراجع وأن حماسته ستفتر. وعموماً يمكن القول بأن الانتصار الياباني أعطى الأمير الأفغاني ثقة لم يكن يشعر بها من قبل، إلى جانب إحساسه بقدرة بلاده الحربية قياساً لفترات سابقة، فقد أصبح في مقدور أفغانستان أن تعد جيشاً قدره ٦٠ ألفاً مسلحاً بأحدث الأسلحة، ويمكن زيادة هذا العدد بواسطة فرسان القبائل الأفغانية حتى يصل إلى ٢٠٠ ألف، وتوفر البنادق والذخائر نتيجة لعمل ترسانة كابول[2]، كل هذه العوامل ساعدت على تغيير طبيعة المفاوضات التي كانت تجري في العاصمة الأفغانية، فلم يعد الأمير ينتظر سماع شروط بريطانيا لكي ينتقي منها ما يناسبه ثم يعمل بوسائله الطيبة لإقناع الطرف البريطاني بضرر باقي الشروط، فقد عرض شروطه على الجانب البريطاني بطريقة توحي بجلال مركزه كأمير لأمة صديقة لبريطانيا واشترط الموافقة البريطانية كأساس المباحثات بين الطرفين وكانت تلك الشروط تتلخص في الآتي:

١ ــ السماح له بفتح سفارات تمثل بلاده في الدول الأوروبية.

---

(١) F.O. 539/90. Inc. No. 7 in No. 22. Translation of His Highness the Ameer's Memorand. Received December 18, 1904. PP. 30-36.

(٢) المقطم: ٤٣٦٧ في ٩ أبريل ١٩٠٣.

٢ ــ موافقة بريطانيا على إنشاء خط حديدي يمتد من الأراضي الأفغانية جنوباً حتى شاطىء بحر العرب.
٣ ــ أن تضع بريطانيا حداً للتدخل الإيراني والروسي في الأراضي الأفغانية.
٤ ــ زيادة الدعم المالي لأفغانستان(١).

توحي الشروط الأفغانية هذه بأن أفغانستان تريد أن تفلت من قبضة السيطرة البريطانية خاصة وأنها أرادت أن تفتح لنفسها السفارات في الدول الغربية، وهذا من شأنه أن يغير من طبيعة العلاقة البريطانية الأفغانية، كما أن الأمير كان يهدف من وراء الخط الحديدي أن يحصل لبلاده على منفذ للبحر وهذا يعني أن تقدم له بريطانيا مساحة من أراضي بلوخستان، وهذا ما لا تقر به بريطانيا.

تردد المندوب البريطاني في إبداء رأيه بشأن المطالب الأفغانية وطلب من الأمير مراجعة حكومته في هذا الأمر، وأعلن الأمير بالمقابل أنه لا يمتلك قرار الموافقة على الشروط البريطانية، ولذلك سوف يعرضها على الشعب الأفغاني لاتخاذ قرار بشأنها. وكان قصد الأمير من وراء ذلك هو أن يبين للمندوب البريطاني بأن أفغانستان لم تعد بتلك المشيخة أو الإمارة الضعيفة التي تتقبل الشروط البريطانية دونما اعتبار لمصالح شعبها، بل يجب أن يكون تبادل المصالح بالمثل من وراء أي علاقة بين بلاده وبريطانيا.

رفض الشعب الأفغاني الشروط البريطانية، وقد أطلع الأمير المندوب البريطاني على تقارير حكام المقاطعات والتي كانت تتضمن أراء أهالي كل واحدة منها. وأدرك السير داني صعوبة الوصول إلى اتفاق سهل وسريع من الأفغان ولكنه مع ذلك لم يفشل، فقد واصل جهوده مع جميع الأوساط الأفغانية حتى توصل إلى اتفاق معهم في مارس ١٩٠٥. وقد وافقت أفغانستان من خلال هذا الاتفاق على ربط سياستها الخارجية ببريطانيا وأن تتدخل القوات البريطانية لمساعدة أفغانستان في حالة تعرضها للخطر الأجنبي على أن تنسحب فور زوال الخطر، وأن يتم الاتصال الأفغاني بروسيا من خلال الحكومة البريطانية.

(١) F.O. 539/90. Inclosure No. 7. in No. 22. Translation of His Highness the Ameer's Memoranum Dated, Dece. 18, 1904. PP. 30-6.

وفي المقابل تدفع بريطانيا معونة مقدارها ١٨٥ ألف جنيه استرليني. ومن الملاحظ أن الاتفاقية السابقة قد تضمنت جميع الشروط البريطانية ولم تتطرق إلى أي شرط من الشروط الأفغانية، وهذا يرجح بأن بريطانيا قد نجحت في شراء هذه المعاهدة عن طريق المساعدة التي قررت أن تمنحها لأفغانستان سنوياً إلى جانب الهدايا التي قدمها السير داني للمسئولين الأفغان.

شعرت بريطانيا بارتياح نتيجة عقد هذه المعاهدة، فقد رجعت بواسطتها أفغانستان إلى السيطرة السياسية والعسكرية البريطانية، كما أوصدت الأبواب أمام المحاولات الروسية لفتح علاقة مباشرة مع أفغانستان[١].

وحتى لا تثير بريطانيا سخط روسيا، أعلن وزير الخارجية البريطانية بأن بلاده لا ترى من وراء معاهدتها مع أفغانستان إلى السيطرة على الأراضي الأفغانية أو احتلالها أو إلى المساس بالمبدأ الذي أقرته روسيا وبريطانيا والقاضي بجعل أفغانستان دولة حاجزة بين روسيا وبريطانيا[٢].

موقف روسيا:

أثارت المعاهدة مخاوف الحكومة الروسية التي كانت تخشى من محاولة بناء السكك الحديدية في الأراضي الأفغانية حتى لا يستخدمها البريطانيون في أي عمل استفزازي أو عدواني ضد روسيا، كما كانت تقدر خطورة إشراف الضباط البريطانيين على تدريب وتنظيم القوات الأفغانية لأن ذلك يعطي لبريطانيا في أفغانستان نفس المميزات التي تتمتع بها روسيا نتيجة إشرافها على قوات القازاق الإيرانية[٣]. وبمعنى آخر ستكون أفغانستان امتداداً استراتيجياً وسياسياً لبريطانيا. كما أن الزيارة التي قام بها الأمير الأفغاني للهند في أعقاب بعثة السير داني أوحت لروسيا بمدى التفاهم بين البلدين.

---

(١) F.O. 539/90. No. 42. Sir A. Nicholson to Sir Edward Gray. St. Peter. Dated May 15 1907. PP. 31-2.

(٢) Churchill: The Ang. R. Con. 1907. P. 71.

(٣) Ibid. P. 283.

المقترحات البريطانية حول أفغانستان:

وخلال الاتصالات بين روسيا وبريطانيا لتصفية خلافاتهما، قدم نيكولسن لأزفولسكي المقترحات البريطانية حول أفغانستان وتتكون من:

١ ـــ عدم الاتصال المباشر بين الرسميين الروس والأفغان وأن تكون بريطانيا على علم مسبق بكل اتصال نظراً لاشرافها على العلاقات الخارجية الأفغانية.

٢ ـــ ألا ترسل روسيا وكلاء تجاريين إلى الأراضي الأفغانية.

٣ ـــ ألا تمنح التجارة الروسية تسهيلات خاصة على أن يتمتع التجار الروس بنفس الامتيازات التي تمنح للبريطانيين الهنود. ولذلك تتيح للتجارة البريطانية فرصة منافسة التجارة الروسية الأكثر حجماً في أفغانستان.

والواضح من هذه المقترحات أن بريطانيا تحاول الحصول على اعتراف روسيا بسيطرتها السياسية على أفغانستان، كما أنها ترمي إلى الحد من تفوق التجارة الروسية في أفغانستان وإعطاء التجارة البريطانية نفس الامتيازات، فقد كانت أفغانستان الدولة التاسعة عشر من حيث الترتيب في التبادل التجاري الروسي وكانت تتاجر معها بالمواد الغذائية والمواد الخام نصف المصنعة في حين اقتصرت التجارة الأفغانية مع بريطانيا على الأسلحة وهذا كان مصدر قلق الحكومة البريطانية لأنها تخشى من أن يتحول هذا السلاح ضدها في حالة قيام أزمة مع أفغانستان(١).

موقف روسيا:

لم يجد أزفولسكي في المقترحات البريطانية صعوبات تحول دون تسوية المشكلة، ولكنه لم يعط للسفير البريطاني رداً قاطعاً لأنه ليس في يده ولكن الحكومة الروسية ستقوم بإصداره بعد دراسة تلك المقترحات. ولقد أثار هذا الموقف مخاوف نيكولسن الذي كان يخشى أن تكون المطالبة الروسية بعيدة عن المقترحات البريطانية الأمر الذي يحول دون نجاح محاولة التسوية.

وكانت روسيا تريد من المقترحات البريطانية أن تضمن لها: وجود وكلاء

(١) Churchill: The Ang. R., Con. 1907. P. 285.

تجاريين في الأراضي الأفغانية، استمرار وضع أفغانستان كدولة حاجزة، ولكنها مع ذلك لم تقدم شروطاً محددة إذ كان المسؤلون الروس طوال شهري مارس وأبريل يتدارسون المقترحات البريطانية و يبحثون في المشكلة الأفغانية برمتها، واشترك في ذلك العمل وزير الخارجية والتجارة و بعض العسكريين الروس.

وأبلغ أزفولسكي السفير البريطاني في ٦ مايو بأن يبذل أقصى ما في وسعه لدفع الأمور من واقعها الساكن، ولقد نال موافقة معظم الوزراء على النقاط الأساسية والتي لا تختلف كثيراً عن المقترحات البريطانية على حد تعبيره[١].

المقترحات الروسية بشأن أفغانستان:

وأخيراً قدمت روسيا في ١٥ مايو ١٩٠٧ مقترحاتها حول المشكلة الأفغانية وهي كالآتي:

١ ــ أن تكون أفغانستان دولة حاجزة بين بريطانيا وروسيا.

٢ ــ تعترف روسيا بأن أفغانستان بعيدة عن المخططات الروسية وتقر بأن جميع علاقاتها السياسية معها ستكون من خلال الحكومة البريطانية.

٣ ــ تتعهد الحكومة الروسية بعدم التدخل في الشئون الداخلية الأفغانية وألا تقدم على أي عمل من شأنه أن يضم إليها أية أراضي أفغانية، وتتعهد بريطانيا بعدم احتلال أراضي أفغانية ولا تضم أجزاء منها إليها وأن تمتنع عن التدخل في الشئون الداخلية الأفغانية ولا تستخدم نفوذها في أفغانستان في أغراض غير سلمية ولا تشجع أفغانستان على تبني إجراءات عسكرية يمكن اعتبارها تهديداً للأراضي الروسية.

٤ ــ ألا ترسل روسيا وكلاء تجاريين لها إلى أفغانستان وإذا ما تطلب تطور التجارة في المستقبل مثل ذلك الأمر تتدارس الحكومتان الوضع من جديد.

٥ ــ تعيين لجنة مشتركة روسية أفغانية لحل المشكلات التي قد تنشأ على الحدود.

---

(١) Churchill: The Ang. R. Con. 1907. PP. 286-7.

٦ ـ تمنح التسهيلات للتجارة والتجار الروس في الأراضي الأفغانية شأنهم في ذلك بشأن البريطانيين[١].

لقد قدمت روسيا بواسطة هذه المقترحات اعترافاً ضمنياً بالنفوذ البريطاني في أفغانستان كما أنها لم تظهر نوايا عدوانية أو مطامع نحو أفغانستان ولكنها حاولت أن تبعد بريطانيا عن التدخل في مشاكل الحدود. ومن الطبيعي أن يثير هذا العمل بريطانيا. وحينما وصلت المقترحات الروسية لندن أرسلتها إلى حكومة الهند والتي عرضتها بدورها على الأمير الأفغاني الذي ثار عليها.

واعترضت حكومة الهند على منح التجار الروس التسهيلات في الأراضي الأفغانية. ووجدت حكومة لندن في البند الثالث محاولة لفصم عرى الترابط بين أفغانستان وبريطانيا، أو بمعنى آخر النيل من مكانة بريطانيا في أفغانستان[٢]، كما أثارت كلمة احتلال قلق الحكومة، فماذا سيكون موقف بريطانيا إذا استغل الأمير قواته الحربية أو دفع قبائله الحدودية إلى الاغارة على الأراضي الهندية، فهنا ستلجأ إلى الأسلوب الحربي[٣]، ولذلك طالبت بتعديل صياغة هذا البند و يكون كالآتي: يستمر النفوذ البريطاني في أفغانستان في حالة السلم، وألا تقدم بريطانيا لأفغانستان المساعدة إذا ما قامت باعتداءات على الأراضي الروسية[٤]، كما وجدت في البند الرابع الطريق لوصول المندوبين التجاريين الروس للأراضي الأفغانية.

ووجد المستر جراي في البند الأول نوعاً من الغموض ولذلك لفت الأنظار إلى ضرورة الإشارة في مقدمة المادة: إن أفغانستان هي الدولة الحاجزة بين نفوذ الدولتين نظراً لموقعها الجغرافي ورفضت الحكومة أيضاً البند الخامس وطالبت بضرورة إعادة صياغته[٥].

---

(١) F.O. 539/90. Incl, No. 1. in No. 47. Gover. of Ind, to Mr. Morely, Dat. May 15 1907. PP, 36-7.

(٢) Churchill: The Ang. R. Con. 1907. P. 289.

(٣) F.O. 539/90. No. 42. Sir A. Nicolson to Sir Edward Gray, St. Pet. Det. May 15, 1907. PP. 31-2.

(٤) F.O. 539/90. No. 50. Sir Edward Gray to Sir A. Nicolson. F.O. Dat. May 29, 1907. PP. 39-40.

(٥) F.O. 539/90. No. 42. Sir A. Nicolson to Sir Edward Gray. St. Peter. Dated May 15, 1907. PP. 31-2.

جهود نيكولسن في لندن:

وخلال النصف الأول من شهر يوليو كانت المناقشات تدور بين الجانبين حول رغبة روسيا في قيام علاقات مباشرة بين أفغانستان وسلطات مقاطعات الحدود الروسية. وهذا في نظر بريطانيا سيتيح الفرصة لتدخل الروس في الشئون الأفغانية. وحينما لم تصل المناقشات إلى نتائج حاسمة، سافر المستر نيكولسن إلى لندن لمناقشة المسئولين وحثهم على موقف أكثر إيجابية وأوضح لهم صراحة في لندن بأن المقترحات الروسية تحمل كل ما هو معقول لبريطانيا وطالب حكومته بالابتعاد عن العبارات الغامضة وأن تكون ألفاظها واضحة كما حدث في اتفاقها الودي مع فرنسا ١٩٠٤، فماذا يضير بريطانيا إذا أعلنت صراحة بأنها لا ترغب في تغيير الوضع السياسي الراهن لأفغانستان.

و يبدو أن زيارة نيكولسن قد حققت الأهداف التي كان يرجوها فقد توصل مع حكومته إلى تصفية جميع الصعوبات خاصة البند الخامس إذ أعلنت بريطانيا فيما يتعلق بالعلاقة المباشرة بين الموظفين الروس والأفغان عن موافقتها على تعيين عدد معين من الموظفين الروس والأفغان يقيمون على جانبي الحدود و يدخلون في علاقات مباشرة. و بذلك تكفل بريطانيا: إزالة عقبة رئيسية أمام مباحثاتها، التخفيف من سخط الأمير، وأخيراً اقترح أزفولسكي أن تضاف مادة إلى المعاهدة ١٩٠٧ تنص على عدم سريان المعاهدة[١]، قبل وصول موافقة الأمير عليها. و بذلك تكون تسو ية المشكلة الأفغانية بين الجانبين كالآتي:

١ ــ تعلن بريطانيا بأنها لا ترغب في تغيير الوضع السياسي لأفغانستان وتتعهد من جانبها بألا تقدم أو تشجع أفغانستان على اتخاذ إجراءات معادية لروسيا. وفي المقابل تعترف روسيا بأن أفغانستان بعيدة عن مخططاتها وأن تكون علاقتها السياسية معها من خلال بريطانيا.

٢ ــ يتعهد الجانبان بعدم التدخل في الشئون الداخلية الأفغانية أو ضم أراضي أفغانية لأي منهما.

(١) Churchill: The Ang. R. Con. 1907. PP. 297-304.

يشكل الجانب الروسي والأفغاني لجنة لحل المشكلات التي تنشأ على الحدود.

٤ — يتمتع التجار الروس بالمزايا نفسها التي يتمتع بها تجار الهند في أفغانستان.

لم تكن هذه البنود مجحفة أو ضارة بالمصالح البريطانية، بل أنها تؤكد تفوق النفوذ السياسي والتجاري البريطاني على النفوذ الروسي كما أنها حققت لروسيا الاتصالات المباشرة ولو بصورة محدودة وكفلت مصالحها التجارية في البلاد إلا أن التسهيلات من الممكن أن تعطي للتجارة البريطانية سبيلاً لمنافسة التجارة الروسية الأكبر حجماً من التجارة البريطانية. كما التزمت الدولتان بعدم احتلال أراضي أفغانية وهذا يطمئن الأمير الذي كان يرتاب من التحركات الروسية والبريطانية على حد سواء.

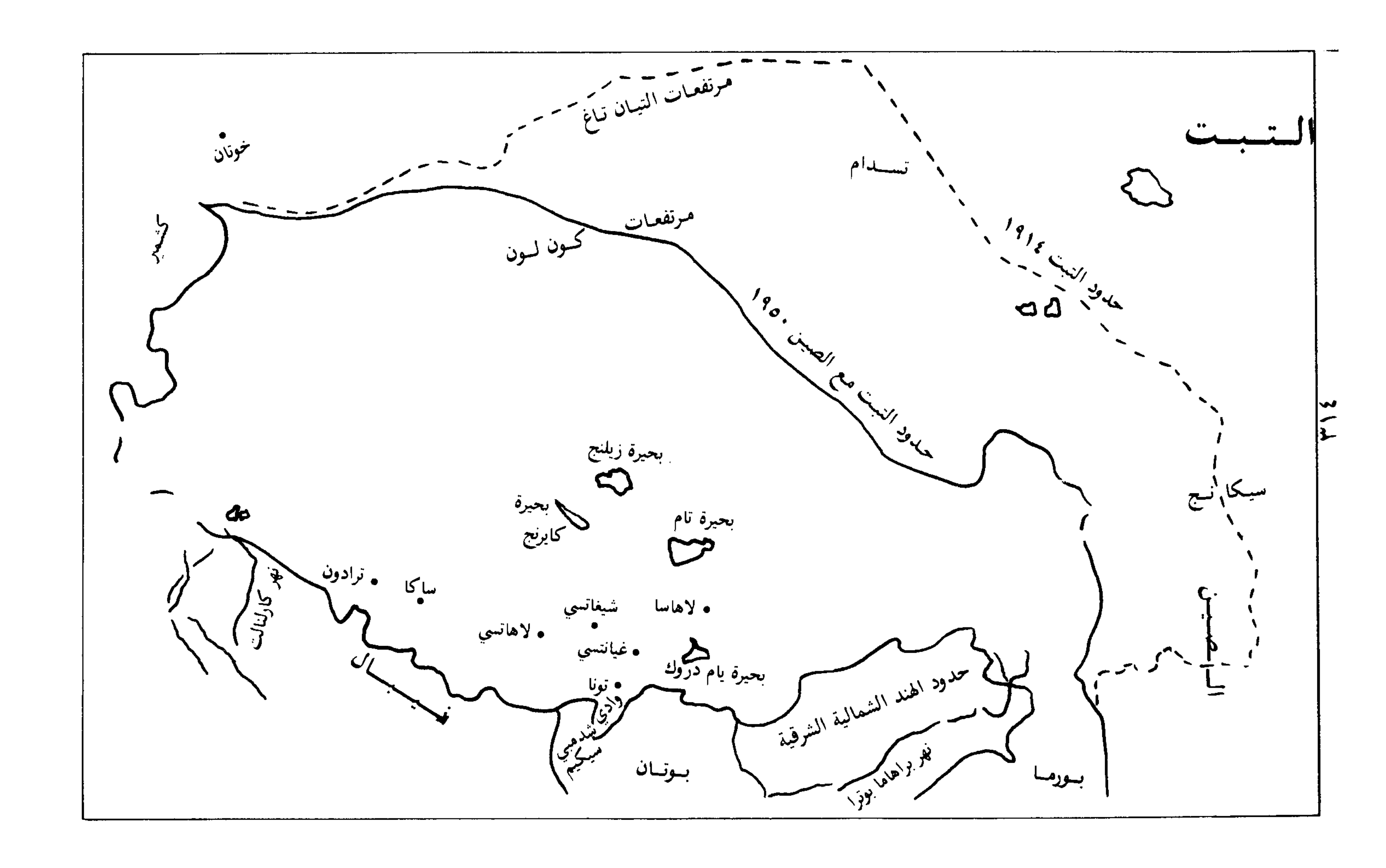
ثالثاً ــ التبت:

كانت التبت هي المنطقة الثالثة التي تطرقت إليها الاتفاقية الروسية البريطانية ١٩٠٧[١]. وكانت علاقات بريطانيا وروسيا قد نشطت معها منذ أوائل القرن الحالي، فالهند البريطانية بعد سيطرتها على نيبال وسيكيم و بهوتان، أصبحت تجاور التبت، ومن ثم بدأت تتطلع لفتح أبواب التجارة معها. ولم تلتزم التبت بتنفيذ ما عقدته من اتفاقيات تجارية مع الهند البريطانية خلال العقد الأخير من القرن الماضي[٢].

---

(١) تقع التبت بين خطي عرض ٢٨-٣٦ شمالاً و بين دائرتي طول ٧٩-٩٩ شرقاً، ويحدها من الشمال جبال كون لون وتانجلا ومن الغرب جبال قرة قورم ومن الجنوب جبال الهملايا ومن الشرق سهل سزشوان. وتبلغ مساحتها ٥٠٠ ألف ميل مربع وترتفع عن مستوى سطح البحر من ٩-١٦ ألف قدم وبلغ تعداد سكانها حتى الستينيات ٢ مليون نسمة يتركز معظمهم في الجنوب حيث السهول والأنهار، ويمارس سكانها حرفة الزراعة والرعي. ومن أهم مدنها لاهاسا العاصمة شيجاتسي Shigatse وجيانتس Gyantse و يدين معظم سكانها بالمذهب البوذي. أنظر:
Richardson, H.E.: Tibet & its history. London, Oxford Univ. Press. 1969, P. 3.
The New Caxton Encyclopedia. London, The Caxton Publishing Company Limited, 1977, Vol. 17 PP. 5710-11.

(٢) British & Foreign States Papers, 1892-1893, Vol. 85 PP. 1235-37.


التبت
مرتفعات التيان تاغ
خوتان
كشمير
تسدام
مرتفعات
كون لون
حدود التبت ١٩١٤
حدود التبت مع الصين ١٩٥٠
بحيرة زيلنج
بحيرة كايرنج
بحيرة تام
نهر كارلنالت
ترادون
ساكا
شيغاتسي
لاهاسا
لاهاتسي
غيانتسي
بحيرة يام دروك
تونا
وادي شدمبي
سيكيم
بوتان
نيبال
حدود الهند الشمالية الشرقية
نهر براهما بوترا
بورما
سيكانج
الصين

ورفض الديلي لاما السماح بالاتصال الحر بين بلاده والعالم الخارجي واعتبر اللورد كيرزون ــ نائب الملك ــ بأن هذا الموقف إهانة شخصية له ولبلاده. فبدأ التفكير في القيام بعمل يعيد لبلاده هيبتها، فانساق في التيار العسكري الذي جرف سلفه المستر ليتون من قبل (الحرب الأفغانية الثانية)، فبدأ يفتش عن أسباب تقنع معارضيه. ولم يجد غير الادعاء بتواجد روسيا والأخطار التي تنتظر الهند البريطانية من ورائه إلى جانب المزايا الاقتصادية.

أما روسيا فلم تكن هناك علاقة أو اتصال رسمي بينها وبين التبت، ولكن الصلات الروسية كانت تربط بين سكانها البوذيين ولاهاسا والذين كانوا ينظرون نظرة تقديس إلى بعض الأماكن في التبت. وتمكنت بعض شخصيات روسية بوذية من الوصول إلى مكانة مقربة لدي الديلي لاما، ولكسب ود البوذيين الروس والمنغوليين، أرسل القيصر الهدايا بواسطة تلك الشخصيات إلى لاهاسا.

ولقد أثار هذا الموقف سخط حكومة الهند البريطانية التي توهمت لعقد اتفاق سري بين روسيا والتبت وبوجود مندوب روسي دائم في المنطقة[١]. وحاول السفير الروسي في لندن أن يخفف من حدة الشكوك البريطانية فنفى وجود أي اتفاق سري بين بلاده والتبت أو مندوب روسي في لاهاسا، وأن اتصالات البوذيين الروس بالديلي لاما اتصالات روحية بحته بعيدة عن أية أهداف سياسية[٢].

ولقد وجدت حكومة لندن في هذا التصريح بعض الاطمئنان خاصة وأن هناك اتصالات بين الدولتين ــ كما رأينا ــ لوضع حل لخلافاتها في ايران وأفغانستان. ولكن اللورد كيرزون أصر على موقفه، فحاول الحصول على موافقة حكومة لندن على خطته فأبرز لها الأهداف السياسية والاقتصادية. ووافقت الحكومة البريطانية على خطة نائب الملك، وهذا دأبها في مثل هذه المواقف فتبدي موافقتها في البداية واذا ما ظهرت صعوبات أو عراقيل فإنها تحمل رجالاتها عاقبة أعمالهم[٣].

---

(١) F.O. 539/86. Incl. in No. 151. Memorandum on the Tibet. P. 156.

(٢) F.O. 539/86. No. 161. The Marquis of Lansdewne to Sir C. Scott. F.O. Sept. 16, 1903. P. 179.

(٣) أنظر الفصل الثالث: الحرب الأفغانية الثانية.

حملة يونجشبند:

تحرك يونجشبند على رأس حملة قدر مجموع أفرادها ١٠,٢٠٠ في يوليو ١٩٠٣، ولقد حاول التبتيون صده بالقرب من تونا Tuna خلال شتاء ذلك العام ولكنهم فشلوا في ذلك كما فشل هو في جذبهم إليه عن طريق الأموال والهدايا ولذلك لجأ إلى محاربتهم. ولم يكن في مقدورهم بأسلحتهم البدائية أن يصدوا الهجوم البريطاني الأمر الذي مكن يونجشبند من السيطرة على مدينة جيانتس (يناير ١٩٠٤).

اطمأن البريطانيون إلى أن الطريق إلى لاهاسا أصبح مفتوحاً، ولذلك تراجعت بعض قواتهم إلى وادي شومبي، وفي تلك الأثناء تجمع التبتيون من جديد وأخذوا البريطانيين على حين غرة. ولكن القوات البريطانية بأسلحتها ــ المتقدمة ــ تمكنت من هزيمة التبتين وبذلك أصبح طريقهم سهلا إلى لاهاسا. وحينما اقترب البريطانيون منها فر الديلي لاما إلى منغوليا وتولى الوصي مكانه، فأرسل وفداً لمفاوضة البريطانيين.. وتوصل الطرفان إلى معاهدة لاهاسا ٧ سبتمبر ١٩٠٤.

معاهدة لاهاسا Lahasa:

تضمنت هذه المعاهدة تحديد الحدود بين التبت وسيكيم، وفتح مراكز تجارية بريطانية والسماح لإقامة مندوبين بريطانيين في مدن التبت وأن تدفع التبت غرامة مقدارها ٧٥ لاكا (٥٦٥,٥٠٠ جنيهاً استرلينياً)، يدفع منها لاكا واحد كل عام على أن تبقى قوات بريطانية في وادي شومبي حتى تتم التبت من دفع الغرامة كلها [١].

كانت حكومة لندن تخشى من أن يؤدي الوضع في التبت إلى إثارة سخط روسيا، ولذلك أبعدت مسئوليتها عن النتائج التي آلت إليها أحداث التبت وحملت يونجشبند عاقبة تصرفه الفردي، كما طالبت بتخفيض الغرامة وأن يقتصر الاحتلال لوادي شومبي على ثلاث سنوات، ورفضت مبدأ وجود مندوبين بريطانيين في أراضي التبت. ونفى وزير الخارجية البريطانية ما تردد حول قيام

---

(١) F.O. 539/88. Incl. No. 3. in No. 132. Memorandum on the Tibetian Frantur Commission. P. 246.
Churchill: The Ang. R. Con. 1907. P. 182.

بريطانيا باحتلال بعض الأراضي التبتية وأوضح بأن بلاده لا ترمي إلى ضم أية أراضي للهند أو فرض الوصاية البريطانية على التبت أو السيطرة على شئونها الداخلية(١).

في العاصمة الروسية أثارت الحملة البريطانية قلق الحكومة القيصرية واتهمت بريطانيا بتجاوز الأهداف الاقتصادية إلى فرض الحماية على التبت، وأعلن وزير الخارجية في أبريل ١٩٠٦ بأن الاجراءات البريطانية في التبت قد أهانت مشاعر البوذيين الروس الذين ينظرون نظرة تقديس إلى لاهاسا والديلي لاما، وأعلن بأن سياسة بلاده تقوم على مبدأ عدم التدخل في شئون التبت الداخلية وطالب الدول الأخرى بترك هذه المنطقة وأن تكف عن العبث في شئونها الداخلية أو الخارجية(٢).

الاتصالات الروسية البريطانية:

كانت حكومة الأحرار تدين حملة يونجشبند على التبت فأعلنت عن رغبتها في إخلاء المنطقة مقابل تعهد روسيا بعدم إرسالها لأي من ضباطها إلى التبت(٣). ولقد شجع هذا الموقف على بدء الاتصالات بين الجانبين (٧ يونيو ١٩٠٦)، وقدم السفير البريطاني في هذا اللقاء مشروعاً لتسوية تضمن:

١ ــ اعتراف روسيا و بريطانيا بسيادة الصين على التبت وعدم التدخل في شئونها الداخلية واحترام سلامة أراضيها.

٢ ــ عدم تدخل دولة أخرى في علاقات التبت الخارجية.

٣ ــ تمتنع الدولتان عن إرسال قوات لهما أو ممثلين عنهما إلى أراضي التبت.

٤ ــ ألا تحاول أي منهما السيطرة على إحدى مصادر دخل التبت سواء كان ذلك عن طريق الرهن أو غيره.

٥ ــ اعتراف روسيا بمصالح بريطانيا الخاصة في التبت(٤).

(١) Churchill: The Ang. R. Con. 1907. PP. 186-89.

(٢) Richardson, H.E.: Tibet & its History, P. 188.

(٣) Churchill: The Ang. R. Con. 1907. P. 192.

(٤) Ibid. P. 193.

موقف روسيا:

اعتبرت روسيا المشروع البريطاني بادرة مشجعة للسير في طريق التسوية ولقد رحب به القيصر ووزير الخارجية الروسية. إلا أن ذلك لا يعني موافقة روسيا على المشروع بل اعترضت على: * المصالح الخاصة البريطانية في التبت وطالبت روسيا أن يكون لها نفس المميزات البريطانية * علاقة التبت الخارجية لأن ذلك يعني اعتراف روسيا بربط علاقة التبت بعجلة سياسة الهند البريطانية * إن المشروع لم يتطرق إلى الديلي لاما باعتباره الزعيم الديني، كما لم يشر إلى موضوع البعثات العلمية التي عبرت عن رغبتها في إعداد دراسة جغرافية عن المنطقة. ولقد كانت الاعتراضات الروسية هذه بمثابة نقاط الخلاف بين الدولتين في تسوية مشكلة التبت.

١ ــ مشكلة الديلي لاما:

اهتمت روسيا بمشكلة الديلي لاما وطالبت بضرورة عودته إلى لاهاسا وكان هدفها من وراء ذلك وهو كسب ود البوذيين الروس والمنغوليين خاصة عندما دفع الحماس بجماعات عديدة تطوعت لإرجاع الديلي لاما بقوة السلاح وخلع الوصي (تاشي لاما) الذي حل محله.

وكانت بريطانيا لا تريد عودة الديلي لاما نظراً لما تردد عنه في الأوساط البريطانية بأنه خاضع لتأثير السياسة الروسية. ولذلك طالبت روسيا أن تكف عن مطلب عودة الديلي لاما في مقابل عدم معارضتها لذهاب الحجاج البوذيين إلى الأماكن المقدسة[١] في لاهاسا والتي اعتادوا في السابق على زيارتها على ألا يكون هناك مندوباً لروسيا. وكانت بريطانيا تحرص في هذا المجال على ألا تتحول العلاقات الروحية بالتبت إلى علاقات سياسية[٢].

٢ ــ المصالح الخاصة والعلاقة الخارجية:

كانت روسيا تريد أن تغلق جميع الوسائل التي تساعد على التوغل البريطاني في التبت، في حين أوضحت بريطانيا بأن مصالحها الخاصة تنبع من مجاورتها للتبت، وأن ما تطالب به لا يختلف عن المطالب الروسية في إيران أو أفغانستان أو

(١) Churchill: The Ang. R. Con. 1907. PP. 198-200.
(٢) Ibid. P. 204.

منشوريا .

وفيما يتعلق ببقاء القوات البريطانية في وادي شومبي، فلقد كانت روسيا تريد تأكيداً بعدم تواجد القوات البريطانية في ذلك الوادي. ولم تعارض بريطانيا الطلب الروسي هذا، بل خولت سفيرها في العاصمة الروسية بالتعهد للحكومة الروسية بأنه إذا حدث ما يعرقل جلاء القوات البريطانية عن وادي شومبي في المدة التي قررتها معاهدة سيملا فإن هذا الأمر سيطرح للمناقشات بين الدولتين(١) .

٣ ــ البعثات العلمية:

اقترح السفير البريطاني في يوليو ١٩٠٦ على حكومته عدم السماح بدخول بعثات علمية سواء أكانت روسية أو بريطانية لمدة ٥ سنوات على أن يبحث هذا الأمر في نهاية المدة المقررة بعد أن تكون الأحوال الداخلية قد هدأت وكانت الخارجية البريطانية تشك في موافقة روسيا ولكنها مع ذلك خولته صياغة هذا الأمر وتقديمه للحكومة الروسية.

كان وزير الخارجية أزفولسكي يحبذ فكرة استبعاد البعثات العلمية عن التبت مع إدراكه للانتقادات التي سيواجهها مں المتشددين، ولكنه اقترح أن تكون المدة ثلاث سنوات بدلاً من خمس وأن تكون الصين على علم بهذا الأمر حتى تقوم هي الأخرى على التقيد به من جانبها ولقد وافقت الصين على ذلك. وبهذا تمت تسوية جميع نقاط الخلاف في هذه المشكلة.

وتضمنت معاهدة أغسطس ١٩٠٧ بين روسيا وبريطانيا فيما يتعلق بالتبت البنود التالية:

١ ــ تحترم الدولتان وحدة التبت وتمتنعان عن التعرض لإدارة شئونها الداخلية.

٢ ــ إذا أرادت إحدى الدولتين مفاوضة التبت فيكون عن طريق الصين على أن اتفاقهما على ذلك لا يمنع مفاوضة الوكالات التجارية البريطانية لحكام التبت مباشرة بلا واسطة، لأن ذلك من حقوق بريطانيا المنصوص عليها في

(١) Churchill: The Ang. R. Con. 1907. P. 206.

المعاهدة المعقودة بينها وبين التبت ١٩٠٤ وبينها وبين الصين ١٩٠٦ وأن البوذيين سواء كانوا من رعايا بريطانيا أو من رعايا روسيا يحق لهم أن يفاوضوا إخوانهم في التبت مباشرة فيما يتعلق بالمسائل الدينية فقط، أما في ما عدا ذلك فلا يحق لهم حتى لا يؤدي الأمر إلى الإخلال بشروط المعاهدة.

٣ ـ ألا ترسل بريطانيا ولا روسيا قوات إلى لاهاسا.

٤ ـ ألا تسعى إحداهما إلى الحصول على امتياز لها أو لغيرها من الدول في التبت.

٥ ـ ألا تضم إحداهـا أية أراضي لها من التبت ولا تمنح جنسيتها لأهالي التبت.

وبهذا الاتفاق على هذه المشكلة تكون بريطانيا وروسيا قد أتمتا بحث جميع نقاط خلافاتهما في وسط القارة الآسيوية.

* * *

أثر الوفاق

الحملة الدبلوماسية:

ساد الاعتقاد في الأوساط البريطانية ضرورة القيام بحملة دبلوماسية قبل التصديق على مشروع الوفاق، تهدف إلى الاتصال بالدول الأخرى لتوضح حقيقة الاتفاق بين الدولتين، واقترح أزفولسكي أن تقوم بريطانيا وروسيا بالاتصال معاً بإيران وأن ترسلا مذكرة توضيحية بشأن التبت إلى الصين. أما بقية الدول فقد تقرر أن تقوم كل دولة منهما بالاتصال بتلك التي تربطها بها علاقات ودية، فروسيا ـــ على حد قوله ـــ لا تستطيع أن تنقل خبر الوفاق إلى الدولة العثمانية، ولكن ذلك يمكن مع فرنسا، ولقد وافقت بريطانيا على رأي أزفولسكي شريطة أن تكون أفغانستان أولى الدول التي يتم الاتصال بها ثم تأتي بعد ذلك إيران والصين. أما اليابان فقد كانت على علم مسبق من خلال سفيرها في لندن الذي كان يطلعه المستر جراي على المفاوضات مع روسيا ولكنه اشترط الحفاظ على السرية.

اتفق الطرفان على عدم تقديم نصوص الوفاق إلا قبل وقت قصير من نشرها [١]. وفي ٥ سبتمبر ١٩٠٧ أحيطت أفغانستان واليابان وفرنسا علماً بالوفاق. وفي ٢٤ من الشهر نفسه سلمت مذكرات إلى الدول الأخرى. وفي ٢٥ سبتمبر سلم السفير الروسي والبريطاني في بكين مذكرة مشتركة إلى الحكومة الصينية [٢].

أثر الوفاق في أفغانستان:

عندما وصل المندوب البريطاني العاصمة الأفغانية كان حبيب الله يقوم بجولة

(١) Churchill: The Ang. R. Con. 1907. P. 310.

(٢) Ibid. P. 311.

في ربوع بلاده خلال شهر سبتمبر ۱۹۰۷ وعندما وصل إليه خبر الوفاق أعلن بأنه لا يستطيع إبداء رأيه قبل العودة إلى كابول التي وصلها في ٢٥ نوفمبر ۱۹۰۷[١].

استدعى الأمير شقيقه ووزراءه وأعضاء المجلس الوطني المؤلف من رؤساء العشائر الأفغانية وتباحث معهم في الأمر. وخلال المناقشة اعترض نصر الله خان – شقيق الأمير – على الوفاق وأعلن بعض أعضاء المجلس الوطني بأن الأفغان قد خدعوا بوعود الإنجليز ويجب على الشعب الأفغاني أن يقطع صلته كلية بهم وإنهم أعداؤه الألداء[٢]. وصرح البعض الآخر بأن الوفاق من وجهة نظرهم ضار بكل من إيران وأفغانستان، وأن الكلمات التي ترددت عن الحرية والاستقلال خالية من أي مضمون، فإيران قسمت إلى أقسام دون مراعاة لمعنى الاستقلال الذي ذكره الوفاق، وأن هناك أخطاراً كثيرة تنتظر أفغانستان، فالروس أصبحوا يحيطون بمدينة حيرات من جهات ثلاث، وهذا من شأنه أن يعرض المدينة لأخطار الزحف الروسي نحوها، كما عارض الأعضاء منح التجار الروس الامتيازات التجارية الممنوحة لتجار الهند في أفغانستان. كما أثار الوفاق حقد الأمير الشخصي لأنه ذكر خلال بنوده بلقب «سعادة الأمير»، في حين ذكر الشاه الإيراني بلقب «صاحب الجلالة» وهو يعتبر نفسه في درجة أعلى إن لم تكن مساوية للشاه الإيراني على أدنى الاعتبارات. ولم يوافق الشعب الأفغاني على المعاهدة لأنها في نظره تحمل لبلاده مصير إيران نفسها[٣].

أثر الوفاق في إيران:

وصلت أخبار الوفاق الروسي البريطاني إلى إيران من خلال ما رددته الصحف الأوروبية من تعليقات حوله قبل نشره وما كتب في تلك الصحف من أن بريطانيا قد باعت إيران لروسيا. وانتشرت تلك الأخبار بسرعة بين الإيرانيين في ظل الفوضى التي كانت تعيشها البلاد. وفي تلك الأثناء وصلت مذكرة روسية بريطانية تتضمن وصول الدولتين إلى اتفاق فيما بينها وتعربان عن أملهما في أن

(١) Churchill: The Ang. R. Con. 1907. P. 304.

(٢) اللواء: ٢٦٥١ في ٢٩ مايو ١٩٠٨.

(٣) F.O. 539/93. Incl. No. 1. in No. 76. Govern. of India To Viscount Morely. Dat. Sept. 21. 1908. PP. 53-4.

يؤدي هذا إلى سلامة الأراضي الإيرانية واستقلالها.

لقد جاءت هذه المذكرة متأخرة في توقيتها، فقد أصبح الإيرانيون يشكون في صدق نوايا بريطانيا وروسيا، ومن ثم فلم تترك أي أثر في الرأي العام الإيراني، ولكن السفير البريطاني في طهران ــ رغم عدم تأييده للوفاق فيما يتعلق بالمشكلة الإيرانية ــ أدرك جدوى القيام بحملة دبلوماسية في الأوساط الإيرانية، كان يهدف من ورائها تهدئة سخط الإيرانيين فأوضح لهم بأن الوفاق تضمن الوعود التي قطعتها روسيا وبريطانيا في السابق لحماية استقلال وسيادة إيران(١). ولكنه فشل في تحقيق هدفه فقام الزعماء الوطنيون بإلهاب حماسة المواطنين ضد المؤامرة التي تستهدف أراضيهم ووحدتها، فالروس ــ على حد تعبيرهم ــ لا يسعون إلا لمصلحتهم التي تستهدف خيرات البلاد في الشمال كما أن الآمال التي وضعوها في حزب الأحرار البريطاني كانت مجرد وهم، فبريطانيا سحبت معارضتها للتوغل الروسي في مقابل نصيبها من المؤامرة.

وخلال شهر سبتمبر ١٩٠٧ شنت الصحف الإيرانية حملة ضد بريطانيا واتهمت حزب الأحرار بانتهاك المبادىء التي يرفعها لمساندة حركة الشعوب في مسيرتها اللبرالية وإنه خذل الإيرانيين في اتفاقه مع روسيا. وعندما خاب ظن الشعب الإيراني بالبريطانيين تحولت بعض قياداته الاجتماعية والحزبية إلى التطلع نحو ألمانيا خاصة الحزب لديموقراطي الذي نال الأغلبية في المجلس الوطني، فأصبحت نسبة كبيرة من أعضاء المجلس بما فيه الرئيس يؤيدون الألمان. وبذلك أخذت مكانة بريطانيا في إيران تتدهور تدريجياً.

حاول ريس السفير البريطاني إنقاذ مكانة بلاده، فكانت الوسيلة التي يراها مناسبة للتخفيف من حدة السخط الإيراني هي التأكيد لهم بوحدة أراضيهم واستقلالها، فاقترح في هذا المجال أن يقدم لهم ضماناً دولياً بهذا المعنى تشترك فيه الدول الأوروبية كلها(٢).

ومثل هذا الاقتراح يعتبر خطوة نحو تدويل المشكلة الإيرانية وبالتالي إتاحة

(١) Lenczowski, George: Russia & The West in Iran P. 147.
(٢) Churchill: The Ang. R. Con. 1907. P. 317.

الفرصة للتدخل الألماني فيها بصفة رسمية وهذا ما لا ترغب فيه كل من روسيا وبريطانيا على السواء.

ومن جهة أخرى، شكل المجلس الوطني الإيراني لجنة لدراسة الوضع بعد الوفاق الروسي البريطاني وكلفها بإرسال الرد للحكومتين فأرسلت اللجنة ردها إلى الحكومة الروسية والبريطانية، وقد حمله وزير الخارجية الإيرانية. وقد تضمن ذلك الرد بأن إيران جارة الدولتين وصديقتهما ولكنها لن تخضع لسلطة تقاسم الامتيازات سواء أكانت أجنبية أو وطنية.

لم تجرؤ اللجنة على التعبير صراحة عن رفضها للوفاق أو الإفصاح عن الأضرار التي ستلحق بالأراضي الإيرانية من جراء ذلك التقسيم. فقد كان رجال السياسة والحكومة في ذلك الوقت يتهافتون على السلطة، وزين بعضهم الاتفاق في صور مبهجة على أمل أن يتولوا السلطة، ولم يراع معظمهم أماني الشعب الإيراني في صون حريته واستقلال بلاده.

وحينما افتقد أولئك الأفراد الحماسة الوطنية قام رجال الدين والعلماء بتوزيع المنشورات في جميع البلاد يدعون فيها الإيرانيين إلى الاتحاد، وتوجيه أنظارهم نحو المؤامرة التي حاكتها ضدهم كل من روسيا وبريطانيا(١).

ومن جهة أخرى، فقد استغل الشاه الإيراني الوجود الأجنبي على أراضيه من أجل توطيد نفوذه وقمع الزعامة الوطنية، وعرقلة الإصلاحات الدستورية. ولقد أدى هذا إلى سخط الأوساط الوطنية والشعبية ضده، وضد الوجود الأجنبي، ففي الشمال قامت انتفاضة خاصة في أذربيجان وادعت روسيا أنه صراع ديني بين المسيحيين والمسلمين. ولذلك اعتزمت روسيا التدخل للقضاء على الحركة الشعبية هذه. ولم تنتظر طويلاً فدفعت قواتها إلى ميناء انزلي على بحر قزوين وشكل رجال الدين جماعات لمواجهة الغزو الأجنبي، فانعدم الأمن وازدادت حالة البلاد الاقتصادية سوءاً فخشي الشاه على نفسه ولجأ إلى مقر البعثة الروسية في طهران(٢).

---

(١) اللواء ٢٦٦١ في ٣١ مايو ١٩٠٨.

(٢) Browne, Edward: The Persian Revolution P. 175.

لم يكن الوازع الديني الدافع الحقيقي لتوغل روسيا عسكرياً، بل اتخذت من عدم الاستقرار الداخلي سبباً لمحاولة السيطرة على ولاية أذربيجان ومما شجعها على ذلك أن بريطانيا كانت لا تريد أن تثير العداوة مع روسيا لأن كل اهتماماتها موجهة نحو القارة الأوروبية. ومن ناحية أخرى، فقد حاولت كل من روسيا وبريطانيا تهدئة خواطر الإيرانيين ففي سنت بطرسبورج اجتمع نيكولسن بالسفير الإيراني في ٢٤ سبتمبر ١٩٠٧ وأوضح له بأن الوفاق الروسي البريطاني في صالح إيران لأنه حدد نفوذ كل دولة دون المساس بوحدة إيران، ونفي الدعايات التي ترددت حول قيام الدولتين بتقسيم وحدة إيران(١)، كما أكد وزير الخارجية الروسية لوزير خارجية إيران بأن الدولتين لا ترغبان في التدخل في الشئون الداخلية الإيرانية وإنهما لا تزمعان تقسيم إيران، كما أعلن وزير خارجية بريطانيا بأن الوفاق لا يمس أمن واستقلال إيران(٢)، بل أنه يساعد على تقدم إيران وازدهارها ولا يعني سيطرة الدولتين على الأراضي الإيرانية.

أثر الوفاق في روسيا:

نشرت الصحف الأوروبية تعليقات مشوشة عن الوفاق نظراً لأن بنوده لم تعلن، وكان مصدر تلك التعليقات التخمينات فقط، وهاجمت الصحف الروسية ازفولسكي واتهمته بممالأة البريطانيين. ولقد أثار ذلك سخط أزفولسكي الذي أعرب عن رغبته في نشر نصوص الاتفاق حتى يسكت تلك الصيحات ولكن بريطانيا لا تميل إلى هذا الاتجاه كما إنه لم يتحقق بعد الشرط الذي يطالب بضرورة الحصول على موافقة الأمير قبل نشرها.

ولكن كان من الصعب على أزفولسكي الذي اشتدت عليه حملة الصحف الروسية واتهمته بخيانة روسيا وأن سكوته يعتبر دليلاً على صحة التهم. أثارت هذه الحملة الصحفية الوزير الروسي ولذلك فكر في منتصف شهر سبتمبر إعطاء صحيفة نوفي فريما ـــ أكثر الصحف الروسية انتشاراً ـــ الخطوط العريضة للوفاق(٣)، ولكن الخارجية البريطانية حثته على إرجاء ذلك حتى يتم التصديق

(١) Churchill: The Ang. R. Con. 1907. P. 315.

(٢) Ibid. P. 317.

(٣) Ibid. P. 309.

على الوفاق والذي تحقق في ٢٣ سبتمبر. وفي ٢٦ من الشهر نفسه نشرت النصوص الكلية له (١).

بعد نشر الاتفاق تناولت الصحف الروسية الحديث عنها بروح معتدلة وأعلنت صحيفة نوفي فريما بأن روسيا بواسطة الاتفاق قد كفلت لنفسها الأمان في إيران ولكنها فقدت إقليم سستان الاستراتيجي. أما صحيفة سلافا، فوجدت أن روسيا بواسطته قد وضعت حداً لطموح ألمانيا في إيران.

أما الرأي العام الروسي فقد كان يؤيد الاتفاق لأنه يتيح لروسيا فرصة التفرغ لمواجهة مشاكلها الداخلية وأيد حزب الأحرار الروسي ـــ ضعيف النفوذ ـــ الوفاق تأييداً مطلقاً (٢)، كذلك الكونت و يت والذي أعرب عن أمله في نمو العلاقات بين البلدين وأوضح السفير الروسي في روما بأن السياسة التقليدية الروسية والتي تصر على وجوب سيطرة روسيا على إيران سيطرة مطلقة سياسة غير مجدية لبلاده. في حين عارض الجانب العسكري الاتفاق لأنه حدد نفوذ روسيا في إيران، وتنازلت على إقليم سستان، أما الحزب الشيوعي الروسي فاعتبر الاتفاق جزءاً من خطة امبريالية لتحجيم النشاط الروسي في آسيا، في حين أعطى كل شيء لبريطانيا (٣).

بدأت دورة انعقاد الدوما في ١١ مارس ١٩٠٨ وفي مستهل جلساته استعرض أزفولسكي سياسته الخارجية والتي كانت في مجملها ترمي إلى السلام فأشار إلى الاتفاقية التي عقدتها بلاده مع اليابان في صيف ١٩٠٧، ثم إلى الوفاق الروسي البريطاني، وذكر الأعضاء بأنه لا يهدف من وراء الاتفاق الأخير إثارة قلق ألمانيا، بل أوضح عن نواياه المخلصة في تجنب كل ما يثير ألمانيا.

ولقد لاقى بيان أزفولسكي هذا ترحيباً حاراً من أعضاء الدوما، وهذا يعني موافقتهم على التسوية، ولم يطلب النقاش في هذا الشأن غير بول مليكوف Paul N. Milyukov ـــ رئيس الحزب الدستوري الديموقراطي ـــ وتساءل هل الاتفاقية مع

---

(١) Ibid. P. 315.

(٢) Ibid. P. 320.

(٣) Ibid. P. 321.

اليابان تعني تخلي روسيا عن فكرة الانتقام منها؟ وهل الوفاق مع بريطانيا سوف يزيل أسباب الصراع معها في إيران وأفغانستان والتبت؟ رد أزفولسكي بأنه حين وقع الاتفاقية مع اليابان كان يهدف إلى تجنب إثارة أزمات معها، وأعرب عن أمله في تخطي الماضي والتطلع إلى المستقبل.

وفيما يتعلق بالاتفاق مع بريطانيا فقد كفل لروسيا نفوذها في إيران وحقق أهدافها السياسية والاقتصادية في أفغانستان [1]. وحينما سلم أزفولسكي نسخة من الاتفاق إلى المستشار القانوني بوزارة الخارجية البارون توبى Tauba سأله بعد اطلاعه عليها على رأيه فيها، فأجاب مندهشاً بأن روسيا قد تنازلت عن الإقليم الجنوبي لإيران والذي كانت تعتقد روسيا بأنه سيكون لها فيه مخرجاً للمياه الدافئة بعد أن فشلت في العثور عليه في القسطنطينية، وأجابه أزفولسكي، إذا كانت روسيا تبحث عن مكسب لها فيجب أن يكون خارج إطار المعاهدة، وكان يقصد بذلك المساعدة البريطانية لروسيا في أوروبا خاصة فيما يتعلق بالمضائق [2]. ولذلك لم يتطرق إليها في مباحثاته، وعندما قامت النمسا بضم البوسنة والهرسك إليها وأعلن استقلال هنغاريا، أراد أزفولسكي فتح مشكلة المضائق العثمانية من جديد، ولكن بريطانيا حاولت التهرب من الطلب الروسي هذا بطرق لا تثير غضب روسيا فأعلنت (١٤ أكتوبر ١٩٠٨) أنها لا تعارض المطلب الروسي ولكن فتح المضائق مرتبط بشروط معينة مثل موافقة الدول وأعربت عن استعدادها لمساعدة روسيا في المستقبل [3].

أثر الوفاق في لندن:

من خلال المناقشات التي دارت في مجلس العموم البريطاني ومجلس اللوردات في فبراير ١٩٠٨ وتعليقات الصحافة البريطانية، انفسم البريطانيون حيال الوفاق إلى قسمين:

الأول: وهو يؤيد الوفاق ووجد فيه من أعظم إنجازات بريطانيا الدبلوماسية،

---

(١) Stephenson. G.: A History of Russia. 1812-1945. P. 178.

(٢) Churchill: The Ang. R. Con. 1907. P. 339.

(٣) Ibid. P. 340.

حيث أنهى الخلاف مع روسيا في إيران، وأفغانستان والتبت، كما أنه من وجهة نظره قد وضع حداً لاحتمالات التوغل الروسي الاقتصادي نحو الجنوب حيث المصالح الاقتصادية والحيوية البريطانية.

والثاني: ويرى في الوفاق بأنه ضار بمصالح بريطانيا ففي إيران تنازلت بريطانيا عن القسم الشمالي الذي يمتاز بمساحته الكبيرة وأنهاره، وخيراته الاقتصادية. ولم يستبعد هذا الجانب قيام الروس بالسيطرة على طهران، بل أنه يرى بأن القيصر سيكون صاحب الأمر والنهي في المنطقة الفاصلة بين النفوذ الروسي والبريطاني، ويعتقد الجانب المعارض بأن الوفاق كان سبباً في فقدان ود الأمير الذي عارض الوفاق.

وفي التبت فقدت بريطانيا مكانتها العظمى لأنها وافقت على التشاور فيما يتعلق بإخلاء وادي شمبي. وكان اللورد كيرزون على رأس المعارضين للوفاق. وفي ١٧ فبراير ١٩٠٨ تحدث المستر جراي فاستعرض جهود بريطانيا للحد من النشاط الروسي في وسط آسيا والخليج منذ قرن مضى وأوضح بأنه كان هدف بريطانيا خلال تلك الفترة الحصول على تأكيد روسي ثابت بمناطق نفوذه والتعهد بعدم تجاوزه، وأعلن صراحة بأن التجارة الروسية في شمال إيران أكبر حجماً من التجارة البريطانية، ولكن الأمر يختلف في الجنوب، ورد على القائلين بأن التسوية في إيران كانت بمثابة تضحية بريطانية فقال للأعضاء بأن بلاده قد سيطرت على المناطق الاستراتيجية في إيران، وهذا ما يهمها كما أنها لم تضح بشيء في التبت وأفغانستان. كما أنها لم تخسر ود الأمير فالإتصالات معه لم تقطع، بل جارية (١).

أثر الوفاق في فرنسا:

لعبت فرنسا دوراً إيجابياً في تمهيد الطريق أمام الاتصالات الروسية البريطانية، وبعد بدء المفاوضات كانت تراقب الموقف بين الطرفين، وفي أحيان كثيرة كان يلجأ إليها الطرفان للتوسط لدى الطرف الآخر حين تشدده وبعد التوقيع

(١) Hansardos Parlim. Debates. Vol. 184. P. 481-489-96 557.
Woodward E.L: Great Brit. & The Ger. Navy. P. 150.
Roland Shay: The Life of Lord Curzon. Vol. P. 99.

على مشروع الوفاق، أعرب كليمنصو عن أمله في أن يكون الوفاق بادرة تشجع الدول الأخرى على تسوية مشكلة حديد بغداد، وأعلن السفير الفرنسي في لندن المسيو شامبو Cambon عن سروره لهذا الاتفاق بين حليفتي بلاده واعتبرت بعض الدوائر الأوروبية الاتفاق دعماً للسياسة الفرنسية الأوروبية(١).

أثر الوفاق في النمسا:

لم تظهر حكومة النمسا اهتماماً كبيراً نحو تفاصيل الاتفاق، إذ كانت مشدودة لمشاكلها الداخلية وللمفاوضات مع هنغاريا بشأن مشاكلها الامبراطورية(٢). ومن جهة أخرى، فقد اعترفت بأن الاتفاق حدث كبير ذات دلالة سياسية كبيرة وأعربت عن أمالها في أن يحتذى به في كافة الأزمات التي تحول دون انتشار السلام في العالم. وفي بودابست كتب البروفسور أرمينوس فامبيري Arminos Vambery مقالة عن الاتفاق أوضح فيها مزاياه لروسيا التي كسبت بمقتضاه نفوذاً قوياً في الشمال الإيراني، ولم يستبعد أن تواصل روسيا تقدمها نحو الخليج العربي والبحار الدافئة، وأن الاتفاق تسوية مرحلية وليست تحالفاً مستقبلياً بين الدولتين(٣).

ومثل هذا الطرح لا يختلف كثيراً عن تفكير الجانب العسكري الروسي الذي واجهته بريطانيا ببيان لانسدون ١٩٠٣، وسيطرتها على اقليم سستان.

أثر الوفاق في برلين:

بالرغم من السرية التي اتسمت بها مباحثات روسيا وبريطانيا، إلا أن الخارجية الألمانية تمكنت من الحصول على معلومات بشأنها، وأعلن السفير الألماني في العاصمة الروسية بأن بريطانيا هي التي دفعت روسيا إلى الموافقة على شروط الاتفاق بسبب واقعها العسكري الضعيف، وكان هدف بريطانيا من وراء ذلك أن تتفرغ لشئون القارة الأوروبية بعد تزايد التناقضات فيها خاصة نمو الجيش الألماني وأسطوله(٤).

---

(١) Churchill: The Ang. R. Con. 1907. P. 313.

(٢) Ibid. P. 313.

(٣) Ibid. P. 323.

(٤) Ibid. P. 317.

وصدر في برلين عدة تصريحات علنية تضمنت تأييد ألمانيا الحذر للوفاق وشنت الصحف الألمانية حملة عليه، واتهمت روسيا وبريطانيا بأنهما اقتسمتا إيران دون أي اعتبار لمصالح الدول الأخرى في المنطقة(١).

أدرك أزفولسكي القلق الذي كانت تعيشه ألمانيا من جراء الوفاق، فأعلن بأن أي اتفاق مع بريطانيا سوف يخدم مصالح ألمانيا في المناطق التي لها فيها نفوذ وليس إثارة شكوكها(٢).

لا يعني أن الاتفاق الروسي البريطاني قد أوقف النشاط الألماني في إيران، فقد أعلن أزفولسكي أن استعداده لشراء عداوة ألمانيا حتى لا تتحول إيران إلى أزمة مغربية جديدة. ولذلك بدأ في دراسة الوسائل التي تحد من التغلغل الألماني في المقاطعات الشمالية استخلص بعدها أن سحب معارضة بلاده لسكة حديد بغداد سوف يضمن الأمان لروسيا في إيران. فعقد اتفاقية بوتسدام (١٩١١) التي تضمنت هذا المعنى، فلقد تعهدت ألمانيا فيها باحترام وضع روسيا في الشمال وألا تقوم بمشاريع للسكك الحديدية فيها نظير سحب روسيا لمعارضتها لخط حديد بغداد ومنح التجارة الألمانية بعض التسهيلات، ولم تحدث هذه المعاهدة صدعاً في العلاقة الروسية البريطانية.

* * *

وبعيداً عن الآراء المتناقضة سواء في بريطانيا أو روسيا، نتساءل من هو المستفيد من وراء هذا الوفاق؟ وقبل الاجابة على هذا السؤال، نستعرض من خلال نصوصه المميزات التي حصلت عليها كل دولة في مناطق الاتفاق الثلاث.

إن تسوية التبت أعطت لبريطانيا ميزة اقتصادية وتجارية إلى جانب إبعاد احتمال التوغل الروسي إل المنطقة إلى جانب إقرار روسيا بوضع بريطانيا الخاص في التبت. وأن ما كسبته روسيا هو تسهيل حج رعاياها البوذيين.

وفي أفغانستان، فإن روسيا قد تعهدت بتعهدات ثلاثة:

---

(١) Lenczowski, G.: Russia & The West in Iran. P.

(٢) Churchill: The Ang. R. Con. 1907. P. 324.

الاول ــ أن تكون أفغانستان بعيدة عن مناطق النفوذ الروسي، فجميع علاقة الأمير السياسية ستكون من خلال بريطانيا.

الثاني ــ ألا ترسل وكلاء تجاريين لها.

الثالث ــ العلاقة الروسية المحددة مع أفغانستان واعتبار أفغانستان دولة حاجزة. وشروط الاتفاق هنا قد جعلت أفغانستان في وضع لا يختلف كثيراً عن وضع أية محمية بريطانية أخرى.

وفي المقابل فإن روسيا لم تحصل على شيء لأن التسهيلات المماثلة للتجارة البريطانية والتي منحت لتجارتها كانت في صالح بريطانيا لأنها أعطت لتجارتها قاعدة مشتركة لمنافسة التجارة الروسية.

وفيما يتعلق بإيران، فلقد كان لروسيا نصيب الأسد، وذلك بسبب كبر حجم مساحته التي تقدر بـ ٨٠٠ و ٢٧٢ كم٢ وثروته الاقتصادية إلى جانب أن نفوذ روسيا هو المسيطر في طهران، وهذا ما دفع بعض البريطانيين إلى الاعتقاد بأن القيصر سيكون حاكماً لطهران. أن بريطانيا لا تستطيع تجنب تلك التنازلات في هذه المنطقة بعد ما حققته من مكاسب لها في التبت وأفغانستان ولكنها مع ذلك عملت إلى الحد من توغل الروس نحو الجنوب.

أما الاقليم البريطاني فيبلغ ٨٠٠ و ٢١٧ كم٢ وهو أقل مساحة من الاقليم الروسي. ولكن بريطانيا حققت بواسطته سيطرتها على اقليم سستان وأهميته العسكرية والاقتصادية وللحد من توغل روسيا نحو الجنوب والخليج.

وعلى ذلك فإن كلا الدولتين قد حققتا مصالحها الاقتصادية والسياسية من خلال التسوية رغم أن ما حققته بريطانيا من مميزات كمية وكيفية أكبر من المميزات الروسية. وحافظ الوفاق على استمرار الوضع حتى الحرب العالمية الأولى.

ومن جهة أخرى، فلقد أتاحت الاتفاقية لبريطانيا بعد تصفية خلافاتها مع روسيا في آسيا أن تتجه بأنظارها نحو ألمانيا وقوتها البحرية. ولقد اتخذت وزارة الأحرار منذ عام ١٩٠٦ خطوتان دلتا على أن بريطانيا مدركة للخطر البري الألماني:

الأولى ــ بناء البوارج البحرية الكبيرة

الثانية ــ تركيز الأسطول المدافع عن بريطانيا في بحر الشمال، فأجاب الألمان بإقرار قانون بحري جديد.

وأخذ الطرفان، الألماني والبريطاني، في التسابق في صنع الأسلحة بعد فشل مؤتمر لاهاي عام ١٩٠٧، في تحديد السلاح فكان ذلك أحد العوامل التي ساعدت على تأزم الموقف الدولي.

* * *

على ضوء ما سبق نستطيع القول بأن الدول الأوروبية حاولت تدعيم ثقلها السياسي والحربي عن طريق التحالفات، ولقد شهدت الفترة ما بين ١٨٩٥-١٩٠٧ محاولات ناجحة في هذا الاتجاه كانت دعماً للاستراتيجية الفرنسية الأوروبية. وأدركت بريطانيا في أواخر القرن الماضي أهمية الخروج من عزلتها السياسية فقامت بعدة محاولات للوفاق مع ألمانيا، إلا أن الاعتبارات السياسية والبحرية لكل منهما حالت دون تحقيق هذا الهدف. فتحولت بريطانيا إلى خارج الدول الأوروبية تبحث لها عن حليف، ولقد وجدته في اليابان.

وأعطى الوفاق البريطاني الياباني ثقلا سياسياً واستراتيجياً لليابان مما دفع روسيا إلى الاعتقاد بأن ذلك الوفاق موجهاً ضدها خاصة وأن هناك تصارع استعماري بينها وبين اليابان في الصين وكوريا. وفشلت محاولات الوصول إلى اتفاق مع اليابان بسبب تشدد الجانب العسكري الروسي، كما أن الاجراءات الروسية في بورت أرثر وكوريا قد أثارت مخاوف اليابانيين الذين وجدوا فيها تهديداً لمصالحهم.

ووقفت بريطانيا موقفاً سلبياً شجع اليابان على استخدم الأسلوب الحربي. وأصيبت روسيا في حربهامع اليابان بهزيمة هزت النظام القيصري في الداخل والخارج. فالسخط الشعبي والمطالبة بالاصلاح الدستوري والاجراءات القيصرية دفعت اهتمام الحكومة الروسية إلى الداخل وإلى التفكير في مخرج لها كما أن تدهور مكانتها قد قلل من تعنتها خلال الاتصالات مع بريطانيا لوضع حد لخلافاتها في آسيا.

ولقد حاولت ألمانيا استغلال ظروف روسيا الحرجة لبناء تحالف معها يخدم المخططات الألمانية الأوروبية، وتمكن الامبراطور من التأثير على القيصر الروسي عامي ١٩٠٤، ١٩٠٥، إلا أن الدوائر السياسية والاقتصادية الروسية حالت دون تحقيق الأهداف الألمانية لأنها تدرك أهمية التحالف الفرنسي سياسياً واقتصادياً لبلادها.

ومن جهة أخرى فلقد أدركت الدوائر الألمانية أن الوفاق الودي ـ الفرنسي البريطاني ـ موجهاً ضدها، ولذلك تحركت للعمل ضد المخططات الفرنسية الأوروبية ووجدت في المشكلة المغربية مكاناً للاختبار. وفشلت مرة أخرى إذ رفضت روسيا جرها إلى هذه المنطقة انطلاقاً من اعتباراتها لفرنسا. كما أدى مؤتمر الجزيرة إلى تقريب وجهات النظر بعد التباعد الذي تم بين الطرفين من الاحداث السابقة.

ومن ناحية أخرى، فلقد ساعد النشاط الاقتصادي الألماني في آسيا الصغرى وإيران والخليج العربي إلى احساس كل من روسيا وبريطانيا بالخطر، فروسيا وجدت في التوغل الألماني ما يهدد مصالحها في آسيا الصغرى والمقاطعات الشمالية من إيران. وبريطانيا وجدت في النشاط الألماني مصدر خطر على مصالحها في قونية والخليج العربي، وهذا بدوره ساعد على الوفاق الروسي البريطاني.

يضاف إلى ذلك دور فرنسا في تقريب وجهات النظر اليابانية الروسية ومع بداية عام ١٩٠٧ بدأت سلسلة من الاتصالات للوفاق بين فرنسا واليابان وروسيا واليابان وروسيا وبريطانيا.

لقد كان الوفاق الروسي البريطاني نتاج اتصالات عديدة واجهت خلالها

العديد من الصعاب حتى تم التوصل إليه في أغسطس عام ١٩٠٧.

ولقد تطرق إلى نقاط الخلاف الروسية البريطانية الثلاث. ففي إيران وافق الطرفان على تقسيم إيران إلى من منطقتي نفوذ دون الالتفات لمصالح السكان، واعتبرت بعض الأوساط البريطانية والأوروبية بأن لتسوية في هذا الجزء لصالح روسيا ولكنها حقيقة كانت في صالح كل منهما على السواء.

وفي أفغانستان، فلقد وضع الوفاق أفغانستان في ظل الهيمنة البريطانية، رغم أنه أتاح مجالا محدوداً لاتصال الروس بالأفغان. وفي التبت أقر الوفاق بالمصالح البريطانية في المنطقة، في حين سمح للبوذيين الروس بزيارة الأماكن المقدسة في لاهاسا.

الخاتمة

أقحمت بريطانيا نفسها في حلبة الصراع الاستعماري عن طريق شركة الهند الشرقية للسيطرة على الشرق. وشقت هذه الشركة طريقها وسط المنافسة البرتغالية والهولندية، ونجحت في أن تكون لنفسها أول وكالة تجارية في سورات (١٦١٢)، ثم بدأت تنتشر بعد ذلك في مناطق أخرى من الهند دون اكتراث من قبل حكام هذه المناطق. الذين لم يشعروا بعد بخطورة هذه الشركة والقوة البحرية التي تدعمها.

ومن الطبيعي أن يثير انتشار الوكالات البريطانية السريع غيرة القوى الاستعمارية الأخرى، فخاضت بريطانيا الحروب ضد البرتغاليين والهولنديين والفرنسيين. وكانت من أشد الحروب ضراوة تلك التي خاضتها ضد الفرنسيين، ومع ذلك فقد انتهت بتصفية الوجود الفرنسي ــ في النصف الثاني من القرن الثامن عشر إلا بضعة مراكز بقيت مبعثرة في شبه القارة الهندية.

وفي النصف الثاني من القرن السابع عشر، حاولت الشركة أن تمد نفوذها بالطرق العسكرية إلى داخل الأراضي الهندية على حساب امبراطورية المغول. ولكن الامبراطور المغولي أورانجزيب صد محاولتهم تلك وهزمهم وعقد معهم صلحاً تعهدوا من خلاله بألا يعودوا إلى مثل ما فعلوا. ثم رجعت الشركة إلى بدء نشاطها التجاري من جديد، واتسعت تجارتها خلال النصف الأول من القرن الثامن عشر اتساعاً عظيماً، وأخذت تتطلع في النصف الثاني من نفس القرن إلى مد نفوذها السياسي على المناطق التي تنتشر فيها وكالاتها التجارية، وكان يشجعها على ذلك عاملان: **العامل الأول:** تفكك امبراطورية المغول إلى وحدات سياسية صغيرة متناحرة، وكانت كل واحدة منها بحاجة إلى الدعم المادي كي تستطيع بواسطته الحفاظ على اقطاعها السياسي، ولم تجد ذلك الدعم إلا عند الرأسمالية

الهندية. **والعامل الثاني:** تأييد الرأسمالية الهندية، فقد استغلت حاجة أمراء الهند للمال، فبدأت عن طريق ما تقدمه إلى هذا الأمير أو ذاك أن تؤثر على توجيه الأمور السياسية، وبالتالي تمهيد الطريق أمام الانتشار البريطاني، فقد كانت الرأسمالية الهندية مرتبطة ارتباطاً وثيقاً بالوكالات البريطانية، بل إنها تعمدت إثارة الفوضى السياسية في الإمارات الإسلامية انطلاقاً من كرهها المذهبي، فقد كانت هندوسية تكن كراهية شديدة للمسلمين. وعلى هذا النحو مارست الرأسمالية الهندية طريق الحقد والخيانة لبلادها، بل إنها لعبت دوراً مؤثراً في دفع معركة بلاسي لصالح الشركة بالرغم من المجهودات المضنية والقدرات العسكرية التي سخرها سراج الدولة. وفي نهاية القرن الثامن عشر كان مركز الشركة حرجاً في الهند بسبب الصعوبات الداخلية والخارجية التي كانت تواجهها.

ففي الداخل كانت ثلاث مقاطعات تناصبها العداء ـــ المهراتا في الأجزاء الشرقية، حيدر أباد في الدكن ومقاطعة ميسور ـــ إلى جانب سخط العديد من أمراء الولايات الهندية. **وفي الخارج** كانت الشركة تتوقع الخطر من مصدرين: **الاول:** من جهة أفغانستان، فقد أرسل زمان شاه أمير أفغانستان إلى اللورد و يلزلي ـــ الحاكم العام للبنجاب ـــ يقترح ارسال حملة بالتعاون مع الجيش البريطاني لطرد المهراتا. وكانت الشركة تخشى إذا ما دخل الأمير بقواته الأراضي الهندية أن يجد لنفسه تأييداً من قبل بعض الأمراء المسلمين الذين سيجدون فيه منقذاً لهم من البريطانيين والمهراتا على السواء. **الثاني:** من جهة فرنسا. فبعد قيام الثورة الفرنسية (١٧٨٩) فكرت حكومة الإدارة بعد فشلها في هزيمة بريطانيا في القارة الأوروبية ـــ في ضرب المستعمرات البريطانية في الشرق عن طريق السيطرة على مصر ـــ ثم الانقضاض منها على الهند. وكان حاكم مقاطعة ميسور نشطاً في البحث عمن يؤيده ضد البريطانيين، فاتصل بالحكومة الفرنسية التي كانت تبني الآمال الكبار في التعاون معه للعمل المشترك ضد الإنجليز، فأرسلت الرسائل له ولعدد من أمراء الشرق بهدف تمهيد الطريق أمام المد الفرنسي، ومن سوء حظه أن وقعت الرسالة المرسلة في أيدي الإنجليز، فقررت حكومة الشركة أن تقضي على الخطر الذي يهددها في القارة الهندية، لأنها لو تباطأت في القضاء عليه، فإنها ستعطي الفرصة لتواجد الفرنسيين في منطقة قد يستطيعون منها تهديد الوجود

البريطاني في الهند. ولذلك دفعت قواتها العسكرية ضده، كما أنها لجأت إلى أسلوب الرشوة وشراء الضمائر حتى تتمكن من توجيه ضربة قاتلة لحاكم مسيور الذي لقي حتفه خلال اشتباكه مع القوات البريطانية في معركة سيرانجاباتان (١٧٩٨).

لم تكن هزيمة تيبو صاحب، وخروج الفرنسيين من مصر ليخفف من فزع السلطات شركة الهند الشرقية، فقد ظل الخطر الأفغاني ماثلا. وكان الجنرال ويلزلي يرقب بارتياب المفاوضات التي كانت تجري بين مبعوث الأمير الأفغاني وعدد من المهراجات الهنود. أدركت حكومة الشركة عدم جدوى اتصالها المباشر مع الأمير الأفغاني، خاصة وأنه كانت تدفعه دوافع سياسية وروحية للعمل ضد الإنجليز في الهند. ولذلك طلبت من مندوبها في بوشهر أن يحث الشاه الإيراني على اقناع زمان شاه بالتخلي عن مشروعه لغزو الهند. ومن حسن حظ الشركة في ذلك الوقت أن اشتعل الصراع الداخلي في أفغانستان، وفقد خلاله زمان شاه عرشه، ولم يتابع الأمير الجديد خطة زمان شاه لغزو الهند، بل التفت إلى تقوية دائم عرشه.

ولكن الخطر الفرنسي ظهر من جديد، ولم يكن هذه المرة بصورة مباشرة كما كان الحال في الحملة الفرنسية، بل كان على شكل تواجد بعض العسكريين الفرنسيين في طهران واشرافهم على تدريب القوات الإيرانية، ثم تحالف نابليون والقيصر الروسي، وما تردد من شائعات عن محاولة نابليون لاستغلال هذا التحالف وتوجيهه ضد بريطانيا. قررت حكومة الشركة سرعة التحرك ضد هذا الخطر ولذلك فكرت في ارسال بعثة إلى أفغانستان كي تضمن عدم وقوع أفغانستان في دائرة الخطة الفرنسية من جهة، ومن جهة أخرى تعمل على كسب ود الأمير الأفغاني الجديد ــ شجاع الملك ــ ومن ثم سد الطريق أمام أمراء الهند المسلمين الذين كانوا يرسلون في طلب مساعدة أفغانستان ضد الشركة. فأرسلت السير الفنستون على رأس بعثة بريطانية إلى كابول. وكان الوضع الداخلي الأفغاني في ذلك الوقت مائعاً، بالرغم من وجود شجاع الملك على السلطة والذي كان يؤيد السياسة البريطانية في بلاده. وكانت الحكومة الأفغانية منقسمة إلى عدة أقسام، وحاول كل قسم أن يتصل بالبعثة، وزعم أنه صاحب النفوذ القوي في أفغانستان ويجب

على المندوب البريطاني التفاوض معه. إزاء هذا التهافت لم يجد المندوب البريطاني صعوبة في مباحثاته مع الأفغان فعقد معهم معاهدة ١٨٠٩. وقد تمكنت بريطانيا عن طريق هذه المعاهدة أن تتخذ من أفغانستان موقعاً متقدماً لها ضد احتمالات التهديد أو الغزو سواء كان ذلك من جهة إيران أو فرنسا. واعتقدت بأن أفغانستان قد أصبحت تسير وفق المخطط البريطاني. ولكن هذا الوضع لم يدم طو يلا، إذ انفجرت الحرب الأهلية في الأ راضي الأفغانية من جديد، وتولى السلطة في كابول دست محمد. ولم تحاول بريطانيا أن تمد يد الصداقة له، بل فضلت عليه ــ شجاع الملك ــ الأمير المخلوع، وأرسلت تحث زعماء القبائل الأفغانية على الثورة ضد دست محمد، بل ولتضييق الخناق عليه، حرضت السيخ على غزو الأ راضي الأفغانية ومساعدة الأمير السابق.

وفي ثلاثينيات القرن التاسع عشر، كان النفوذ الروسي هو المسيطر في إيران سواء كان ذلك من الناحية السياسية أو العسكرية، وكشفت التقارير البريطانية عن عزم الشاه الإيراني للتحرك ضد حيرات الأفغانية، وهذا في نظر السلطات البريطانية تهديد مباشر لوجودها في الهند، لأن الشاه الإيراني كان مدفوعاً للتحرك العسكري من روسيا و بالتالي فإن الشاه الإيراني ينفذ المخططات الروسية التي ترمي إلى النيل من بريطانيا. ولذلك تحركت بريطانيا سريعاً فاحتلت جزيرة خرْج في الخليج العربي.

وحينما تولى اللورد أوكلاند، كانت الظروف مواتية كي يفتح صفحة جديدة في العلاقة الأفغانيـة البريطانية، خاصة وأن الأمير الأفغاني ــ دست محمد ــ كان يرحب بتعاون بلاده مع بريطانيا. فقد كانت أفغانستان تمر في محنة من جراء احتلال السيخ لبشاور، وكان دست محمد يتوقع من تعاونه مع بريطانيا أن تقدم له المساعدة والدعم. ولكن حكومة الشركة وجدت في شخص دست محمد حجر عثرة في طريق تقدم التجارة البريطانية في وسط آسيا، وادعت بريطانيا أنه يعمل على اقامة علاقات ودية مع روسيا بهدف ضرب المصالح البريطانية في المنطقة، وما اثار الريبة في نفسها تقدم القوات الروسية نحو خيوة واحتمال وصول هذه القوات إلى مدينة حيرات الأفغانية. و بدأت حكومة الشركة في دراسة الموقف بهدف الوصول إلى مخرج لتلك الأ زمة التي تتصورها، وانتهت من تلك الدراسة بوجوب

العمل في اتجاهات ثلاثة: **الأول:** ارسال بعثة إلى أمير بخارى لتأكيد صداقتها معه، ولتقوية الاتصالات التجارية مع بلاده. وكانت الشركة تهدف من وراء ذلك سد الطريق أمام احتمال تحريض روسيا لبخارى على وقف النشاط البريطاني في المنطقة. **الثاني:** تدخل حكومة الهند في النزاع القائم بين خيوة وروسيا، فأرسلت أحد ضباطها الذي نجح بالفعل في القضاء على أسباب الخلاف الذي كان قائماً مع روسيا. **الثالث:** تحركت حكومة الهند عسكرياً لتغيير الوضع السياسي في أفغانستان عن طريق رفع دست محمد عن العرش، ووضع شجاع الملك مكانه لأنه سينفذ السياسة البريطانية. ولذلك بدأت بالحرب الأفغانية الأولى. وكانت تأمل من وراء هذه الحرب أن تمد النفوذ السياسي والعسكري البريطاني إلى أفغانستان، ولكنها فشلت في ذلك.

لجأت بريطانيا بعد الحرب الأفغانية الأولى إلى تبني سياسة جديدة تعتمد أساساً على تقوية قدرات الهند الدفاعية كي تتمكن من مواجهة جميع الأخطار الخارجية. فدفعت بنفوذها إلى السند والبنجاب فأصبحت حدود الهند تجاور مباشرة الحدود الأفغانية.

وعلى ضوء هذا الواقع الجديد، لم يفكر البريطانيون في تكرار المغامرة العسكرية، بل اعتقدوا أنه يمكن ارساء علاقات وطيدة مع أفغانستان وذلك عن طريق عدم التدخل في الشئون الداخلية الأفغانية. ولكن الظروف في ذلك الوقت لم تكن توحي عن احتمال نجاح هذا الاعتقاد، خاصة وأن عدم الثقة ما زالت مفقودة بين الطرفين. لكن هذا لا يعني أن بريطانيا تركت جانباً ما يجري داخل أفغانستان أو علاقة أفغانستان بغيرها من الدول.

فأفغانستان في نظرها ما زالت الدولة الحاجزة للهند وأن أي خطر معادي تتعرض له إنما هو مقدمة لتهديد الوجود البريطاني في الهند. على أساس هذا الاعتقاد كان تقييمها للعمليات العسكرية الإيرانية ضد أفغانستان، فقد أدركت الدوائر البريطانية في الهند، أن توسع إيران في الأراضي الإيرانية يعني اقتراب روسيا من الهند، ولذلك اتصلت حكومة الهند بدست محمد، وعقدت معه اتفاقية ١٨٥٥ والتي تعتبر بمثابة خطوة مرحلية، فلم تكن حكومة الهند جادة في ارساء

علاقات وطيدة مع أفغانستان لأنها كانت تشعر بأن الخطر الروسي ما زال بعيداً ـــ ولو إلى حين ـــ عن الهند خاصة وأن هزيمة القرم العسكرية لا تشجع الحكومة الروسية على الاصطدام ببريطانيا، إلا أن هذا لا يمنع من وجهة النظر البريطانية ـــ أن تحرض روسيا إيران على القيام بمغامرة عسكرية جديدة على الأراضي الأفغانية، فيجب على بريطانيا أن تتحرك لمنع الخطر قبل ظهوره.

كانت هذه التحليلات واقعية إلى حد ما وظهرت صحتها عندما اشتعلت الحرب الأفغانية الإيرانية من جديد ١٨٥٦، فأدركت بريطانيا أن روسيا هي التي تدعم الشاه الإيراني معنوياً ومادياً، وإذا ما سيطر الإيرانيون على بعض المقاطعات الأفغانية، فسيكون الروس معهم، وبالتالي تهديد الوجود البريطاني من جهة الشمال الغربي، ولذلك سارعت إلى دعم أفغانستان عسكرياً ومالياً بالقدر الذي يضمن لها وجود خط دفاعي يحول دون تغلغل الروس إلى المنطقة الواقعة بالقرب من حدودها. ولم تهدف بريطانيا من وراء ذلك إلى مكسب سياسي بل الحفاظ على استراتيجيتها في شبه القارة الهندية. وإزاء التهديد البريطاني، تراجعت إيران عن تنفيذ مخططها العسكري في أفغانستان.

تركت بريطانيا من خلال عزلتها ـــ المجال مفتوحاً أمام روسيا التي وجدت في آسيا متنفساً لطاقاتها الاستعمارية، فبدأت العسكرية الروسية نشاطها في المنطقة الأزبكية، ورفعت الحكومة القيصرية الادعاءات الإنسانية والحضارية لتغطية أهداف تحرك قواتها العسكرية. واقتنعت بريطانيا وقتياً بتلك الادعاءات، وما دفعها إلى ذلك أن الحدود الروسية ـــ في ذلك الوقت ـــ ما زالت بعيدة عن الحدود البريطانية الهندية ما يقارب من ألف ميل. ثم تناقصت المسافة الفاصلة بعد ذلك حتى بلغت ٤٠٠ ميلا.

وقد أثار هذا الانتشار الروسي السريع قلق مختلف الأوساط حتى تلك التي تقبلت ادعاءات روسيا الحضارية والإنسانية. وبعد دراسة الموقف بكل أبعاده، وجدت بريطانيا أنه يمكن حل مشكلة وسط آسيا عن طريق الاتصال المباشر مع روسيا، وتحديد نفوذ كل منهما في وسط آسيا الإسلامية. وخلال الاتصالات البريطانية الروسية، تذرعت الحكومة الروسية بأهدافها الإنسانية وإنها لا تقصد

من وراء تحركها إلى كسب مزيد من الأراضي لأن اتساع رقعة أراضيها يؤدي إلى ضعفها بسبب النفقات والأعباء التي ستتحملها من وراء ذلك.

وقد أثار الموقف الروسي هذا بعض التساؤلات عن مدي الضعف الذي لحق بروسيا نتيجة عملياتها العسكرية التي امتدت إلى نهر جيحون. فروسيا ــ في نظر تلك الأوساط ــ ما زالت قوية عسكرياً، بل إن نفوذها أقوى من النفوذ الإنجليزي في وسط آسيا. وعلى سبيل المقارنة أوضحت تلك الأوساط بأن بريطانيا قد سيطرت على بشاور التي تبعد ١٥٠٠ ميلا عن بومباي وكلكتا فهل ضعفت عسكرياً أو سياسياً من وراء ذلك؟

لقد أصبح واضحاً من خلال التساؤلات والانتقادات بأن بريطانيا تواجه خطراً على وجودها في الهند. وتناولت الدوائر العسكرية البريطانية هذا الموضوع بالدراسة والتحليل. ووضعت على بساط البحث الموقف العسكري لكل من روسيا وبريطانيا في وسط آسيا. فالحدود الروسية من وجهة نظر العسكرية البريطانية تقدر بـ ١٢٠٠ ميل وهي أطول بعشرين ميلا من حدود الهند الشمالية الغربية. وإن نقاط الضعف العسكرية في الحدود الروسية توجد في المنطقة الواقعة ما بين بحر قزوين وسمرقند، حيث تعجز مواقع روسيا في هذه الجهة عن مواجهة أي عدوان عسكري مضاد بسبب عدم وجود أية اتصالات تربطها بالقواعد الروسية في الداخل، ووجود صحراء حيوة التي تغطي جزءاً كبيراً من الحدود الروسية في هذه المنطقة. ولذلك كانت المراكز تبعد مسافة ألف ميل عن القواعد العسكرية الروسية. وهذا بالطبع يفقدها الدعم والمساندة إذا ما احتاجت إليهما.

وفي المقابل كانت الهند من وجهة نظر العسكرية البريطانية، تتمتع بمركز أكثر قوة من المركز الروسي، وأن نقطة الضعف الوحيدة تكمن في حدود الهند الشمالية الغربية. وهنا طلب العسكريون بمد حدود الهند إلى نقاط استراتيجية يسهل الدفاع عنها أو بمعنى آخر أن تقوم بريطانيا بالسيطرة على الممرات الأفغانية في الجنوب. ومما شجع هذا الرأي سيطرة بريطانيا على كويتا، فقد اعتقد هؤلاء العسكريون أنهم يستطيعون بسهولة دفع قواتهم إلى سهول قندهار، ومن ثم تواجه القوات المعادية في ميدان مفتوح بعيداً عن المناطق الجبلية الوعرة. ووفق خطة

العسكرية البريطانية فإن كويتا تتمتع بمراكز استراتيجي هام، فهي أول موقع يتعرض للخطر في حالة مواجهة الهند لأي تهديد، ولذلك يجب على حكومة الهند أن تضع فيها قوات ضخمة قادرة على سرعة التحرك لضرب أي تقدم معادي للهند. إن العمل باقتراح العسكرية البريطانية، سوف يدفع بحدود الهند البريطانية إلى منطقة جبلية وعرة، وأن اجبار أهلها على السكينة والهدوء ليس بالأمر السهل على بريطانيا، بل ان قواتها ستكون في موقف لا تحسد عليه، ولقد عاشت حكومة الهند هذا الواقع خلال الحرب الأفغانية الأولى.

وهذا بدوره قد أدى إلى حقيقة هامة ألا وهي ادراك السلطات البريطانية أن محاربة روسيا في وسط آسيا الإسلامية ليس بالأمر السهل، فإذا ما اشتعلت الحرب بين الطرفين، فإن بريطانيا سوف تواجهها صعوبات كبيرة في تحرك قواتها عبر الأراضي الأفغانية أو الخانات الأزبكية لأنها لا تضمن مساعدة القبائل الإسلامية لقواتها، وهذا من شأنه أن يعرضها لخسائر أفدح من الخسائر التي ستلقاها من خلال اشتباكها مع القوات الروسية، كما أن بريطانيا وضعت في الاعتبار مصالحها الاقتصادية ومستقبل تجارتها في المنطقة. وفوق هذا وذاك فإن السلطات البريطانية قد وضعت في الحسبان احتمال قيام ثورة جديدة في الهند إذا ما وجهت اهتماماتها خارج شبه القارة الهندية. ولم تستبعد تلك السلطات احتمال مساعدة الدول الأجنبية لتلك الثورة المحتملة خاصة روسيا.

كانت السلطات البريطانية واقعية في تقييمها للموقف، فلم تترك العنان لغرورها أو جبروتها كما رأينا في سلوك بعض القادة العسكريين والسياسيين على السواء، ولكنها درست الموقف بكل تعقل وروية.

ولعلنا نتساءل ما هي الفائدة التي ستعود على بريطانيا إذا ما انتصرت على القوات الروسية؟ إذا سلمنا جدلا بانتصار بريطانيا على روسيا فمن الطبيعي أن تتراجع القوات الروسية إلى قاعدتها في أورنبرج، وستندفع خلفها القوات البريطانية، وبالتالي النفوذ البريطاني إلى القاعدة السابقة. إن المشكلة ليست في الانتصار بالرغم من ثمنه الذي سيكون باهظاً، ولكنها تكمن في كيفية حفاظ بريطانيا على وجودها في تلك المنطقة. فبريطانيا لا تضمن مساندة وتشجيع سكان

وسط آسيا الإسلامية لها لأنهم يعتبرون بريطانيا مثل روسيا (كافرة) بسطت نفوذها قهراً على الأراضي الإسلامية، وإن طائفة من أولئك السكان ارتبطت مصلحياً مع روسيا، وم ثم تستطيع روسيا بنجاح أن تجند تلك الطائفة للقيام بغارات على القوات البريطانية. ثم المسافة الشاسعة التي ستفصل القوات البريطانية عن قواعدها في كويتا وبشاور واحتمال قيام روسيا بمحاولة كسب ود الأمير الأفغاني، ومن ثم قطع طريق الاتصال بين الهند البريطانية وقواتها. لهذا فضلت بريطانيا أن تحل خلافاتها مع روسيا في وسط آسيا الإسلامية سلمياً، فاتصلت بالحكومة الروسية التي كان ردها مشجعاً إلى حد ما. فوضعت بريطانيا جانباً دراسة وآراء العسكرية البريطانية. ولم تكترث لطلب أمير بخاري الذي أرسل في طلب المساعدة البريطانية، كذلك كان موقفها من شير علي خان. وقد شجع هذا الموقف على ادراك الدولتين بضرورة الوصول إلى حل مرض لكل منهما. وفكرت بريطانيا في وضع حد لنفوذهما في المنطقة. وكانت روسيا تميل إلى الاتجاه نفسه، ووجدت بريطانيا في نهر جيحون الحد السياسي بين الدولتين، وفي الوقت نفسه الحد السياسي والجغرافي لأفغانستان. ولما كانت روسيا لم توطد نفوذها بعد في المنطقة الأزبكية، فقد وافقت على العرض البريطاني. على أن الموافقة الروسية كانت مرحلية ليس إلا. فكانت تخشى إذا ما عارضت ذلك أن تثير سخط بريطانيا وبالتالي تقوم بعرقلة الخطة الروسية التوسعية. وحينما سيطرت روسيا على خيوة، توقعت بريطانيا أن تواصل روسيا سياستها التوسعية صوب الجنوب تجاة الأراضي الأفغانية ــ الدولة الحاجزة لوجودها في الهند ــ فاتصلت بالحكومة الروسية التي أكدت أنها لا تعتزم على مد عملياتها العسكرية إلى أفغانستان. وأن ما فعلته في خيوة إنما هو اجراء لا بد منه لمعاقبة أمير خيوة الذي شجع ــ على حد زعم روسيا ــ أعمال القرصنة والسلب والنهب والسرق. وأنها مجبرة على ما فعلته لارجاع السكينة والهدوء للمنطقة. تقبلت بريطانيا وجهة النظر الروسية هذه، بل اتخذتها حجة لاسكات الأصوات البريطانية التي كانت تطالب بتبني سياسة نشطة في وسط آسيا الإسلامية.

بعد سيطرة روسيا على المنطقة الأزبكية، بدأت في عمليات عسكرية جديدة في المنطقة التركمانية وتذرعت من جديد بالعوامل الإنسانية والحضارية وقد طالب

البعض الحكومة البريطانية بالتدخل لوضع حد للنشاط الروسي شبه المتواصل في وسط آسيا الإسلامية. وكان حزب الأحرار مهتماً بشئون بريطانيا الداخلية غير مكترث بالأحداث العالمية. وحينما تقلد المحافظون السلطة بزعامة دزرائيلي تبنوا سياسة خارجية نشطة في العالم وفي آسيا بصفة خاصة كي يعود لبريطانيا صوتها المسموع في أوروبا والعالم ووقع اختيار المستر دزرائيلي على المستر ليتون لكي يقوم بتنفيذ سياسته الآسيوية.

وكانت العلاقة الأفغانية البريطانية في ذلك الوقت سيئة بسبب سياسة الأحرار الذين لم يقدموا المساعدة المادية والحربية للأمير الأفغاني، في وقت كان يتوقع فيه خطراً روسياً من جهة وإيرانياً من جهة أخرى، بل أن حكومة الهند تدخلت في الشئون الداخلية الأفغانية واشترطت تقديم مساعداتها المالية والحربية بخضوع أفغانستان سياسياً وعسكرياً تحت السيطرة البريطانية. وكانت تدرك مسبقاً رفض الأمير الأفغاني لمثل هذه الشروط، فقد كانت تعتقد بأن اتصالاتها مع روسيا كانت كفيلة بإزالة ما يقلقها في وسط آسيا الإسلامية

وحينما تولى المستر ليتون منصبة كحاكم عام للهند، كان يتوقع أن يقوم الأمير الأفغاني بتقديم فروض الطاعة له حتى ولو كان ذلك على حساب استقلال بلاده ومشاعر شعبه الروحية. وكان ما يهم المستر ليتون بالدرجة الأولى أن يحقق لبلاده مكسباً سياسياً يعيد لبلاده مكانتها في المنطقة فلم يلتفت لمطالب الأمير الأفغاني، وكان ما يهمه بالدرجة الأولى التواجد السياسي والعسكري البريطاني في أفغانستان، رغم أنه كان يدرك رفض الأمير المسبق لهذه الشروط. لا يعني هذا أن الأمير كان لا يريد التعاون مع بريطانيا، فقد كان يفضل تعاونه معها على التعاون مع روسيا، ولكنه يرفض تواجد الضباط البريطانيين والجنود على أرضه لأن تواجدهم في نظره يعني إهانة دينية لشعبه، ولا يستطيع أن يضمن سلامتهم بين الأفغان الذين يكرهون تواجد أي أوروبي على أرضهم. وأعرب عن استعداده لقبول مندوبين بريطانيين مسلمين. ولكن نائب الملكة أصر على موقفه واتهم الأمير بمعاداة السياسة البريطانية في المنطقة، ومن ثم يجب اجباره على الخضوع للشروط البريطانية.

كانت حكومة لندن تشارك رجلها في أهدافه، ولكنها اتهمته بالتسرع وقصر النظر خاصة وأنه لم يلتفت إلى السياسة الخارجية البريطانية في المجال الدولي وكانت حكومة لندن تفضل الوصول إلى اتفاق مع أفغانستان بالطرق السياسية عن تبني اجراءات عسكرية ضدها، خاصة وأن أميرها لم يصل بعد إلى مرحلة التهديد المباشر للهند، وفي حالة وصوله إلى هذه المرحلة فإن الحكومة البريطانية ستتحرك سريعاً مهما كانت الظروف.

لم يكترث المستر ليتون كثيراً برأي لندن، فقد نشر تصوراته للموقف للرأي العام البريطاني وزعم أن هناك تواجداً روسياً في أفغانستان يهدد الوجود البريطاني في الهند، وكانت حكومة لندن توجه أنظارها نحو الأزمة التي اشتعلت في البلقان. وكانت العاصمة العثمانية على وشك السقوط من جراء هجمات القوات الروسية. ومثل هذا الموقف يتعارض مع الاستراتيجية البريطانية سواء في القارة الأوروبية أو في القارة الآسيوية فتحركت سريعاً لمواجهة الخطر الروسي ــ بعد معاهدة سان ستيفانو ــ وكانت خطتها لمواجهة تلك الأزمة خطة اللورد بيكونسفيلد والتي تقوم أساساً على هجوم بريطاني على روسيا من جبهتين: **الأولى؛** من جهة البلقان، **والثانية،** من وسط آسيا الإسلامية. وحاول السفير البريطاني في العاصمة العثمانية أن يستغل مكانة الدولة العثمانية بين المسلمين لتسخيرها لخدمة أهداف بلاده السياسية، فقد اقترح على السلطان العثماني ارسال بعثة عثمانية عن طريق الهند لاقناع الأمير الأفغاني بمعاداة الروس، وتكوين تحالف إسلامي في وسط آسيا وتجنيده للعمل ضد روسيا.

وحينما علم نائب الملكة بهذا الاقتراح رحب به وتصور بأن السلطان العثماني بما له من مكانة روحية بين المسلمين يستطيع أن يفرض على الأمير الشروط البريطانية. ولم ينتظر المستر ليتون رأى لندن التي ترددت حكومتها في قبول البعثة العثمانية، لأنها كانت تخشى أن تؤدي هذه البعثة إلى زيادة تأزم الموقف بين الدولتين، ولكنها وضعت في الحسبان أن يؤدي رفضها إلى سخط السلطان العثماني، يضاف إلى هذا اصرار ليتون على قبول البعثة. كل هذا دفع حكومة لندن إلى الموافقة على ارسال البعثة العثمانية رغماً عنها. ولكن البعثة فشلت في تحقيق الأهداف التي كان يأمل المستر ليتون في تحقيقها بل زادت من تأزم

المشكلة الأفغانية. فحينما علمت السلطات الروسية بأمر البعثة العثمانية أدركت الأهداف التي كانت ترمي من ورائها بريطانيا، من ثم دفعت ببعثة ستوليتوف إلى كابول، ولقد استقبلها الأمير رغماً عنه.

وتصور المستر ليتون بأن أفغانستان قد مالت للجانب الروسي وأن الروس كانوا من وراء البعثة العثمانية، ولذلك يجب اقصاء الأمير الأفغاني عن عرشه ووضع أمير آخر ينفذ الشروط البريطانية، فرفع استعدادات الهند العسكرية، وكان على وشك دفع قواته إلى الأراضي الأفغانية إلا أنه لم يحصل بعد على موافقة حكومة لندن التي كانت تعارض ــ ولو إلى حين ــ تبني أي اجراء عسكري ضد أفغانستان، فلجأ المستر ليتون إلى أصدقائه الذين مارسوا ضغطاً على الحكومة للموافقة على اجراءات نائب الملكة. وبالفعل وافقت حكومة لندن رغم أصوات المعارضة التي كانت تحذر من خوض حرب جديدة أو بمعنى آخر مواجهة كارثة جديدة في وسط آسيا.

كان المستر ليتون يتصور بأنه سيكون ذلك البطل الأسطوري الذي سيقهر الأفغان وسيمحي من الأذهان الآثار السيئة التي تركتها الحرب الأفغانية الأولى حتى يعود لبريطانيا مركزها اللائق في المنطقة. لم يدرك بتهوره هذا أنه لا يختلف كثيراً عن حماقة سلفه اللورد أوكلاند. فقد أعطى في الوقت نفسه المجال لروسيا كي تمارس سياسة توسعية في المنطقة الإسلامية خاصة في الأراضي التركمانية، فبعد سحب الانتصارات التي حققتها روسيا في سان ستيفانو، تحولت إلى البدء في عمليات عسكرية جديدة في الأراضي التركمانية حتى في تلك الأراضي التي تحت السيطرة الإيرانية. ولم يكن أمام بريطانيا هنا إلا العمل على تحريض إيران، فبثت فيها روح الحماسة الوطنية لمواجهة الروس. وكانت بريطانيا لا تميل إلى مواجهة الروس في إيران نظراً لمكانتهم المتفوقة عنها إلى جانب أنها كانت لا تفضلَ إثارة مشاكل تعوق تنفيذ قرارات مؤتمر برلين، ولذلك فضلت تحريض الشاه الإيراني الذي أخذته الحماسة وحاول الوقوف في وجه الروس، فكان ردهم دفع القوات الروسية إلى مناطق الحدود والتهديد باحتلال أراضي إيرانية جديدة، فتراجع عن معارضته وقبع من جديد تحت النفوذ الروسي وكان هذا اقراراً منه بعجزه على مواجهة الروس.

قررت بريطانيا أن تخوض المنافسة مع روسيا في إيران، فبدأت عن طريق المشروعات الاقتصادية التي تقدمت بها، مثل فتح نهر قارون للملاحة ومشاريع السكك الحديدية والدخان، ولكن روسيا وقفت لها بالمرصاد وأجبرت الشاه الإيراني على سحب جميع الامتيازات التي منحها للبريطانيين، وحينما تردد الشاه في قبول الطلب الروسي، انتشر الروس يساعدون في دعم الانتفاضة الشعبية، بل ويحركون الشعب الإيراني في بعض المناطق على الانضمام مع اخوانهم في الثورة على الاحتكارات البريطانية في الأراضي الإيرانية.

وحينما أدركت بريطانيا عجزها على مواجهة الروس، تراجعت إلى قواعدها في الخليج العربي وأخذت تراقب من بعد الأحداث التي كانت تدور في الأراضي الإيرانية خاصة تلك التي تحدث في الجنوب، وفي تلك الأثناء امتدت الأطماع الروسية إلى خانة مرو التركمانية وحاولت بريطانيا تحريض إيران من جديد لمواجهة الروس. وكان ما يهم بريطانيا ألا تقع مرو التي لا تبعد كثيراً عن حيرات المنفذ الشمالي للهند في أيدي الروس. ولم يلتفت الشاه الإيراني للمحاولة البريطانية لأن سيطرته على مرو وضبط سكانها ليس بالأمر السهل عليه، بل سيجلب له العديد من المشكلات.

وحينما فشلت بريطانيا في إيجاد حل مناسب في مرو، حاولت أن تستغلها لتدعيم أطماعها الاستعمارية في مصر ــ فكانت تعتقد بأنه إذا ما تخلت عن معارضة روسيا في مرو فإن روسيا ستقف موقفاً ودياً من بريطانيا في مصر، ولذلك حاول رئيس الحكومة البريطانية أن يسكت الأصوات التي ارتفعت في مجلس العموم والتي كانت تطالب بتبني اجراءات فعالة لمنع سقوط مرو في أيدي الروس. ولكن روسيا لم تلتفت لوجهة النظر البريطانية هذه إذ استمرت في معارضة سياسة بريطانيا في مصر، وكانت الصحف الروسية تبرز أحداث مصر والسودان في عرض صفحاتها، بل اتخذت الحكومة الروسية من تلك الاحداث دليلا لاقناع سكان آسيا الإسلامية بنوايا الإنجليز الاستعمارية وبالتالي تحذيرهم من الوقوع في الشباك البريطانية .

بعد سيطرة روسيا على مرو بدأت الدوائر البريطانية تخشى من أن يواصل

الروس سياستهم التوسعية نحو الأراضي الأفغانية خاصة وأن العسكرية الروسية كانت تأمل من وراء القلاقل الداخلية الأفغانية أن تمد نفوذها وتسيطر على بعض المقاطعات الأفغانية. وكان الأمير الأفغاني ـ عبد الرحمن خان ـ رغم أن كان لاجئاً في الأراضي الروسية قبل توليه السلطة وكانت تربطه علاقات ودية بحاكم التركستان، إلا أنه كان يفضل التعاون مع بريطانيا. ووجد في التحركات الروسية على حدوده سبيلا لسيطرة روسيا على بعض أراضيه سواء أكان ذلك بالطرق المباشرة أو غير المباشرة، فرفع مخاوفه هذه إلى سلطات الهند التي وجدت في تحديد الحدود الأفغانية الروسية لتلك المخاوف. فإتصلت بريطانيا بروسيا على أمل الوصول إلى تحديد واضح للحدود الأفغانية الروسية. وكان ما يهم بريطانيا في ذلك الوقت المحافظة على استقلال وسلامة الأراضي الأفغانية باعتبارها المنطقة الحاجزة لوجودها في الهند، فعارضت محاولات روسيا للسيطرة على الممرات والمناطق الاستراتيجية التي تهدد الأراضي الأفغانية. فحاولت روسيا عن طريق المظاهرة العسكرية أن تحرز بعض المكاسب على الحدود خاصة في بانجه. وقد وجدت بريطانيا في هذه المظاهرة تهديد اللأراضي الأفغانية ـ الدولة الحاجزة للأراضي الهندية ـ ولذلك تبنت من جديد خطة اللورد بيكونسفيلد للهجوم على روسيا من وسط آسيا والبلقان. وبالرغم من تخطي الأزمة بسلام إلا أن بريطانيا شعرت بمدى خطورة المشكلة الأفغانية واحتمالات تصاعدها في المستقبل الأمر الذي دفعها إلى مواصلة الجهود حتى توجّت أخيراً بالاتفاق النهائي في سنت بطرسبورج. وتصورت بعض الدوائر البريطانية أن بريطانيا قد نجحت عن طريق الاتفاق السابق في وضع حد للقلق الذي كانت تعانيه من جراء المشكلة الأفغانية، فقد استطاعت أن تغرس حدود سياسية واضحة المعالم بينها وبين روسيا عن طريق الحدود الأفغانية. على أن الشعور بالهدوء والراحة هذا لم يدم طويلا فقد ظلت منطقة البامير غير محددة النفوذ، هذه المنطقة التي تتمتع بمزايا استراتيجية هامة، بل إنها تعتبر قاتلة إذا نجحت روسيا في خلق تواجد سياسي وعسكري في المنطقة ذلك أن روسيا عن طريق تواجدها في البامير ـ تستطيع أن تتحكم في الممرات الهامة التي تخترق مرتفعات هندوكوش، وبالتالي تهديد بريطانيا في شبه القارة الهندية من جهة والأراضي الأفغانية من جهة أخرى.

وبعد دراسة الموقف بكل أبعاده، وجدت بريطانيا أن مشكلة البامير لو اقتصرت على الدولتين فمن الطبيعي أن تتقاسما المنطقة بمراكزها الهامة فحاولت ادخال شركاء جدد، يميلون إليها، فحرضت الصين وأفغانستان على خلق نفوذ لهما في البامير. وفي الحقيقة لم يتعد هذا العمل مظاهرة سياسية أرادت بريطانيا القيام بها في وجه روسيا حتى تحقق لنفسها أكبر قدر من النفوذ والسيادة في المنطقة. وحينما أقرت روسيا بمطالب بريطانيا في البامير، لم تلتفت الحكومة البريطانية لمصالح كل من الصين وأفغانستان بل إنها طلبت من الصين أن تقبل بالشروط الروسية، كذلك كان الحال مع أفغانستان (مع الفارق النسبي) فلم تبعد بريطانيا الشخصية الأفغانية عن المنطقة كوسيلة لها لمواجهة المطالب الروسية المتشددة. ونجحت في خلق فاصل بينها وبين نفوذ روسيا في البامير.

وكانت التسوية في البامير على حساب مصالح أفغانستان، ولذلك حاولت بريطانيا شراء موافقة الأمير عن طريق الأموال ومنحه بعض الأراضي على حدودها معه. واعتقدت بريطانيا أنها بعد ذلك تستطيع أن تنعم بالهدوء والراحة بعد الجدل الذي طال مع روسيا.

أخذت روسيا في تدعيم وجودها السياسي والعسكري في منطقة وسط آسيا الإسلامية ولكن امتدادها الشاسع كان يحول دون تحقيق هذا الهدف، ولذلك فكرت في بناء السكك الحديدية لربط مقاطعاتها بعضها ببعض، واعتقدت بريطانيا أن مشاريع السكك الحديدية الروسية إنما هي في الحقيقة خطة عسكرية للانقضاض في المستقبل على الوجود البريطاني في الهند، ذلك أن روسيا حسب التصورات البريطانية تستطيع أن تجند امكانياتها في مقاطعات بعيدة للعمل ضد بريطانيا. وهذا مما دفع بريطانيا إلى مواجهة المشاريع الروسية الحديدية في وسط آسيا، واعتقدت أنها بما لديها من سطوة في الاسواق المالية تستطيع أن تمنع البيوت المالية من تقديم العون المادي للمشاريع الروسية، ولكن تعاون فرنسا مع روسيا قد خيب الآمال البريطانية، وانتشرت السكك الحديدية في بعض المقاطعات الإسلامية في وسط آسيا، وأخذت بريطانيا تنظر بإرتياب لتلك المشاريع وتصورت أن روسيا على وشك القيام بغزو أفغانستان، ولذلك لجأت من جديد إلى الطريق الدبلوماسي لفض مشاكل الري التي نشأت على الحدود الأفغانية الروسية، بل إن

بريطانيا تدخلت ايجابياً لصالح روسيا بهدف الوصول إلى تسوية شاملة لمشاكل المياه حتى تحول دون ظهور أزمة جديدة معها في هذه الجهة خاصة وأن بريطانيا كانت تواجه مشكلات عديدة في أوروبا وأفريقيا والشرق الأقصى.

فقد انقضت الدول الأوروبية واليابان على الصين تقتطع من أراضيها ما يناسب واستراتيجية كل واحدة منها. وقد وضح لبريطانيا عدم جدوى سياسة العزلة التي تتبناها لأن تلك الدول ستقرر أمور الشرق الأقصى وفقاً لمصالحها دون اعتبار لمصالح بريطانيا. ولذلك حاولت الخروج من عزلتها وكانت تميل لألمانيا لأسباب اجتماعية وسياسية. ولكن ألمانيا كانت لا تفضل أن تربط نفسها بوفاق مع بريطانيا إذ كانت تريد أن تختار حليفها في الوقت الذي تشعر فيه بحاجتها إليه.

اتجهت بريطانيا إلى اليابان وعقدت معها وفاقاً (١٩٠٢) اعتبرته روسيا خطراً موجهاً لمصالحها في الشرق الأقصى وفشلت محاولات الوصول إلى تفاهم بينها وبين اليابان. وتبنت بريطانيا موقفاً سلبياً في الفترة التي سبقت اندلاع الحرب، فلم تكترث بنداءات السياسيين الروس الذين طالبوا أن تستخدم بريطانيا نفوذها لدى اليابان من أجل وضع حد لتدهور الموقف. وبالرغم من التأكيدات البريطانية بعدم استغلال ظروف روسيا خلال وبعد الحرب التي خاضتها مع اليابان، إلا أن بريطانيا قامت بتأكيد نفوذها في التبت عن طريق حملة يونجشبند وحققت بريطانيا من خلال هذه الحملة امتيازات سياسية واقتصادية أصبحت في مركز أفضل من مركز روسيا في المنطقة كما أنها أرسلت بعثة لويس داني والتي وضعت أفغانستان، بمقتضى معاهدة كابول تحت الهيمنة البريطانية السياسية والحربية. وبررت بريطانيا عملها هذا بنواياها الحسنة والأهداف الاقتصادية.

وحينما وجدت في النشاط الروسي في الأراضي الإيرانية وما أشيع عن محاولة الروس للتوغل في الجنوب حتى شواطىء الخليج العربي، فإن بريطانيا لجأت إلى التهديد وإلى زيادة نفوذها في المقاطعات الجنوبية الإيرانية وطالبت بضرورة وجود اقليم سستان الهام ضمن منطقة النفوذ البريطانية كما تحركت لمواجهة النشاط الألماني في المنطقة عن طريق اتصالاتها مع امارات الخليج العربي وخلال

اتصالاتها مع روسيا، أصرت على مكانتها الممتازة في أفغانستان والتبت، وبذلك فقد كان وفاق عام ١٩٠٧ مع روسيا حداً للخلافات الروسية البريطانية.

ولقد عاشت المنطقة فترة من الاستقرار النسبي في ظل التسويات الروسية البريطانية حتى انفجار الحرب العالمية الأولى.

مَصَادر البَحْث



١ ــ وثائق غير منشورة:

P.R.O. F.O./539:

9/1868-1872
11/1873
12/1873
14/1876-1877
15/1877-1878
16/1878-1879
17/1879
18/1880-1881
19/1881
20/1881
21/1881
22/1882
23/1884
24/1884
25/1885
26/1885
27/1885
28/1885
29/1886
30/1886
31/1886
33/1886
35/1886
37/1888
39/1886-1888
40/1888
41/1888
42/1888-9
48/1890
49/1890
51/1890-91
53/1891
54/1891
56/1891
59/1891

60/1891-2
61/1891
62/1891-2
63/1891-3
64/1893
66/1892-4
69/1892
70/1895
71/1893
74/1889
78/1898
80/1898
86/1903
88/1904
90/1904-7
92/1906-7
93/1908

وتتعلق هذه الوثائق بالاحداث التي طرأت على وسط آسيا فيما يتعلق بالانتشار الروسي فيها، وتتضمن تقارير من مندوبي وسفراء بريطانيا من مختلف المناطق الآسيوية والعواصم الكبرى وترجمة بعض مقالات الصحف الروسية التي تتناول أحداث وسط آسيا أو موقف روسيا من تلك الأحداث. وتضم الوثائق أيضاً مذكرات بعض المسئولين عن تحديد سياسة بريطانيا في المنطقة وبعض الصفحات الهامة من الكتب المنشورة التي تتناول مجرى الأحداث في وسط آسيا إلى جانب عشرات المذكرات والتقارير المتبادلة بين الطرفين الروسي والبريطاني.

وتحتوي هذه الوثائق أيضاً على بعض الخرائط الهامة مثل خرائط الحدود الروسية الأفغانية والحدود الروسية الإيرانية والبامير. يضاف إلى ذلك محاضر جلسات أعضاء الجانب الروسي والبريطاني خلال اجتماعاتهم بشأن تحديد الحدود بين أفغانستان وروسيا.

ولم تقتصر هذه الوثائق على دراسة فترة البحث بل تتطرق إلى الصين وشبه القارة الهندية واصداء الاحداث التي كانت تجري في المنطقة العربية مثل مصر والسودان والكويت ومسقط والعراق. كما تتضمن بعض التقارير عن تجارة السلاح وجنسية السفن التي تحملها وجهتها وكميتها.

٢ ـ وثائق منشورة:

— Aitchinson: A collection of Treaties, Engagements, Sanads Relating to India & Neighbouring countries. Calcutta. 1892.

وهي مجموعة من الاتفاقات والمعاهدات التي عقدتها بريطانيا مع الدول فيما يتعلق بالهند. وهي محفوظة بدار الكتب المصرية.

— British and Foreign States Papers.

وتحتوي على المعاهدات والاتفاقات التي عقدتها بريطانيا مع الدول الأخرى ابتداء من عام ١٨١٢ وحتى فترة قريبة. وقد طبعت منذ ١٨٤١ وموجودة في سلسلة أجزاء في الجامعة الأمريكية ببيروت.

— Correspondence Respecting the Relations Between British Government Since the Asscession of Shere Ali Khan.

وهي عبارة عن المراسلات التي تمت بين الحكومة البريطانية في الهند وأفغانستان في فترة حكم شيرعلي خان. وموجودة في دار الكتب المصرية.

— Gooch & Temperley; The British Documents on the Origins of the War 1898-1914. London. His Majesty stationery office. 1924.

وتضم جميع المراسلات التي تمت بين بريطانيا والدول الأخرى في الفترة ما بين ١٨٩٨-١٩١٤ وتتطرق هذه المراسلات إلى العلاقة الألمانية البريطانية والتعاون البريطاني الياباني والاتفاق الودي بين فرنسا وبريطانيا وأزمة المغرب ثم اتفاق ١٩٠٧، وتتعرض إلى جميع الظروف الدولية التي حدثت قبيل الحرب العالمية الأولى ومجموعة الوثائق هذه موجودة في مكتبة جامعة عين شمس.

— Hansard's Parliamentary Debates.

وهي سجل لمناقشات مجلس العموم البريطاني وموجودة بجامعة القاهرة.

— Hurewitz, J.C.: Diplomacy in the Near and Middle East. A Documentary Record. 1535-1914. U.S.A.: D. Van Nostrand Comany, I.B.C. 1956.

وهو عبارة عن سجل للمعاهدات التي وقعت في الفترة الواقعة ما بين ١٥٣٥-١٩١٤ في الشرقين الأدنى والأوسط، والظروف التي أدت إلى عقد كل واحد منها.

٣ ــ كتب ومؤلفات:

— Albrecht, René: A diplomatic History of Europe Since Congress of Vienna. London. 1958.

ويتناول فيه المؤلف العلاقات بين الدول الأوروبية والحروب التي حدثت على مسرح القارة الأوروبية منذ مؤتمر فينا.

— Avery, Peter: Modern Iran. London Earnest Bean. Limited, 1965.

و يتطرق إلى تاريخ إيران الحديث مشيراً إلى العلاقة الروسية البريطانية بشأن إيران.

— Becker, Seymour: Ryssia's Protectorates in central Asia, Bukhara & Khiva. 1856-1924.

و يتناول هذا الكتاب أحوال وسط آسيا قبل الغزو الروسي لها، وصف سريع لكل من خيوة و بخاري ووسط آسيا عموماً حتى عام ١٨٥٣، الاستعداد الروسي للغزو ١٨٥٣-١٨٦٤ السيطرة الروسية على بخارى، مشكلة طشقند، التوسع الروسي في خيوة والعلاقات الروسية البخارية ما بين ١٨٧٣-١٨٧٥. خط حديد وسط آسيا. بخاري بين الثورة البلشفية والاستقلال ــ الحرب العالمية الأولى.

— Boulger, Demtrius Charles: England & Russia in Central Asia. London. W.H. Allen & Co., 1879. 2 Vols.

و يتطرق إلى دراسة أحوال وسط آسيا قبيل الغزو الروسي لها، والسياسة التي اتبعتها روسيا للسيطرة على المنطقة، وعلاقات روسيا بخيوة و بخارى والتي انتهت بسيطرة روسيا على هاتين المنطقتين، كما تعرض المؤلف إلى الحديث عن القبائل التركمانية ومراحل الغزو الروسي لها وفي الجزء الثاني تناول أوضاع أفغانستان وعلاقة بريطانيا بها ومحاولات الغزو الروسي للهند.

— Browne Edward: The Persian Revolution.

و يتعرض المؤلف إلى الثورة التي حدثت في إيران ومقدماتها.

— Churhill, Rogers Platt: The Anglo-Russian Convention of 1907. U.S.A.: The Torch Press. 1939.

— Curzon, George: Russia in Central Asia in 1889 and The Anglo-Russian question. London First Edition 1889. Reprinted in 1967.

ويعرض المؤلف في هذا الكتاب مشاريع السكك الحديدية الروسية إلى مقاطعة أمبريس ورحلة المؤلف إلى سنت بطرسبورج ومشاهداته خلالها، والخط الحديدي من بحر قزوين إلى مرو وجيحون وسمرقند وطشقند والمشكلة الروسية البريطانية.

— Curtis, William: Turkestan "The heart of Asia". London. Hidder Stoughten.

ويحتوي هذا الكتاب عن معالم وسط آسيا الجغرافية. وسكان التركستان والتوسع الروسي فيها، ووصف مقاطعة فيرغانة الروسية.

— Derry, T.D.K.: The European World 1870-1945. Bell- 1950.

ويتناول المؤلف ظروف القارة الأوروبية والمحالفات السياسية والعسكرية والظروف التي مهدت للحرب العالمية الأولى والثانية.

— Dodwell. H.: The Cambridge History of India. India. 1958. vol. 4.

ويتعرض هذا المرجع إلى دراسة الهند في الفترة الواقعة ما بين ١٨٦٨-١٩١٨ ومن ضمن دراسته هذه وسط آسيا والاحداث التي جرت فيها.

— Edwards, E.W.: Journal of Modern History. Vol. 26. December. 1954.

ويتطرق في مقاله عن الوفاق الياباني والفرنسي والوفاق الروسي الياباني.

— Fay, Sidney: The Origins of the World War. New York. The Macmillan Company. 2nd. Edition 1932.

ويتناول المؤلف الظروف الأوروبية التي أحدثت الحرب العالمية الأولى

سواء تلك التي حدثت في داخل القارة أو في الشرق الأقصى أو آسيا أو أفريقيا.

— Gifford, Prosser & Roger, Louis: France & Britain in Africa. Yale University Press, 1971.

وهي عبارة عن سلسلة من المقالات التي تتعلق بالتنافس الاستعماري بين الدولتين في القارة وقام باعدادها مجموعة من المتخصصين (٢٢ مقالة).

— Gooch, G.P.: History of Modern Europe, 1878-1919. London. Cassell & Company LTD. 1923. Reprinted 1924.

و يعرض المؤلف الاحداث التي مرت بها القارة الأوروبية ابتداء من ١٨٧٨ حتى ١٩١٩ مثل التحالفات والصراع الاستعماري في الشرق الأقصى والبلقان وأفريقيا والاحداث التي مهدت للحرب العالمية الأولى.

— Greaves, Rose: Persia & The Defece of India, 1884-1892. Univ. of London. The Athlone Press 1959.

عبارة عن رسالة دكتوراه تقدمت بها الباحثة، وقد تناولت فيها دراسة المصالح والاعتبارات العسكرية في إيران، سياسة المستر سالزبري نحو إيران، سيطرة روسيا على بانجه والازمة الروسية البريطانية ١٨٥٥. بعثة المستر ولف إلى إيران.

— Harcave, Sidney: Russia "A history". U.S.A.; T.T. Company. 3rd. Edition. Oct. 1955. First Edition 1952, 2nd. Edit. 1954.

و يتناول المؤلف دراسة تاريخ روسيا القديم وتطلعات روسيا منذ التاريخ الحديث إلى الشرق منذ عهد بطرس الأكبر وتوسعها في مقاطعة جورجيا الإيرانية. وأطماعها نحو وسط آسيا.

— Issawi, Charles: The Economical Development in Iran. 1850-1914. The Univ. of Chicago Press, 1971.

و يتطرق الباحث في هذا الكتاب إلى دراسة التطور الاقتصادي في إيران في مجال الزراعة والصناعة والتجارة والمشروعات الاقتصادية الروسية والبريطانية في الأراضي الإيرانية مثل: الملاحة في نهر قارون والسكك الحديدية وامتياز الدخان.

— Lansdell, Henry: Russian Central Asia. 2 Vols. London. Hunzell-Watson & Viney LTD.

ويتحدث المؤلف في كتابه هذا عن المقاطعات الموجودة في وسط آسيا وتكوينها الجغرافي والسكاني وعاداتهم، ثم سرد زيارته للمنطقة والصعوبات التي واجهها أثناء تلك الزيارة ومقابلاته مع أمراء تلك المناطق والمسئولين الروس.

— Lenczowski, George: Russia & The West in Iran, 1918-1948. A Study in Big Power Rivalry. Cornell Univ. Press. New York. 1949.

ويتناول فيه الصراع الأوروبي في إيران منذ الحملة الفرنسية ثم الصراع الروسي البريطاني في وسط آسيا والقوقاز والنشاط الألماني قبل الحرب العالمية الأولى في إيران وبعدها، ثم سياسة روسيا خلال الحرب العالمية الثانية نحو إيران.

— Marriott, J.: Anglo — Russian Relations. 1689-1943.

ويتناول الكتاب عدة نقاط أهمها: الحملات الروسية منذ (١٧٥١، لاستكشاف وسط آسيا، الاحوال السياسية والاقتصادية بين بحر قزوين والبحر الأسود. وفتح الاتصالات التجارية مع إيران. صعود الأفغان العرش الإيراني وتقدم بطرس الأكبر في أراضي القزوين، التوسع الروسي في القوقاز، الحرب مع خوقند، سياسة لورانس، وزارة المستر دزرائيلي.

— Marvin, Charles: Russia at The Gates of Heaat. New York. Charles Scrbners Sons. 1885.

ويتناول الكتاب موضوع التقدم الروسي إلى كراسنوفودسك، غزوات التركمان، حصار الجنرال سكوبيليف للتل الأزرق وسياسة كوفمان في وسط آسيا.

— Marvin, Charles: The Region of the Exernal fire. A Journey to the Petrolum region of the Caspain. London. W.H. Allen. 1891.

ويتناول الكتاب وصفاً لرحلة المؤلف من البحر الأسود حتى بحر قزوين ثم البعثة السرية إلى كابول. الوجود الروسي في باطوم ــ وصف للمقاطعات الروسية البترولية ــ تفليس كمركز سياسي وحربي، تجول المؤلف من تفليس إلى باكو. البترول في باكو ومقاطعة قزوين ــ روسيا الجديدة وتطور باكو من ١٨٨٤ حتى ١٨٨٧.

— M ccarthy, Mary: Anglo-Russian Rivalry in Persia. Univ. of Buffalo Studies. Vol. VI. No. 2.

وتتناول دراسة التنافس الروسي البريطاني في إيران منذ أواخر القرن التاسع عشر وأوائل القرن الحالي.

— Monger, G.W.: End of Isolation, British Foreign Policy. London. 1963.

و يتناول فيه دراسة السياسة البريطانية منذ بداية القرن الحالي وتعقيدات الجو الدولي الذي سبق الحرب العالمية الأولى.

— Mowat R.B.: The History of Great Britain, London. Oxford University Press. 1920.

و يتطرق الكاتب في هذا الكتاب إلى تاريخ بريطانيا العظمى وسياستها في القارة الأوروبية والعالم.

— Popowski, Joseph: The Rival Powers in Central Asia, Or the Struggle Between England & Russia in Central Asia. Translated from the German by Aruther Baring Braband & Edited by Charles E.D. Blank in Charge of the Geographical Business of India office. 1893.

و يتناول فيه الكاتب التقدم الروسي في الشرق (وسط آسيا)، والأطماع الروسية نحو الهند، موقف بريطانيا من الأطماع الروسية — استراتيجية الدولتين.

— Pywkin, Michael: Russia in Central Asia. U.S.A.

و يتطرق الكتاب إلى دراسة سياسة روسيا في وسط آسيا، وتشكيل القواعد الروسية في أمسك وأورنبرج وكراسنوفودسك. وتطلعات روسيا نحو بخارى وخيوه والمنطقة التركمانية.

— Rastogi, Ram Sagar: Indo — Afghan Relations. 1888-1900. India. Lucknow Press, 1965.

وهو عبارة عن بحث لنيل درجة الدكتوراه في تاريخ الهند الحديث، وقد بدأ الباحث بدراسة شخصية الأمير عبد الرحمن خان، ثم الحدود الأفغانية الروسية والنزاع على قنوات خوشق وجيحون وحدود دوراند.

— Richardson, H.E.: Tibet & Its History. London. Oxford Univ. Press. 1969.

ويتكون من ١٥ فصلاً تتناول دراسة التبت منذ العصور الوسطى ثم الاحتكاك الأوروبي بها واستقلال التبت ـــ اتفاقية سيملا ١٩١٤ ـــ التقارب مع بريطانيا عام ١٩٢٠-١٩٢٣، الحياد، الغزو الشيوعي عام ١٩٥٠ قضية التبت أمام الأمم المتحدة ـــ النزاع بين الهند والصين على حدود التبت.

— Ronaldshay, Earl: The Life of Lord Curzon, London, 1928.

يتناول فيه دراسة اللورد كيرزون والمؤثرات على شخصيته حتى بعد توليه منصب وزير الخارجية.

— Rostovsky, A. Lobonov: Russia & Asia. U.S.A.; The George Wahr Publishing Company. Mich. 1951. First Edit. 1933.

ويتناول فيه علاقة روسيا بالدول الآسيوية منذ عهد بطرس الأكبر ثم شئون الشرق الأقصى والحرب الروسية اليابانية ـــ الثورة البلشفية، الحرب الأهلية والسياسية السوفيتية في آسيا.

— Singhal, O.P.: India & Afghanistan 1876-1907. A Study of Diplomatic Relations. Australia Univ. of Queensland Press. 1963.

ويتناول هذا البحث عدة نقاط هي: عرض تاريخي لأفغانستان قبل فترة البحث. البحث عن سياسة جديدة مع أفغانستان. الحرب الأفغانية الثانية. مذبحة كابول. المفاوضات مع عبد الرحمن خان. الانسحاب البريطاني من كابول. الرجوع مرة ثانية إلى السياسة النشطة.

— Stephenson, Graham: A History of Russia 1812-1945.

ويتناول فيه دراسة أوضاع روسيا منذ الغزو الفرنسي لها. ويتطرق الفصل الثالث إلى الأوضاع الاجتماعية في روسيا ومحاولة الإصلاح عام ١٩٠٥ ثم ثورة ١٩١٧. روسيا وتركيا وأوروبا ـــ روسيا في آسيا ـــ الثورة البلشفية ـــ روسيا تحت سيطرة ستالين. سياسة روسيا الخارجية ١٩٢٩-١٩٤١. وأخيراً روسيا والحرب العالمية الثانية.

— Sykes, Percy: A History of Afghanistan. London. Macmillan Co. Ltd. 1940. 2 Vols.

و يتناول المؤلف دراسة تاريخ أفغانستان حتى التاريخ الحديث وتكوين دولة أحمد شاه. الصراع على العرش ــ الحرب الأفغانية الأولى ــ دست محمد ــ التقدم الروسي في أواسط آسيا. الحملة الروسية ضد خيوه وخوقند. ضم خيوه. الحرب الروسية ضد التركمان ــ شير علي خان والحرب الأفغانية الأولى ــ عبد الرحمن خان ــ الحدود الروسية الأفغانية.

— H insely, F.H.: The New Cambridge Modern History.

سلسلة تتكون من ١١ جزء تتناول دراسة التاريخ الحديث في أوروبا وآسيا وأفريقيا والعلاقات الدولية.

— Tytler, Sir K. Fraser: Afghanistan. A Study of Political Development in Central Asia, London. Oxford Univ. Press, 1953, 2nd. Edit.

و يتعرض الكتاب لوصف أفغانستان من الناحية الجغرافية ــ انتشار الإسلام فيها. مملكة أفغانستان منذ تكوينها حتى ١٩٥٢ ــ و يتطرق الكتاب أيضاً إلى سياسة بريطانيا في المنطقة.

— Ward, Sir. A.W. & Gooch, G.P.; The Cambrdige History of British Foreign Policy 1783-1919. Cambridge Univ. Press, 1923, Vol. 3.

و يبدأ هذا الجزء بالحروب الألمانية النمساوية والألمانية الفرنسية ومؤتمر لندن عام ١٨٧١. وسياسة المستر دزرائيلي ــ الاحتلال البريطاني لمصر ــ الفترة الثانية والثالثة لحكم المستر سالزبري. الموقف الدولي.

— Walker, Philip: Afghanistan. It's History & Our Dealings with it. London. Griffith Farran, Okedea. 2 Vols.

و يتناول الجزء الأول التاريخ الأفغاني منذ القدم. أما الجزء الثاني فيتناول الأحداث التي جرت ما بين ١٨٨٠-١٨٨٤. التقدم الروسي. السياسة الروسية في وسط آسيا ــ موقف الأمير الأفغاني ــ الأحداث في أوروبا بعد عام ١٨٨٠ ــ موقف بريطانيا من احتمال قيام حرب في القارة الأوروبية.

— Wellesley, Colonel F.A.: With the Russians in Peace and War. London. Eveleigh Nash. 1904.

و يتحدث فيه عن وصوله للعمل في روسيا. وصف لمعالم روسيا. مؤتمر برلين ومناقشاته. مقابلته مع الامبراطور الروسي. الاسكندر الثاني.

— Woodward, E.L.: Great Britain & The German Navy. London, Oxford Univ. Press. 1964.

و يتطرق إلى المنافسة البحرية البريطانية منذ بداية القرن الحالي حتى الحرب العالمية الثانية.

مراجع باللغة العربية:

١ ــ بارتولد: تاريخ الترك في آسيا الوسطى. ترجمة أحمد السيد سليمان، مكتبة الأنجلو المصرية.

٢ ــ بانيكار: آسيا والسيطرة الغربية ترجمة: عبد العزيز جاو يد.

٤ ــ الدوريات:

١ ــ المقطم: ١٩٠٠-١٩٠٩.

٢ ــ اللواء: ١٩٠٠-١٩٠٩.

العلاقات التجارية بين إيران وروسيا وبريطانيا

السنة	صادرات إيران لبريطانيا	صادرات بريطانيا لإيران	صادرات إيران لروسيا	صادرات روسيا لإيران
١٨٩٨	١٩٣,٢٩١	٣٣٨,٠١٧	٢١,٥٥١,١٣٧	١٧,٠٣٤,٤١٣
١٨٩٩	١٤٨,٠٢٧	٣٦٨,١٦٥	٢١,٦٩٦,٣٧٤	١٧,٨٥٩,٠٠٠
١٩٠٠	١٨٠,٢٧٩	٤١٠,١٩٠	٢٠,٤١٣,٠٦١	٢٠,٦٤٨,٩٧٠
١٩٠١	٢٠٠,١٢٤	٥٨٣,٢٢٥	٢٠,٤٨١,٩٣١	٢٣,٤٨٦,٤٤٦
١٩٠٢	٢١٠,٥٨٥	٣٨٤,١٧٩	٢٣,٤٨٦,٤١٠	٢٤,٠٤٥,١٨٩
١٩٠٣	١٧٥,٦٢٥	٤٤٣,٢١٧	٢٦,٤٨٠,٤٣٥	٢٧,٣٨٦,٣٠٥
١٩٠٤	٢٧٨,٦٢٢	٤٤٥,٤٠٠	٢٣,٨٦٥,٩٠٨	٢٧,٢٨٥,٩٩٢
١٩٠٥	١٥١,٠٩٨	٤٤٨,١٧٩	٢٢,٣١١,٥٥٥	٢٦,٠٥٩,٨٠٦
١٩٠٦	٢٢٦,٦٧٣	٤٩١,٩٧٥	٢٤,٥٠٣,١٠٥	٣١,٧٥٦,٣٤٩
١٩٠٧	٣٩٠,٥٥٥	٦٩٨,٥١٥	٢٥,٣١٣,٩١٠	٢٨,٢٦٣,٦٣٥

صادرات بريطانيا لإيران بالجنيه الإسترليني لعام ١٩٠٦

أسلحة ومعدات حربية	١,٢٤٠
فحم . كوك . قوى محركة	٢,٤٠٣
منتجات قطنية	٤١٩,٠٣٥
نحاس وحديد	١,٩٤٥
أشياء أخرى خاصة منتجات صوفية	٥٣,٩٧٩
مجموع الصادرات من بريطانيا	٤٧٨,٦٠٢
مجموع الصادرات من مستعمرات بريطانيا	١٣,٣٧٣
المجموع الكلي	٤٩١,٩٧٥

صادرات إيران لبريطانيا

أفيون ومخدرات	٣٤,٧٥٠
الصمغ	٨٩,٦٠٩
صوف ومحارات وقواقع	١,٧٨٩
صوف	٥٣,١٣٩
أشياء أخرى	٤٧,٣٨٦
مجموع الصادرات من إيران	٢٢٦,٦٧٣
مجموع الصادرات للمستعمرات البريطانية	٢٥٥,٣٣٨
المجموع الكلي	٤٨٢,٠١١

صادرات روسيا لإيران بالروبل لعام ١٩٠٦

المواد المصدرة	حدود أوروبية	حدود آسيوية
مواد غذائية	١,٢١٣	١٦,٦٥٧,٥٥٠
مواد خام نصف مصنعة	١,٤٣٠	١,٦٨٠,٨١٨
مواشي	—	٣٥٧,٧٣٣
صناعات	١١٣,٣٣٤	١٢,٩٤٤,٢٧١
المجموع	١١٥,٩٧٧	٣١,٦٤٠,٣٧٢

صادرات إيران لروسيا عام ١٩٠٦

مواد غذائية	١٠,٩١٩	١٣,٠٧٤,٢٣٠
مواد خام ومواد نصف مصنعة	٦٩,٢٣٥	٩,٧٩٥,١٣٥
مواشي	—	٥٠١,٥٩٨
صناعات	١,٣١٨	١,٠٥٠,٧٧٠
المجموع	٨١,٤٧٢	٢٤,٤٢١,٦٣٣

التبادل التجاري بين روسيا وأفغانستان
(١٨٨٩-١٩١٢)

السنة	صادرات أفغانستان لروسيا	صادرات روسيا لأفغانستان
١٨٨٩	٢,٢٠٨,٩٧٤	٧٢٧,٣٦٧
١٨٩٩	١,٥٩٤,٦٠٦	٩٨١,٨٣٦
١٩٠٠	٢,٠١١,٠٧٠	٨٩٨,٦٦٤
١٩٠١	٢,٩٥١,٨٠٩	١,١٩٦,٨٢٩
١٩٠٢	٢,٣٨٤,١٢٦	١,٩٠٢,٥٦٤
١٩٠٣	٢,٩٩٣,٠٠٩	٢,٠٣١,٠٢٤
١٩٠٤	٢,٦٦٥,٤٢٢	٢,٥٩٤,٣٠٦
١٩٠٥	٢,٥٢٧,٤١١	٢,٣٢٧,٨٧٦
١٩٠٦	٢,١٨٤,٠١٣	١,٨٩٢,٨٥٣
١٩٠٧	٢,٩٤٠,٧٨٧	٢,١٩٧,٥٣٥
١٩١٢	٥,٣٨١,٣٩٨	٦,٤٦٤,٠٥٠

الخرائط

الصفحة

الفهـــرس

الصفحة

	الصفحة
الفصل الأول:	
التوسع الروسي في الإمارات الإسلامية وموقف بريطانية منه (١٨٦٠-١٨٧٣)	٣٥ -٦٤
ـ دوافع الغزو الروسي في وسط آسيا الإسلامية	٣٨ -٤٢
ـ موقف الإمارات الإسلامية من التوسع الروسي	٤٢ -٤٥
ـ التحرك الروسي في خوقند وبخارى	٤٥
ـ موقف بريطانيا من النشاط الروسي	٤٦ -٤٨
ـ روسيا وخيوه	٤٨ -٦٠
ـ موقف بريطانيا	٦٠ -٦٤
الفصل الثاني:	
موقف بريطانيا من التوسع الروسي في المنطقة التركمانية ١٨٧٩-١٨٨٣	٦٥ -٩٩
ـ أسباب التوسع الروسي في المنطقة التركمانية	٧٠ -٧١
ـ انتشار روسيا في المنطقة التركمانية	٧١ -٨٠
ـ موقف إيران	٨٠ -٨١
ـ الموقف البريطاني	٨١ -٨٤
ـ أثر معاهدة سان ستيفانو على وسط آسيا الإسلامية	٨٤ -٨٦
ـ الزحف الروسي على مرو	٨٦ -٨٩
ـ موقف بريطانيا	٨٩ -٩٣
ـ اقتراح مستر هنري رولنسون	٩٣ -٩٥
ـ أساليب روسيا لصبغ المنطقة بالصبغة الروسية	٩٥ -٩٩
الفصل الثالث:	
المشكلة الأفغانية والتورط البريطاني (١٨٧٣-١٨٨١)	١٠١-١٥٣
ـ العلاقة الأفغانية البريطانية	١٠٤-١٢٠
ـ أزمة البلقان وتأثيرها على الوضع في وسط آسيا	١٢٠-١٣٢

الصفحة

الفصل الرابع:

الفصل الخامس:

الصفحة

الفصل السادس:

الفصل السابع:

الفصل الثامن: